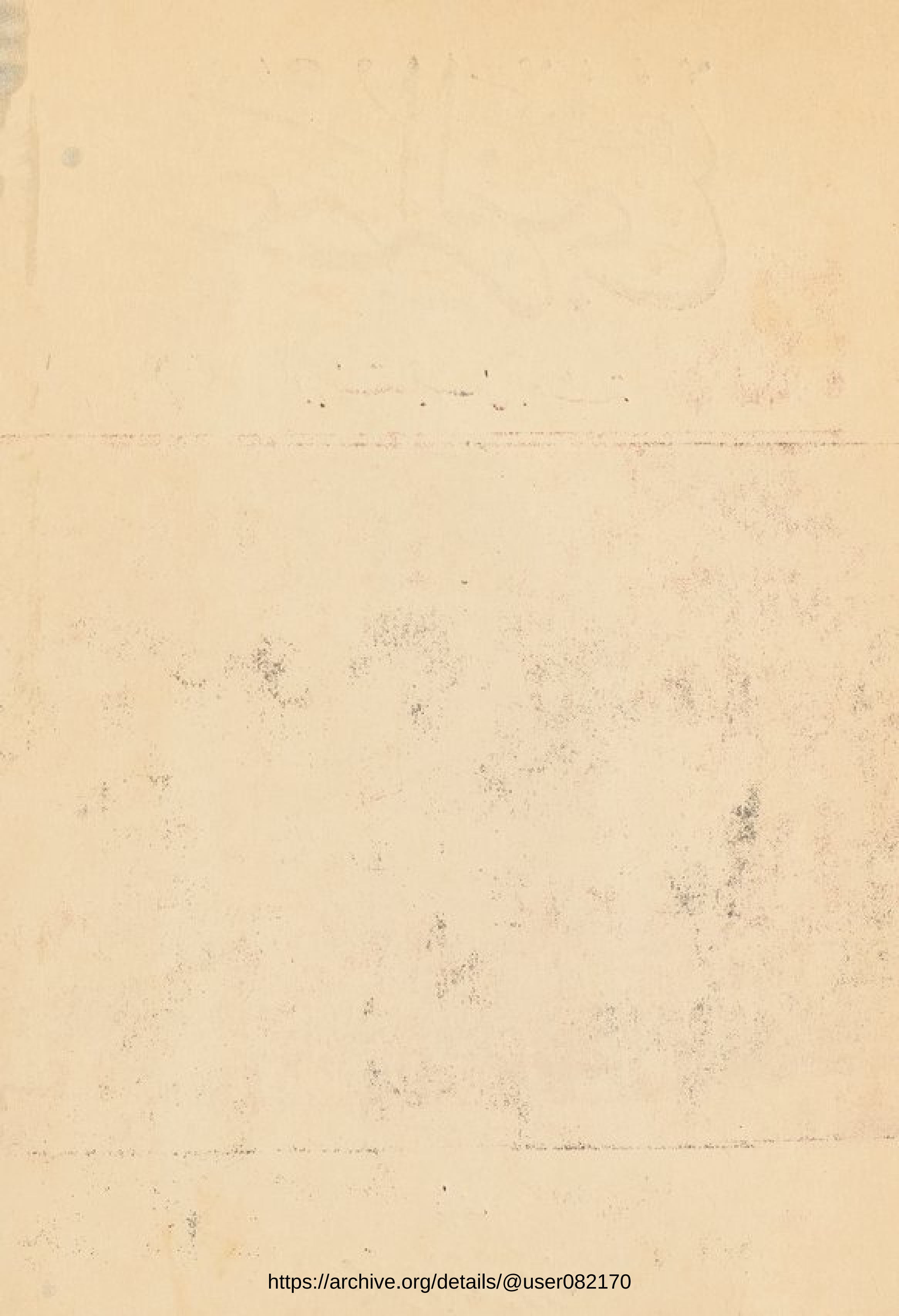
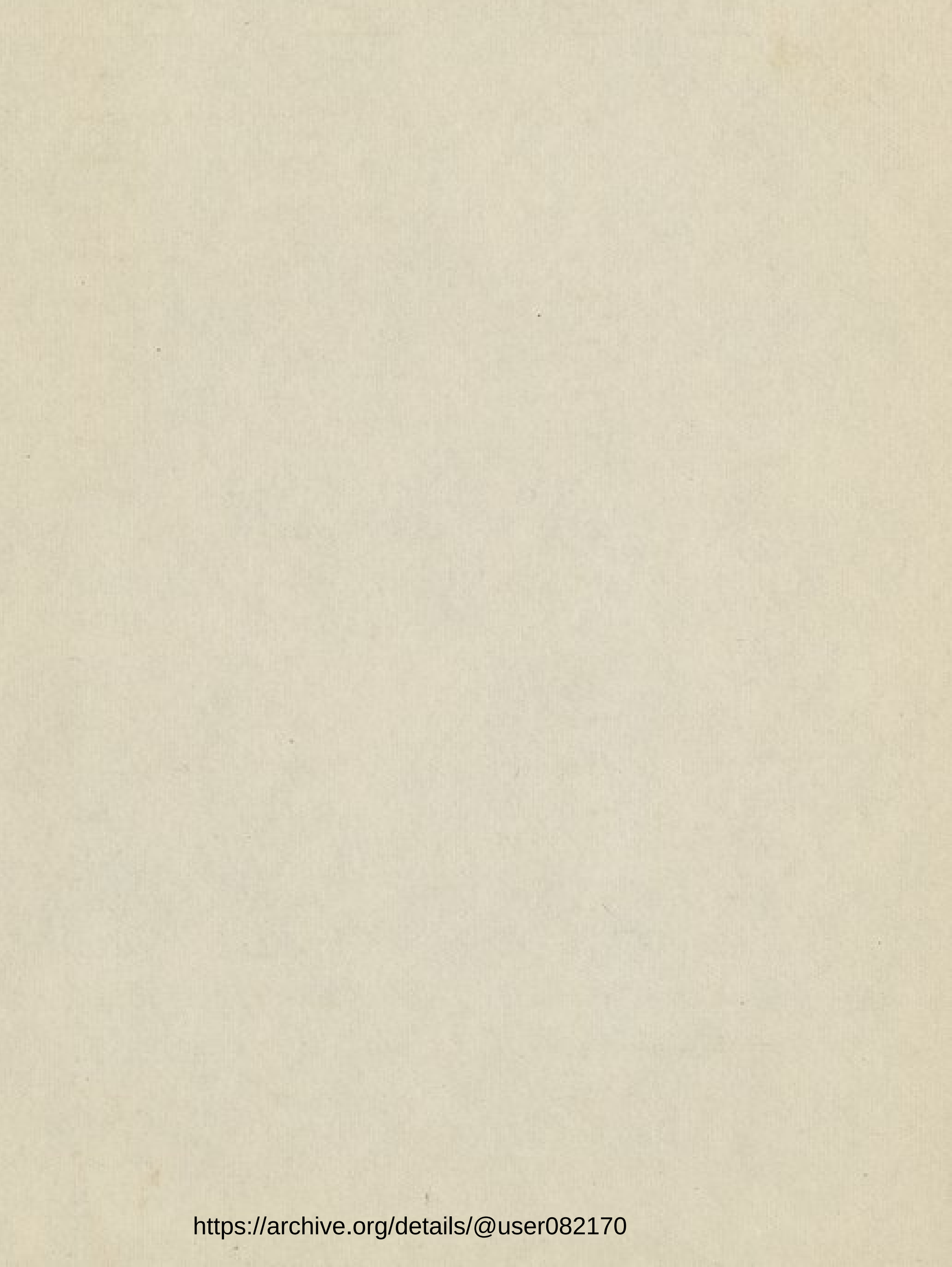


وبيئته قبل البعثة

تأليف

محمد عزة دروزه





وقعت أغلاط مطبعية لايغيب صحيحها عن القارىء اللبيب غير اننا رأينا أن نضع هذا الثبت لما وقع في الآيات منها حرصاً على كرامة القرآن ورجاء تصحيحها قبل القراءة ولو كان معظمه بسيطاً .

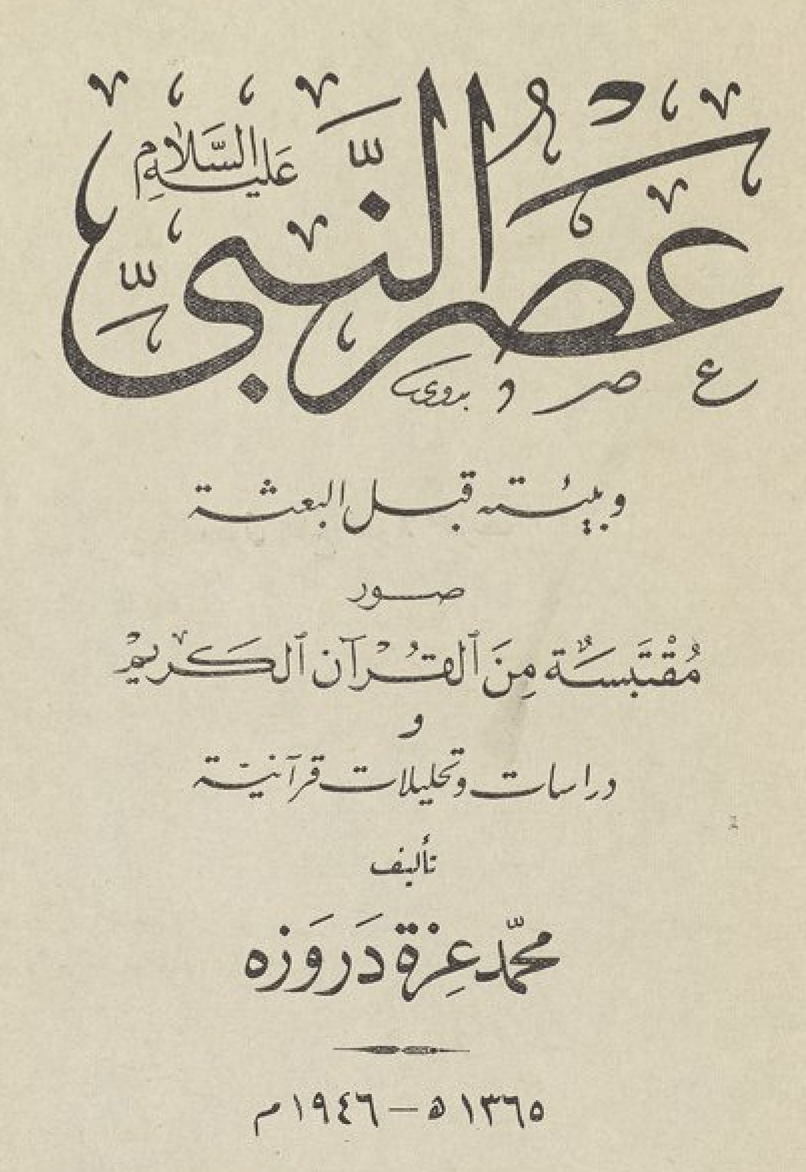
الغلط	الصواب	الصحيفة	السطر
زريتي	ذريتي	١٧	١٤
شعائرالله ولا الهدى	شعائرالله ولاالشهرالحرام ولاالهدى	٧٥	٧
تفلحلون	تفلحون	٨٤	١٣
أتوا	أوتوا	٩٨	١٢و٥
بما أوتوا	بما أتوا	١٠٨	١٧
تفيص	تفيض	١٢٣	١٧
بعدتهن	لعدتهن	١٣٣	١
تعاثرتم	تعاسرتم	١٣٣	١٢
يعذب	ليعذب	١٣٦	١
يأتيانها	يأتيانها	١٤٦	١١
يخدعون	يخدعوك	١٥٨	١٩
فادكروا	فاذكروا	١٨٣	١٥
آيات البقرة ٤٤	آيات البقرة ١٤٤	١٨٧	٨
لبثبتوك	ليثبتوك	٢١٧	٢٢
استحق	استحقا	٢٢٥	١٠
أواستهدوا يخافوا	أو يخافوا	٢٢٥	١٣
خلقيا	خلقنا	٢٣٠	٣
أنزلنا	أنزلنا	٢٤١	١١
كتابية	كتابيه	٢٤٨	٢٠
حسابية	حسابية	٢٤٨	٢٠
أماني إنهم	أماني وإنهم	٢٦٨	٣
وكل	وكلاً	٢٦٨	٢٥
آدانهم	آذانهم	٢٨٥	٧

الغلط	الصواب	الصحيفة	السطر
وإديتلي عليهم آياينا	وإذا تتلى عليهم آياتنا	٢٨٥	١٠
فاسلك	فاسلكي	٢٩١	١٧
قوم	قوم	٢٩٦	٢٢
وما ارسلناه	وما ارسلنا	٣٠٣	١١
آيابنا	آياتنا	٣٠٨	١
نتعد	نعقد	٣٠٨	٢
نارك	تارك	٣٠٨	١٤
وقلب	وقلبوا	٣١٤	١٤
سبيلة	سبيله	٣٢٩	٢٣
وبالله	وتالله	٣٤١	١٢
بأذن لله	باذن الله	٣٦٣	١٠
حامين	حافين	٣٦٥	٥
مما كانا	مما كانا فيه	٣٩٠	١٣
ادا	إذا	٣٩٧	١٦
إن أرادني بضر	إن أرادني الله بضر	٣٩٩	٦
فادكروا	فاذكروا	٤١٧	١٣
وادكر	واذكر	٤٥٩	٢٣
اد	إذ	٣٥٩	٢٣
ماله به	مالهم به	٤٦٠	١٣
واذكروا كثيراً	واذكروا الله كثيراً	٤٨١	٢٠
الموقودة	الموقوذة	٤٨٤	١٨
بآيابنا	بآياتنا	٤٨٩	٢١
يادسات	يابسات	٤٩٥	١٦

ذيل الصحيفة ٢٧٤ مبدول بذيل الصحيفة ٢٧٥ فيلاحظ. ورقم الذيل (٢)

في الصحيفة ٤٨٠ يصحح (٣) ورقم الذيل (٣) يصحح (٢)

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما
أوحينا اليك هذا القرآن»
سورة يوسف ٣



عصر النبي عليه السلام

وبيئته قبل البعثة

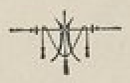
صور
مقتبسة من القرآن الكريم
و
دراسات وتحليلات قرآنية

تأليف
محمد عزة دروزه

١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

مطبعة دار اليقظة العربية بدمشق

أقسام الكتاب الرئيسية (١)



(١) ألحق بآخر الكتاب فهرس مفصل بمواد الابواب والفصول .

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتصار كتب السيرة على النبي (ص) — التعميم والتلفيق — قصد تسوئي عهد ما قبل البعثة ـ روايات الكتب العربية الاخرى — عدم غناء الكتب الحديثة — خطورة درس عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة — مافي كتب المستشرقين من مآخذ — الحافز على وضع الكتاب وظروفه — التنويه بكثرة السور القرآنية لما قبل البعثة — عدم الزعم بجدة المادة — الناشئة العربية والقرآن — الروايات في الكتاب — ابواب الكتاب ومداه ـ اعتذار عن كثرة الآيات ومبرراتها —

— ١ —

من الغريب ان الذين كتبوا السيرة النبوية قديماً لم يهتموا على الأكثر — فيما يتعلق في عصر النبي (ص) وبيئته — ألا لذكر ماله علاقة بالنبي (ص) من نسب وأسرة وقبيلة وولادة ورضاعة وكفالة واسفار وزواج قبل البعثة ، وقلما تطرقوا الى ماكان عليه ذلك العصر وتلك البيئة من حالات أجتماعية وأقتصادية وسياسية ودينية يستطيع أن يقف المرء منها على صورة وافية لتلك البيئة التي ظهر فيها السيد الرسول (ص) وتم ماتم من نجاح عظيم لدعوته وسطوع شمسها سطوعاً باهراً كان ولم يزل له الأثر الأعظم في حياة العالم من جميع نواحيها .

والنتف التي وردت في كتب السيرة القديمة عن ماكان عليه العرب قبل الأسلام من تلك الحالات انما وردت استطرادية من جهة ، وغلبت

عليهـــا مسحة التعميم والاطلاق بحيث لايتبين القارئ منها — ألاّ فيما قلّ — العصر الذي تنسب اليه بصورة أكيدة من جهة ثانية . على أنه من جهة ثالثة حتى هذه النتف الاستطرادية لايخلو اولا يخلو كثير منها من طابع الصنعة والوضع ، ولا يصعب على المدقق ان يرى فيها قصد التلفيق او التوفيق ، وتفسير الحوادث والوقائع والآيات القرآنية ، بل وان يراها متناقضة مع النصوص او الملهمات القرآنية نفسها .

وهذه سيرة ابن هشام ، وهي اقدم كتب السيرة التي حفظها لنا الدهر ، — وعليها من طابع الجدّ والأمانة والرغبة الشديدة في التحفظ والتحوط في كثير مما روت من روايات وشعر تديّنا وتأثما ، سواء في ماينسب منها الى ماقبل البعثة او بعدها ، او ماينسب منها الى النبي (ص) وأصحابه مايحمل على الاحترام والاجلال — تجد في كثير مما روته من الروايات ، وسردته من الاخبار ولا سيما مايتعلق منها بما قبل البعثة ذلك الطابع ظاهراً ، قد دونها وسردها جامعها كما بلغته من الرواة او اطلع عليه من المدونات . منها ما أشار هو نفسه اليه(١) ، ومنها مالم يشر اليه ولكنه ظاهر لايخفى كأحاديث شق وسطيح في تفسير رؤيا تبع اليمن مثلاً (٢) . وتقع على كثير من هذا ايضاً في تاريخ الطبري وهو مثل سيرة ابن هشام في القدم والجد والتحفظ والأمانة ، وفي طبقات ابن سعد ، وهي كذلك من كتب السيرة المعتبرة القديمة .

— ٢ —

هذا بالاضافة الى ماكثر ترديده ونقله في الكتب القديمة من روايات وأخبار لايسع المتدبر ألاّ ان يقف منها موقف التحفظ الشديد ان لم نقل موقف الانكار ! بل ويلمس فيها قصد تقليل شأن عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة من حيث الحضارة المادية والأدبية والمدارك

(١) اقرأ ابن هشام ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٩ و ٣٢٨ مثلاً
(٢) ابن هشام م ج ١ ص ١٥ — ١٧

العقلية ، وحيث تصفها بصفات الجهل والانحطاط والغلظة والبؤس والعزلة والعوز ، والحرمان من وسائل الثقافة ومظاهرها ، والمادية الغليظة الجافية في التفكير والعقائد والأخلاق والآداب مهما كان في ذلك من مخالفة لطبائع الأمور وبديهات المنطق ، بل ومغايرة للمهات ونصوص القرآن الكريم .

— ٣ —

ونحن نعرف ان عدا ما جاء في كتب السيرة القديمة من الاستطرادات التي أشرنا اليها يوجد بعض الكتب والرسائل ، وبعض الفصول والبحوث في الكتب العربية المهلية الأدبية منها والتاريخية والفنية عن حياة العرب قبل الاسلام وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم ؛ غير ان هذه الرسائل والكتب والفصول والبحوث قد كتبت بأسلوب عام مطلق ، لم يتناول عصر النبي (ص) وبيئته بصورة خاصة اولاً ، وان ما ورد فيها من روايات قد اختلط حابله بنابله وسمينه بغثه وصحيحه بباطله ايضاً بحيث لايمكن للمدقق المتدبر ان يقرأها الاّ بتحفظ ، وان يتردد كثيراً في اخذها حقائق وروايات تاريخية موثوقة او مقاربة ثانياً . ذلك لان القديم منها لم يدون الاّ بعد أمد طويل . ولأن الروايات ظلت تحفظ بالصدور ، وتتناقلها الألسن طول ذلك الأمد لعبت الأهواء وفكرة التلفيق في اثنائه دوراً كبيراً ، ولأن الحديث منها استند الى هذه الروايات وتلقاها مؤلفوها كحقائق تاريخية بنوا عليها ابحاثهم وفصولهم ورسائلهم وتقريراتهم من دون تمحيص على الأغلب .

— ٤ —

ومن الغريب كذلك ان الذين كتبوا السيرة النبوية او تاريخ الصدر الاسلامي الأول حديثا ، بل والذين وصفوا حياة العرب العقلية وتطرقوا الى بعض مظاهر هـــذه الحياة قبل الاسلام لم يصوروا لنا ذلك العصر وتلك البيئة تصويراً وافياً ، بل آسف ان اقول أنهم لم يصوروها لنا

تصويراً فيه غناء . ويكفيك ان تعلم ان فجر الاسلام وهو مع اجزاء السلسلة من أقوم الكتب التي صدرت في اللغة العربية في وصف مظاهر حياة العرب العقلية ومنها الدينية أهمل فيه بحث أديان العرب وعقائدهم قبل البعثة ، ولم يرد أشارة الى ما كان عندهم من كهانة وسحر وأساطير وتقاليد وعادات ، مع ان هذه النواحي وما بدا فيها من حركة نشيطة ولا سيما قبيل البعثة جديرة بالبحث والذكر كمظهر من مظاهر حياة العرب العقلية ؛ وكل ما كان من أمر انه اكتفى فيه بذكر اليهودية والنصرانية ، والفلسفة اليونانية ، وأثرها في تلك الحياة في العصر الاسلامى الأول . وقد فعل صاحب كتاب حياة محمد (ص) مثل ذلك تقريباً مع ما امتاز به هذا الكتاب أيضاً من ديباجة مشرقة ، وبحوث مستفيضة واستدراكات مهمة ، وملاحظة قيمة في طبعاته التالية خاصة . هذا ، مع أنك تأخذ كتاباً في حياة أحد الخلفاء او الملوك او الأمراء او العلماء او الشعراء والادباء مما ظهر منه جملة صالحة في الحقبة الاخيرة من عصرنا فتجد ان المؤلف لم يترك شاردة ولا واردة من جميع نواحي العصر الذي أظل المترجم له ، ومن ظروف البيئة التي عاش فيها قبيل حياته من أدبية وسياسية واجتماعية الا وتناولها بالبحث والدرس والتمحيص .

— ٥ —

وطبيعي أنه لا يمكن لأحد ان يزعم ان وصف عصر النبي (ص) وبيئته وصفاً شاملا ليس هو من الخطورة في تاريخ العرب والاسلام وفي السيرة النبوية في المرتبة التي توحي بالاهتمام لها اهتماماً كبيراً يزيد عما يكون من الاهتمام لوصف عصر وبيئة من ترجم له من خلفاء وملوك وامراء وشعراء وعلماء هذا الوصف الشامل الواسع . فبيئة وعصر ظهر فيها النبي (ص) ، وقام فيها برسالته الالهية ، وتوطدت فيها الديانة الاسلامية وما فيها من شرائع ومبادئ وقواعد كان لها ذلك الأثر القوي في

حياة العالم ؛ ثم عصر وبيئة زحف منها العرب الى العالم المتمدن واستطاعوا ان يقوضوا سلطان الدولتين العظيمتين اللتين كانتا تتساجلان الحكم والسيطرة عليه ، بقيادة عباقرة القواد ، وادارة نوابغ الولاة والحكام والقضاة يقل في وصفها كل اهتمام مهما عظم ، ويصغر في جانب العناية بها كل جهد مهما شق .

ولعل تلك الثغرات في الروايات العربية من حيث تدوينها ومادتها كانت من اسباب توقف فضلاء الكتاب والباحثين الذين نعرف فيهم سعة العلم ، والتفنن في القول ، وفهم مقتضيات التأليف وضرورة تلازم حلقاته والذين تنم كتبهم القيمة التي كتبوها عن اتزان وترو وأناة وتبصر ؛ لان ما ذكرناه يصح ان يكون سبباً وجيهاً للتوقف عن التورط في رسم صورة شافية لعصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة تتناسب مع خطورة الموضوع ودقته ، ويؤمن معها الزلل وسوء التلقي .

٦

كذلك نحن نعرف أن بعض المستشرقين قد كتبوا عن ذلك العصر والبيئة في سياق ماكتبوه عن حياة النبي (ص) وظهور الأسلام ؛ غير أن من الحق ان نقول ان للمستشرقين طرائق في البحث والاستنباط قد تجعل بعضهم — حتى الذين لايندفعون وراء الحقد والهوى منهم — يتحكمون تحكماً في الآراء والنتائج ؛ ويقعون في أوهام واغلاط خطيرة ؛ اما بسبب تعظيم خبر او أشارة او رواية شاردة قد لاتكون صحيحة في أصلها ؛ أو لاتكون فهمت على وجهها ، او تكون رُجحت على غيرها بدون مبرر صحيح ؛ بسبب مااعتادوه من الغلو في التغلية او الشك او الأفتراضات الى درجة تجعلهم يقيسون مع الفارق ؛ ويستسيغون او يسوّغون مالا يسوغه منطق الواقع وطبيعة الأمور ، هذا مع التنبيه الى أنهم هم الآخرون استندوا في ماكتبوا على الروايات والكتب العربية القديمة التي اشرنا الى مافيها من مآخذ ونقاط ضعف . ويكفي ان نذكر

مثلا ماكاد يتورط فيه المستشرق الطلياني كايتاني في كتابه تاريخ الأسلام من الشك او التشكيك بقرشية بل وبعروبة عبد المطلب لأن رواية ذكرت ان اخاه المطلب احضره من يثرب وقل لمن سأله عنه انه « عبد » له مع مافي القرآن من الاشارات الصريحة ؛ ومع مافي الروايات من التواتر الذي بلغ حد اليقين . وهذا المؤلف يعد من الفئة القليلة التي لم تكتب بدافع الغرض الشديد وقصد التسوئي والتشويه ؛ اما المغرضون(١) الذين كتبوا ما كتبوا بدافع الحقد والغرض فقد تورطوا في كثير من بحوثهم وتقريراتهم ، وخرجوا في بعضها عن العلم والبحث والجد والأمانة مما يعرفه من اطلع على كتبهم ودراستهم ! وما نحن في غنى عن البحث فيه هنا لأنه خارج عن نقاط بحثنا .

— ٧ —

واقد كان لي فراغ كان القرآن الكريم لي فيه نعم العون والرفيق(٢) فاشتغلت في خـــدمته حفظاً وتلاوةً وتمعناً وتدبراً ؛ فلفت نظري ما فيه من آيات كثيرة جداً فيها وصف او اشارات تساعد على رؤية صور كثيرة لما كانت عليه الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية والمعاشية في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة . فقلت في نفسي لم لا يكون القرآن مصدراً لتصوير هذا العصر والبيئة وفيه ما فيه من هذه الآيات ؟ وهو يعد اوثق واصدق واقدم ما يمكن ان يستند اليه كاتب

---

(١) نحيل القارئ مثلاً من كتاب لا مانس في « العرب الغربيين قبل الاسلام ليرى ما فيه من غرض وتحكم والاخذ باي رواية مها ضعفت او تفهت في سبيل تثبيت النظرية التي يدلي بها .

(٢) سجن المؤلف بحكم المحكمة العسكرية الافرنسية في دمشق بسبب قضية فلسطين من تاريخ ٥ حزيران ١٩٣٩ الى ٣ تشرين الثاني ١٩٤٠ وقضى ربع المدة في سجن المزة العسكري وباقيها في سجن القلعة في دمشق واطلق سراحه بعد انهيار فرانسة العسكري بقليل قبل اتمام مدة الحكم .

او باحث ؛ واذا كان يصح ان يحيك في صدر امرىء شبهات كثيرة في ماروته كتب السيرة وغيرها من روايات بسبب تأخر تدوينها ، وما يمكن ان يكون قد اعتور حفظ الصدور وصحة النقل من لبس ، وما يمكن ان يكون قد تسرب الى الروايات من اصابع الاهواء والميول والاغراض والصنعة والتلفيق فان القرآن هو من جميع هذه الشوائب فوق كل مظنة واقدس من ان تصل اليه شبهة سواء في صحة التدوين او سرعته ، بحيث كان كذلك دائماً عند جميع الناس تقريباً على مختلف أهـــوائهم واجناسهم وأديانهم وأزمانهم ؛ وما روي عن بعض الزيادات في الحروف والاختلاف في الاعراب والنحو والقراآت ، حتى وما روي عن بعض الزيادات والنقص في الكلمات وما قيل من نسخها واثباتها — على ما فيه من علات وثغرات توجب التوقف [١] — لا يؤثر أدنى تأثير في صحة ووثوق ووصول القرآن الينا سليماً من كل شائبة منذ عهد النبي (ص) وخلفائه الراشدين ، ويمكن ان يقال على هذا الاعتبار ان ما يمكن الاستدلال به منه على ما كان عليه عصر النبي (ص) وبيئته قبل الاسلام مثل ذلك هو فوق كل مظنة ، وأسمى من أن تصل اليه شبهة او شك . وهو على كونه مبلغاً بلسان السيد الرسول (ص) عن الله انما كان يقرر حوادث واقعة ، ويصف حالات قائمة ، وينزل الوحي به في المناسبات المشهودة ، فهو الكلمة الفاصلة والقول الحاسم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في تلك الحوادث والحالات والمناسبات ؛ على ان غير المسلم ايضاً لا يسعه ألا ان يأخذ بهذا الاعتبار اذا نظر فيه على انه وثيقة معاصرة صادقة :

---

(١) افردنا في مقدمة التفسير القويم الذي اعاننا الله على اتمامه فصلاً خاصاً بتدوين القرآن ، ألممنا فيه بأكثر ما قيل واورد ؛ واثبتنا ان ما بين دفتي المصحف المتداول وبترتيبه المتعارف هـــو القرآن الذي مات النبي (ص) عنه .

ولما تتبعت آيات القرآن واخذت ابوبها على مواضيع متنوعة مما يتناول وصف عصر النبي (ص) وبيئته من مختلف نواحيها ازددت يقيناً بأمكان رسم صور كثيرة لهما من القرآن وان لم تكن وافية بكل شيء فانها قد تكون محتوية الخطوط الرئيسية للصور التي يحسن ان تكون؛ بل وسيكون فيها صور جديدة كثيرة لم ينتبه اليها ، وصور صادقة اخرى تتغاير قليلاً او كثيراً مع ما هو مستقر في الاذهان ايضاً ؛ ثم انها تكون الى هذا طريفة في بابها حتى ولو كان كثير منها تعد بدائه معروفة ، لاني لا أذكر ان أحداً حاول ان يرسم مثل هذه الصور وفي نطاق القرآن الكريم وحده ؛ هذا مع التنبيه على ان ما يمكن رسمه منها انما هو بطريق الاستلهام والاستدلال من خلال الاسلوب والتعابير والاوصاف القرآنية التي لم تكن بسبيل تقرير هذه الصور بالذات ، وانما كانت بسبيل الدعوة والموعظة والانذار والتبشير والترغيب والترهيب والتنويه والتنديد والحكاية الخ الخ ...

— ٨ —

ولا يصل بي الزعم طبعاً الى القول ان ما في القرآن من دلالات على كثير مما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة قد بقي مهمل الشرح والتنويه . فقد تداول القرآن مئات الملايين من الناس في مختلف العصور والاقطار ، ودرسه مئات الالوف ، وفهمه عشرات الالوف وكثير من هؤلاء قد ألموا بتلك الدلالات ، وارتسمت في اذهانهم صور كثيرة لما كان في ذلك العصر والبيئة اقتباساً منه . وفي كتب السيرة والتفسير شيء كثير من الشرح والتعليق في هذا الصدد . وبكلمة ثانية اني معترف بان مثل هذه الصور لاتكون جديدة المادة على الذين لهم عهد بقراءة القرآن قراءة فهم وامعان .

غير ان هذا لا يمنع من القول ان اكثرية قراء القرآن الساحقة لا تقف عند آياته وقوف التمعن والاستبصار ، وليس في استطاعتها ان ترى

كثيراً مما احتواه من صور ، بل وان هذا ليصدق بعض الشيء على كثير من افراد تلك الفئة القليلة ؛ كما ان جل ناشئتنا ان لم نقل كلهم الذين تيسر لهم نصيب ما من الثقافة ؛ اما انهم لم يتيسر لهم ان يقرأوا القرآن ومن باب اولى كتب التفسير والسيرة — واما انهم قرأوه او أقرئوه كله او بعضه في طفولتهم ثم انقطعت صلتهم به . واذا وجد من قرأه فيهم قراءة تدبر وتبصر شغفاً او لاجل البحث فانهم نادرون جداً . وليس من شك في ان صوراً مثل هذه الصور تكون لناشئتنا وشباننا هؤلاء خاصة جديدة ، وتخدم في ذات الوقت في ايجاد الصلة المبتوتة بينهم وبين القرآن الكريم ، وهو أمر له خطورته وقيمته ؛ فأن من الشائن حقاً ان تكون الصلة مبتوتة او في حكم ذلك بين الناشئة العربية وخاصة المسلمة وبين القرآن الذي هو كتاب الدين الذي اليه ينتسبون ، ومناط الفخر الذي به يفخرون ويعتزون .

— ٩ —

كل هذا جعلني استخير الله وامضي في محاولة رسم هذه الصور اقتباساً من القرآن الكريم ، ومجردة عن الروايات الا حيث تكون مفسرة او شارحة او شاهدة على صحة الاستدلال والاقتباس . وبذلك أكون قد سددت فراغاً مازال اتلهف على سده من قبل من هم ابرع مني واوسع اطلاعاً وتفننا واحاطة في بحث عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة بحثاً وافياً ، وتصويرها تصويراً صادقاً وشاملا ؛ وأديت واجباً نحو شبابنا بوصل مابينهم وبين القرآن ؛ فكان من هذه المحاولة هذا الكتاب الذي اضعه بين يد القارئ .

وقد احتوى الكتاب اربعة ابواب متسقة مع بعضها من حيث البحث والتأليف ؛ تناول اولها الأقليم والسكان ومعايشهم وأصولهم ، وثانيها حياة العرب الاجتماعية وثالثها حياة العرب العقلية ، ورابعها الاديان والعقائد التي كانت منتشرة في ذلك العصر والبيئة على النحو المبين في فهرست المواد .

ولقد غدا الكتاب بالاضافة الى مواضيع ابوابه المتسقه مجموعة دراسات وتحليلات قرآنية بما تناوله من درس الآيات وتحليلها ؛ والتنويه بدلالاتها ؛ والاشارة الى ماتلهمه من ظروف نزولها ومناسبتها ؛ وعلاقة ذلك بما قبل البعثة ؛ مما ارجو ان يكون قد زاد في طرافة الكتاب وفائدته .

— ١٠ —

وسيرى القارئ أنني اكثرت من الاستشهاد بالآيات في صدد المواضيع التي طرقتها . والحقيقة اني لم اقصد التكثر ولكني قصدت الاكثار . لان القرآن هو سند الكتاب ومرجعه الوحيد اولا ، ولان الآيات مهما تشابهت فان فيها من الفروق مايجعل من المفيد سردها على تشابهها ثانياً ؛ ولان كثرة الآيات في صدد ما مما يمكن القارئ من لمس الموضوع المراد تقريره على وجه أكثر وضوحاً وادعى الى الانتباه ثالثاً ؛ ولم أر أن اكتفي بالاشارة الى ارقام الآيات ليرجع القارئ اليها في المصحف لان اثباتها أمام النظر مباشرة في الكتاب هو أكثر تيسيراً للقارئ في متابعة البحث والاستمرار فيه . ولعل في هذا بالاضافة الى ماتقدم وسيلة عملية الى تحقيق مااردناه ايضاً من تجديد الصلة بين شبابنا وبين القرآن بأسلوب يساعدهم على فهم متناول آياته ومداها .

وسواء أكنت على صواب في ما اقدمت عليه ام على خطأ وسواء استطعت ان أرسم تلك الصور واقوم بهذه الدراسة التحليلية بشيء من الوضوح وصحة الاستدلال ام قصرت فاني قد اجتهدت في ماصنعت ؛ وارجو ان يكون لي من حسن قصدي شفيع ؛ ومن اجتهادي نصيب ، ومن الله اطلب التوفيق والسداد ؛ والمغفرة والرضوان .

٢١ رمضان ١٣٦٥ وفق ١٨ آب ١٩٤٦ [١]

---

(١) هذا تاريخ بياض المقدمة . وقد انتهى تسويد الكتاب في شهر المحرم لسنة ١٣٥٩ وفق شهر آذار لسنة ١٩٤٠ وانتهى تهذيب النسخة التي سلمت للمطبعة في أول شهر شوال لسنة ١٣٦٥

الباب الاول

في

الاقليم والسكان

تمهيد

ان هذا الباب يتناول وصف الحالة الاقليمية في بلاد الحجاز ، وطبيعة مناطقها من حيث الطقس والماء والجدب والخصوبة ، ويتناول كذلك وصف السكان وأجناسهم ولغاتهم — أصليين وأجانب — ومساكنهم ومعايشهم ، وأطعمتهم وأشربتهم ، ولهوهم وأسلحتهم ، وما كانوا يقومون به من أعمال تجارية وصناعية وزراعية وملاحية وصيد ورعي وتربية ماشية الخ ...

ويحتوي الفصول الآتية :

الفصل الأول : الحجاز وأهله

الفصل الثاني : الحركة الاقتصادية والمعايش

الفصل الثالث : الجاليات الاجنبية في الحجاز

الفصل الأول

الحجاز وأهله

أقليم الحجاز في القرآن – منطقة مكة وجدبها – شدة حرارتها – شح مياهها – مناطق خصبة – المنطقة الساحلية – دلالة حفاوة القرآن بالبحر – تعليق على بعض الروايات – المدن الحجازية – مكة – يثرب – الطائف – مكة أم القرى – أسباب عظمة مكة الرئيسية – مدن الحجاز الثانوية وقراها – غنى مكة واثره – قدسية مكة – خطورة يثرب ومظاهرها – خطورة الطائف – تنوع – سكان المدن – سكان المدن في طور الكيان القبلي – البادية والبدو – الجنس العربي في القرآن – بحث في شمول الجنسية العربية – بحث في أصل سكان بيئة النبي (ص) من الوجهة القرآنية – استدلالات قرآنية في صدد كون لغة القرآن هي لغة أهل الحجاز اولاً ولغة سائر العرب ثانياً – تفنيدات – استدراكات .

الاقليم

– ١ –

قد يكون اقليم الحجاز من الوجهة الطبيعية معروفاً بالبداهة والواقع القائم المستمر والمشاهد ؛ غير أننا لم نر بأساً من استلهام القرآن في وصفه لتكون سلسلة الكلام متصلة دون ثغرات ؛ هـذا عدا ما في الوصف

القرآني من حيوية وقوة وخاصة في صدد وصف المناطق الخصبة والساحلية فنقول انه في القرآن آيات عديدة تتضمن اوصافاً متصلة بالحالة الاقليمية الطبيعية ؛ وجه الخطاب فيها الى مخاطبين قريبين ، وفيها ما يخصص بعض النواحي تخصيصاً ، مما يصح القول معه انها مصروفة الى القطر الحجازي وأقليمه .

وبحسب هذه الأوصاف يمكن ان يقال ان القرآن قد قرر أن في القطر الحجازي مناطق مختلفة الحالات من الناحية الاقليمية والطبيعية .

فهناك منطقة جدباء ، شديدة الحرارة ؛ شحيحة المياه ، محاطة بالجبال يعيش أهلها على ما يجلب اليها من الرزق جلباً من الخارج ، وهي منطقة « مكة » او بتدقيق اكثر منها منطقة مكة .

في سورة ابراهيم آيات فيها حكاية لدعوات ابراهيم (ص) ، وفي هذه الآيات وصفت منطقة البيت الحرام — وهي منطقة الكعبة او مكة — بكونها وادياً غير ذي زرع ، وحكيت دعوة ابراهيم (ص) بأن يرزق الله أهله من الثمرات ، ويجعل افئدة الناس تهوي اليهم :

« ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ... ٣٧ ابراهيم

وفي سورة القصص آية فيها رد على أهل مكة ، وفيها أشارة الى ان الله قد جعل حرمهم أمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء ، وهذا يعني ان رزقه يجلب اليه من الخارج :

وقالوا إن نتّبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا أو لم نُمكّن لهم حرَماً آمناً يُجبى اليه ثمراتُ كل شيء رزقاً من لدنا ... القصص ٥٧

وهناك آيات في سورة النحل (١١٢) وسورة البقرة (١٢٦) فيها توكيد لهذا المعنى ايضاً .

ومن آية القصص يفهم أن اهل مكة كانوا يرون في حُرمة البيت الحرام ، وهوى افئدة الناس اليهم أسباب معاشهم وأمنهم وحرمتهم ، وأنهم

كانوا يتخوفون من الحرمان من هذه الاسباب اذا تابعوا النبي (ص) في دعوته ؛ مما يدل على المعنى الذي نحن في صدد تقريره ايضاً .

اما شدة حرارة هذه المنطقة فيمكن الاستدلال عليها من آية في سورة النحل :

والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ (١) وسرابيل تقيكم بأسكم (٢) كذلك يُتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون... النحل ٨١

حيث أشير فيها الى الظلال وأكنان الجبال التي كان السكان يهرعون اليها للاحتماء من الحرّ ؛ وكذلك فقد أشير فيها إلى السرابيل التي تقي الحر دون ان يذكر فيها السرابيل التي تقي البرد ؛ كأنه لم يكن ملجيء جوي الا الحرّ وشدته فقط . والآية تذكر هذا من جملة ما منّ الله على أهل مكة من النعم والعناية ، وهذا قد يلهم شدة ما كان يقاسونه من الحر .

وفي ذكر الجبال وأكنانها ما يدل على ما قلناه من احاطة مكة بالجبال احاطة مباشرة كما هو المتبادر .

ويمكن الاستدلال على شح المياه في هذه المنطقة من ما كان من مهمة سقاية الحاج وتوفير المياه له التي كان يقوم بها بعض بيوتات قريش .

---

(١) ان بعض المفسرين قالوا ان في هذه الجملة جملة مضمرة اخرى اكتفى بها عنها وتقديرها « تقيكم الحر وتقيكم البرد » وروح الآية من جهة واكتفائها بذكر الظلال والاكنان من جهة يجعل هذا التقدير غير قوي الورود ؛ ويجعل قصد الحر هو الاصل . على ان في سورة النور آيه تتضمن قرينة على صحة قولنا وهي « حين تضعون ثيابكم من الظهيرة (٥٧) فهذا التعبير يعني قيلولة النهار والاستبراد بالتخفف من الثياب فيه ولم يذكر مقابل ذلك عن الشتاء وفي هذا قرينة على شدة الحر دون البرد

(٢) البأس بمعنى الحرب

وقد أشير الى هذه المهمة في احدى آيات سورة التوبة في صدد المفاضلة بينها وبين الايمان بالله والجهاد في سبيله :

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ... التوبة ١٩

فأهتمام أهل مكة لتوفير المياه للحاج هذا الاهتمام الذي يجعلهم يرون في مهمة السقاية فضيلة عظيمة انما هو بسبب شح المياه في منطقتها كما هو المتبادر . وهذا يجعلنا ندرك الحفاوة العظيمة التي أسبغت على رواية حفر بئر زمزم وما جرى في صدد ذلك مما جاء في كتب السيرة مفصلا (١)

— ٢ —

على ان في القرآن آيات عديدة تنوه بما ينزل الله من الامطار ، ويتفجر من العيون والينابيع ، وما ينبت من الزروع وأشجار النخيل والاعناب والرمان والزيتون والثمار المتنوعة الاخرى ، وتصف ما كان يظهر على السكان من هلع اذا ما امسكت السماء واصفر الزرع من العطش ويوجه الخطاب فيها الى مخاطبين قريبين تذكرهم بنعمة الله وآياته التي يرونها ويتمتعون بها كما ترى في ما يلي :

(١) — وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كل شيء فأخرجنا منه خضراً نُخرج منه حباً مُتراكباً ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٌ من أعناب والزيتون والرمّان مشتبهاً وغير مُتشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر ويَنعه انّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ... الانعام ٩٩

(٢) — وهو الذي انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخلَ والزرعَ مُختلفاً أكله والزيتونَ والرّمانَ مُتشابهاً وغير مُتشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقّه يومَ حصاده ... الأنعام ١٤١

٣ — وهو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجر

(١) اقرأ ابن هشام ج ١ ص ١٣٤ وما بعدها .

فيه تُسيمون . يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... النحل ١٠ — ١١

٤ — وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون المؤمنون ١٨ — ١٩

٥ — الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودْق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوا من قبل ان يُنزّل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مُصفراً لظلوا من بعده يكفرون ... الروم ٤٨ — ٥١

٦ — وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ... ياسين ٣٣ — ٣٤

٧ — والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوْج بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب . ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَ الحصيد . والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ . رزقاً للعباد . وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج ... قاف ٧ — ١١

٨ — أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حُطاماً فظلتم تفكهون . انا لمغرمون بل نحن محرومون . افرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ... الواقعة ٦٣ — ٧٠

٩ — فلينظر الانسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا به حباً . وعنباً وقضْباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غُلباً . وفاكهة وأبّاً . متاعاً لكم ولانعامكم ... عبس ٢٤ — ٣٢

فانك اذ تقرأ هذه الآيات تلمس ان القرآن كان يوجهها ويخاطب بها اهل الحجاز بل وأهل مكة في الدرجة الاولى لان الآيات جميعها مكية ومع ان الآيات بسبيل تعداد نعمة الله على الناس بصورة عامة فانها كانت ولا ريب تلفت نظر المخاطبين الأولين وهم أهل الحجاز وخاصة أهل مكة وما جاورها الى هذه النعم التي كانوا يشاهدونها ويتمتعون بها ؛ وبعبارة ثانية ان من البديهي ان تكون الآيات مصروفة الى ما كان في الحجاز نفسه وفي الانحاء المجاورة لمكة بنوع خاص من مناطق تجود فيها التربة ، وتغزر فيها الأمطار ، وتتفجر فيها العيون والينابيع ، وتخضر فيها الأرض وتربو وتنبت من كل زوج وصنف من الزروع والكلأ وحب الحصيد وأشجار النخيل والأعناب والرمان والزيتون والثمرات المتنوعة الأخرى ،

وهذه المناطق ان لم تعينها الآيات كما عينت منطقة مكة — البيت الحرام — فأنها معينة واقعياً ؛ وهي مناطق الطائف وارباضها ، والوديان التي بين مكة وجدة ، ويثرب وأرباضها كذلك . فهذه المناطق لاتزال تحتفظ الى الآن بكثير من الينابيع والوديان ، وتتمتع بخضرة السهول وجنات العنب والنخيل ومتنوع الفواكه والزروع ؛ تنزل فيها الأمطار اكثر من منطقة مكة ، فتمتلاء الوديان ، وتسيل السيول ، وتجري الغدران وتتفجر العيون والينابيع ، وتخضر الأرض وتأخذ زينتها وينبت فيها مختلف النبات والأشجار مما ينطبق عليه تلك الاوصاف الأخاذة الواردة في في الآيات بعد نزول الامطار من بهجة وخضرة وحياة .

— ٣ —

وهنالك آيات كثيرة تنوه بالبحر واوصافه وانوائه وامواجه واخطاره واسفاره ، وما يمخر فيه من الفلك والجواري المنشآت كالاعـــلام وما يقوم به الناس من اسفار بحرية ابتغاء الرزق والتجارة ، وما يستخرجونه منه من اللحوم ولآلي الزينة المتنوعة كاللؤلوء والمرجان كما ترى في الآيات التالية :

١ ـ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ...
الانعام ٩٧

٢ ـ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى أذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الى الله مخلصين له الدين . يونس ٢٢

٣ ـ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . النحل ١٤

٤ ـ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله أنه كان بكم رحيما . واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا . الاسراء ٦٦ـ٦٧

٥ ـ أم أمنتم ان يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم . الأسراء ٦٩

٦ ـ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها . النور ٤٠

٧ ـ وما يستوي البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله . فاطر ١٢

٨ ـ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . انْ يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . الشورى ٣٢ـ٣٣

٩ ـ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهم اللؤلوء والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . الرحمن ١٩ـ٢٥

١٠ ـ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة . المائدة ٩٦
ومع ان هذه الآيات هي ألاخرى في تعداد نعم الله وآلائه على الناس

وبسبيل الدعوة الى الله وحده ونبذ ما عداه والتذكير بانه هو الملجأ الاوحد في الشدائد والاخطار؛ فان ما فيها من ضمير المخاطب ، وما تحمله من طابع الخطاب القريب يدل على ان الكلام موجه الى المخاطبين الاولين به وهم اهل الحجاز ، وان لاهل الحجاز صلة بالاعمال البحرية المتنوعة وبالتالي يحمل الاشارات الى المنطقة الساحلية في القطر الحجازي ، وما كان يقوم به في ثغورها من حركة وملاحة وصيد وغوص ، وما كان لاهل الحجاز وخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة من ذلك .

— ٤ —

وكثرة الآيات ، وتكرار التعداد ، وتنوع الاساليب ، وبكلمة اخرى هذه الحفاوة القرآنية في الاشارة الى البحار وما فيها وما يجري فوقها وما يعود منها من المنافع المتنوعة مع ما في بعضها من التعميم يمكن ان تدل على ان حركة الملاحة والصيد والغوص لم تكن ضعيفة ، وانها كانت مما يعول عليه اهل الحجاز في معايشهم وحياتهم التجارية والاقتصادية تعويلا غير يسير .

ويؤيد هذا الاستدلال الخطاب القريب في اكثر الآيات اولا ، ووجود منطقة ساحلية طويلة ، بل على طول البلاد الحجازية ثانياً ، وما بين الحجاز والاقطار المجاورة من ابعاد شاسعة يمكن ان ييسر لهم البحر واسفاره سرعة الاتصال بها وسهولته ثالثاً .

ولقد روت الروايات ان عمر بن الخطاب (رض) سأل عمراً بن العاص (رض) ان يصف له البحر فاجابه قائلاً : خلق عظيم يركبه خلق صغير مثل دود على عود ، وان عمر ابن الخطاب نهى عمراً بناءً على ذلك عن المجازفة بالمسلمين في ركوب البحر ، وقد اخذ الرواية بعض الكتاب الحديثين قضية مسلمة فقال ان عرب الحجاز لم يكونوا يعرفون البحر وركوبه وتهافت الرواية والتعليق واضح ؛ فعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص كانا تاجرين ، وزارا بلاد الشام ومصر وفارس قبل الاسلام ، وعمرو انما

سارع الى فتح مصر بناء على معرفته السابقة بها ، ولا يعقل ان لا يكونا رأيا البحر ؛ والقرآن قد ذكر البحر مرات كثيرة ذكر وصف وركوب واخطار وتجارة وصيد وغوص ولا يعقل ان يكون هذا والسامعون الاولون لا يعرفون من امر البحر شيئا . هذا بالاضافة الى ان جزيرة العرب محاطة بالبحر من شرقها وجنوبها وغربها والقسم الاعظم من سكانها في المناطق القريبة من هذه السواحل ، وفريق منهم في السواحل بالذات ولا يصح ان يكون هذا وان لا يكونوا قد عرفوا أمره وانتفعوا به شتى الانتفاعات وركبوه في اسفار قريبة وبعيدة ايضاً .

المدن الحجازية

— ٥ —

يستطاع من فحوى الآيات ان يستدل على ان من سكان القطر الحجازي الحضر الذين يسكنون المدن والقرى والبدو الذين يسكنون البادية .

وقد ذكر في القرآن من مدن الحجاز مدينتان باسمهما وهما « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » وتخصيصها بالذكر يمكن ان يدل على انهما كانتا المدينتين الرئيسيتين القطر الحجازي .

اما الاولى فقد ذكرت بلفظي « مكة » و « بكة » كما ترى في هذه الآيات :

١ — ان أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين .

آل عمران ٩٦

٢ — وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم . الفتح ٢٤

وأما الثانية فقد ذكرت باسمها القديم « يثرب » وذكرت كذلك باسمها الذي اصبح علماً لها بعد الأسلام وهو المدينة كما ترى في هذه الآيات

١ — واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا

الاحزاب ١٣

٢ — ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله . التوبة ١٢٠

وقد اشير الى مدينة مهمة ثالثة اشارة ضمنيه في الآية لآتية :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الزخرف ٣١

حيث اجمع المفسرون على ان القريتين هما مكة والطائف .

هذا : وننبه على ان لفظا القرية والمدينة قد ترادفا في القرآن كما يستدل من الآيات التالية :

١ — واسأل القرية التي كنا فيها . يوسف ٨٢

٢ — وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك اهلكناهم . محمد ١٣

حيث اريد في الاولى مصر وفي الثانية مكة كما هو ظاهر .

كذلك سمى القرآن العاصمة او المركز الكبير الذي تجمع حوله المدن الثانوية والقرى باسم « أم القري » كما ترى في هذه الآية :

وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم آياتنا . القصص ٥٩

— ٦ —

وقد اطلق هذا الاسم على مدينة مكة كما ترى في الاية التالية :

وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر ام القرى ومن حولها ..

الشوري ٧

ومما لا ريب فيه ان هذه التسميات كانت جارية مألوفة قبل نزول القرآن ، لان القرآن قد نزل بلسان القوم ومصطلحاتهم .

ومن اطلاق لفظ « أم القرى » على مكة يمكن ان يستدل على انها كانت مدينة كبيرة كما يستدل من آيتي القصص وابراهيم ٥٧ و٣٧ اللتين نقلناهما قبل على انها كانت تمتع بمركز محترم ، وتوجه عام من سائر الانحاء . ولقد كان موقف اهلها السلبي من الدعوة النبوية عاملاً الى

درجة كبيرة في وقوف سائر مدن الحجاز وقراهـا وسكان باديتها بل وسكان انحاء جزيرة العرب الاخرى بوجه عام مثل ذلك الموقف ، كما أن فتحها ودينونتهـا بالاسلام كانا عاملين رئيسيين في دينونة جميع اولئك بالاسلام ودخولهم في دين الله افواجا كما هو ثابت بالتواتر وكما يستدل عليه من سورة النصر :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توّابا »

وهذا مؤيد لما قررناه من خطورة شأن مكة « أم القرى » وتمتعهـا بالمركز المحترم ، والتوجه العام .

ومما لا ريب فيه ان وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة وحواليها كان عاملاً كبيرا او العـامل الاكبر في تلك الخطورة وهذا المركز والتوجه الذين كانت تتمتع بهما .

ولعل ما كان من ارتداد اصحاب الفيل وما حل فيهم عندها قبل مدة قليلة من البعثة مما ذكرته سورة الفيل : « ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف[1] مأكول . » كان من العوامل التي وطد لمـكة مركزها وهيبتها وخطورتها التي كانت لها قبل هذا الحادث على ما هو المتبادر .

— ٧ —

ومن اطلاق لفظ « أم القرى » على مكة يمكن الاستدلال على وجود مدن ثانوية وقرى عديدة في القطر الحجازي وخاصة في منطقة مكة . وقد يستلهم هذا من الآيات التالية ايضاً :

« افأمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنـا بياتاً وهم نائمون . او أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . الاعراف ٩٧ — ٩٩

(١) ورق الزرع

ومن هذه المدن والقرى ما لا يزال موجوداً ومعروفا ؛ ولا بد من ان قرى كثيرة كانت ثم عفت ولم يبق منها الا رسوم او اطلال او لم يبق منها شيء . ويقع المطالع في الكتب العربية وكتب السيرة على اسماء كثير من القرى عفي اكثرها ، وهذا مما يؤيد الاستدلال .

— ٨ —

ومع ان خطورة مكة والاتجاه العام اليها هما بسبب وجود الكعبة ومناسك الحج فيها كما قلنا ، فان في بعض الآيات ما يدل على ان من اسباب هذه الخطورة ما كان فيها من حركة تجارية واسعة ومستمرة ، وما كان اهلها يملكونه من ثروات طائلة ايضاً .

فسورة قريش تشير الى حركة رحلات التجارة المكية صيفاً وشتاءً وحركة الاستعداد الدائمة لها :

« لايلاف قريش ايلافهم . رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وهذه بعض آيات تدل على ثرواتهم الطائلة :

١ — واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا (١) . الكهف ٢٨

٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قل الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً واحسن نديا . مريم ٧٣

٣ — ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . (٢) طاها ١٣١

٤ — أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في

---

(١) فيها امر للنبي بالتزامه المسلمين على فقرهم وعدم تركهم قصد ملاحقة الاغنياء ذوي الزعامة والجاه .

(٢) فيها نهي مماثل في مداه لما في آية الكهف ودلالة على ما كان بعض اهل مكة يتمتعون به من ثروة وترف .

الخيرات بل لا يشعرون. المؤمنون ٥٥ — ٥٦

٥ — وقالوا نحن اكثر أموالا واولاداً ومانحن بمعذبين . [١] سبا ٣٥

٦ — ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . المدثر ١١—١٢

٧ — يقول أهلكت مالا لبداً . البلد ٦

٨ — ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب ان ماله أخلده الهمزة ١ — ٣

— ٩ —

ومن الآيات التي نقلناها قبل قليل يستدل على ان مكة كانت تعتبر مدينة مقدسة ، وان منطقتها كانت حرماً أي ان القتال وسفك الدم فيها محرمان بسبب هذه القدسية . وفي سوره العنكبوت آية تشير الى هذا المعنى بوضوح حيث تذكر اهل مكة بما يتمتعون به من الامن بسبب حرمهم بينما يتعرض غيرهم للاخطار والمخاوف الدائمة :

« اولم يروا أنا جعلنا حرماً امناً ويُتخطف الناس من حولهم » العنكبوت ٦٧

والفقرة الثانية من آية سورة قريش الثالثة تؤيد هذا المعنى ايضاً .

وآية القصص (٥٧) تلهم ان مكة لم تكن محصنة ، وان اهلها انما كانوا يعتمدون في امنهم على قدسيتها في الدرجة الاولى ؛ حيث تحكي اعتذار بعض الزعماء للنبي عن عدم متابعتهم له وقولهم انهم اذا تبعوه وتخلوا عن تقاليدهم التي تقدست بها مكة زالت مناعتها واصبحت عرضة لهجوم الهاجمين وتخطفهم اهلها بسيوفهم :

« وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً امنا يجبى اليه ثمرات كل شيء » القصص ٥٧

ويظهر ان ما احتوته الفقرة الثانية من تقرير بقاء قدسية مكة وحرمتها في الاسلام لم يطمئنهم فظلوا في موقفهم الجحودي ذلك الامد الطويل .

(١) الآيات جميعها مكية وموضوع الكلام فيها اهل مكة كما هو المتبادر .

وفي الآيات المدنية ما يمكن الاستدلال به على ان يثرب كانت مدينة كثيرة السكان ، وخطيرة الشأن والمركز ايضاً . فقد كان يسكن في احيائها وارباضها المتصلة بها قبائل عديدة من اليهود كانوا ذوي أموال طائلة ، وحصون وقلاع منيعة ، وبساتين وأرضين غنية كما ترى في الآيات التالية :

١ — وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم (١) وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطوؤها وكان الله على كل شيء قديراً
الاحزاب ٢٦ — ٢٧

٢ — هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب (٢) من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار .
الحشر ٢ — ٣

٣ — ما قطعتم من لينة (٣) او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين . وما افاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء

---

(١) صياصيهم = حصونهم . والمعنيون الآيات هم يهود بني قريظة وكانوا يسكنون في المدينة وارباضها وهم آخر من نكل بهم .

(٢) المعنيون في الآيات هم يهود بني النضير وكانوا يسكنون في المدينة وارباضها ، وقد اجلوا قبل وقعة بني قريظة .

(٣) لينة = نخلة صغيرة ؛ والآية تشير الى ما كان من امر النبي بتقطيع بعض بساتين بني النضير ارغاماً لهم .

قدير . ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى (١) فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . الحشر ٥ — ٧

٤ — لا يقاتلونكم جميعاً ألا في قرى محصنة او من وراء جدر بأسهم بينهم شديد . الحشر ١٤

٥ — كمثل الذين من قبلهم (٢) قريباً ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم . الحشر ١٥

ويلفت النظر الى آية الحشر الثانية حيث تتضمن وصفا قويا لما كانت عليه حصون اليهود من مناعة واليهود انفسهم من قوة ؛ حتى ان المسلمين لم يكونوا يأملون في النصر عليهم واخراجهم كما ان اليهود انفسهم كانوا يعتقدون انهم اقوى من ذلك وانها مانعتهم .

وقد كان يسكن المدينة الى جانب اليهود بطون عربية عديدة وقوية البأس ، وكانت المدينة وضواحيها مسرحاً لما كان يقع بينها من حروب بسبب ما بينها من عداء كما ترى في الآيات التالية :

١ — واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا . آل عمران ١٠٣

٢ — وهو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٣) وألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم . الانفال ٦٣

٣ — ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل

---

(١) اشارة الى ما وهبه الله للنبي من اموال وكروم ومزارع بني النضير .

(٢) المعنيون في الآية هم يهود بني قينقاع . وكانوا يسكنون في المدينة . وقد كانوا اول من اجلاهم النبي من اليهود .

(٣) في هذا اشارة الى قوة بأس عرب المدينة الذين عرفوا بالانصار .

الله والذين آووا ونصروا [1] .   الانفال ٧٢

واذا كان في القرآن ما امكن الاستدلال به بصراحة على ما كان لليهود من حصون وقلاع وثروات وارضين هي من اسباب وشأن المدينة فلا يعني هذا ان العرب لم يكن لهم مثل ذلك . ففي الآيات المدنية على انه كان مثل هذا للمسلمين ، وجلهم ان لم يكن كلهم عرب ، وا كثريتهم الساحقة من اهل المدينة لان اكثر هذه الآيات مما نزل قبل الفتح المكي حيث كثر عدد المسلمين من غير اهلها ، وهذا بعض الآيات :

١ — يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض .   البقرة ٢٦٧

٢ — قل انفقوا طوعاً او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون . فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون [2] .   التوبة ٥٣ — ٥٥

وقد ذكرت روايات السيرة المعتبرة انه كان للعرب بعض الآكام والحصون كما كان لليهود ، وان كنا نرجح ان حصون اليهود وقلاعهم كانت اكثر واقوى . ولعل هذا مما تلهمه آية في سورة الاحزاب بالاضافة الى آية الحشر (٢) . اما آية الاحزاب فهي :

« ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة

الاحزاب ١٣

حيث تحجج بعض المنافقين بان بيوتهم مكشوفة لحصون اليهود .والآية منصبة على تكذيب المحتجين وليس على نفي ما تلهمه هي وآية الحشر كما هو المتبادر .

(١) في هذه الجملة اشارة الى الانصار ودلالة على قوة باسهم .
(٢) موضوع الخطاب والتنديد هم المنافقون وجميعهم من اهل المدينة .

ومن اسباب خطورة مركز المدينة وقوعها في طريق القوافل التجارية الغادية الرائحة بين الشام والجزيرة . ولقد تضمنت احدى آيات الانفال اشارة الى ذلك حيث اشير الى قافلة مكية كانت تمر قرب المدينة رأى النبي (ص) فرصة لضرب اهل مكة وضرب تجارتها وهي :

وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ... ٧

وغير ذات الشوكة هي القافلة التجارية المكية التي لم يكن معها حامية كافية .

-١١-

وليس في القرآن ما يستدل به على خطورة مدينة الحجاز الثالثة « الطائف » غير آية الزخرف (٣١) التي نقلناها قبل . والتي يستدل منها على ان خطورة شأن رجالها واهلها مقاربة لما كان من ذلك لرجال مكة واهلها ؛ لانها تحكي عجب كفار اهل مكة وقولهم انه كان الاولى ان كان القرآن الهياً ان ينزل على عظيم من عظماء مكة او الطائف . على ان الروايات القديمة المعتبره قد ذكرت ان الطائف كانت مدينة كبيرة وغنية ، وان اهلها ذوو بأس ، وانها كانت محصنة بسور ، ولعلها الوحيدة في ذلك بين مدن الحجاز .

-١٢-

اما سكان المدن الحجازية فقد كانوا انواعاً في الجنس والدين كما تلهم الآيات القرآنية بالنسبة للاثنتين الرئيسيتين منها وهما مكة ويثرب ، حيث تلهم انه كان في مكة جالية اجنبية قليلة الى جانب اكثرية أهلها العرب الذين عينت سورة قريش أسمهم القبيلي العام وهو « قريش » كما تلهم انه كان الى جانب اكثرية سكانها المشركين اقلية كتابية وموحدة على ما سوف نلم به في فصول اخرى ؛ وحيث تلهم انه كان في يثرب جاليه اسرائيلية كبيرة العدد على التحقيق ، واقلية نصرانية عربية واجنبية على

الاحتمال الى جانب اهلها العرب أيضاً على ماسوف نلم به في فصل آخر كذلك . واذا كان ليس بالقرآن أشارات يمكن الاستدلال بها على الحالة في المدن الاخرى فان الذي نرجحه ان ثغر الحجاز جده لابد من ان يكون فيه تنوع في السكان جنساً وملةً بسبب طبيعتها الساحلية . اما الطائف فنرجح انها أقل المدن الحجازية المهمة تنوعاً في السكان .

وننبه على أمرهم في صدد اكثرية سكان هذه المدن ، حيث يستلهم من بعض الآيات من جهة ومن الروايات المتواترة البالغة حد اليقين من جهة اخرى انها كانت ماتزال في حياتهـا الاجتماعية في طور الكيـان القبيلي . فقريش التي هي اكثر سكان مكة على ماالهمته سورة قريش متفرعة الى بطون عديدة على النمط القبيلي تمت جميعها الى أسم قريش والى أصل او جدٍّ واحد غير بعيد في القدم . ومما يمكن الاستلهام به على هذا آية زوجات النبي (ص) في سورة الأحزاب :

« يا ايها النبي إنا أحللنـا لك ازواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاءَ الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك . ٥٠

ومن الثابت اليقيني انه لم يكن بين زوجات النبي (ص) من هي بنت عم مباشر له ولم يكن بينهن من هي من بطن هاشم عشيرة النبي (ص) الأقربين ؛ وانما كن من بطون قريش الاخرى ، فعائشة بنت ابي بكر (رض) من بطن التيم وحفصة بنت عمر (رض) من بطن عدي وام حبيب بنت ابي سفيـان (رض) من عبد شمس وام سلمه (رض) وسوده بنت زمعه (رض) من بني عامر . وهكذا تكون النسبة القرآنية هي نسبة قرابة البطون التي تتألف منها قبيلة قريش . والمعروف في التقاليد العربية ان اخوال اب الرجل وجده هم أخواله وأعمام ابي الرجل وجده هم أعمـامه ايضاً ؛ وقد حمل اكثر من مفسر ومنهم من استند الى رواية عن عباس أية الشورى :

قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى .. ٢٣
على هذا المحمل ؛ واولوا الآية بأن الله امر نبيه بتذكير قريش بما يربط بهم من قربى توجب عليه النصيحة لهم دون ان ينتظر أجراً وتوجب عليهم الاستجابة اليه لانه غير متهم ؛ وهو تأويل في غاية الوجاهة .

وعرب يثرب يتألفون من قبيلتين يمانية المصدر ولعلها من أصل واحد ، وهما قبيلتا الخزرج والأوس اللتين أشرنا اليهما قبل وقلنا انهما كانتا متعاديتين قبل الهجرة النبوية ؛ وكلتاهما مقسمة الى بطون على النمط القبيلي ايضاً مثل بني عوف وبني النجار وبني الحرث وبني جشم وبني ساعدة الخ

وعرب الطائف هم قبيلة ثقيف التي لابد من ان تكون هي الأخرى مقسمة الى فروع مثل فروع قريش والأوس والخزرج .

وكما ان عرب المدن الحجازية كانو في طور الكيان القبيلي فانهم كانوا في حياتهم الاجتماعية ضمن نطاق هذا الطور ايضاً ، حيث كانت تقوم على أساس العصبية الاجتماعية على ماسوف نلم به في فصل أخر .

اما حياتهم المعاشية فقد كانت مع انطباعها بطابع حياة المدن على الغالب حيث كانت مجالاً لحركة اقتصادية نشيطة تجارية وزراعية وصناعية ؛ وحيث كان اهلها او فريق منهم يتمتعون بحياة ترف ونعيم حضرية فانها لم تكن قدامحي عنها طابع البداوة وحياتها ، وكانت الصلات بين اهلها وبين البادية والبدو وثيقة من ناحية الحياة الاجتماعية ومن ناحية الحياة المعاشية معاً على ماسوف نلم به كذلك في فصول أخرى .

البادية والبدو

-١٣-

قلنا قبل ان الآيات تشير الى ان سكان القطر الحجازي حضر وبدو . وقد ذكر القرآن البدو « بمعنى « البادية » كما جاء في سورة يوسف :

«... وقد أحسن بي اذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ١٠٠

واطلق كلمة الاعراب على القبائل البدوية تفريقاً لهم عن سكان المدن والقرى كما ترى في الآيات التالية :

١ — « وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق .... التوبة ١٠١

٢ — يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب .... الاحزاب ٢٠

ومن آية التوبة يمكن ان يستدل على ان من الاعراب من كان ينزل حول المدن كما أن آية الاحزاب يمكن ان تلهم ان منهم من كان يوغل في البادية ولا يلم بالمدن الا قليلاً .

وفي بعض الآيات وصف قارع للاعراب ، وهو ماجاء في سورة التوبة في صدد وصف كفارهم ومنافقيهم : « الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ان لايعلموا حدود ماانزل الله على رسوله .... التوبة ٩٧

والمتبادران هذ الوصف مما يتصل بما كان عليه الاعراب من جفاء طبع وقسوة وجهل وضعف مرونة وقلة صقل وتهذيب . وبالتالي انه صورة لأخلاق وطبائع البدو بصورة عامة واخلاق وطبائع الاعراب في عصر النبي (ص) وبيئته بصورة خاصة .

وليست هذه الآيه هي الوحيدة فى صدد طبائع الاعراب في عصر النبي (ص) وبيئته . ففي سورة التوبة ايضاً الآية التالية :

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ... ٩٨

حيث تصف طبيعة الحذر والتربص فيهم ، وبطوء الاستشعار بالايمان والصدور عنه فى أعمالهم .

ولقد كان من الاعراب منافقون كما تدل على ذلك الآية التالية من سورة التوبة أيضاً :

ومن حولكم من الاعراب منافقون ... ١٠١

والمتبادر ان نفاق الاعراب متصل بطبائعهم وأخلاقهم (١) التي أشرنا

(١) ممـا لا شبهة فيه ان ابن خلدون حينما وصف العرب بما وصفهم به في مقدمته انما قصد الأعراب منهم ، ولا يمكن ان يكون قد قصد بوصفه العرب مطلقاً بدوهم وحضرهم ؛ لا سيما والاستعمال كان قد فشا في اطلاق كلمة « العرب » على البدو ومنازلهم في البادية ، وهو ما لم يزل فاشياً الى اليوم . والمناسبة هنا سانحة للقول ان ابن خلدون لم يكن على حق حينما وصف العرب بما وصفهم به حتى ولو كان قصده أعرابهم وليس العرب مطلقاً كما هو الأرجح ألا اذا كان اراد بوصفه الأعراب في طورهم البدوي . لأن البداوة طور من أطوار الانسانية وليست جبلة لجيل من الناس اوجنس البشر ، ولأنه لا بد من ان يكون قد رأى وعلم ان كثيراً من البدو العربي قد تحضروا بعد الفتح الأسلامي ومصروا الأمصار ، وشاركوا في بناء السلطان العربي والحضارة العربية ، ولم يعد يمكن ان يظل ما يوصف به الأعراب من جفاء وغلظة طبع وجهل وميل الى التخريب وعداء للاستقرار والنظام عالقاً بهم . وهذا ليس شأن العرب وأعرابهم خاصة بل هو شأن بني الانسان عامة . فكل أمة وقبيل قـــد عاشوا في أول امرهم بدواً متنقلين في الفيافي والجبال والأحراج والمغاور على الصيد والكلاء وتربية المواشي لا يعرفون الاستقرار ولا يطيقونه ، خشناً في معيشتهم ، جفاةً في طبائعهم ، ضعفاء في مداركهم ، جهلاء لما يحيط بهم ، نفورين من القيود والتنظيم ، ثم تدرجوا فزرعوا واستقروا وتحضروا وتطوروا في الحياة واصبحوا مترفين ناعمين دمثين رقيقين ، واستطاعوا ان يشيدوا الممالك وان يضعو النظم ، وان يدركوا قيمة العمران ومدى الحضارة . والعرب كانوا كذلك في كثير من انحاء جزيرتهم قبل ان يخرجوا منها ويتخذ بعضهم المدن مسكناً ، ثم من بعد ان خرجوا قبل الاسلام وبعده . وهؤلاء الأشوريون والكلدانيون والفنيقيون والكنعانيون الذين خرجوا قبل الأسلام بقرون عديدة ، ثم هؤلاء—

اليها اكثر مما هو متصل بالاسباب المحلية التي نشأ عنها نفاق المنافقين في المدينة . حيث هذا كان منهم استجابة لبعض زعماء فاتتهم المنافع العظيمة من هجرة النبي (ص) وانتشار دعوته ورسوخ قدمه [1] وحيث كان لتحريض اليهود في المدينة ودسهم اثر كبير فيه [2] .

وفي سورة الفتح آيات تلهم ما كان عليه البدو من طبائع متصلة بما ذكرناه :

سيقول لك المُخلفون من الاعراب شغلتْنا أموالُنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً ان اراد بكم ضُراً او أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسولُ والمؤمنون الى أهليهم أبداً وزُيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً ... ١١ — ١٢

حيث تصف حذرهم من التورط حينما يكون الخطر هو الغالب ؛

ـــ اليمانيون الأولون الذين بقوا في بلادهم التي عرفت بالسعيدة كانوا بدواً أولاً ومتصفين بكل صفات البدو ثم تحضروا وصارت لهم صفات الحضر وعاداتهم واخلاقهم ومداركهم وبعد أفقهم ومعايشهم وعلومهم وقوانينهم ، لم ينقصوا عن غيرهم في ما أخذه هذا الغير من طريق الحضارة ومدارجها على اختلاف في الدرجات ، نشأ عن اختلاف في طبيعة الاقليم والتقدم والتأخر في السير في طريق التطور الانساني . ومن الأدلة على هذا انه كان في عصر النبي (ص) وبيئته كما كان في بلاد اليمن في عصر النبي (ص) وقبله عرب حضر لهم كثير من صفات الحضر ووسائلهم وعرب بدو . وكانت صلة الحضر منهم وثيقة واوشاجهم قائمة بالبدو في ذات الوقت .

(١) مما ورد في ابن هشام ان الخزرج كانوا يزمعون تتويج رئيسهم عبد الله ابن ابيّ عليهم ملكاً قبل قدوم النبي فتعطل هذا بأسلام الأنصار وهجرة النبي (ص) فساق هذا عبد الله الى النفاق وتولى زعامة الحركة ..

(٢) في القرآن آيات كثيرة ؛ وقد وصفت آية البقرة (١٣) اليهود بأنهم شياطين المنافقين اي الموسوسون لهم ...

فأن الآية نزلت بمناسبة دعوة النبي (ص) الأعراب المسلمين الى الاشتراك مع سائر المسلمين في زيارة الكعبة ، وهي الزيارة التي انتهت بصلح الحديبية فرأوا ان النبي (ص) والمسلمين سيتعرضون لمناوأة وحرب شديدة يغلبون فيها ، وقد لا يرجع منهم أحد ففضلوا التخلف .

«وفي السورة نفسها آية تصف حرصهم على الكسب حينما يكون مأمون العاقبة :

« سيقول لك المخلفون أذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا ... » ١٥

حيث كان النبي (ص) مزمعاً على غزو خيبر ، وكان المتبادر ان تكون الرحلة سهلة مضمونة الربح مأمونة العاقبة .

وفي سورة الحجرات آية نزلت بمناسبة جفاء سلوكي صدر منهم حيث جاء وفد بدوي الى المسجد ، فلما لم يجد النبي (ص) لم يبال ان أخذ يناديه من وراء حجراته بأسلوب جاف ناب عن الذوق :

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ... » ٤

وهذا متصل بطبعهم الذي أشرنا اليه . وفي السورة نفسها آيات أخرى تذكر منّهم على النبي (ص) بأسلامهم في حين كان اسلامهم سطحياً ولم يصبح بعد ايماناً قلبياً :

١ ــ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ... ١٤

٢ ــ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ أسلامكم ... ١٦

وهذا متصل كذلك بطبعهم المذكور .

على ان هناك آية تصف فئة من الأعراب قد نفذ الايمان الى قلوبها وأخذت أعمالها تصدر عنه كما ترى :

« ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات

عند الله وصلوات الرسول ... التوبة ٩٩
مما يدل على ان طبائع البدو لم تكن متحجرة ، وان أثر الصقل الأسلامي لم يلبث ان أخذ يبدو عليهم مما هو متسق مع طبائع الأمور.

الجنسية العربية

– ١٤ –

قد يكون من البدائه ان يقال ان أكثرية سكان الحجاز عربية . ومع ذلك فان مما لا يخلو من فائدة ان نذكر ان هذه الحقيقة مما تضمنت النصوص القرآنية تقريره ، فقد كررت الآيات كلمة « العربي » في صدد تقرير لغة القرآن ، وقررت ان الرسول الذي يرسله الله انما يرسله بلسان قومه ، وان الله انما انزل القرآن عربياً لقوم يعلمون ، ولينذر به أم القرى ومن حولها ، وانه يسره بلسانه لعلهم يتذكرون به ، وانه لو نزله بلسان أعجمي – غير عربي – لما فهموه ، ولاعترضوا وطلبوا تفصيله بالعربية كما ترى في الآيات التالية :

١ — إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقِلون ... يوسف ٢
٢ — وكذلك أنزلناه حُكماً عربياً ... الرعد ٣٧
٣ — وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ... ابراهيم ٤
٤ — نزَل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وانه لفي زُبر الأولين . أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ... الشعراء ١٩٣ / ١٩٩
٥ — كتاب فُصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ... فصلت ٣
٦ — ولو جعلناه قُرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ... فصلت ٤٣
٧ — وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها الشورى ٧

٨ – فأنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .. الدخان ٥٨

فهذه الآيات كما ترى تقرر صراحة وضمناً ان القوم الذين أرسل الله اليهم النبي (ص) عرب وانه منهم .

– ١٥ –

على أن هناك شيئاً مهماً نحب ان نضيفه الى بديهة عروبة أكثر اهل الحجاز وهو ان هذه الجنسية العربية لم تكن شيئاً قاصراً على أهل الحجاز بل كانوا من ضمن كيان عام عربي الجنس مستقر ومفهوم المدى في عصر النبي (ص) يشعر به العرب أنفسهم ، ويشعر به غير العرب من الامم المجاورة لجزيرة العرب ويعرفونه ، ويشتمل على أهل الجزيرة العربية أولا بما فيهم أهل الحجاز ، وثانياً على العرب الذين هم في أطراف الجزيرة الشمالية اي في البلاد الشامية والعراقية ، حيث كان فريق منهم غادياً ورائحاً ، وفريق آخر مستقراً ، وفريق بادياً يسكن بوادي الشام والعراق وفريق متحضراً يسكن المدن والقرى ، ويتمتع بالملك والسلطان ، ووسائل الحياة الناعمة المترفة ، وله الصلات القوية البارزة مع الساسانيين في العراق وفارس والرومانيين في الشام . وفي القرآن ما يمكن الاستناد اليه في تأييد هذا الذي نقرره .

ففي آيات ذكرت فيها كلمتا « قوم » و « أمة » موجهتين الى قوم النبي (ص) وامته وهم العرب كما ترى في مايلي :

١ – وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ... البقرة ١٤٣

٢ – وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل . الانعام ١٦

٣ – وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه . ابراهيم ٤

٤ – وانه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون . الزخرف ٤٤

واذا قيل ان كلمتي « قوم » او « امة » قد لا يفيدان معنى الكيان العام الشامل للجنس العربي لا سيما في ذلك العهد ، ولانها قد توجهان الى قبيل

او جماعة او ملة او اهل بيئة ما ، وان الآيات قد عنت اهل مكة
في القرآن تأييد آخر وذلك هو الآيات التي وردت فيها كلمات الاعجمي
مطلقة على غير العربي ، وهو التفريق الذي جرى عليه الاستعمال بصورة
واسعة وعامة بعد الاسلام ، بحيث اعتبر كل ما هو غير عربي جنساً ولغة
اعجمياً ، وفي سورة النحل آية في هذا الصدد وهي :

« ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشرٌ لسان الذي يلحدون اليه
اعجمي وهذا لسان عربي مبين ... ١٠٣

بالاضافة الى آيات الشعراء ١٩٣ — ١٩٩ وفصلت ٤٣ التي نقلناها
قبل قليل . فاستعمال هذا التعبير في المعنى الذى اشرنا اليه في آيات مكية
والآيات — جميعها مكية — دليل على ان هذا الاستعمال وهذا المعنى كانا
شائعين مفهومين قبل البعثة ؛ وشيوعها برهان قوي على استقرار معنى
اسم « الامة العربية » او « الجنس العربي » وشموله لمن كان يتكلم باللغة
العربية في الجزيرة ، ولمن ينتسب اليها ويتصل بها في المنشأ والانساب
والارحام من العرب الذين كانوا في اطراف الجزيرة ومهاجرها حتماً
وسواء منهم المتحضرون او البدو .

واذا كان ليس في الامكان تحديد وقت هذا الاستقرار في فهم العرب
وغير العرب كون العرب امة او جنساً واحداً فاننا لا نشك بانه يرجع
الى زمن غير قصير قبل البعثة ؛ لان تعبير « العرب » . اذا كان اطلق في
اول الامر على بعض قبائل العرب في بعض مساكنهم فانه لا يمكن ان
يكون قد اصبح تسمية عامة شاملة لكل العرب ، ومفرقة لهم عن الاعاجم
— غير العرب — كما جاء في القرآن الا قبل نزوله بمدة طويلة (١)

(١) إذا اردنا ان نستند الى روايات التاريخ التي ذكرت ان الرومانيين
حينما استولوا على « بطرا » او بلاد الحجر كما نظن ان القران قدسماها
قد سموها « الولاية العربية » امكننا ان نقول ان تسمية « العرب »
واطلاقها على العرب او فريق ممن ينتسب بالنشأة اليهم يقتضي ان يرجع الى —

هذا : ونريد ان نبحث في موضوع قرآني يتصل باصل سكان بيئة النبى (ص) . ففي القرآن آية مكية فيها اشارة الى حادثة اسكان ابراهيم (ص) بعض ذريته في منطقة البيت الحرام اي مكة ؛ وهي آية سورة ابراهيم (٣٧) التي نقلناها في مبحث سابق ؛ وفيه كذلك آيات تحتوي اشارة الى حادثة بناء ابراهيم واسماعيل (ص) الكعبة ، وفيها دعاؤهما بجعل البيت آمناً وبجعل ذريتهما امة مسلمة ، وببعث رسول منهم اليهم مما يقوم قرائن قوية على ان المقصود بالدعاء هم العرب :

« واذ جعلنا البيت مثابةً للناس وامناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى

— قرون كثيرة قبل الاسلام ؟ لان تسمية الرومان هذه كانت قبل سبعة قرون وطبيعي ان يكون تعبير « العرب » معروفاً ومطلقاً على هذه البلاد وسكانها قبل ذلك بامد غير قصير ايضاً .

اما تسمية بطرا باسم بلاد الحجر في القرآن فاننا نستند فيها الى ماجاء فيه من وصف الحجر وصفا مطابقا لوصف بطرا كما ترى :

« ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين . ولقد آتيناهم اياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا امنين ... سورة الحجر ٨٠—٨٢ » وبطرا هي مدينة او مساكن منحوتة في الجبال لاتزال اثارها العجيبة قائمة الى اليوم في وادي موسى في بلقاء شرق الاردن . والتسمية اعجمية ومعناها الحجر اوالصخر ووصف آيات القرآن مطابق لآثار بطراء . وفي جنوب هذه الناحية « مداين صالح » والنبي الذي ارسل الى اصحاب الحجر او الصخر او ثمود هو النبى صالح (ص) فالمنطق يؤدي الى تأييد كون بلاد الحجر المذكورة في القرآن هي نفس بلاد الانباط التي استولى عليها الرومان وسموها الولاية العربية ، وكون الوصف هو وصف عاصمتها التي سماها الرومان « بطرا » لانها منحوتة في الصخر وان تكون الكلمة ترجمة لكلمة « الحجر » التي يحتمل ان تكون هي الشائعة في ذلك العهد .

(١) وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمةً لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم . » البقرة ١٢٥ — ١٢٩

وفيه آية توجه الخطاب الى المسلمين الذين كانوا اذ ذاك هم العرب من بيئة النبي (ص) فقط تذكر ابراهيم (ص) بصفته ابيهم :

« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم . الحج ٧٨

هذا عدا ما فيه من آيات كثيرة أخرى سنوردها في الفصول الاخرى عن صلة ابراهيم (ص) بالكعبة وتقاليد الحج وملته ومواقفه لم ترد في التوراة .

واسلوب الآيات القرآنية مما نقلناه وما سوف ننقله يلهم ان محتوياتها ليست غريبة المعنى والموضوع على اسماع الذين تتلى عليهم ؛ وتسوغ القول ان أهل بيئة النبي (ص) كانوا يعرفون انهم ينتسبون بالابوة الى ابراهيم واسماعيل (ص) ويتداولون ذلك جيلا بعد جيل ، وان ما قاله بعضهم من ان ذلك انما كان من تقريرات قرآنية مدنية وبعد احتكاك النبي (ص)

---

(١) مقام ابراهيم هو مكان في فناء الكعبة مازال معروفاً بالتواتر الذي لم ينقطع . وفي سورة آل عمران آية جاء فيها « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً . ٩٦—٩٧ » وقد ذكر المفسرون والرواة أن هذه البينات هي حجر فيه اثر قدم تعارف العرب على انها اثر قدم ابراهيم (ص) حينما كان يرفع عليه قواعد الكعبة .

باليهود هو قول جزاف ؛ ولعل من الادلة الحاسمة على هذا ذكر القرآن مقام ابراهيم وبنائه في البيت الحرام ، لان هذا متصل بما كان معروفا ومتداولا بين العرب قبل نزوله .

ولسنا نعني نفي احتمال كون اليهود هم المصدر الاول لما كان يتداوله العرب من قضية انتسابهم بالبنوة الى ابراهيم واسماعيل (ص) ، فنحن نرجح هذا ، لان التوراة هي اقدم مدونة ذكرت ابراهيم واسماعيل (ص) وفيها قصة ولادة اسماعيل (ص) وطرده مع امه الى فاران كما فيها قصة نمو ذرية اسماعيل وانتشارها ، وتسميتهم بالاسماعيليين ، وفيها قرائن في مناسبات عديدة على ان العرب كانوا ممن تعنيهم هذه التسمية ايضاً ، وانما الذي ننفيه القول بان القرآن لم يقرر نسبة بنوة العرب لابراهيم واسماعيل (ص) ونسبة صلاتهم بالكعبة والحج الا بعد الهجرة وبعد اتصال النبي باليهود ، كانما يعني به ان العرب كانوا في جهل من هذا قبل البعثة .

اللغة العربية واللغة القرآنية

—١٧—

واذا كان من تحصيل الحاصل ان يقال ان لغة اهل الحجاز — اي اكثرية سكانها الساحقة — هي العربية ، وان هذا صريح في النصوص والملهمات القرآنية فان من المهم ان يضاف الى هذا بهذه المناسبة الحقائق التالية :

اولاً — ان اللغة القرآنية بوجه عام هي اللغة التي كان يتفاهم ويتخاطب بها اهل الحجاز في عصر النبي (ص)

ثانياً — ان هذه اللغة لم تكن لغة اهل الحجاز فقط ، بل كانت اللغة العامة المشتركة التي كان يتفاهم العرب بها في جميع انحاء الجزيرة واطرافها ومهاجرها القريبة من حيث الاجمال . وبكلمة اخرى ان اللغة القرآنية التي يصرح القرآن انها لغة النبي (ص) وقومه هي اللغة التي كانت شائعة ومفهومة في عصر النبي (ص) بين العرب حضرهم وبدوهم ، قاصيهم ودانيهم ، وليس بين عرب الحجاز فقط . فكما ان تسمية « العرب »

كانت تشمل جميع العرب في الجزيرة وخارجها وكان هذا امراً مفهوم المدى، وكما ان العرب كانت تجمع بينهم جنسية واحدة هي « العربية » فكذلك كانت اللغة العربية القرآنية لغة جميع العرب في الجزيرة وخارجها

وفي القرآن مستند وتأييد لهذا القول ايضاً . ففيه عدا الآيات التي اوردناها آيات عديدة اخرى تلهم انها اكثر شمولا واطلاقا :

١ - وكذلك انزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا . طاها ١١٣

٢ — ولقد ضربنا للناس في هـــذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون . الزمر ٢٨—٢٩

٣ — وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . الاحقاف ١٢

ولقد كان من المتواتر الذي بلغ حد اليقين :

اولا — ان النبي (ص) كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تفد على مكة في المواسم والاسواق، ويتحدث اليهم ويتلو عليهم آيات القرآن ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال ؛ ومن المتواتر ان مواسم الحج واسواقه لم تكن قاصرة على اهل الحجاز ؛ وخاصة قبيل البعثة النبوية، بل كان يفد اليها العرب من انحاء عديدة من غير الحجاز ايضاً ؛ ومنهم نصارى العرب من تغلب واياد وكلب وغيرهم

ثانيا — ان وفود العرب مشركين ونصارى ومجوساً كانوا يفدون (ص) الى المدينة بعد الهجرة النبوية . ولا سيما بعد انتصاراته وانتشار اسمه وكلمته من اليمن ونجد والاحساء والبحرين والعراق والشام وفلسطين بل ومن حضرموت ؛ فكان النبي (ص) يتلو عليهم آيات القرآن، ويخاطب معهم هو واصحابه الحجازيون — المهاجرون والانصار — بلغتهم التي هي القرآن بصورة عادية وطبيعية، وانه كان يرسل معهم قراء من

كبار صحابته الحجازيين ليعلموهم القرآن ، ويفقهوهم في الدين ، ويتولوا امر القضاء بينهم ، وجباية الزكاة منهم وتوزيعها على فقرائهم ، وانه كانت تكتب لهم الرقاع والعهود والوصايا والتشريعات بنفس هذه اللغة ؛ ولم ترد رواية ما تفيد انه كان تراجمة بين النبي (ص) وبينهم [1] .

ثالثا — انه كانت اتصالات مستمرة بين اهل الحجاز من ناحية وبين العرب في انحـــاء الجزيرة الاخرى وفي بلاد الشام والعراق ، بدوهم وحضرهم قبل البعثة ؛ وسواء في مواسم الحج في الحجاز ، او في رحلات التجارة وغيرها الى اليمن والعراق والشام من ناحية ثانية ؛ وانهم كانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة ومادام الحجازيون طرف في هذا فان لغتهم في هذه الاتصالات هي اللغة الحجازية وهي اللغة القرآنية

هذا من جهة ؛ ومن جهة ثانية فقد ورد في القرآن تعبير « اعجمي » لغير اللغة العربية مقابل تعبير « عربي » للغة العربية مما اوردناه سابقاً فهذا الجزم في اعتبار وتسمية اللغات غير العربية « اعجمية » يؤيد أن اللسان الذى كان يتكلم به العرب هو واحد غير متعدد اجمالا وهو لغة القرآن مادمنا نعرف معرفة يقينية انها هي لغة النبي (ص) واهل بيئته . ولو كان للعرب في عصر النبي (ص) لغات عديدة فيها تغاير جوهري لما كان هذا الجزم.

وما روي عن انه كان لبعض القبائل بعض التعابير والاستعمالات والمصطلحات والحروف والاهجية المغايرة بعض الشيء للغة قريش او اللغة القرآنية ليس من شأنه ان ينقض مانقول او يقف دليلا على وجود تغاير في لغة العرب في عصر النبي (ص) يمكن ان يحتمل معنى تغاير لغوي كبير او يحتمل تعبير « لغات متباينة » كما نفهمه من تبـاين اللغتين العربية والسريانية اللتين هما شقيقتان في الاصل او ما يقرب من ذلك .

واننا لنستطيع ان نقرر ان كل كلمة جاءت في القرآن وكل معنى ورد فيه وكل تعبير استعمل فيه حقيقي او مجازي وديني او اجتماعي او تاريخي او اقتصـادي او

---

(١) وننبه على ان هذا ينطبق على اهل اليمن ؛ وان الذين قالوا ان لغة اليمن في عصر النبي (ص) على الأقل كانت غير لغة الحجاز قد وقعوا في الوهم .

معاشي او علمي او فلكي كان العرب يفهمونه ويستعملونه من حيث الاجمال ، وانه لا يعقل ان تكون فيه كلمات او تعابير لم ينطق بها العرب او لم يستعملوها قبل نزوله — بقطع النظر عن السعة والضيق — بعد تلك النصوص القرآنية القاطعة ، ولا سيما بعد تعبير « أعجمي » لغير اللسان العربي مقابل « عربي » للدلالة على اللغة العربية وكذلك بعد الشواهد والبراهين التي اوردناها .

-١٨-

وما نقل عن ابن خالويه من ان العرب لم يعرفوا او يستعملوا كلمة فاسق او ماقاله غيره عن كلمة النفاق او غيرهما عن مافي القرآن من كلمات اعجمية ترد لاول مرة فيه لا يمكن ان يعقل ولا يمكن بالتبعية ان يصدق . ويكفيك ان تعرف ان كلمة الفسق ومشتقاتها قد وردت في نحو خمس وخمسين آية مكية ومدنية وان كلمة النفاق ومشتقاتها قد وردت في نحو ثلاثين آية من جملتها آية مكية لتعرف تفاهة مثل هذه الاقوال وقيمتها . يضاف الى هذا كله طبيعة مهمة النبي (ص) التي تقوم على مخاطبة طبقات الناس والقبائل وتلاوة القرآن عليها مما لا يمكن ان يتسق مع عقل ومنطق وحكمة ان يكون مايتلوه عليهم ، وهو دعامة نبوته ومعجزتها الكبرى بغير اللغة التي يفهمونها بتراكيبها ومفرداتها بل ولا في مستوى اعلى كثيراً من مستوى افهام المتوسطين منهم .

وهذا نقوله تفنيداً لما قاله بعض القدماء من ان لغة القرآن كانت أعلى من مستوى الافهام ، ولما قاله بعض المحدثين من المستشرقين وغير المسلمين خاصة من أن الذين آمنوا انما آمنوا لفصاحة القرآن اللغوية وسمو طبقته ، حيث كانت هذه الصفات فيه مما تبهر سامعيه ، ونذكر الذين قالوا القول الاخير خاصة بأن من المؤمنين الاولين في مكة من قد امن بالنبي (ص) على أثر الدعوة وقبل ان تعد الآيات او السور الصغيرة النازلة على الاصابع ، وان جلهم قد أمن قبل منتصف العهد المكي ، وان القرآن يذكر ان الكتابيين الذين آمنوا بالقرآن والنبي (ص) انما امنوا لما فيه من الحق والروحانية كما ترى في الآيات التالية :

٢ — واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما

عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين   المائده ٨٣

١ — وأن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمناً قليلا ...   آل عمران ١٩٩

٣ — «والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ... الرعد ٣٦

٤ — « قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين أوتو العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً ....   الاسراء ١٠٧/ ١٠٨

٥ — الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ...

القصص ٥٢/ ٥٣

وان اكثرية المكيين الساحقة ثم أكثرية الحجاز الساحقة ثم أكثرية العرب الساحقة قد ظلت جاحدة طيلة العهد المكي واكثر العهد المدني ، وقد سلخ النبي (ص) ثلاثة عشر عاماً في مكة يتلو القرآن على أهلها وعلى العرب وأسلوب القرآن المكي خاصة شديد الروعة ليعرفوا مافي قولهم من وهن .

— ١٩ —

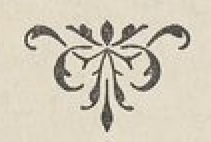
وواضح ان مانقوله ليس فيه مايقلل من سمو طبقة لغة القرآن وفصاحته وبلاغته الرائعة النافذة التي لايمكن ان تحمل كلاماً ولا ريباً ، كما انه لايمنع ان يكون في القرآن مفردات غير عربية أو غير قرشية اللهجة ، بل نحن نعتقد بوجود ذلك ، غير ان مما لانشك في كونه الحق هو ان الكلمات المعربة قد عربت وأصبحت جزءاً من اللغة العربية قبل الاسلام ، وان الكلمات او اللهجات غير القرشية قد دخلت في اللغة القرشية التي اصبحت لغة القرآن قبل الاسلام ايضاً ، وانه ليس من شأن هذا وذاك ان يمتنع معها على السامعين من غير قريش تذوق وفهم المفردات التي من هذا القبيل او مدلولاتها اجمالاً او تفصيلا ، وهذا كذلك مع

التسليم بأحتمال وجود طبقات من العرب في كل بيئة في عصر النبي (ص) حتى من القرشيين أنفسهم لم تكن مداركها تصل الى فهم كل معاني القرآن او لم تكن تستعمل او لم تكن تسمع بجميع الفاظ وتعابير وتراكيب القرآن . ومع التسليم ايضاً بأحتمال من كان يتكلم بلهجات غير لهجة القرآن من قبائل العرب بل ومتحضريهم من سكان المناطق البعيدة عن مكة ، او يستعمل تعابير والفاظاً وحروفاً ومصطلحات ليست من تعابير والفاظ وحروف ومصطلحات اللغة القرآنية مما هو طبيعي متسق مع بداءة الامور ، وليس مما يتناقض مع مدى وجوهر ماتقرره ايضاً .

وكما قلنا انه ليس من السهل او الامكان تحديد الوقت الذي اصبح اسم العرب فيه عاماً مشتركاً ومستقراً للجنس العربي فاننا نقول هنا انه ليس من السهل والامكان تحديد الوقت الذي أصبحت فيه اللغة العربية القرآنية لغة عامة ومشتركة ومستقرة لجميع العرب . ولكن من الحق ان نقول انه ليس من الضروري ان يرجع هذا الوقت الى ذلك الامد الطويل الذي يقتضى ان ترجع اليه تسمية « العرب » على ماشرحناه في البحث السابق . فان اللغة لايمكن ان تكون لغة تخاطب عامة مشتركة بين سكان الانحاء والبيئات المتباعدة تباعداً شاسعاً الا بعد تقارب وتواصل عامين ومستمرين وهو مالا سبيل الى التيقن منه الى زمن طويل جداً . ولكنا نستطيع ان نقول ان هذا الاشتراك قد اخذ يقوى ويستقر قبل البعثة النبوية بعوامل تلك النهضة التي نشطت آنذاك ، والتي تلمس في مظاهر وتقاليد كثيرة في حياة العرب ، والتي نرجح انها كانت رد فعل لغزو الأحباش لليمن ثم للحجاز . وانه لمن المعقول ان يكون لهذه الحركة وللأسفار التي تزايدت بعدها بين مختلف انحاء الجزيرة وبين هذه الانحاء واطراف الجزيرة في الشام والعراق ، ولاشتداد ارتباط العرب بالبيت الحرام والحج ، وللأسواق التي كانت تقام في مواسم الحج ، والتي كان يفد اليها والى الحج من بعدها كثير من العرب من مختلف الانحاء في ظل

هدنة الاشهر الحرم العامة أثر أولا في انتشار اشتراك اللغة وتوحدها وثانياً في تصفيتها وتهذيب حواشيها حتى وصلت في عهد البعثة النبوية الى الطبقة السامية التي نزل بها القرآن الكريم .

على ان الاشارة الى العربية والعجمية ، وما يمكن ان تحتويه من مفهوم اطلاق العربية على اللغة التي كان يتكلم ويتفاهم بها العرب على اختلافهم ، وتفريقها عن اللغات الأعجمية التي كان يتكلم ويتفاهم بها غير العرب يمكن ان تساعد على القول بأن سيادة اللغة القرآنية ترجع الى أمد غير قصير قبل البعثة اولا ، وعلى القول بانه لايكون مجال للاستغراب ولا للانكار اذا كنا نرى الشعراء الجاهليين من عدنانيين وقحطانيين ، ومضربين وربيعيين ينظمون أشعارهم بلغة واحدة ثانياً ، لاسيما اذا كانت حياة هؤلاء الشعراء لاتذهب في القدم كثيراً كما هو المروى عنهم .



الفصل الثاني

الحركة الاقتصادية والمعاش

نشاط مكة التجاري وسعته ــ اسفار تجار مكة الى مختلف الاقطار ــ اثر الكعبة والحج في نشاط مكة التجاري ــ نشاط المدن الاخرى التجاري ــ الربا في الحجاز ــ النقد ــ الذهب والفضة ــ الأعداد والحساب ــ المكاييل والأوزان ــ النشاط الزراعي وسعته ــ اثر اليهود المحتمل فيه ــ النشاط الصناعي ــ آيات القرآن في صدده ــ دلالة الآيات على وجود صناعات كثيرة وصناع متنوعين في الحجاز ــ اثر الجاليات الاجنبية في هذا النشاط ــ نصيب المرأة في النشاط الاقتصادي ــ معايش العرب ــ ترف بعض الطبقات نتيجة للنشاط الاقتصادي ــ دلائل وقرائن قرآنية ــ الأنعام وخطورتها في معايش العرب ــ عناية القرآن بها ودلالتها ــ اشتغال الحضر والبدو بها ــ الصيدواثره فى معايش العرب ــ استلهامات قرآنية في فنون الصيد وعادات العرب فيه ــ ما تلهمه الآيات في الاطعمة ومحرماتها وانواعها ــ ما تلهمه الآيات عن الشراب والخمر وانواعها ومجالسها ــ ماتلهمه الآيات عن عادات الميسر واثره ــ ما تلهمه الآيات في السمر والغناء ــ ماتلهمه الآيات في المساكن والاثاث ــ ما تلهمه الآيات في الكساء والازياء ــ ما تلهمه الايات في الحلي والتبرج ــ ما تلهمه الآيات في الاسلحة وفنون الحرب .

الحركة الاقتصادية

— ١ —

ان ما ذكرناه في الفصل السابق من مظاهر الحركة الاقتصادية انما كان بسبيل وصف المدن الحجازية ومظهرها ولم يكن من شأنه الالمام بهذه الحركة الماما كافيا كما هو واضح ؛ وهذا ما سوف نحاوله في هذا البحث.

ان من البديهي ان لا تشذ مدن الحجاز وقراها عن حياة المدن والقرى الاستقرارية التي تحمل الاعمال الدائمة وتتلازم مع الاعمال الزراعية والصناعية والزراعية .

والواقع ان في القرآن آيات كثيرة يستطاع الاستدلال بها على اشتغال اهالي الحجاز وقراه بهذه الاعمال اولا ، وعلى المدى الذي وصلوا اليه فيها .

النشاط التجاري

— ٢ —

فاهل مكة لم يستطيعوا ان يتعاطوا الاشغال الزراعية لجدب تربتهم وشح مياههم ، فاستعاضوا عنها بالضرب في مناكب الارض ، وشد الرحال للاسفار التجارية في الصيف والشتاء والبر والبحر ، يتوسطون في نقل السلع ومبادلتها بين الاصقاع الجنوبية والشمالية والشرقية اي اليمن والشام والعراق وفارس ومصر والحبشة وسواحل افريقية والهند من جهة ، ويشترون ما تحتاج اليه بيئتهم من السلع والعروض من جهة ثانية (١) . والذين لم يكونوا يرحلون كانوا يشاركون الراحلين ، او يستأجرون من يسافر لحسابهم ويتجر لهم ، وكانت هذه الحركة غير قاصرة على الاغنياء ، بل كان يساهم فيها المتوسطون ايضاً . فسورة قريش على ايجازها تنطوي على اشارة الى ماكان من نشاط اهل مكة العظيم في هذا المضمار اذا ما انعم النظر فيها .

(١) أن آية القصص ٥٧ تتضمن اشارة الى هذا المعنى حينما يمعن النظر فيها ايضا .

والآيات التي استدللنا بهـا على ماكان لاهل مكة من ثروات تلهم بطبيعة الحال ان هذه الثروات انمـــا توفرت لهم بفضل النشاط الاقتصادي الذي كانوا يقومون به ، والذى كان يتمثل في الدرجة الاولى في الحركة التجـارية الدائمة .

والآيات التى اوردناها في صدد ذكر المنطقة الساحلية تدل كذلك على نشاط اهل مكة — لانها مكية ولان اول المخاطبين بها اهل مكة ولان فيها ملمحات باسفارهم البحرية بالذات — التجاري البحري ، ومدى اتساع افقهم في الاعمال والمجازفات التجارية .

ولعل من مؤيدات اتساع هـذا الافق والنشاط التجاري البحري الهجرة الاولى التي قام بها المسلمون الاولون من مكة الى الحبشة والتي اشير اليها في آيتين من سورة النحل :

١ — والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنبوّئنّهم في الدنيا حسنة النحل ٤١

٢ — ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا . النحل ١١٠

فانه ليس من المعقول ان يهاجر المكيون الى بلد لم يكن معروفا عندهم اوعندبعضهم. وهذه المعرفة تدل على ان هذه البلاد كانت من البلاد التي اتصل بها المكيون في في اسفارهم التجارية البحرية .

وهناك آيات تدل على اسفارهم الى الجنوب حيث بلاد اليمن وحضرموت ومساكن عاد الاولى ، والى الشمال حيث بلاد ثمود ولوط اي طريق الشام وبلاد الشام والبلقاء وفلسطين ؛ فقد جاء في سورة الصافات :

« وإنّ لوطاً لمن المرسلين . اذ نجيناه واهله اجمعين . ألا عجوزاً في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وانـكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل افلا تعقلون . ١٣٤ — ١٣٨

وخرائب بلاد لوط هي على ضفاف بحيرة لوط في غوراريحا قرب بيت المقدس وهي المشهوره بخرائب سدوم وعمورة ، والتي مازالت موجودة الى الآن .

وقد جاء في سورة العنكبوت :

« وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . ٣٨

هذا بالاضافة الى صيغة آيات عديدة اخرى تلهم انها تخاطب اناساً يعرفون معرفة عيان ما يخاطبون به وبالتالي تلهم ان المخاطبين وهم المكيون في الدرجة الاولى قد زاروا الاماكن والآثار التي تضمنت الآيات الاشارة اليها كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يفقهون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . ٤٥ — ٤٦ الحج

٢ — ولقد اتوا على القرية التي أُمطرت مطرَ السَّوْء (١) أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً الفرقان ٤٠

٣ — اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون . الروم ٩

٤ — الم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخرَ بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا في البلاد . الفجر ٦ — ١١

ويلفت النظر الى مضامين الآيات حيث تلهم ان الاماكن المذكورة كانت في بلاد نائية عن مكة وكانت عامرة او صالحة للعمران حيث فيها القصور المشيدة ، والآثار العمرانية الكثيرة الدالة على القوة والبأس ، والتي كانت تتفوق في عمرانها وقوتها مدينة مكة تفوقاً كبيرا . ولعل في وصف فرعون بذي الاوتاد دلالة على

---

(١) المقصود منها خرائب بلاد لوط ايضاً التي كان المكيون يشاهدونها في رحلاتهم .

مشاهدة عيانية لمصر واهراماتها التي يرجحان الاوتاد قد عنتها . ولمصر وصف آخر هو من اوصافها الدائمة ، ويلهم انه مماشاهده المكيون المخاطبون :

١ — « ونادى فرعون في قومه قال ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون . الزخرف ٥١

٢ — « فاسر بعبادي ليلا انكم متبعون . واترك البحر رهواً انهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٣ — ٢٧ الدخان

— ٣ —

كذلك هناك آيات يمكن ان يستدل منها على ما كان في وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة ، وفي هدنة الاشهر الحرم من مجال لنشاط اهل مكة التجاري او من حافز قوي لهذا النشاط . منها هذه الآية :

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد المائدة ٩٧

حيث تقرر ان الله جعل هذه الاماكن والمناسك والشعائر وسيلة ليقيم الناس أودهم ، ويقضوا حاجاتهم ومصالحهم ، ويحصلوا على معاشهم ؛ اذ ان كل هـذا متضمن في جملة « قياماً للناس » اي فيه قوام حياتهم .

ولقد كانت اشهر الحج اشهرا حرما — يحرم فيها القتال — فكان العرب يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال الى مكة من كل صوب ، وكانت تقام بهذه المناسبة قبل ايام الحج وبعده اسواق تجارية في المنفسحات وعند المياه القريبة من مكة ، فينزل فيها الحجاج ، ويلبثون اياماً يقضون فيها حاجاتهم ، ويتبادلون سلعهم ، ويبيعون ويشترون ، ويتعارفون ويتسامرون . وهذا مما يمكن ان يستلهم من آيات سورة البقرة الآتية :

« الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولي الالباب . ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم . ١٩٧ — ١٩٨

وقد روى المفسرون والرواة ان ابن عباس كان كلما قرأ هذه الآيات الحق جملة « في المواسم » بعد كلمة « ربكم » كأنما كان يفسر المقصود بها حتى ظن ان الجملة من نفس الآية . وقد قالوا في تفسير الآيات ان المسلمين تحرجوا من تعاطي التجارة والتكسب في اسواق الحج كما كانوا يفعلون قبل الاسلام فسوغت لهم الآيةالثانية ذلك ، وتعبير « ان تبتغوا فضلامن ربكم» ومشتقاته في القرآن هو كناية عن السعي في اسباب الرزق واكتسابه. ولعل الآية الاولى الهمت المسلمين التحرج ، فنزلت الآية الثانية بالتسويغ والاذن . وعلى كل فالآية تلهم كما قلنا ان الناس كانوا يغتنمون فرصة موسم الحج للبيع والشراء ، وبالتالي انه كان يجري في هذا الموسم حركة تجارية واسعة . ولعل جملة « ليشهدوا منافع لهم » الواردة في احدى آيات سورة الحج :

وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا أسم الله في آيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا « البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ... ٢٧ / ٢٩

تلهم قيام هذه الحركة وانتفاع الناس بها بالاضافة الى ماتلهم الآية الاولى من قدوم الناس من كل صوب الى مكة في موسم الحج والانتفاع بمواسمه مما يؤيد ماذكرناه آنفاً .

ولقد روى المفسرون عن ابي عباس في صدد . آية البقرة (١٩٨) انه كانت تقام في اشهر الحج اسواق هي اسواق عكاظ ومجنة وذي الحجاز ، وجميعها قريبة من مكة ، والاخيرة قريبة من عرفات ، وان العرب كانوا يتجرون فيها ، وكانوا يقيمون في الاولى عشرين يوماً من ذى القعدة ثم ينتقلون الى الثانية فيقيمون فيها ثمانية عشر يوماً ثم يخرجون الى عرفات حيث تقام السوق الثالثة قربها .

فمن الطبيعي ان يجد أهل مكة في هذه المواسم والاسواق مجالا واسعاً للتجارة، وان يستعدوا لها في سائر شهور السنة ، يضربون في مناكب الارض براً وبحراً ، شمالا وجنوباً وشرقاً . صيفاً وشتاء ، ويغتنمون الفرصة فيحملون من بعض البلاد

مايروج في البلاد الاخرى من السلع والعروض .

— ٤ —

واذا كنا صرفنا ماتقدم من القول الى مكة وأهلها فلا يعني هـــذا ان المدن الحجازية الاخرى كانت في عزلة عن ذلك .

فللموانيء من حركة البحر حافز ومرتزق طبيعيان لاهلها ، ومما لاريب فيه أن سكانها كانوا يقومون بالاسفار ويضربون في عرض البحار ، وينتفعون بصيدها ، ويستخرجون لآلأها وخيراتها ، ويصلون بسفنهم الكبيرة والصغيرة الى الموانيء والثغور الاخرى في سواحل البحر الاحمر وغيره ، يحملون منهـا واليها السلع المتنوعة ، ان لم نقل انهم هم الذين كانوا الرئيسيين في هـذه الحركات والنشاط . واذا كانت الآيات المكية في اسفـار البحر والتكسب فيهـا قد عنت أهل مكة فمن باب اولى ان يكون اهل موانيء الحجاز ممن شملتهم هذه الاشارات ودخلوا في نطاق النشاط الذي انطوى فيها .

ويثرب والطائف وان كانتا في الاغلب تعيشـان على غلات الارض والبساتين والكروم ، وكانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب في مناكب الارض ابتغـاء الرزق بوجه الاجمـال ، فان من تحصيل الحاصل أن يقال ان طبيعة كونهما مدينتين ، وحولهما القرى والاعراب لابد من ان تجعل فيها حركة تجارية ، وان يكون فيها كثيرون قد تفرغوا للأعمال التجارية .ولقد وردت آيات مدنية عديدة فيها بعض الاوامر والنواهي والتشريعات مما يمكن ان يلهم انه كان في المدينة حركة تجارية غير ضعيفة ، ولا يرد ان تكون هذه الحركة او القوة فيها قد وجدت بعـد الهجرة النبوية كما لايخفى . واليك الآيات :

١ — ... ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً الى أجله ذلـكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ألا ان تكون تجارة حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها .... البقرة ٢٨٣

٢ — « قل ياايها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالـكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم .... النساء ٢٩

٣ — « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموهـا وتجارة تخشوْنَ كسادهـا ومساكن ترضونهـا أحب اليكم من الله ورسوله وجهـاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .... ٢٤ التوبة

٤ — « رجال لاتلهيهم تجـــارة ولا لهوٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة .... النور ١٦

٥ — « ياايها الذين أمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فأسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلـكم خير لـكم أن « كنتم تعلمون . فاذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوامن فضل الله واذكروا الله كثيراً العلكم تفلحون . واذا رأوْا تجارةً او لهواً انْفضوا اليها وتركوك قائماً قل ماعند الله خير من اللهو والتجارة والله خير الرازقين ... الجمعة ٩/ ١١

ولقد كانت المدينة كما قلنا طريق القوافل التجارية المكية ، ومن المستبعد ان يبق تجارهافي غفلة عن الاسفار التجارية مثل أهل مكة : ولقد كان في المدينة كما قلنا جالية اسرائيلية كبيرة ، ومن المستبعد ان لم نقل من المستحيل ان لاتكون قد ضربت بسهم وافر فى النشاط التجاري في الحجاز عامة وفي المدينة خاصة ، وسواء كان بالرحلات التجارية او في الاسواق المحلية والموسمية ، ومن الراجح ان يكون العرب في المدينة قـد سـايروهم في نشاطهم هذا على اختلاف نواحيه ان لم نقل من المحقق .

وشيء ممـا قلناه ينطبق في مانعتقد على مدينة الطائف ايضاً ، لاسيما وقد كانت هي الاخرى على طريق العراق واليمن التجارية ، وكان أهلها على صلة وثيقة بأهل مكة ومنطقتها واسواقها المحلية والموسمية بالنظر الى قرب المدينتين من بعضها .

— ٥ —

ولعل مما يتناسب مع الكلام أن يذكر الربا ؛ لأنه مظهر من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية . ولقد وردت آيات عديدة يمكن الأستدلال بها على ان أهل مدن الحجاز العرب واليهود على السواء كانوا يتعاطونه ، وعلى انه كان راسخاً عندهم يعوّلون عليه تعويلاً كبيراً في تنمية ثرواتهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثل الربا وأحلّ الله البيعَ وحرّم الربا . . .
٢٧٧ البقرة

٢ — يا ايها الذين آمنو ا اتقوا الله وذَروا ما بقي من الربا أن كنتم مؤمنين فأن لم تفعلوا فأْذنوا بحرب من الله ورسوله فأن تُبتم فلكم رؤسُ أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون . . . ٢٧٩ البقرة

٣ — يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون. . . ١٣١ آل عمران

٤ — فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموالَ الناس بالباطل ...
١٦٠ — ١٦١ النساء

٥ — وما آتيتم من ربا ليرُبو في أموال الناس فلا يربو عند الله ... ٣٩ الروم

وآية الروم مكية ، فهي والحالة هذه موجهة إلى أهل مكة خاصة ؛ والآيات الاولى مدنية . غير ان من المروي ان آيات البقرة من اواخر ما نزل من القرآن وبعبارة أخرى قد نزلت بعد الفتح المكي ، واذا صح هكذا فتكون الحملة التي تضمنتها موجهة ضد المرابين المكيين ايضاً . ومن المروي ان النبي عليه السلام اعلن في حجة الوداع اسقاط ربا عمه العباس وكان من اغنياء وتجار مكة . على ان هذا لا يعني ان لا يكون أهل المدينة العرب قد تعاطوه كما نصت أية النساء بصراحة على تعاطي اليهود له ؛ فهم واليهود في مدينة واحدة ، ولا بد من انهم اقتبسوه منهم بالاضافة الى كونه من مستلزمات الحركة الاقتصادية والتجارية التي لم يكونوا في عزلة عنها . والى هذا فان آية آل عمران قد نزلت قبل الفتح المكي ، والنهي فيها موجه الى المسلمين في المدينة بطبيعة الحال .

والآية ٢٧٩ شديدة الانذار ؛ مما يدل على رسوخ الربا رسوخاً شديداً كما قلنا وعلى كونه يشغل حيزاً خطيراً من حياة المدن الحجازية الاقتصادية . وآيات البقرة وآل عمران قوية أيضاً وتلهان هذا كما هو المتبادر.

— ٦ —

كذلك مما يتناسب مع الكلام ان يذكر النقد الذي كان دارجاً . وفي القرآن بعض آيات في هذا الصدد :

١ — ومن أهل الكتاب من أنْ تأمنه بقنطار يُؤده اليك ومنهم أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك ألا ما دمت عليه قائماً .. ٧٥ آل عمران

٢ — وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين ... يوسف ٢٠

فورود اسمي النقدين الذهبي والفضي والمعروفين يقيناً انهما اسمان لسكة مضروبة دارجة في بلاد الشام والعراق ومصر ولو في المعرض الذي جاءا فيه يجعل من السائغ الجزم بالاستدلال القرآني بانهما كانا معروفين على هذا الوجه في عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ، وانهما كانا دارجين فيها . ومن تحصيل الحاصل ان نقول انهما لم يكونا اسمين لنقدين حجازيين مقتبسين اقتباساً ؛ لأنه لم يكن في الحجاز دولة لها سكة خاصة ؛ وان الدارج في الحجاز انما كان الدرهم والدينار الاجنبيين ؛ ولعل في هذا دلالة على مقدار ما كان من سعة الصلاة التجارية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر والعراق ايضاً . وليس من غير المحتمل ان يكون تجار الحجاز وأغنياؤهم كانوا يستصنعون لحسابهم في دور الضرب العراقية والشامية الدراهم والدنانير ؛ لا سيما والتاريخ الاسلامي يعلمنا ان هذه العادة كانت جارية في عهد الأمويين والعباسيين .

— ٧ —

هذا ولقد ذكر الذهب والفضة في القرآن في مناسبات عديدة . منها ما جاء على سبيل الاشارة اليها كثروة محببة محروص عليها وذلك في آية آل عمران ١٤ التي نقلناها سابقاً . ومنها الآية التالية :

والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... التوبة ٣٤

وقد جاء ذكرها مراراً في معرض استعمالهما حلياً وأواني في الدنيا وفي الآخرة

كما نرى في الآيات التالية :

١ — يُحلَّوْنَ فيها من أساور من ذهب ...	الكهف	٣١
٢ — فلولا أُلقيَ عليه أسْوِرَةٌ من ذهب ...	الزخرف	٣١
٣ — يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهب وأكواب ...	«	٧١
٤ — ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضة وأكواب ...	الانسان	١٥
٥ — وحُلوا أساورَ من فضة ...		٢١

فهذا وذاك يدلان على أن أهل بيئة النبي (ص) وعصره كانوا ينظرون الى هذين المعدنين كمقياس للثروة والغنى والترف،وكانا عندهما من المحبب والمحروص عليه شأنهم في ذلك شأن البيئات المجاورة او بالاحرى البيئات المتحضرة في ذلك اطلاقاً.

وهذا ينقض ما قاله بعض الكتاب من أن العرب لم يكونوا يعرفون الذهب او كانت معرفتهم بالفضة اوسع من معرفتهم بالذهب كما هو ظاهر .

— ٨ —

ولقد ذكر في القرآن انواع الأعـداد من مضاعفـات وكسور ، من أحاد وعشرات ومئـات وألوف وعشرات الالوف ومئـات الالوف ، ومن نصف وثلث وربع وخمس وثلثين وسدس وثمن وعشر ومعشار كما ترى في الآيات التالية :

١ — للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ...	البقرة	٢٢٦
٢ — والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ...	«	٢٢٧
٣ — يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً	«	٢٣٤
٤ — كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأة حبة ...	«	٢٦١
٥ — قال بل لبثت مأة عام...	«	٢٥٩
٦ — ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين .	آل عمران	١٢٤
٧ — فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ...	النساء	٣

٨ — يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نسـاء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك أن كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث

فإن كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها اودين ... النساء ١١

٩ — ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فأن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم أن لم يكن لكم ولد فأن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ او أخت فلكل واحد منهما السدس فأن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ... النساء ١٢

١٠ — قال فأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ... المائدة ٢٦

١١ — واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الانفال ٤١

١٢ — ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين وان يكن منكم مأة يغلبوا الفاً ... الانفال ١١ ٦٥

١٣ — سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ... الكهف ٢٢

١٤ — وارسلناه الى مأة الف او يزيدون ... الصافات ١٤٧

١٥ — في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ... المعارج ٤

ونعتقد ان هذا منتهى معروفاً في العالم اذ ذاك ، وفيه دلالة على سعة العمل والأفق والصلات ؛ كما فيه نقض لما حاوله بعض الكتاب من تعميم جهل العرب لما فوق الالف بسبب رواية متهافتة في حد ذاتها . (١)

---

(١) الرواية هي انواحداً من المسلمين سمع النبي يبشر بفتح العراق فاستوهبه بنت عظيم الحيرة وكانت مشهورة بالجمال فوهبها له . فلما فتحت الحيرة جاء الرجل الى القائد وأشهد على هبة النبي فنفذ القائد الهبة . ولما دخل الرجل عليها وجدها عجوزاً فقالت له وما تريد من عجوز فدعني اشتر نفسي فوافق فقالت له اطلب ماتريد فقال الف درهم فنقدت له ولما خرج لامه رفاقه فقال ما علمت فوق الألف شيئاً . وتهافت الرواية خاصة من ناحية عدم معقولية جهل الرجل لما فوق الالف معان ـ

وفي الآيات التي نقلناها ما يلهم ان العرب كانوا يعرفون الأعمال الحسابية من ضرب وقسمة وجمع وطرح اذا ما أنعم النظر فيها وخاصة في ما جاء في صدر الارث

— ٩ —

اما المكاييل والاوزان التي كانت مستعملة في عمليات البيع والشراء في بيئة النبي (ص) وعصره — وعلاقتها بالحركة التجارية معروفة — فان القرآن لم يذكر منها بالتعيين الا القنطار والذراع على غموض في مقدارهما كما جاء في آيتي آل عمران (١٤ و ٧٥). اللتين نقلناهما سابقا. واية سورة الحاقة التالية:

« في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » ٢٣

وقد ذكر الميزان والكيل والقسطاس في مناسبات اكثرها جاء في معرض الحث على الامانة والاستقامة في الوزن والكيل كما ترى في الآيات التالية:

١ — واوفوا الكيل والميزان بالقسط. الانعام ١٥٢

٢ — واوفوا الكيل والميزان اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم. الاسراء ٣٥

٣ — واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان. الرحمن ٩

٤ — ويل للمطففين. الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون. واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون. المطففون ١—٣

وتدل هذه الايات على انه كان في بيئة النبي (ص) وعصره مكاييل وموازين متنوعة وان لم يمكن الاستدلال على مقاديرها وانواعها بالتحديد، وانه كانت موازين غير مضبوطة واخرى مضبوطة، وانه كان يتبع اثناء استعمال الموازين والمكاييل حيل معروفة مشهودة. ولعلنا لا نجوز اذا قلنا ان تكرر التوصية القرآنية يدل من ناحية ما على فشو هذه الحيل في الاوساط التجارية، وعلى سعة الحركة التجارية نفسها ايضاً. ومن ايات في سورة القارعة:

—يبدو انه قد ساح وتقلب في مختلف البلاد وربما كان تاجراً كما ان القرآن المكي قد احتوى ذكراً للخمسين ألفاً وللمأة الف ولا يعقل ان لا يكون الرجل قد علم ذلك، والرواية مروية عن العهد المدني. هذا بالاضافة الى وهن التعميم لأن الرواية نفسها تذكر أن رفاق الرجل لاموه اي انهم لم يكونوا يجهلون لما فوق الالف.

« فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » ٦—٩

يستلهم ان اساس الميزان عند العرب هو الكفتان كما هو المتعارف في كل مكان وزمان. وقد تعددت الآيات المماثلة في معناها لهذه الآيات فاكتفينا بالذى نقلناه .

النشاط الزراعي

— ١٠ —

ونقول بالنسبة للاعمال الزراعية في المناطق التي جادت تربتها وغزرت مياهها والتي مرت الاشارة اليها أن الاوصاف التي احتوتها الآيات التي نقلناها سابقاً عن الزروع والكروم ، والجنات المعروشات ، والحدائق البهجة ، وانواع الاشجار من اعناب ونخيل وزيتون ورمان وفواكه ، وحب الحصيد ، والزرع ذي الحب المتراكب الخ تدل على ان أهل تلك المناطق قد ضربوا بحظ غير يسير في الاعمال الزراعية والتفنن فيها ، وانهم لم يكونوا في هذا المجال في الطور البدائي الذي يكون قاصراً على الزراعات الموسمية الساذجة .

وفي القرآن آيات غير التي اوردناها سابقاً تحتوي اوصافاً تتصل بالأعمال الزراعية ونتاجها وانواع غلاتها وأن تكن وردت في معرض التشبيه والتمثيل والأخبار فانها يمكن ان تضاف الى تلك الاوصاف وان يستدل بها على ان أهل المناطق الزراعية في الحجاز قد كانوا متقدمين أشواطاً غير قصيرة في مجال الأعمال الزراعية وأنهم شاهدوا وألفو ومارسوا هذه الاوصاف والأسماء ، كما ان وجودها في اللغة العربية القرآنية التي هي لغة بيئة النبي (ص) القربى بنوع خاص دليل على ذلك في حد ذاته ، حيث ان جميع ماجاء في القرآن من أسماء واوصاف ومصطلحات ومعربات كان مألوفاً معروفاً قبل نزول القرآن .

واليك هذه الآيات :

١ = فادْع لنا ربك يُخرجْ لنا ما تنبت الأرضُ من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ... البقرة ٦١

٢ — مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأة حبة ... البقرة ٢٦١

٣ — مثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فأن لم يصبها وابل فطل(١) البقرة ٢٦٥

٤ — فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً (٢) ...

البقره ٢٦٤

٥ — أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت ... البقرة ٢٦٦

٦ — وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً . وفجرنا خلالهما نهراً ... الكهف ٣٣/٣٤ (٣)

فجنات الاعناب التي تكون محفوفة بالنخيل ويكون في ذات الوقت زروع أخرى بينها ، والجنات المعروشات ، والحدائق ذات البهجة ، وتنوع الاشجار المثمرة . والزروع الموسمية من الحبوب الى البقول ـ وكل هذا قد ورد في الآيات المنقولة ـ يمكن ان يقوم برهاناً على ذلك الحظ غير اليسير الذي كان لأهل تلك المناطق في الأعمال الزراعية المتنوعة . ولا بد من ان هذه المناطق كانت تمون مكة والمدن والقرى الأخرى التي لاتستطيع توفير حاجتها الغذائية بنفسها بسبب جدب التربة وشح المياه ، كذلك فأنه لابد من ان سكان البادية كانوا يتناولون من هذه المناطق ماهم في حاجة اليه من غذاء ولاسيما التمر ، وقد لاحظ القاريء من دون ريب كثرة ذكر النخيل في الآيات .

---

(١) الأرض الجيدة التربة تؤتي أكلها ان أصابها وابل اواصابها طل : اي رذاذ.

(٢) صفوان — صخر ، صلداً ، قاسياً اي ان الوابل يجرف التراب القليل الذي يكون على الارض الصخرية فلا يكون له نفع :

(٣) بعض المفسرين رووا ان هذا المثل لحادث واقعي في اليمن او الحجاز .

ونرجح أنه كان للجاليات اليهودية التي استقرت في الحجاز ولا سيما في يثرب ونواحيها ، وكذلك للأسفار التي كان يقوم بها أهل الحجاز الى بلاد الشام أثر غير يسير في هذا النشاط والتفنن الذي كان يبدو في مناطق الحجاز الزراعيه . فبلاد الشام جيدة التربة ، وفيرة المياه ، متنوعة المناخ ، تصلح لشتى الانواع الزراعية ، وقد كانت متقدمة في الحضارة والعمران على الحجاز ، ومن المعقول ان يكون التفنن بلغ فيها درجة عالية . واليهود جاؤوا الى الحجاز منها على الأرجح بخبرتهم وممارستهم ، فامتلكوا الارضين وعمروها ، وتفننوا في الاعمال الزراعية فيها بما كان لهم من خبرة ومران . وقد أشارت آيات قرآنية نقلناها سابقاً الى ما كان لليهود في يثرب وحواليها من أرض وقرى واموال ونخيل أفاءها الله في النهاية على رسوله .

ولا نستبعد ان اليهود كانوا يستأجرون بعض العمال العرب ، وانه نشأ مع الزمن طبقات من العمال الزراعيين كان لهم أثر في النشاط الزراعي في الحجاز وخاصة في منطقة يثرب ، ولا نستبعد ان يكون كبار المزارعين العرب قد استحضروا بعض الخبراء والعمال الزراعيين من بلاد الشام والعراق واستخدموهم[١] في أراضيهم ومنشآتهم الزراعية ، وان يكون تعلم العرب منهم فنونهم او بعضها ، هذا بالاضافة الى مايكون أصحاب الارض والاغنياء العرب قد اقتبسوه بأنفسهم سواء في اسفارهم الى بلاد الشام ومصر والعراق واليمن ، حيث كانت هذه البلدان تعنى بالزراعة وتتفنن فيها ، او في مارأوا اليهود بين ظهرانيهم قد فعلوه واختطوه ، فكان من كل هذا تلك الصورة التي تلهمها الآيات القرآنية للنشاط الزراعي في عصر النبي (ص) وبيئته .

---

(١) في ابن هشام . ج ٢ ص ٣٠ ذكر لرجل من العراق اسمه عداس كان خادماً في بستان لاحد زعماء الطائف . ونحن لا نستبعد ان يكون خبيراً زراعياً جلب اواشترى خصيصاً كما نرجح ان له امثالاً كثيرين .

النشاط الصناعي

- ١٢ -

اما بالنسبة للحركة الصناعية فنقول ان في القرآن المكي والمدني آيات كثيرة احتوت مسميات عديدة ومتنوعة مما هو من وسائل معايش وحياة المدن كما ترى في مايلي :

١ — فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ... النساء ١٠١

٢ — ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ... المائدة ٩٧

٣ — اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ... « ١١١

٤ — ولو نزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ... الأنعام ٧

٥ — لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ... الأعراف ٤٠

٦ — تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ... الأعراف ٧٤

٧ — وجاؤوا على قميصه بدم كذب ... يوسف ١٨

٨ — وآتت كل واحدة منهن سكيناً ... « ٣١

٩ — فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم . النحل ٢٦

١٠ — ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً « ٦٧

١١ — والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين ... النحل ٨٠

١٢ — وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم (١) ... النحل ٨١

١٣ — يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وأستبرق متكئين فيها على الأرائك ... الكهف ٣١

١٤ — فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ... طاها ١٢

١٥ — هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ... الحج ١٩

---

(١) كناية عن الفروع والمغافر .

١٦ — وبئر معطلة وقصر مشيد ... الحج ٤٥

١٧ — يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ٢٥

١٨ — الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة (١) فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ... النور ٣٥

١٩ — ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن .. النور ٣١

٢٠ — والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ... النور ٦٠

٢١ — قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ... النمل ٣٨

٢٢ — ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم ... لقمان ٣٧

٢٣ — يدنين عليهن من جلابيبهن ... الأحزاب ٥٩

٢٤ — ان اعمل سابغات وقدر في السرد ... سبأ ١١

٢٥ — يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات (٢) ... سبأ ١٣

٢٦ — غرف من فوقها غرف مبنية ... الزمر ٢٠

٢٧ — اذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون ... غافر ٧١

٢٨ — لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج (٣) عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤن ... الزخرف ٣٤

---

(١) ان المفسرين قالوا أن المشكاة هي الكوة التي يوضع فيها المصباح ولكن روح الآية يلهم انها أناء شفاف يوضع فيها المصباح .

(٢) جفان جمع جفنه وهي قصعة الطعام الكبيرة والجواب جمع جابية وهي البئر الصغيرة والقدور جمع قدر .

(٣) المعارج ـ السلام او الادراج

٢٩ — يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهب واكواب ... الزخرف ٧١

٣٠ — مُحلقين ومقصرين لا تخافون ... الفتح ٢٧

٣١ — ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ...

. الحجرات ٤

٣٢ — والطور وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع ... الطور ١/٥

٣٣ — خُلق الانسان من صلصال كالفخار ... الرحمن ١٤

٣٤ — يرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس ... « ٣٥

٣٥ — متكئين على فرش بطائنها من استبرق ... « ٥٤

٣٦ — حورٌ مقصوراتٌ في الخيام ... « ٧٣

٣٧ — على سرر موضوعة متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون . بأكواب وأباريق . وكأس من معين ... الواقعة ١٥/١٨

٣٨ — فضرب بينهم بسور له باب ... الحديد ١٣

٣٩ — وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... « ٢٥

٤٠ — ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ... الحاقة ٣٢

٤١ — ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديراً ... الانسان ١٦

٤٢ — في لوح محفوظ ... البروج ٢٢

٤٣ — فيها سرر مرفوعة . وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارق مصفوفة . وزرابي مبثوثة ... الغاشية ١٢/١٦

٤٤ — في جيدها حبل من مسد ... المسد ٥

— ١٣ —

في هــذه الآيات ذكر للمساكن والبيوت والغرف والحجرات والأبواب والظهور والسقوف والقواعد والمعارج ؛ وللأثاث المتنوع الذي يصنع من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها ؛ وللأسرة والأرائك والنمـارق والزرابي والفرش

وبطائنها ؛ وللأواني المتنوعة من قدور وجفان وصحاف وأكواب ، وأباريق وكؤوس ومصابيح ومشاك وزجاج ، وللحلي والزينة بأنواعها ، وللخيام والبيوت التي تصنع من جلود الانعام ، وللثياب الحرير وغير الحرير والجلابيب والخُمُر والسرابيل والقمصان والنعال ، وللرماح والسلاح والسكاكين والدروع والسلاسل والاغلال ، ولادوات الكتابة من قرطاس وأقلام ومداد ورقوق ؛ وللشراب الذي يصنع من ثمرات النخيل والاعناب ، وللحلاقة ، ولمعادن الحديد والنحاس والذهب والفضة والصلصال الفخار ... وورود هذه الاعيان والمسميات وأوصافها ووجوه استعمالها في القرآن يدل على انها مما كان معروفاً لاهل بيئة النبي وعصره قبل نزوله، حتى ولو جاء بعضها في معرض التمثيل والاخبار ووصف نعيم الجنة ، لان القرآن لايمكن أن يخاطب الناس الا بلسانهم وبما يعرفونه ، وكثير من الآيات قد خوطب بها العرب والحجازيون اهل بيئة النبي هم أول من خوطبوا بها ، واحتوت مايلهم ان مافيها من مسميات هو من مستعملاتهم او معروفاتهم او مألوفاتهم .

ويجب ان يضاف الى هذه المسميات أدوات الملاحة والزراعة المتنوعة ، التي لاشك في أن كثيراً منها كان موجوداً تبعاً لوجود الملاحة والزراعة الذي الهمته الآيات التي نقلناها سابقاً ، وان يضاف كذلك الموازين والمكاييل المتنوعة التي كانت موجودة مستعملة في البيع والشراء على ما ذكرناه في بحث سابق وأوردنا الآيات التي تلهم وجودها ايضا .

وواضح ان اكثر هذه الادوات والحاجات مما يتطلب وجود طبقات من الصناع في أعمال البناء ونحت الحجارة ، وفي الحدادة والنجارة والتنجيد والصياغة والحياكة والخياطة والنحاسة والسروجية ، وغير ذلك مما تتطلبه الحاجات التي لابد منها لحياة المدن مها كانت درجتها من الحضارة ومما ذكر اكثره في القرآن حسبما اقتضته الحكمة واتسق مع ظروف البيئة ومألوفاتها .

ومها كانت اسفار الحجازيين البرية والبحرية ، فانه لايعقل ان يجلبوا كل مايحتاجون اليه من الادوات والحاجات المتنوعة الكثيرة مصنوعاً جاهزاً ، وان يكونوا في هذه المواد التي كثير منها حاجات عامة ويومية عيالاً على المجلوب من

الخارج ، لاسيما وليست المواصلات بينهم وبين البلاد التي تقدمت عليهم في الحضارة والصناعات سهلة قريبة المنال .

فبناء على هذا كله فاننا نستطيع أن نقول ، وتؤيدنا دلالات الآيات القرآنية وقرائنها وملهاتها انه كان في مدن الحجاز طبقات من الصناع يقومون بكثير من الحاجات ، ويسدون الفراغ في الاعمال الصناعية . واذا كان أهل الحجاز اعتادوا ان يجلبوا شيئاً مما كانوا يستعملونه في حاجاتهم البيتية والمعاشية من المصنوعات والادوات فالارجح انهم كانوا يقتصرون في هذا على مالا يمكن لصناعهم ان يقوموا به او يجيدوه ، وعلى مايكون من حاجات ترف كمالية دقيقة الصنع من أدوات الزينة والزخارف والحرير والاواني الدقيقة ، وبعض أنواع السلاح والنسيج .

ولقد كان في مدن الحجاز جاليات أجنبية يهودية ونصرانية ، سورية ومصرية وحبشية ورومية وعراقية سيأتي البحث عنها في فصل آخر ، واننا نرجح ان من هؤلاء من كان يقوم بكثير من الاعمال الصناعية في مدن الحجاز ويسد فيها فراغا غير يسير ، وانهم كانوا نواة ومعلمين لطبقات من الصناع المحليين كذلك .وفي روايات السيرة والتفسير أشارات الى شيء من هذا ، ولعلنا لانخطيء اذا قلنا ان التكسب والعمل في ساحات النشاط الاقتصادي لم يكن خاصاً بالرجل ، وانه كان للمرأة مشاركة فيها او في بعضها باسلوب ما ، مع ما يمكن ان يكون من ضيق الحيز الذي كانت تشغله ، والغبن الذي كان يلحقها مما هو متسق مع الذهنية العامة التي كانت سائدة في المجتمع العربي على ماسوف نبينه في الباب الثاني .

ولعل في آيات النساء :

يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً .ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً . ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ...

٢٩—٣٢

قرينة على مانقوله من مختلف نواحيه ، وهـذا بالاضافة الى ما نقلته الروايات المؤيدة التي منها ما هو في درجة اليقين من ما كانت عليه السيدة خديجة من ثروة طائلة وما كان من اشتغال النبي (ص) في التجارة لحسابها لقـاء اجرة معينة قبل بعثته بمدة طويلة .

معايش العرب

— ١٤ —

من الطبيعي ان تكون تلك الاسفار والرحلات التجارية التي كان يقوم بهـا الحجازيون عامة وأهل مكة خاصة الى مختلف الاقطار قد يسرت لهم الاتصال بالعالم الذي كان أرقى حضارة منهم واكثر استمتاعاً بحياة الترف والنعيم ، وانهـم لا بد من ان يكونوا قد اقتبسوا كثيراً من مظاهر ووسائل تلك الحضارة وهذه الحياة ، وان ما نما وتـكاثر في أيديهم من أموال وثروات نتيجة للنشاط التجاري من ناحية والنشاط الزراعي من ناحية ثانية ، وما كان من توفر اليد الصانعة في مختلف الاعمال من ناحية ثالثة كان مما ساعد على ذلك .

ودلالات الآيات القرآنية وقرائنها تؤيد هذا القول الى حد غير يسير . ففيهـا وصف لزعماء مكة بالترف كثيرا في الآيات التالية :

١ — وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهـا القول فدمرناها تدميراً .. الاسراء ١٦

٢ — بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون ... المؤمنون ٦٣/٦٤

٣ — انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصـرون على الحنث العظيم ... الواقعة ٤٥/٤٦

وآية آل عمران (١٤) التي نقلناها سابقاً وان كانت تصف الاشيـاء المحببة للطبيعة الانسانية بوجه عام الا انها تلهم ان الاوصاف ممـا كانت مشهودة الاثر في عصر النبي وبيئته كما هو المتبادر ، وقداحتوت الآيةمتنوع وسائل الترف كمالايخفى .

وفي بعض الآيات التي نقلناها في معرض التدليل على عظم ثروات بعض الزعماء

مثل آيات الكهف ٢٨ ومريم ٧٣ وطاها ١٣١ والبلد ٦ مايدل على ان اصحابها كانوا يستمتعون بها استمتاع ترف ونعيم ايضاً .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان في القرآن اوصافاً كثيرة لما في الجنة من نعيم الحياة ووسائل الترف ، ولذائذ النفوس . ومن المعقول ان يكون الذين خوطبوا بهذه الاوصاف لاول مرة اي أهل بيئة النبي (ص) وعصره قد عرفوا المسميات والوسائل والمظاهر الموصوفة ، ومن المرجح ان يكون طبقات منهم قد عاشوا عيشة ترف ونعيم تقارب تلك الاوصاف بعض المقاربة ، وانهم قد عرفوا معرفة ممارسة واستعمال وتمتع الغرف العالية ، والقصور ، والحرير على انواعه من سندس الى استبرق ، والسرر الموضونة والفرش المبطنة بالحرير ، والأرائك ، والنمارق ، والزرابي ، والحلي المذهبة والفضة واللؤلوء والمرجان والدر والياقوت ، واواني الذهب والفضة من صحاف وأكواب واباريق ، والزجاج والمصابيح والمشاكي والقوارير والزخارف المتنوعة مما ذكر في الآيات التي نقلنا بعضها في مبحث الحركة الصناعية والتي ننقل بعضها فيما يلي :

١ — كأنهن الياقوت والمرجان — الرحمن ٥٧

٢ — متكئين على فرش بطائنها من استبرق . — الرحمن ٥٤

٣ — على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون ، وحورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون — الواقعة ١٥ — ٢٣

٤ — وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الارائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريراً . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عيناً فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . واذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً

طهوراً .   الانسان ١٢ - ٢١

فانت اذ تمعن في الاوصاف المذكورة في هذه الآيات وتلك تتيقن انها اوصاف مألوفة في الحياة الدنيا ، وان الذين خوطبوا بها لاول مرة لم يكونوا غرباء عنها . وهذا هو المتسق مع اسلوب القرآن وغاياته . حيث يكون تأثير الترغيب والترهيب اشد اذا كان بما هو معروف من وسائل اللذة والألم وآثارها المألوفة من قبل السامعين . وفي سورة البقرة آية تساعد على هذا الاستدلال حيث تقرر ان ما يرزق به اهل الجنة يكون متشابهاً لما كانوا يرزقون به فيتعرفون عليه ويقولون هذا مثل ما كان عندنا ومثل ما كنا نرزق به ، وهذه هي الآية :

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كل ما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً
البقرة ٢٥

ولا ينقض الاستدلال ما استدركه بعض المفسرين من اختلاف الطعم واللذة من رزق الدنيا ورزق الآخرة كما هو المتبادر .

واعل في آية الاعراف هذه :

قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة لهم يوم القيامة .   ٣٢

دليلاً على ما نحن في صدد تقريره ايضاً ، حيث تستنكر منع الاستمتاع بالطيبات من الرزق وزينة الله التي اخرج لعباده ، وتبيحها للمسلمين في الدنيا يشاركون فيها غيرهم وتحصرها لهم في الآخرة .

-١٥-

وفي القرآن آيات كثيرة مكية ومدنية حول الانعام والمواشي ، واشارات الى ما يجنى منها من فوائد ومنافع من البانها واصوافها واوبارها واشعارها ولحومها وجلودها وظهورها ، وكذلك الى حاجاتها من الماء والمرعى ، والى ما كان من بعض العادات المصطبغة بالصبغة الدينية في ذبحها واكلها وهديها وتحليلها وتحريمها ونذرها ؛ كل ذلك بحفاوة كبيرة ، ومواضع عديدة ، واساليب متنوعة مما يمكن

ان يستدل به على انه كان لاهل الحجاز منها ثروة كبيرة ، ومنافع عظيمة ، ومشاغل كثيرة ، وانهم كانوا يعنون بها عناية فائقة ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث آل عمران ١٤

٢ — ولأضلنهم ولامنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام (١) . النساء ١١٨

٣ — يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الهدي ولا القلائد . المائدة ٢

٤ — جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد (٢) المائدة ٩٧

٥ — ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام (٣) المائدة ١٠٦

٦ — وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا (٤) الانعام ١٣٦

٧ — وقالوا هذه انعامٌ وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها (٥) الانعام ١٣٨

٨ — وقالوا مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء (٦) الانعام ١٣٩

٩ — ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آالذكرين حرم ام الانثيين ام ما اشتملت عليه ارحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آالذكرين حرم ام الانثيين ام ما اشتملت عليه ارحام الانثيين ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا (٧) . الانعام ١٤٣-١٤٤

---

(١) البتك — الخرق . (٢) سيأتي شرح هذه في باب العقائد والاديان .

(٣) الهدى هو الانعام التي تنذر للقربان التضحية عند الكعبة . والقلائد وهي مايوضع في اعناق الهدى من قلائد لاعلاف انها نذر للكعبة وسميت الانعام المقلدة بالقلائد .

(٤ و٥ و٦ و٧) هذه عادات عليها صبغة دينية سيأتي شرحها في باب العقائد والاديان .

١٠ — ومن الانعام حمولة وفرشا . الانعام ١٤٢

١١ — والانعام خلقها الله لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم . النحل ٧ – ٩

١٢ — وانزل لكم من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[١] النحل ١٠

١٣ — وإن لكم في الانعام لعبرةً نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين[٢] . النحل ٦٦

١٤ — وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وأوبارها وأشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين . النحل ٨٠

١٥ — ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير . الحج ٢٨

١٦ — والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافّ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم[٣] . الحج ٣٦ – ٣٧

١٧ — وانزل من السماء ماءً فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى . طاها ٥٣ – ٥٤

١٨ — وانزلنا من السماء ماءً طهوراً . لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا

---

(١) تسيمون : ترسلون أنعامكم للرعي .

(٢) الفرث نفايات الطعام بعد الهضم .

(٣) البدن : يطلق هذا على الابل والبقر . صواف : بمعنى وهي مصفوفة . المعتر : المحتاج السائل وكان من عادة العرب ان يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدي وان يدعوا لحومها دون مس لانها لله فنبهت الآية الى القصد الجوهري وهو تقوى الله وذكره والتزام حدوده .

انعاماً واناسي كثيرا . الفرقان ٤٨ ـ ٤٩

١٩ ــ أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب افلايشكرون
ياسين ٧١ ـ ٧٢

٢٠ ــ الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون. غافر ٧٩ـ٨٠

٢١ ــ والذي خلق لكم الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . الشورى ١٢ ـ ١٣

٢٢ ــ اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها . متاعاً لكم ولانعامكم.
النازعات ٣١ ـ ٣٢

ولا بد من ان القارىء قد لمس من هذه الآيات ما نوهنا به من الحفاوة التي اسبغها القرآن على موضوع الانعام والمواشي ، بسبب ما كان لها من اثر بليغ في حياة العرب في عصر النبي (ص) وبيئته . والذي يتبادر الى الذهن ان البدو هم الذين كانوا يعنون العناية الكبرى بتربية الانعام والمواشي ، ويعولون في حياتهم ومعايشهم وتنقلاتهم عليها اعظم تعويل ، لاتساع طبيعة حياتهم لها . ولانهم من طبيعتهم التنقل وراء الماء والكلأ وهما ما تحتاج اليه المواشي والانعام ، ولأن حياتهم المعاشية تضطرهم الى ذلك .

غير ان اطلاق الآيات القرآنية ، وتوجيه الخطاب فيها الى سامعين قريبين يسوغان القول ان أهل المدن والقرى الحجازية ايضاً كانوا يشاركون البدو في هذه الناحية ، حيث كان منهم اصحاب انعام ومواش كالبدو ، يعنون بها عناية كبيرة ، وينتفعون بها انتفاعا عظيما متنوع الوجوه . فالزراع منهم في حاجة ماسة الى الابل والبقر في الاعمال الزراعية ، والتجار منهم في حاجة ماسة الى الابل وخاصة في قوافلهم واسفارهم الطويلة الشاقة حيث لم يكن ليقوم بها غير الجمل الصبور المبارك .

كذلك في القرآن بضع آيات ذكر فيها الصيد ؛ مما يمكن ان يلهم انه كان من مشاغل العرب ومعايشهم المهمة في ذلك العهد ؛ يتمرنون به على اعمال الفروسية والطراد والرمي ، ويعولون عليه في معيشتهم وهذه هي الآيات :

١ ــ ياايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الانعام الآ ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم (١)... المائدة ١

٢ ــ واذا حللتم (٢) فاصطادوا ... 〃 ٢

٣ ــ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ... المائدة ٤

٤ ــ ياايها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم . ياايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيدَ وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم (٣) يحكم به ذوا عدلٍ منكم هدْياً بالغ الكعبة او كفارة طعام مساكين او عدل ذلك صياماً ليذوق وبال امره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة (٤) وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون ... المائدة ٩٤ ٩٦

---

(١) لا تحلوا الصيد وانتم في حالة الحرم . وحالة الحرم قبل الاسلام كانت تعبر عن ظرفين على ما يستلهم من الآيات القرآنية والروايات وهما ظرف الأشهر الحرم وظرف منطقة بيت الله الحرام . والاول عام بحيث يشمل اي مكان وقد عدل هذا في الاسلام بالسنة النبوية بحيث صارت حالة الحرم هي حالة الاحرام اي لبس غير المخيط للزيارة او لحج :

(٢) اي اذا انتهت حالة الحرم .

(٣) الماشية عموماً .

(٤) قوافل المسافرين .

ويستلهم من آية المائدة (٤) ان العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ساروا في فنون الصيد شوطاً غير يسير. فكانوا يستعينون عليه بالطيور الجارحة ـ كالبزاة والعقبان والصقور ـ وبالكلاب ، وكانوا يعلمون هذه الحيوانات الصيادة تعلما لتقوم بمهمتها على وجه مرضٍ . ويستلهم منها كذلك ان المسلمين اخذوا يتحرجون من أكل الصيد الذي يستعان عليه بالجوارح المعلمة ، فأحل لهم القرآن ذلك في حالة الحل ـ عكس الحرم ـ على شريطة ذكر الله عند رمي السلاح واطلاق الجارح .

ولقد اشير في الآية (٩٦) الى صيد البحر وما فيه من فوائد معيشية للناس في حالة السفر والاقامة؛ وهذا يعني ان هذا الصيد مما كان يعول العرب عليه كذلك في معايشهم ، ويتخذون منه صناعة ومرتزقاً .

ومن الممكن ان يستلهم من الآيات ١ و ٢ و ٩٤ ـ ٩٦ ان العرب قبل الاسلام كانوا يحرمون صيد البر والبحر معاً في حالة الحرم تبعاً لما كانوا عليه من تحريم سفك الدماء وأعدام الحياة في الاشهر الحرم ؛ فرفع الحرج عن المسلمين في صيد البحر في حالتي الحل والحرم لشدة الضرورة والحاجة المعاشية الماسة ، وخاصة للمسافرين حذاء السواحل ، وأقر تحريم صيد البر في حالة الحرم وتحليله في الحل. واطلاق حل صيد البحر في الحالتين يمكن ان يدل على انه كان مرتزقاً وضرورة معاشية أشد لزوماً او اوسع نطاقاً من صيد البر .

وليس في الآيات تخصيص للذين كانوا يشتغلون بالصيد وصنوفه . فمن الممكن ان يقال والحالة هذه ان العرب حضرهم وبدوهم على السواء كانوا في ذلك العهد يهتمون له ، ويعولون عليه ، ويشتغلون به وإن كان الذي يتبادر ان البدو هم اكثر اشتغالاً وانهماكاً في صيد البر وتعويلاً في معايشهم عليه ، وأن اهل السواحل هم الاكثر اشتغالا وانهماكاً في صيد البحر وتعويلا في معايشهم عليه .

هذا ؛ وتعبير تناله أيديكم ورماحكم ، في الآية ٩٤ يلهم ان العرب كانوا يصطادون بالرماح أحياناً كما ان الآية (٤) تلهم انهم كانوا احياناً يصطادون بالنبل يرشقون به الصيد من بعيد ثم يطلقون الكلاب والطيور الجارحة وراءه .

وفي القرآن ايضاً آيات كثيرة يمكن الاستدلال بها على عادات عديدة من عادات بيئة النبي (ص) وعصره في المأكل والمشرب واللهو وفي المساكن والاثاث والكساء والزينة بالاضافة الى ما ذكرناه في البحوث السالفة ؛ وننبه على ان هذا البحث لا يتناول ما يتصل بعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم العائلية والاجتماعية والدينية والنفسية لأن بحث ذلك سيأتي في فصوله الخاصة الآتية .

فاولاً الاطعمة

آ — مما يصح ان يقال استلهاماً من الآيات القرآنية العديدة في الانعام ولحومها وألبانهامماوردنا منه جملة صالحة في احد المباحث السابقة أن لحوم الحيوانات وخاصة الضأن والمعز والبقر والابل والبانها كانت الغذاء الرئيسي او غذاءً رئيسياً في بيئة النبي (ص) وعصره . اما معالجة اللحوم للأكل فكل ماذكر منها «الحنيذ» وهو المشوي حيث جاء هذا التعبير في صدد ضيوف ابراهيم (ص) :

فما لبث ان جاء بعجل حنيذ ... هود ٦٩

ومما لا ريب فيه انه كان لهم طرق عديدة اخرى لمعالجة اللحوم .

ب — هناك آيات مكية ومدنية فيها توكيد تحريم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ننقل منها ما يلي :

١ — انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل لغيرالله بهفمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ... البقرة ١٧٣

٢ — حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب[1]

---

(١) المنخنقة التي تموت خنقاً .المتردية التي تموت بالسقوط من عال . النطيحة التي تموت بالنطح ـوما أكل السبع التي يفترسها وحش وتموت بين انيابه والاستثناء للجميع ، فكل ما يعترض لمثل هذه الميتات ويلحق به حياة وذبح وذكر اسم الله عليه حل أكله . وما ذبح على النصب ـ الذي يذبح عند الاصنام . الاستقسام بالازلام ـ وهو بالغالب لحوم الميسر الذي سنشرحه بعد قليل .

وانْ تستقسموا بالازلام ذلكم فسقٌ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشونِ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً فمن اضْطر في مخمصة غير متجانف لاثمٍ فانْ الله غفورٌ رحيم ... المائدة ٣

٣ — قل لا أجد فيماأوحي اليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة او دماً مسفوحاً او لحم خنزير فانه رجس او فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم . الأنعام ١٤٥

واذا صح ان يقال ان هذه محرمات توراتية ايضاً وان الله اوحى بتحريمها في القرآن كما اوحى بتحريمها في التوراة فانْ الفقرات التي تذكر العفو عن حالة الاضطرار فيها كلها وجملة « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » في آية المائدة تدل على ان أهل بيئة النبي (ص) كانوا يتناولون هذه المحرمات او شيئاً منها على الأقل؛ هذا بالاضافة الى ان في آية المائدة ايضاحاً وافياً حيث ذكرت أنواع الميتات وحيث يلهم هذا الايضاح بقوة ان العرب كانوا يأكلون الأنعام التي تموت حتف أنفها أو بطاريء غير الذبح ايضاً على ان هناك في سورة الانعام آية فيها صراحة أقوى فى صدد عادة أكل الميتة عند العرب وهي :

وقالوا مافي بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ... ١٣٩

ومما يروى عنهم قولهم كيف نأكل ما امتناه بايدينا ولا نأكل ما اماته الله ...

ولقد اورد المفسرون في صدد اكل الدم ان العرب كانوا يعالجونه بالطبخ ويضيفون اليه بعض النباتات ذروراً . ولا يبعد ان يكون هذا القول متصلاً بالمشاهدات المستمرة ؛ وعليه يمكن ان يقال أن العرب كانوا يأكلون الدم المسفوح

اما الخنزير فلم نطلع على رواية ما بشأن اعتياد اهل بيئة النبي(ص)وعصره أكله او بشأن ما اذا كان هذا الحيوان مما يعيش في بلاد الحجاز . ولهذا نميل الى القول ان أهل البيئة من العرب لم يكونوا يأكلونه عادة، وان كان من المحتمل انيكونوا عرفوا لحمه وأكلوه في اسفارهم الى بلاد الشام حيث يعيش وحيث كانت النصرانية هي السائدة وحيث كان النصارى يأكلونه .

وواضح ان تحريم الدم والخنزير والميتة في القرآن في سبيل منع ما اعتبرته الحكمة من الخبيثات لا يتعارض مع كون هذه المحرمات هي محرمات توراتية ؛وكل مافي الامر ان تحريمها في القرآن والتوراة معاً مع دلالات شيوع استعمالها في بيئة النبي (ص) وعصره يدل على انها من العادات القديمة جداً .

-١٨-

ت ـ لم يرد في القرآن ذكر للخبز ، ولكنه ورد فيه تعبيرات «حب الحصيد » وحباً متراكباً وحبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأة حبة و « الفوم والعدس والبصل والبقل والقثاء » و « الزروع » بالاضافة الى ذكر الاشجار مما نقلنا آياته في بحث سابق فورودها يلهم ان أهل بيئة النبي (ص) وعصره عرفوا هذه الحبوب ومارسوها زرعاً وطعاماً . وهذا مؤيد بالأحاديث والروايات العديدة ايضاً .

ث ـ ولقد كثر ذكر النخيل وطلعه النضيد والهضيم في مناسبات وآيات عديدة نقلناها سابقاً . وفي احدى الآيات أشارة الى ما كان يتخذه العرب من ثمرات النخيل من الرزق الحسن (الطعام الحسن على الارجح) ، وهذا يدل على ان البلح ومجففه كان من الاغذية الرئيسية في عصر النبي (ص) وبيئته .

ج ـ ولقد ذكر العسل ايضاً في بعض الآيات ، منها ماذكر معه ان فيه شفاء للناس :

« واوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ... النحل ٦٨/٦٩

ومنها ماذكر كوصف لما في جنات الاخرة من خيرات عظيمة :

مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ... محمد ١٥

فيسوغ كما هو واضح ان يقال ان العسل كان من الاطعمة المرغوبة كما انه كان يتخذ علاجاً ، وانه كان يعالج بالتصفية ، وهذا ما يمكن ان يدل على ذوق حضري راق كما هو المتبادر .

ح — ولقد ذكرت شجرة الزيتون والزيتون في آيات عديدة ، ونوه خاصة في بعضها بثمرها الذي فيه الدهن والصبغ (الأدام) للآكلين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ... المؤمنون ٢٠

فيسوغ ان يقال ان الزيت كان من الاغذية المهمة في بيئة النبي(ص)وعصره.وفي آية سورة النور (٣٥) مايمكن الاستدلال به على ان الحجازيين كانوا يستعملونه في الاضاءة ايضاً.« كأنه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » ومما يلفت النظر ذكر آية المؤمنون الشجرة بأنها تخرج من طور سيناء ، هذا في حين ان الزيتون ورد في آيات اخرى مع الرمان والعنب والنخيل وبأسلوب يلهم انه كان ينبت في الحجاز مثل هذه الاشجار كما في ايات الانعام (٩٩) و (١٤١) والنحل (١١) مثلاً . ولا ندري اذا كان يصح ان يقال استلهاماً من القرآن وتوفيقاً بين مدى آياته ان آية المؤمنون بسبيل ذكر مناشيء الزيتون الاولى وان الحجازيين أتوا بفسائله من منطقه طور سيناء وغرسوها في بعض مناطقهم لاسيما في الطائف المتشابهة في أقليمها لأقليم الشام بعض الشيء . وعلى كل حال فالذي نرجحه انهم كانوا يستهلكون من الزيت مقادير كبيرة للأكل والاستصباح ، وانهم كانوا يجلبون حاجاتهم منه او اكثرها من بلاد الشام .

خ — ولقد ذكر العنب والرمان مرات عديدة وذكر التين مرة ، واستعمل تعبيرات فاكهة وفواكه في آيات اخرى مطلقة ، وأشير الى استصناع الرزق الحسن (الطعام الحسن) من ثمرات الاعناب كثمرات النخيل . فهذا يسوغ القول ان أهل بيئة النبي وعصره كانوا يعرفون هذه الانواع وما في بابها غراساً واكلاً غذاء حيناً وتفكهاً حيناً آخر .

ولقد ذكرنا ماكان يشغله لحم الصيد البري والبحري من حيز في حياة العرب المعاشية وغذائهم فنكتفي بهذه الاشارة لأتمام السلسلة .

ثانياً الأشربة والخمرة :

ان في القرآن آيات عديدة في الشراب والخمرة والمسكر . منها ماأشير فيه الى صنع المسكر من ثمرات النخيل والاعناب ، ومنها ماأشير فيه الى ماأعده الله للمؤمنين في الجنة من الخمر والشراب وصفاتها وآنيتها وما بينها وبين شراب الدنيا وخمرها من فروق وما لخمر الدنيا من أعراض مستكرهة خلصت منها خمر الآخرة . ومنها ماشبه فيه بعض حالات الانسان بالسكر والسكارى ، ومنها مافيه سؤال عن الخمر ثم نهى عنه كما ترى فيما يلي :

١ – يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وأثمهما اكبر من نفعهما ... البقرة ٢١٩

٢ – ياايها الذين أمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ... النساء ٤٣

٣ – ياايها الذين أمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعكم تفلحلون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ... المائدة ٩٠– ٩١

٤ – « لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون .. الحجر ٧٢

٥ – « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً .... النحل ٦٧

٦ – « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ... الحج ٢

٧ – على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس (١) من معين . بيضاء لذة للشاربين . لافيها غول ولا هم عنها ينزفون ... الصافات ٤٤/٤٧

٨ – « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لالغو فيها

---

(١) في تفسير الطبري ان كل كأس في القرآن اريد بها الخمر :

ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . الطور ٢٢/٢٤

٩ — « ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً [١] . الدهر ٥

١٠ — ان الابرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق [٢] مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عيناً يشرب بها المقرّبون . المطففون٢٢–٢٨

١١ — ومن هذا الباب آيات سورة الواقعة ١٥ – ٢٣ والأنسان ١٢ – ٢١ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي تحتوي وصفاً رائعاً لنعيم الجنة وفي جملة ذلك خمرها وآنيتها ومزج الزنجبيل بها .

فالآيات تلهم : اولاً ان صنع الخمر وتعاطيها كانا يشغلان حيزاً غير قليل في عصر النبي (ص) وبيئته ، وان تعاطي الخمرة كان واسع الشيوع ، وشديدالرسوخ ؛ فتكرر وصف الخمرة على انها من لذائذ الجنة الأخروية وذكر كونها في الجنة كالانهار كثرة يدلان على انها كانت من مطالب النفس الرئيسية التي لا منصرف عنها ؛ والتدرج في تأثيمها ثم النهي عن الصلاة في حالة السكر ثم النهي عنها يدل على شدة رسوخها بحيث لم يكن بد من هذا التدرج في سبيل الوصول الى الغاية التشريعية في أمرها ، ويلفت النظر الى أنآيات المائدة من أواخر ما نزل من القرآن وهذا يعني ان تعاطي الخمرة بين المسلمين ظل مستمراً شائعاً وراسخاً الى زمن متأخر من العهد المدني ، وفي هذا تقوية للاستدلال الذي ذكرناه .

وثانياً : ان اوصاف مجالس الشراب في الجنة واوصاف الخمرة ومزاجها مما هو مألوف من اوصاف الدنيا ، وان السامعين للقرآن لاول مرة لم يكونوا غرباء عنها وان منهم من كان يستمتع بشيء من ذلك حيث كان المترفون من اهل مدن الحجاز ومكة خاصة لان اكثر اوصاف مجالس الشراب مكية يتأنقون فيها

---

(١) يطيب طعمها بمزج الكافور :

(٢) الرحيق افضل انواع الخمر واجودها مع ماجاء في جميع البيان . ومن قول حسان :

يسقون من برد البريص عليهم بردى تصفق بالرحيق السلسل

فيعقدون لها المجالس ، وينصبون الارائك والاسرة ، ويزينونها بالرياحين ، ويمدون فيها موائد اللحوم والفواكه على انواعها ، ويلبسون فيها ثيابهم الحريرية ، ويطيبون خمرتهم بما يصلح من طعمها ورائحتها كالزنجبيل والكافور والمسك ، ويقف على خدمتهم الولدان ، ويدورون عليهم بالاواني الفضية والاقداح البلورية ، وذكر الزنجبيل والكافور والمسك خاصة من مؤيدات ما نقرره ، لانه لولم يكن مزج الخمرة بهذه العقاقير بسبيل تطييبها معروفاً ومألوفاً لما بانت الحكمة في ذكر ذلك لاسيما ومن المعروف اليقيني ان هذه العقاقير مما كان معروفاً ومألوفاً بصورة عامة وبسبيل تطييب الخمرة بصورة خاصة .

وثالثاً : ان الخمر تعبير عام يراد به الشراب المسكر ، ولا تعني نوعاً بعينه . ومن الممكن والحالة هذه ان يكون العرب قد عرفوا ومارسوا وصنعوا انواعاً عديدة ، ومن جملتها نوع ذي لون ابيض مما تلهمه احدى الآيات . وان الخمر كانت تصنع من البلح والعنب ، وطبيعي انه يدخل في هذا مجففاتها كالتمر والزبيب ، وان الناس كانوا يجنون من الخمرة منافع خاصة متصلة بالحركة الاقتصادية بالاضافة الى اللذة الشخصية .

هذا ؛ والذي نقدره وان لم يمكن الاستدلال عليه بالقرآن ان صنع المسكر وتعاطيه كان على الأغلب في المدن . فحدائق النخيل والأعناب انما كانت في الطائف ويثرب . وهذه المجالس التي كانت تعقد للشراب ويتأنق فيها لا تتيسر الا في المدن . والمنافع التي في الخمرة متصلة على الارجح بالحركة التجاريةوالصناعية التي هي من طبيعة حياة المدن . وطبعاً ان هذا لاينفي ان يكون بعض البدو قد تعاطوها ايضاً .

— ٢٠ —

ثالثاً الميسر :

وقد ذكر الميسر في آيات البقرة ٢١٩ والمائدة ٩١ — ٩٢ التي نقلناها في البحث السابق ، اذ جاء ذكر الميسر مع ذكر الخمر وسلك معها في سلك واحد من حيث المنافع والاثم والنهي عنه ، ووصفه رجساً يؤدي الى العداوة والبغضاء

ويمنع المرء من قيامه بواجباته نحو الله مثلها .

ويمكن ان يستلهم من هذه الآيات :

اولاً ان الميسر كان من العادات التي اعتادها الناس للهو .

ثانياً انه كان شائعاً وراسخاً ؛ حتى لم يكن بد من الانتظار الى اواخر العهد المدني للنهي عنه باسلوب حاسم .

ثالثاً انه كثيراً ما كان ينشأ عنه خلاف يؤدي الى البغضاء والعداوة .

هذا ؛ ولقد تعددت الاقوال في مدلول كلمة « الازلام » الواردة في آية المائدة (٩١) وفي آية اخرى من السورة نفسها وهي (٣) التي نقلناها كذلك في مناسبة سابقة . فهناك من قال انها كانت سهام يقذف بها عند صنم هبل في فناء الكعبة للاستخارة . حيث كان نوعان من القداح نوع كتب عليه أمر ونهي ، ونوع كتب عليه الفاظ متصلة بمشاكل الانساب والدماء ، فيأتي الذي يعتزم سفراً او عملاً الى سادن الصنم ويطلب منه اجراء الاستخارة ، وهذا سيرد الكلام عليه في باب العقائد والأديان . وهناك من قال انها سهام كان يقذف بها على سبيل الميسر واللهو . وكانت عشرة سبعة منها رابحة وثلاثة خاسرة ؛ فيجتمع الفتيان فيشترون جذوراً ويقسمه الجزار الى عشرة اجزاء ، ثم تخلط السهام ويقذف بها فاصحاب الأسهم الرابحة يأخذون اللحم والخاسرون يغرمون الثمن . ولقد رجحنا في تفسيرنا لآية المائدة (٣) ان الأزلام فيها ما ذبح على سبيل الميسر لان الآية تذكر صفات الأنعام التي يحرم اكلها . اما الأزلام الواردة في الآية (٩١) فمن المحتمل ان يكون المقصود بها أزلام الاستخارة لان الآية قد ذكرت الخمر والميسر والأزلام معاً . ويستخلص مما تقدم (١) ان الميسر عند العرب هو القمار عامة وانه متنوع الاشكال . (٢) ان هناك نوعاً من الأزلام التي تقذف على لحوم الجذور فيخسر الخاسر الثمن ويربح الرابح اللحم [1]

---

(١) جاء في محاضرات الخضري ج ١ ص ٦٠ وصفاً للميسر ملموماً وملخصاً من مختلف الروايات العربية ننقله لاتمام الصورة : كانت طريقتهم في لعبه ان يجتمع الفتيان وذووا اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار الى عشرة اجزاء ثم

رابعاً الغناء والسمر :

مما يلفت النظر انه ليس في القرآن ذكر للغناء ومجالسه ووسائله بصراحة ، حتى ولا في صدد ما اعده الله من المتع الاخروية كما هو الأمر في الخمر اذا استثنينا

-يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع – نوع من الشجر – قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلي والمنيح والسفيح والوغد . والثلاثة الاخرى غفل من العلامات لا نصيب لها وانما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الاول عليها علامات تبتدء من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلي ، فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته او استعداده ثم يدفعون هذه القداح الى رجل يقال له امين المقامرين فتدفن في الرمل او توضع فى خريطة ويلف على كف الامين قطعة من جلد لئلا يحابي احداً من المقامرين فيخرج له قدحه ، ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحاً . ولنفرض ان الخارج هو الفذ فيكون لصاحبه عشر الجزور ثم تضرب القداح فان خرج التوأم فلصاحبه عشران ثم تضرب فان خرج المعلّي فلصاحبه سبعة اعشار ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ثمانية عشر فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً يدفع كل منهم قدر سهامه ، وان خرج فى اول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة اجزاء . ويضرب على السبعة الباقية فان خرج بعده المسبل اخذ ستة اجزاء وبقي واحد فلا يمكن الضرب عليه ، لان في القداح ما يستحق اكثر من جزء وهو المعلى ، فيشترون جزوراً اخر يقسمونه كالاول فيكون الباقي احد عشر جزءاً فيضربون القداح عليها فان خرج المعلى اخذ سبعة وبقي اربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لان فيها من يستحق اكثر من اربعة وهو النافس فينحرون جزوراً أخر فيكون الباقي اربعة عشر جزءاً فاذا خرج النافس اخذ خمسة اجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحلس اخذ اربعة ثم التوأم وله جزآن ثم الفذ وله واحد فالمجموع اثنى عشر جزءاً وبقي جزءان يوزعان على الفقراء وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنه شيء ويدفعه الذين لم يربحوا

عبارة فسرها بعض المفسرين بالغناء . ولم نستطع ان نتبين حكمة ذلك ،لا سيماوالغناء يكاد يكون طبيعياً في البشر ، ويوجد في كل بيئة مهما كان حظها من الحضارة ، ثم ان مجالسه وفنونه ووسائله مما يشوق النفس ، ويكون لها متعة ولذة مثل متعتها ولذتها في تعاطي الشراب ومجالسه الانيقة .

وليس مما يصح فرضه ان لا يكون شيء منه فيه متعة ما في بيئة النبي (ص) وعصره ، وقد كان لها حظ غير يسير في المتع الاخرى وقد روت الروايات مايؤيد وجود شيء منه حيث ذكرت ان ابا جهل حينما ورد على ماء بدر مع الجيش الذي جاء لانقاذ قافلة ابي سفيان أبى ان يعود مالم تنحر الجزور وتشرب الخمور وتغني لهم القيان اي المغنيات ، فكان اصراره هذا سبباً من اسباب الاشتباك بين المشركين والمسلمين .

اما تلك العبارة التي اشرنا اليها فهي الواردة في سورة الجمعة « اذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها » حيث قال المفسرون ان اللهو المذكور كناية عن الغناء ، ورووا ان جوقة من الضاربين على المزمار والدفوف مرت من ناحية المسجد مرة فخرج كثير ممن فيه للفرجة فاستحقوا التنديد الذي احتوته الآية .

ومهما يكن من امر فالذي نرجحه ونستلهمه من اغفال القرآن ان الغناء لم يكن مترقياً في بيئة النبي (ص) وعصره ، وفي مكة والمدينة على السواء ترقياً متناسباً مع ما كانت عليه البيئة والعصر من حظ غير يسير في الحضارة والاستمتاع ولم يكن تعقد له مجالس انيقة ينتشي بها السامعون كما هو الشأن في مجالس الشراب ، وبالتالي انه لم يكن متعة ولذة منتشرتين ينهمك الناس لهما ويتحملان التنويه والحفاوة كتلك .

ولعل في تاريخ الغناء في المدينة في عهد الأمويين دليلاً على ذلك . فقد قامت للغناء دولة حقاً فيها فصارت تعقد المجالس الأنيقة التي يغني فيها ويضرب فيها على آلات الطرب ، ويشرب فيها معاً ؛غير ان المغنين والمغنيات قدجلبن جلباً من الخارج وبعد الاسلام لا قبله .

اما السمر ففي القرآن آية ذكر فيها لفظ « السامر » وهي :

« قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامراً تهجرون... المؤمنون ٦٦ ٦٧

ففي الآيتين تنديد بالمشركين لهجرهم النبي وأحاديثه كأنما هو سامر اي قصاص يتلو عليهم اساطير، ويحكي لهم أقاصيص، وليس منذراً داعياً الى الحق وصراط مستقيم.

فهذا يلهم انه كان يعقد في بيئة النبي (ص) وعصره حلقات سمر تقص فيه القصص وتدور فيه الاحاديث عن الامم والوقائع السالفة. ولعل استعمال كلمة « سامر » يلهم انه كان هناك أناس متخصصون لذلك، يحلق الناس عليهم، ويقضون بعض الوقت او بعض الليل حولهم سامرين.

—٢٢—

خامساً المساكن:

في القرآن آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على المساكن التي كان يتخذها العرب حضراً وبدواً. فآيات البقرة ١٨٩ والتوبة ١١١ والأعراف والنحل ٢٦ و ٨٠ والنور ٦١ والزخرف ٣٣ - ٣٤ والزمر ٢٠ والطور ٣ - ٤ وهذه الآيات مما نقلناه في مناسبات سابقة تدل على ان سكان المدن في الحجاز كانوا يبنون البيوت على أسس وقواعد، ومنها ما كان ذات طبقات بعضها فوق بعض، يصعدون اليها بالمعارج اي السلالم او الادراج؛ كما انهم كانوا حينما يظعنون الى البادية - وهذا ينسحب على سكان البادية بطبيعة الحال - يتخذون من جلود الانعام بيوتاً، وانهم قد عرفوا الخيام ايضاً

سادساً الأثاث والفراش:

كذلك فان ايات الكهف ٣١ الزخرف ٧١ والرحمن ٥٤ والواقعة ١٧ - ٢٣ والانسان ١٢ - ٢١ والغاشيه ١٣ - ١٦ والنحل ٨٠ وسبأ ١٣ والزخرف ٣٣ - ٣٤ والمائدة ١١٢ وهي ما نقلناه ايضاً في مناسبات سابقة تدل على ان العرب كانوا يتخذون من أصواف الانعام واوبارها وأشعارها أثاثاً، وانهم كانوا يستعملون الاسرة والنمارق والزرابي ومتنوع الأواني من جفان وقدور وأكواب واباريق وصحاف وموائد ونحوها.

— ٢٣ —

سابعاً الكساء:

ان آيات النور ٣١ و ٦٠ والاحزاب ٥٩ وهي ماقلناه سابقاً تدل (أ) على ان النساء كن يتخذن الخمار ، وان للثوب الذي يلبسنه شقوقاً (جيوباً) تبدو منها أعناقهن وبعض اقسام من صدورهن وظهورهن . (٢) على انهن كن يتخذن جلباباً فوق ثيابهن وهو غير الخمار ، ولعله نوع من العباءة. ومما تلهم الآيات ان اوصاف الكساء فيها هي اوصاف زي المرأة في المدن وان المرأة العربية المدنية لم تكن متشددة في التحفظ والتحشم وعدم الكشف عن المفاتن والزينة في طراز اللباس ولا ندري هل كانت المرأة البدوية تتزيا بنفس الزي او ما يقرب منه ، وان كنا نميل الى القول بالزي المتقارب .

اما الرجال فليس في القرآن شيء عن زي معين لهم كما هو الحال في شأن النساء . وكل ما هنالك انه ورد فيه ذكر الثياب والسرابيل والقميص والنعلين والتدثر ذكراً يلهم انه في صدد ثياب الرجال .

— ٢٤ —

ثامناً الحلية والتبرج:

ان جملة « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن » في آية النور (٣١) تدل على ان المرأة العربية كانت تتخذ الخلخال في رجلها زينة لها . كذلك فأن الآيات العديدة التي اثبتناها في مناسبات سابقة والتي ذكر فيها الأساور الذهبية والفضية واللؤلؤ والمرجان كحلى تدل بطبيعة الحال على انها كان يتخذ من هذه الانواع حليا ايضاً .

وجملة « فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » في آية النور (٦٠) وجملة « ولايبدين زينتهن الا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن ألا لبعولتهن » في اية النور (٣١) وجملة « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » في اية الاحزاب (٣٣) يمكن ان تلهم ان النساء العربيات كن يهتممن للتزين والتجمل والتبرج ؛ وان لم يكن هناك ما يمكن الاستدلال به على الطرز والزي .

هذا ؛ ومما يلحظ ان الآيات التي ذكرت اوصاف الجنة تلهم ان الرجال ايضاً سيحلون بأساور من الفضة والذهب واللؤلؤ . وقد جعلنا هذا نتساءل عما اذا كان رجال العرب في بيئة النبي (ص) وعصره يحلون بالأساور الفضية والذهبية وباللؤلؤ بشكل ما ؟ ونحن نميل الى الاجابة على هذا بالايجاب ، اتساقاً مع الحكمة القرآنية الملحوظة في اوصاف الجنة ، وهي ذكر اطيب ما عرف وألف ، وان لم يمكن تحديد شكل ذلك ، ولعله قصد به او مما قصد التختم بالذهب والفضة وجعل حبات اللؤلؤ خصوصاً للخواتم .

=٢٥=

تاسعاً اسلحة الحرب وفنون القتال :

ولقد رأينا ان نلحق بهذا البحث ماكان عند العرب قبل البعثة من أسلحة وفنون حربية مما تلهمه الآيات القرآنية ، مع التنبيه على ان الوارد في القرآن من هذا ليس شيئاً كثيراً :

(١) ففي صدد الاسلحة ورد أولاً تعبير « الاسلحة » في آية النساء التالية :

« واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفةٌ أخرى لم يُصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم . . . ١٠٢

وواضح ان هذا التعبير يشمل انواعاً من الاسلحة . وقد ورد في الآيات التالية اسماء بعض هذه الأنواع :

١ = « ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ٩٤ المائده

٢ ـ « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . ٨١ النحل

٣ = وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ٨٠ الانبياء

٤ - « ولقد آتينا داود منا فضلاً ياجبال أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد .
أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير ...
سبأ ١٠/١١

ومع ان بعضها في صدد ما كان يصنعه داود (ص) من الدروع فان اكثرها قد خوطب به المسلمون ، وفيها ما يلهم ان ما كان يصنعه كان مما يستعملونه ايضاً . وعلى هذا فأنهم عرفوا واستعملوا الرماح وسرابيل الحرب — والبأس بمعنى الحرب — اي ثياب الحرب من دروع ومغافر وأكمام الخ . والروايات اليقينية تذكر السيوف على انها كانت من اسلحة العرب الرئيسية كما لايخفى ، ومما لايحتمل الشك انها تدخل في مشمول تعبير « الاسلحة » الوارد في آية النساء ، بل ان من الممكن ان يقال انه عناها في الدرجة الأولى ، لأنها هي التي يحملها المرء حملاً ملازماً ولا يخلعها — لايضعها — ألا عند الضرورة .

(٢) وفي صدد اسلوب القتال ورد في سورة الانفال الآيات التالية :

«ياايها الذين أمنوا اذا لقيتم الذين كفروازحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ... ١٥ — ١٦

وورد في سورة الصف الآية التالية :

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . ٤

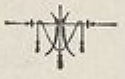
فهذه الآيات تلهم ان من اساليب العرب في القتال الزاحف والقتال صفوفاً ؛ وانهم كانوا احياناً مع ذلك ينقسمون الى جماعات او فئات ، وان المقاتلين كانوا يتحرفون في القتال كراً وفراً ، وينتقلون اثناء المعركة من نقطة الى نقطة ومن جماعة الى جماعة.

(٣) وفي صدد النفرة الى الحرب وردت الآيات التالية :

١ — يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعاً .
النساء ٧١

٢ — انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله .
التوبة ٤١

وهذه الآيات هي بسبيل استنفار المسلمين الى قتال المشركين ؛ غير ان المصطلحات التي احتوتها لا بد من ان تكون مألوفة في الاستنفار الى الحرب والاستجابة اليه ؛ وبالتالي فأنها تلهم بأن العرب كانوا حينما يدعوهم داعي الحرب يخرجون اليها جماعات جماعات او جمعاً كثيفاً كما انهم كانوا يخرجون اليها بأسلحة خفيفة وبدون اثقال احياناً وبأسلحة ثقيلة وبأثقال احياناً ، ولعل هذا ما يعني فيما يعنيه انهم كانوا يخرجون ومعهم نساؤهم حيناً وبدون نساء حيناً آخر حسب ظروف الحرب والدعوة .



الفصل الثالث

الجاليات الاجنبية في الحجاز

استدلالات قرآنية على وجود اجانب في مكة ـ الآيات المكية في الكتابيين ـ دلالة الآيات على احوال الكتابيين في مكة ـ استدلالات على نصرانية اكثريتهم ـ بحث في جنسية نصارى مكة ـ دلالة على حداثة عهد نزوح بعض الاجانب منهم ـ عدم تكتل النصارى ودلالته ـ بحث في احتمال وجود اسرائيليين في مكة واستدلالات قرآنية ـ دلالة خلو القرآن المكي من الحملات على اليهود المعاصرين ـ اليهود في المدنية ـ كثرة الآيات المدنية فيهم واسلوبها ودلالته ـ اسرائيلية اليهود ـ مركزهم وأثرهم الديني والطائفي ـ اندماجهم في حياة العرب الاجتماعية ومداه ـ نشاطهم السياسي ـ قلاعهم وحصونهم ـ كثرتهم وانتشارهم ـ ثروتهم ـ تعاطيهم الربا واثره ـ قدم عهدهم في الحجاز ـ صور قرآنية عن اخلاقهم ـ تعاطيهم السحر ـ مظاهر مسكنتهم وذلتهم وشتاتهم ـ اثر اليهود في العرب ـ الأجانب والنصارى الآخرون في المدينة ـ الآيات المدنية في النصارى ـ دلالة الآيات على لقاء النبي (ص) نصارى ـ ترجيح احتمال وجود طائفة نصرانية مستقرة ـ ترجيح احتمال وجود نصارى غير عرب ـ اخلاق النصارى واثرهم .

النصارى والأجانب في مكة

— ١ —

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على وجود جاليات اجنبية في الحجاز وفي مكة والمدينة بنوع خاص كانت تعيش الى جانب العرب في عصر النبي عليه السلام .

والآيات في صدد وجود هذه الجاليات في المدينة أكثر واوضح منها مما هو في صدد وجودها في مكة بل انه ليس في القرآن المكي إلا آية واحدة فيها صراحة تامة وهي آية النحل :

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ... ١٠٣

حيث حكت قول مشركي قريش ان الذي يعلم النبي (ص) شخص في مكة ، ويظهر انهم عينوه ، وهو غير عربي بل ولا يحسن العربية . على انه يوجد في القرآن المكي آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على وجود جالية اجنبية في مكة وان لم تكن في صراحة هذه الآية .

ففي سورة الفرقان اية تقارب في معناها آية النحل ولكنها ليست في صراحتها وقد جاءت في صيغة تلهم الكثرة من جهة اخرى بينما آية النحل انما أشارت الى شخص واحد . وهي :

وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ... الفرقان ٤

فمن المحتمل جداً ان يكون المعنى في هذه الآية ايضاً فريقاً من جنس الشخص الاول وبالتالي من جالية اجنبية موجودة في مكة . وهذه الآية وتلك تلهمان بالاضافة الى وجود جالية اجنبية ان بين أفراد هذه الجالية فريقاً متميزاً في عقله وثقافته الدينية وغير الدينية . لأن مشركي قريش لم يكن لهم ان ينسبوا هذا الامر الخطير وهو تلقين النبي (ص) وتعليمه مايتلوه من الآيات والذكر الرائع في اسلوبه وروحانيته الى شخص او أشخاص مالم يكونوا قد عرفوا انهم مظنة هذا التعليم والتلقين بما هم عليه من ثقافة وعقل [1] .

---

(١) يجد المتتبع لروايات السيرة والتاريخ واسماء الصحابة اسماء عدد غير قليل من الاجانب الذين كانوا في مكة في حقبة البعثة النبوية منهم من كان مملوكا ومنهم من كان صانعا ومنهم من كان تاجراً . ونورد الاسماء الآتية كأمثلة :

١ ـ جبر الرومي وقيل انه كان حداداً ومملوكا لعامر الحضرمي وانه هو الذي ـ

-٢-

وهناك غير هذه الآية آيات مكية كثيرة نزلت في صدد أهل الكتاب، والأستشهاد بهم على اعتبار أنهم اهل العلم والذكر والكتاب، وفي صدد موقفهم من الدعوة الأسلامية ومجادلتهم ومناقشة عقائدهم وخلافاتهم نورد منها مايلي :

١ ــ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون ... الانعام ٢٠

٢ ــ أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ... الانعام ١١٤

٣ ــ الذين يتبعون الرسول النبي الاميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ... الاعراف ١٥٧

٤ ــ فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك

ـ عناه المشركون في زعيم تعليم النبي (ص) :

٢ ـ يسار الرومي وهذا رفيق لجبرا . ووصف ان الاثنين كانا يقرآن التوراة والانجيل .

٣ ـ عايش غلام حويطب بن عبد العزى .

٤ ـ اناسطاس الرومي وهو غلام لصفوان بن امية.

٥ ـ صهيب بن سنان الرومي وكان ذا مال.

٦ ـ سلمان الفارسي وقد نوهت الروايات بما كان عليه من علم وثقافة مسيحية .

٧ ـ نجار قبطي لم نقف على اسمه .

٨ ـ شماس رومي قدم الى مكة للتبشير لم نقف على اسمه . (اقرأ تفسير البيضاوي في صدد تفسير آيتي النحل والفرقان وتفسير الخازن ج ١ ص ١٣٧ و١٣٨ وابن هشام ج ١ ص ١٨٢ و ٢٠٥ – ٢١٠ و ٢٩٦ وج ٢ ص ٢٣٠. وأسد الغابة في اسماء الصحابة حيث يوجد فيه اسماء عدد كبير من الاحباش وغيرهم كانوا في مكة وأسلموا .

لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين   يونس ٩٤

٥ — والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ...   الرعد ٣٦

٦ — وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ...   النحل ٤٣ [1]

٧ — قل آمنوا به اولا تؤمنوا إن الذين أُتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ...   الاسراء ١٠٧ — ١٠٨

٨ — [2] ذلك عيسى بن مريم قولُ الحق الذي فيه يمترون . ماكان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ...   مريم ٣٤ — ٣٧

٩ — وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبتَ له قلوبهم ...   الحج ٥٤

١٠ — ان هذا القرآن يقصُّ على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون .   النمل ٧٦

١١ — الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ...   القصص ٥٢ / ٥٥

١٢ — ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم

---

(١) في سورة الانبياء آية مماثلة لهذه الآية وهي الآية (٧)

(٢) هذه الآيات بقية سلسلة فيها قصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى (ص) تضمنتا التنبيه على معجزة الله في الولادتين وكأنما اريد بالاولى تمهيد للثانية فولادة يحيى (ص) معجزة فلا يقتضى ان يكون ابنا لله وولادة عيسى (ص) مثلها معجزة فلا يقتضى ان يكون ابناً لله او جزءاً من الاله ...

وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن لهم مسلمون . وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ... العنكبوت ٤٦ - ٤٧

١٣ — ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ... الروم ١ / ٥

١٤ — ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد ... سبأ ٦

١٥ — وما تفرقوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ... الشورى ١٤

١٦ — ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون . وقالوا أءلهتنا خير ام هو ماضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرئيل ... الزخرف ٥٧ - ٥٩

١٧ — ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون. إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم ... الزخرف ٦٣ - ٦٥

— ٣ —

فهذه الايات يمكن ان تلهمنا مايلي :

١ — إنه كان في مكة اناس من اهل الكتب السماوية وكانوا من جملة من اتصل بهم النبي (ص) ودعاهم الى التصديق برسالته ومتابعته .

٢ — انهم لم يكونوا قليلين . وان منهم من كان ذا سعة وثروة تمكنه من الانفاق في سبيل البر والخير ، كما ان منهم من كان قوي النفس والشخص بحيث

لايبال بلوم زعماء المشركين على متابعتهم للنبي (ص) ،[1] وهذا وذاك يلهمان ان منهم من كان ارقى طبقة من ارقآء وغلمان في خدمة الزعماء والتجار وملك ايمانهم .

٣ — ان منهم من كان متميزاً في ثقافته ومعارفه الدينية بحيث كان اهلاً للرجوع اليه واستشهاده في امر رسالة النبي (ص) وصحة وحي الله اليه وصدق القرآن ؛ وان هذا الفريق لم يكن نكرة في اوساط مكة ؛ بل وكان موضع اعتماد وثقة من العرب او اهل مكة ، ومرجع استفتاآتهم في الامور والمعارف الدينية والدنيوية .

٤ — انهم على العموم كانوا رقيقي العاطفة دمثي الاخلاق ، ثابتين في مايعتقدن انه الحق ولو لقوا في سبيل ذلك العنت ، جريئين في اظهار عقيدتهم ؛ وقد تجلت جرائتهم في متابعة النبي وسجودهم عند سماع القرآن واعلانهم انه الحق ، وعدم مبالاتهم بما كان عليه اكثر اهل مكة وزعماؤهم الاقوياء من الموقف الجحودي .

٥ — ان منهم من كان مجادلاً حجاجاً بل ومتطرفاً في الجدل والحجاج الى درجة عده ظالماً متجنياً فيها .

٦ — ان ايراد قصتي ولادة يحيى وعيسى (ص) بسبيل الرد على زعم ألوهية عيسى (ص) او نبوته لله ، وايراد خبر انكسار الروم النصارى مع بشرى انتصارهم بعد قليل ، والجدل ثانية في امر حقيقة عيسى (ص) ورسالته يمكن ان يلهم ان الكتابيين الذين انطوت الآيات على ملهات وجودهم في مكة هم او اكثرهم من النصارى .

— ٤ —

ومع ان من المرجح كثيراً ان من هؤلاء من كان عربي الجنس مستقراً[2]

---

(١) هذا ماتلهمه آيات القصص .

(٢) في حديث رواه البخاري عن عائشة (رض) ان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة (رض) كان قد تنصر وقرأ العبرانية وكتب بها ، ووجود نصارى عرب غيره ولو افراد في مكة مما لايحتمل شكاً في اعتقادنا .

في مكة او متردداً (١) عليها من اليمن وأطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت النصرانية سائدة بين حضر العرب وقبائلهم ، والاتصال مستمراً فأن مما لايصح الشك فيه وبالاستناد الى صراحة آية النحل ان منهم من كان غير عربي ايضاً ، سواء منهم ممن تلهم الآيات انه مستقر في مكة او ممن يحتمل انه طارق او زائر او وافد مستطلع . والذي نرجحه ان اكثر افراد الجالية الاجنبية المقيمين في مكة هم من النصارى الروم والسريان والسوريين وانهم جاؤوا من بلاد الشام اما بتشجيع من بعض تجار قريش ، ليكون عندهم من يقوم بما هم في حاجة اليه من الصناعات ، واما بسبب اضطهاد وقع عليهم ، فلقوا في مكة او من زعمائها ترحيباً وتشجيعاً . فبلاد الشام متصلة بالحجاز والاسفار بينهما متوالية ، وقديماً كانت مهجراً للاسرائيليين من بلاد الشام كما انها كانت مقصداً للطراق ، يفدون اليها من حين الى آخر للاعمال الصناعية حيناً والتجارية حيناً والتبشيرية حيناً . وفي روايات السيرة مايستأنس به على كل ذلك ، هذا بالاضافة الى ماكان يتكرر في بلاد الشام من ثورات واشتباكات واضطهادات دينية متنوعة الاسباب والصور مما أشارت اليه آية في سورة البقرة :

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد ٢٥٣ (٢)

وما يحتمل ان يكون حافزاً الى هجرة من هاجر الى مكة والاستقرار فيها .

واذا كنا رجحنا جنسية وصفات ومصدر هؤلاء الاجانب على الوجه الذي

---

(١) في كتاب حياة محمد للدكتور هيكل ان وفداً نصرانياً قدم الى مكة مستطلعاً وانه لم يلبث ان آمن بصدق والرسالة النبوية والوحي القرآني وان اهل مكة انتقده وعاب عليه عمله ...

(١) اقرأ كتاب فتح مصر لبطلر ترجمة ابي حديد ص ١٣ — ٨٣ ففيه مؤيدات مفصلة .

ذكر فاننا لا ننفي ان يكون منهم افراد من المصريين والعراقيين والاحباش والفرس صناعاً او تجاراً او ارقاء عند بعض زعماء مكة وتجارها ، وروايات السيرة تساعد على الايجاب بل والجزم ايضاً . (١)

وتنوع جنسيات الاجانب من رومية وحبشية وعراقية ومصرية وشامية وسريانية وفارسية ، احراراً وارقاء يمكن ان يكون من ناحية ما دليلاً على ماكان من صلات اهل الحجاز ومكة خاصة ببلاد الشام وفارس ومصر والحبشة والعراق ، وصلات اهل هذه البلاد بهما .

وليس في الامكان تحديد زمن نزوح الاجانب الى مكة واستقرارها فيها . غير ان آية النحل (١٠٣) تساعد على القول بان افراداً منهم على الاقل ليسوا قديمي عهد في مكة ، وان من المحتمل ان يكونوا جاؤوا اليها في حياة النبي (ص) او قبيل بعثته ؛ لان الآية تذكر ان الذي نسب اليه تعليم النبي أعجمي اللسان ؛ ولو كان قديم العهد لكان برع في اللغة العربية ولما وصف بهذا الوصف كما هو المتبادر .

وفي طيات روايات السيرة يجد المتتبع ان بعض الذين ذكرت اسماؤهم من مسلمي الاجانب كانوا مايزالون يحتفظون بلهجاتهم ولكناتهم الأعجمية ، وان منهم من كان يلكن بالحاء هاء وبالصاد سيناً وبالشين سيناً وبالعين الفاً وهلم جرا .

---

(٢) ١ — اقرأ الزيل (١) في الصحيفة ففيه بعض اسماء مصريين وفارسيين بالأضافة الى الاسماء الرومية .

٢ — يجد المتتبع لاسماء الصحابة وروايات السيرة وخاصة اسد الغابة اسماء عدد وافر من الاحباش كبلال ووحشي وشقران وانجشه والاسود وام ايمن الخ...

٣ — ان بعض المستشرقين يحاول ان يعلق اهمية على تعبير (احابيش مكة) الذي ورد في روايات السيرة وان يستخرج منه ان هؤلاء الاحابيش هم جوال اجنبية ، واكثرهم احباش . وانهم كانوا يعيشون في حي او منازل خاصة بهم في ظاهر مكة ، ومع ان كتب اللغة (لسان العرب مادة حبش) والسيرة (ابن هشام ج ٣ ص ٧٤) لاتشجع على هذا التوسع والتخريج فانها لا يخلوان من وجاهة في مايتبادر لنا .

ونريد ان ننبه على امر مهم ؛ وهو اننا مع ماذكرناه من احتمال كثرة عدد الكتابيين والاجانب النصارى في مكة فاننا لانعني انهم كانوا يؤلفون عدداً ضخماً وانه كان لهم كيان متكتل ذي اثر ايجابي واسع فيها كما كان شأن الاسرائليين في المدينة على ماسوف نذكره بعد قليل ، بل الصحيح هو العكس ، حيث نرجح ان عددهم لم يكن ليتجاوز المئات القليلة ، وان تنوع جنسياتهم وحالاتهم وظروف هجرتهم وحداثة بعضها لم تكن لتساعد على ان يكونوا ذوي كيان متكتل ذي اثر ايجابي كبير . ومن الممكن الاستدلال على هذا بعدم وجود مايدل على اصطدام وجدال معهم ، وكيد ودس ونشاط متنوع النواحي لهم في القرآن المكي ، في حين ان القرآن المدني قد احتوى الفصول الطوال عن اليهود في ذلك كله .

— ٥ —

واذا كنا رجحنا ان الكتابيين والاجانب كلهم او جلهم نصارى فان هذا لا يعني كذلك انه لم يكن في مكة اسرائيليون ؛ بل هناك آيتان فيهما ما يلهم ذلك . في سورة الشعراء الآيات التالية :

«وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر الاولين . أولم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بني اسرائيل ... ١٩٢ – ١٩٧

حيث احتوت استشهاداً بعلماء بني اسرائيل ؛ وحيث تلهم صيغتها ان بعض علماء بني اسرائيل قد شهد بصحة الوحي القرآني واعلن مطابقته لما عند اليهود من علم ، ومعنى هذا انه كان في مكة بعض علماء بني اسرائيل في اثناء العهد المكي النبوي .

وفي سورة الاحقاف آية اخرى من هذا الباب ولكنها أكثر وضوحاً وهي :

«قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهدٌ من بني اسرائيل على مثله . فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... ١٠

حيث تحتوي صراحة شهادةً واقعية من أحد بني اسرائيل على صحة الوحي القرآني ومطابقته لما بين أيديهم ، وخبر ايمانه به .

ولقد ذكرت بعض الروايات ان آية الاحقاف هذه وآية الشعراء الاخيرة هما

مدنيتان ، غير ان صيغتها وانسجامها التام في سياق الآيات السابقة واللاحقة بها واتصال موضوعها بمواقف مشركي مكة مباشرة وأقامة الحجة عليهم تجعل مكيتها هي الراجحة ، وتجعل الأستدلال بها على لقاء النبي (ص) بعض الاسرائيليين في مكة صحيحاً ، وتجعل احتمال وجود بعض الاسرائيليين في مكة مستقرين قائماً ، وتجعل شمول الآيات المكية السابقة التي تضمنت استشهاد الكتابيين وايمانهم وخبر فرحهم بما انزل على النبي لهؤلاء أيضاً وارداً ووجيهاً .

وكل ما هنالك ان خلو القرآن المكي من حملات على اليهود وتنديد بالمعاصرين منهم [1] ، ومن آية اشارة الى اصطدام او احتكاك او حجاج ولجاج بينهم وبين النبي (ص) يجعل من السائغ ان يقال بل ان يجزم بأنه لم يكن في مكة جالية اسرائيلية كبيرة او ذات شأن ايجابي في حياتها ومجتمعها ، وان الذين كانوا مستقرين منهم فيها لم يكونوا ليتجاوزوا الأفراد . بالاضافة الى احتمال تردد بعضهم من آن لآخر عليها من المدينة ، واحتمال وجود صلات بينهم وبين اهلها مما يصح ان يعد طبيعياً ولا يحمل ريباً ، لا سيما وقد كان موضوع رسالة موسى(ص) ومعجزاته واحداث بني اسرائيل وخلافاتهم ، من المواضيع التي كثر الجدل فيها بين النبي(ص) ومشركي مكة اولاً ، وكان لليهودية آثار متنوعة في عقائد العرب وافكارهم مما سوف نتكلم عنه في باب العقائد والاديان ثانياً ، وكان في المدينة ومناطقها جاليات اسرائيلية كبيرة لا يعقل ان تكون في عزلة عن مكة ثالثاً ولقد ورد في القرآن المكي فصول كثيرة ومتنوعة وفي اكثر السور المكية في بني اسرائيل ؛ غير أنها جاءت في سياق قصص موسى (ص) وفرعون ، واحداث بني اسرائيل القدماء ، وبأسلوب مماثل لاسلوب القصص القرآنية المكية الاخرى ، واذا كان ليس فيها دلالة على وجود جالية اسرائيلية ذات شأن في مكة فأن ما فيها من اسهاب وتكرار وحفاوة اكثر من غيرها من القصص ، ثم ما تكررت الاشارة اليه من خلافات بني اسرائيل واحداثهم بعد موسى (ص) ، ومن التنويه ببني اسرائيل وانبيائهم وما كان من عناية الله بهم يدل على صحة ما ذكرناه آنفاً من الصلات والآثار .

---

(١) ننبه على ان آيات الاعراف ١٦٣ - ١٧٠ ; هي مدنية

اليهود في المدينة

- ٦ -

اما في المدينة فان القرآن المدني يمدنا بمعلومات وافية عن الجاليات الاسرائيلية الكبيرة الموجودة في المدينة ومناطقها ؛ حيث احتوى فصولاً عديدة بمناسبة الموقف الجحودي والحجاجي الذي وقفه اليهود من الدعوة النبوية بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة ، وما كان بسبيل ذلك من احتكاك واصطدام .

وقد وجه القرآن الخطاب لليهود بتعبير « بني اسرائيل » كما نعى عليهم ملك اليهود الاقدمين مع موسى والنبيين (ص) من بعده ، وما كان منهم من تعجيز واحراج ، وكفر وتكذيب ، وغدر ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه وذلك في صدر التنديد في موقفهم من النبي (ص) موقفاً مماثلاً لذلك الموقف . وفي كثير من الفصول جعل اليهود المعاصرون والقدماء موضوع خطاب وسياق وسلسلة واحدة حيث يوجه الكلام الى بني اسرائيل او الى اليهود بصيغة المخاطب القريب فيقص ما كان من الاقدمين وما كان من المعاصرين ، باسلوب يرجح ان المقصود به تقرير الصلة اللاحمة النسبية بين هؤلاء واولئك ، وربط ما بدا من اخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من اخلاق القدماء كأن الجميع يصدرون عن جبلة وخصائص واحدة كما ترى في الامثلة التالية :

١ — يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي اوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما انزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا باياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون ... البقرة ٤٠ – ٤١

٢ — يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون . واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم وأغرقنا ال فرعون وانتم تنظرون ... البقرة ٤٧ ٥٠

٣ ـ(١)وإذ قتلتم نفساً فادّارئتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون افتطمعون (٢) أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . واذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم افلا تعقلون(٣).

البقرة ٧٢/٧٦

٤ ـ واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احساناً وذي القربي واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً واقيموا الصلاة وأتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون .. البقرة ٨٣

٥ ـ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . . . البقرة ٨٧

٦ ـ سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب . . . البقرة ٢١١

٧ ـ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات . . . النساء ١٥٣

٨ ـ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم

---

(١) قبل هذه الآيات آيات ذبح البقرة وما كان حجاج بني اسرائيل مع موسى في صدده والآيات تعقيب على ذلك.

(٢) الخطاب للنبي(ص)والمسلمين وهذا ينتقل الكلام بين القدماء والمعاصرين ويستمر ضمير المخاطب القريب .

(٣)وفي هذه الآية انتقال من الخطاب عن القدماء الى الخطاب عن المعاصرين .

ذلك بما عصو وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ... المائدة ٧٨ - ٨١

-٧-

وتوجيه الخطاب الى يهود يثرب بتعبير « بني اسرائيل » بهذا الاطلاق الشمول مع هذه الصلة اللاحمة التي يجعلها القرآن بين القدماء والمعاصرين منهم يسوغ الجزم بان اليهود الذين كانوا في الحجاز هم طارئون ، وانهم اسرائيليون وانهم ليسوا قبائل عربية اعتنقت اليهودية ديناً كما ذهب اليه بعض الباحثين المستشرقين، بل وايس في الحجاز قبائل عربية يهودية الدين ؛ وانه اذا كان هناك عرب قد تهودوا فانهم لم يكونوا جماعة قبيلية محسوسة ، وليسوا الا أفرادا (١)

ويستلهم من فحوى الآيات التي نقلناها وغيرها ان اليهود في المدينة كانوا متكتلين وذوي مركز واثر وكيان محسوس في المجتمع العربي الذي وجدوا فيه ثقافياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وحربياً .

فاولاً انهم نشروا عن انفسهم على ما يظهر علماً واسماً في الاديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون ، والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب السماوي الذي بين ايديهم وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون ، ويظهرون غروراً وخيلاء بذلك كله؛ ويزعمون انهم أولياء الله واحباءه وانهم أصحاب

---

(١) من أسباب هذا الظن اسماء يهودية عربية وتسمية قبائل اليهود بتسمية عربية على ما يتبادر : مثل بني النضير وبني قريظة الخ ومثل رفاعة ووهب وجبل ونعمان وكعب وعبد الله . وواضح ان هذا ليس مما يقوم سنداً ازاء الدلالة القرآنية الصريحة . على ان الذين تسموا باسماء عربية صرفة احتفظوا باسماء آبائهم العبرانية مثل : عبد الله بن صوريا وثعلبة بن شعيا ورفاعة بن زيد بن التابوت ونعمان ابن آضا الخ (أقرأ بن هشام ج ٢ ص ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٩ و ١٥١ و ١٥٢ و١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٣ مثلاً)

الخطوة لديه والتقدم عنده كما يبدو من آيات البقرة ٧٦ و ٢١١ ومن الآيات التالية

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله ما لا تعلمون ... البقرة ٧٩ — ٨٠

٢ — ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ... البقرة ٨٩

٣ — واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه ... البقرة ٩١

٤ — وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى [١] . « ١١٠

٥ — وقالوا كونوا هوداً اونصارى تهتدوا [١] ... « ١٣٥

٦ — ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم [١] ... البقرة ١٢٠

٧ — وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ... آل عمران ٧٨

٨ — لاتحسبن الذين يفرحون بما اوتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم ... آل عمران ١٨٨

٩ — الم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء .. النساء ٤٩

١٠ — وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ... المائدة ١٨

١١ — قل ياايها الذين هادوا إن زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ... الجمعة ٦

ولعلنا لانتجوز اذا قلنا ان هذا الذهو والادعاء وتزكية النفس قد اثرت تأثراً

---

(١) ان سياق الآيات يدل على ان المقصودين المباشرين هم اليهود وان ذكر النصاري جاء استطراداً

غير يسير في العرب وفي محيط اوسع من محيط المدينة شمل في ماشمل مكة ايضاً .
ولعل في الآيات التي نقلناها في البحث السابق في صدد اهل الكتاب والجالية الاجنبية في مكة والتي تضمنت استشهاد اهل الكتاب ووصفهم بأهل العلم والذكر ، والتي ذكر في بعضها علماء بنى اسرائيل وشاهد من بني اسرائيل على التخصيص دليلاً او قرينة على هذا ؛ حيث يتبادر ان من حكمة هذا الاستشهاد والوصف ما انبثق في نفوس العرب من ثقة في ماعند الكتابيين بوجه عام واليهود بوجه خاص من علم ومعرفة واطلاع .

ويظهر من بعض الآيات ان منهم من كان معروفاً بالرسوخ في العلم كما تلهمه آية آل عمران ١٨٨ وكما تذكره بصراحة الآية التالية :

لكن الراسخون في العلم منهم ... النساء ١٦٢

—٨—

وثانياً انهم كان لهم كيان طائفي وديني وكان لهم معابد ومدارس واحبار وربانيون ، وكان لأحبارهم وربانييهم اثر كبير فيهم كما كانوا هم قضاتهم ايضاً وان احبارهم وربانييهم كانوا لايقومون بواجباتهم في منع العامة عن ارتكاب الآثام والمنكرات ، بل ومنهم من كان يتخذمنصبه الدينيوسيلةالى المال واكتناز الذهب والفضة كما تلهمه الآيات التالية :

١ — ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكنْ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ... آل عمران ٧٩

٢ — انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادواوالربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... المائدة ٤٤

٣ — وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ... المائدة ٦٢ —٦٣

٤ ـ يا ايها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... التوبة ٣٤

وثالثاً انهم اندمجوا في حياة العرب الأجتماعية فصنفوا أنفسهم قبائل وبطوناً على نمط العرب ودخلت قبائلهم وبطونهم في المحالفات مع بطون الأوس والخزرج، وكان كل فريق يتضامن مع حليفه في المسؤليات القبلية المشتركة بما فيها النصرة في القتال. وقد ظلت هذه المحالفات والمسؤليات نافذة الى مابعد الهجرة النبوية (١)، بل الى نهاية التنكيل بهم. وهذا ماتلهمه الآيات التالية:

واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون. ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم أخراجهم افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب.
البقرة ٨٤ — ٨٥

حيث تذكر اليهود منددة بمخالفاتهم لشرائعهم في سبيل منافعهم الخاصة، وتمسكهم بما يتفق مع اغراضهم واهوائهم ونبذهم منها مالا يتفق مع ذلك؛ وقد ذهب جمهور المفسرين الى ان هذه الآيات هي في صدد ما كان بين بطونهم وبين

---

(١) في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ — ٩٩ صيغة العهد الذي كتبه النبي (ص) عقب استقراره في المدينة. وقد الحق في هذا العهد كل بطن من اليهود بالبطن العربي الذي كان حليفه قبل الهجرة وسمى اليهود باسماء البطون العربية فتقول مثلاً: وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين، وان ليهود بني النجار مالهود بني عوف الخ حتى سميت بطون الاوس والخزرج جميعها. وقد كان النبي (ص) يطلب من اليهود حصتهم في دية القتلى حسبما كانت تقضي به تقاليد الحلف العربي الاجتماعي. اقرأ ايضاً ابن هشام ج ٢ ص ١٥٥

بطون الاوس والخزرج من محالفات كانت تقضي على بعضهم قتال بعض آخر واسرهم وتقاضى الفداء عنهم تمشياً مع تقاليد العرب في عصبيتهم الاجتماعية .

وفي سورة المائدة والحشر والنساء آيات بسبيل ذلك :

١ – بشر المنافقين بان لهم عذاباً اليما . الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين . النساء ١٣٨ – ١٣٩

٢ – فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . المائدة ٥٢

٣ – الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابدا وإن قوتلتم لننصرنكم الحشر ١١

حيث كان المنافقون يحتجون بما بينهم وبين اليهود من مواثيق حلفية للاستمرار في التآمر معهم ضد النبي (ص) والمسلمين.

ويظهر ان هذه الصلات الحلفية كانت شديدة راسخة بينهم وبين الاوس والخزرج مخلصيهم ومنافقيهم معاً بحيث اقتضت الحكمة تكرار الامر بعدم الاستمرار في موالاتهم والتنبيه على ما بدا منهم من نقض وغدر ومايضمرونه لهم من بغضاء وسوء نية كما ترى في الآيات التالية :

١ – اوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم . البقرة ١٠٠

٢ – ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم [1] البقرة ١٠٩

٣ – ودّت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون [1] آل عمران ٦٩

٤ – ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها انتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

---

(١) السياق يلهم ان المقصودين المباشرين هم اليهود .

الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط (١)
آل عمران ١١٨ — ١٢٠

(٥) ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانهمنهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين (٢) المائدة ٥١

٦ — ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضبالله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . (٣) المجادلة ١٥

ويلفت النظر خاصة الى ما تلهمه آية آل عمران ١١٨ مما كان من توجه ومحبة لليهود من ناحية العرب كأثر لشدة التواثق والتواصل والاندماج .

على ان هذا الاندماج في الحياة العربية وهذا الرسوخ في التواثق والتواصل لم يكن صادقاً ، وانما اتخذه اليهود وسيلة للتمكن والتأثير والدفاع والبقاء ليس غير كما تلهمه آية آل عمران ١١٩ والآيات التالية :

١ — ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم . (٤) آل عمران ٧٣

٢ — ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائماً ذلكبانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل (٥) آل عمران ٧٥

٣ — ام لهم نصيب من الملكفاذاً لا يؤتون الناس نقيراً . ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله النساء ٥٣ — ٥٤

---

(١) السياق اولا وتعبير « من دونكم » ثانيا يلهمان ان المقصودين هم اليهود .

(٢) السياق يلهم ان اليهود هم المقصودون المباشرون .

(٣) السياق يلهم ان المقصود هم اليهود والآية تندد بالمنافقين الذين يستمرون في موالاة اليهود . (٤) هذا قول اليهود لبعضهم .

(٥) السياق في اليهود وقد كانوا يقررون عن انفسهم انهم شعب الله المختار وان مادونهم من الامم أمم ثانوية ليس عليهم اي تبعة في ما يصدر منهم نحوها ويبيحون لانفسهم كل شيء معها . وكلمة الاميين في الاصل يطلقها اليهود على الأمم الاخرى وفي الحجاز اطلقوها على العرب ونعني غير الكتابيين .

ورابعاً انهم وسعوا نطاق صلاتهم السياسية وتطابقهم في العصبية الاجتماعية العربية الى خارج محيط المدينة ايضاً . فقد احتوت آية في سورة النساء اشارة الى موقف وحكاية لقول لهم . قال جمهور المفسرين والرواة انه كان من وفد يهودي ذهب الى مكة لعقد حلف مع زعمائها ضد النبي (ص) والمسلمين وكان من نتيجة ذلك ان ظاهر اليهود احزاب العرب التي قدمت تغزو المدينة في السنة الهجرية الخامسة مما أشارت اليه كذلك آية من سورة الاحزاب :

١ — ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا . النساء ٥١

٢ — وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب . الاحزاب ٢٦

والارجح ان الوفد اليهودي لم يكن ليذهب في سبيل مهمة خطرة مثل المهمة التي ذهب اليها لو لم يكن بين اليهود وقريش صلات ود وسياسة تمتد الى ما قبل الهجرة بل والى ماقبل البعثة . وفي روايات السيرة انه كان بين يهود خيبر وقبائل غطفان وذبيان مواثيق حلفية قديمة . وهذا مما يستأنس به بسبيل ما نحن في صدده .

ويلفت النظر الى الاسلوب السياسي اليهودي الذي اصطنعه اليهود في سبيل الوصول الى تحقيق غرضه مما أشارت اليه آية النساء ؛ حيث سألهم مشركوا قريش رأيهم في ماهم عليه وما محمد (ص) عليه فقالوا لهم انهم اهدى سبيلاً منه ؛ وحيث طلب منهم زعماء المشركين ان يقسموا على الوفاء بالحلف عند اصنامهم في فناء الكعبة وان يبتهلوا عندها معهم لينصروهم في ما اعتزموا عليه ففعلوا ! وهكذا بررت لهم الغاية وسيلة من ابشع الوسائل مهما كان فيها من كفر صريح وعار خالد .

وخامساً : انهم قد ابتنوا القلاع والقرى المحصنة والحصون ، وكانت من القوة والمناعة بحيث انهم كانوا يعتقدون انها ما نعتهم وبحيث كان العرب يعتقدون هذا ايضاً ؛ وقد نقلنا الآيات التي تضمنت ذلك في بحث وصف يثرب وخطورتها .
ومما لا ريب فيه ان هذه الحصون والقلاع والقرى مما كان وسيلة الى توطيد الهيبة

والقوة اليهودية في نفوس العرب ، وبالتالي من وسائل أو دلائل ما كان لهم من هيبة وقوة ، وقد تدلنا في ذات الوقت :

١ ـ على انهم كانوا في سكناهم منعزلين عن العرب ، يعيشون مع بعضهم عيشة التكتل والأحياء الخاصة على ماجرت واستمرت عليه عادتهم منذ القديم .

٢ ـ على انهم لم يكونوا يطمئنون كل الطمأنينة في المجتمع العربي ، فعمدوا الى اتخاذ القرى المحصنة والقلاع والحصون ليقووا فيها على الحصار والدفاع في الأزمات .

٣ ـ على ان احداثاً خطيرة كانت تقع من حين لآخر بين اليهود والعرب اضطرتهم تجاربهم فيها الى اتخاذ هذه الحصون والقلاع والقرى . ونرجح ان هذه الاحداث هي التي اضطرتهم كذلك الى عقد المحالفات مع العرب والاندماج الظاهري في تقاليدهم العصبية الاجتماعية والقبيلية .

— ١٠ —

وسادساً : ويمكن ان يستدل من الآيات القرآنية على ان اليهود كانوا جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع ومنتشرة في اماكن كثيرة من منطقة يثرب والطريق المؤدية الى الشام منها . فهناك آيات تذكر ما افاء الله على رسوله من قراهم ؛ واستعمال صيغة الجمع يلهم الكثرة كما هو المتبادر :

« ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الحشر ٧

وفي آيات الاحزاب التي ذكرت مظاهرة اليهود المشركين والتنكيل بهم ذكر ان الله اورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم يطؤوها من اراضيهم ؛ والفقرة الاخيرة هي في صدد ما قلناه من انتشارهم كما هو المتبادر :

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وارضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً ... الأحزاب ٢٦ ـ ٢٧

وفي سورة الفتح اشارة غامضة فسرتها الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين

بانها عنت خيبر في الدرجة الاولى وما فتح على المسلمين بعدها مباشرة من قرى وادي القرى وفدك وتيماء اليهودية ، مما هو كذلك بسبيل توكيد ما نحن في صدده من كثرة وانتشار الجاليات الاسرائيلية :

١ — سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ...
الفتح ١٥

٢ — وأثابهم فتحاً قريباً (١) . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه (١) وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها (٢) وكان الله على كل شيء قديراً .. الفتح ١٨ — ٢١

وكتل الجالية اليهودية الكبرى كانت على ما يبدو في منطقة مدينة يثرب بالذات ، حيث كان فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عددها بضعة آلاف ، وهي قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، وقد اجلا النبي (ص) الاولين ونكل في الثالثة تنكيلاً شديداً حسبما اقتضته وبررته الظروف . والقرآن لم يذكر هـذه القبائل باسمائها ؛ ولكنه احتوى اشـارات الى ثلاث حوادث تنكيلية ذكرت الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين معها اسماء القبائل الثلاث .

فآيات الحشر ٢ — ٧ التي نقلناها سابقاً تضمنت الاشارة الى حادثة بني النضير . وآيات الاحزاب ٢٦ — ٢٧ التي نقلناها سابقاً ايضاً تضمنت الاشارة الى حادثة بني قريظة . اما حادثة بني قينقاع فقد اشير اليها في الآيات التالية :

١ — قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي

---

(١) هو صلح الحديبية

(٢) من المحتمل كثيراً ان يكون قصد بهـا القرى اليهودية الثانوية التي استسلمت بدون حرب نتيجة لانتصار المسلمين الحربي في خيبر . وفدك وتيماء قـد استسلمتا بدون حرب على ما ذكرته روايات السيرة .

العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرةً لاولي الابصار . . .
آل عمران ١٢ ‏(١)‏ ١٣

٢ — ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وأما تخافن من قوم خيانةً فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ‏(١)‏ الانفال ٥٥ — ٥٨

٣ — كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم . . .
الحشر ١٥ ‏(٢)‏

— ١١ —

وسابعاً والآيات التي نقلناها وما احتوته من وصف لما كان لهم من اراض واموال وقرى وما وصفت به الغنائم التي غنمها المسلمون بالكثرة تدل كما هو واضح على ما كان لليهود من ثروة واسعة . ونشاط اقتصادي كبير كانت الزراعة من اهم مجالاته على ما تلهمه الآيات نفسها ، واوضح ان هذا وذاك قد جعل لهم اثراً خطيراً في حياة العرب الاقتصادية .

وثامناً وقد كانوا يتعاطون الربا . وهو العمل الذي اختصوا به تقريباً في اكثر مهاجرهم ، وكان لهم من طبيعة منطقة يثرب الزراعية فرصة الى ذلك ، لان الزراع يحتاجون عادة الى استلاف المال الى حين الحصاد والقطاف . ومما لا ريب فيه ان هذا مما كان يجعل لليهود تأثيراً قوياً في حياة العرب الاقتصادية ايضاً . اما الاشارة القرآنية الى هذا فهي في آيات في سورة النساء نزلت في التنديد بمواقفهم

(١) في تفسير الخازن وغيره في صدد تفسير آيات آل عمران والانفال وفي ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤ ان المعنيين بالذين كفروا هم بنوا قينقاع وان الله أمر النبي (ص) بانذارهم عما كان من عاقبة مشركي مكة في بدر حيث اشير اليها في آية آل عمران الثانية .

(٢) هذه الآية جاءت تعقيبية على حادث تنكيل بني النضير وقد كان اجلاء بني قينقاع قبلهم .

الجحودية والحجاجية واخلاقهم :

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ...

١٦٠ — ١٦١

ولعل جملة « اكلهم اموال الناس بالباطل » تلهم انهم كانوا يستغلون حاجة اهل يثرب استغلالا أثيماً ، ويرهقونهم بالربا ومضاعفته اضعافاً كثيرة ، ولعلهم كانوا يستعملون وسائل اخرى في سبيل ارهاقهم والاستيلاء على غلاتهم ومنتوجاتهم.

وليس في الآيات القرآنية ما يمكن الاستدلال به على اشغالهم بالاعمال الصناعية والتجارية . غير ان هذا لا يعني النفي بطبيعة الحال . والمرجح انهم او انه كان منهم فئات يشتغلون بهذه الاعمال . ولقد ذكرت روايات السيرة في سياق اجلاء بني قينقاع انه كان لهم سوق يعرف باسمهم ، وانه كان في هذا السوق صاغة منهم . والتجارة عمل من اعمال اليهود الرئيسية ، ولا يعقل ان يكونوا في غفلة عنها ، وفي البيئة مجال واسع لها ، ومن اهلها من كان يبدي فيه نشاطاً كبيراً .

وتاسعاً ان فحوى الآيات ودلالاتها وملهماتها بصورة عامة تلهم ان هجرة الاسرائيليين الى الحجاز لم تكن حديثة عهد ، بل وربما كانت ترجع الى بضعة اجيال او قرون ، وانهم كانوا يجيدون العربية خطابة وفهماً بالاضافة الى مالايتحمل شكا من احتفاظهم او احتفاظ علمائهم واحبارهم وربانييهم على الاقل باللغة العبرانية التي كانت لغة التوراة والكتب اليهودية الدينية الاخرى (١)

— ١٢ —

وكما امدتنا الآيات القرآنية المدنية بدلالات وملهمات كثيرة عن احوال الجاليات اليهودية الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحربية والتلتلية

(١) في سيرة ابن هشام اسماء عدد من شعراء اليهود وقصائدهم . انظر مثلا الجزء الثاني ص ٣٣٧ و ٣٤٤ والجزء الثالث ص ٥٥ و ١٧٤ وفي كتب الحديث حديث عن زيد بن ثابت ان النبي (ص) امره بتعلم العبرانية من اليهود حتى يستطيع ان يحاجهم ...

والعددية ، فان فيها ما يمدنا كذلك بدلالات وملهات عما كانت عليهم اخلاقهم ايضاً .

١) فمن الآيات ما يشير الى ما كانوا عليه من أثرة وانانية وشح ورغبة في ان يكون كل شيء لهم وحسد وجشع الى ما في ايدي الغير كما جاء في آيات البقرة ١٠٩ والنساء ٥٣ — ٥٤ التي نقلناها ؛ ومن آيات سورة آل عمران التالية :

ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ... ١٨٠—١٨١

٢) ومن الآيات مايشير الى خلق النفاق والدس والقاء الشكوك في نفوس الآخرين قصد البلبلة والتحكم كما تلهمه آيات البقرة ٧٦ وآل عمران٧٢ وكما تلهمه الآيات التالية :

١ — قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وانتم شهداء وماالله بغافل عماتعملون. ياايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاًمن الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم . يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاوانتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ...

آل عمران ٩٩ — ١٠٣

وقد ذكر المفسرون والرواة ان الآيات او بعضها نزل بمناسبة دس دسه اليهود بين بعض الاوس والخزرج جر الى فتنة كادت تتسع اتساعاً عظيما . وعلى كل حال فالايات في اسلوبها ومضامينها تدل على مرتف دس وصد وبلبلة وفتنة من اليهود بين المسلمين .

ومن هذا الباب آية في سورة المائدة انطوت على موقف تشكيك ودس يهودي

في قضية من القضايا المرفوعة الى النبي (ص) حرفوا الكلم فيه عن مواضعه وتآمروا فيه مع المنافقين :

يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ... ٤١

٣) ومن الآيات ما يشير الى خلق تبرير كل وسيلة في سبيل الغاية والمنفعة الخاصة مما احتوته آية النساء ٥١ وآيات النساء التالية :

ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل . والله اعلم باعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه . ٤٤ — ٤٦

٤) ومن الآيات ما يشير الى خلق استحلال ما في ايدي الغير وعدم اعتبار انفسهم مسؤولين عن الامانة لهم والوفاء بعهدهم كما تلهمه آيت البقرة ١٠٠ وآل عمران ٧٥ التي نقلناها سابقاً .

٥) ومن الآيات ما يشير الى خلق عدم مبادلة الغير ما يتمتعونه منهم من ود وصداقة وعدم الاركان للغير او تبصيره في امر ما كما تلهمه آيات آل عمران ٧٣ و ١١٩ والبقرة ٧٦ التي نقلناها سابقاً .

٦) ومن الآيات ما يشير الى خلق اللجاج والحجاج والمكابرة . وهي كثيرة جداً وتجعل اللحمة بين اليهود المعاصرين واليهود القدماء متصلة في هذا الخلق . وقد اوردنا بعضاً منها في ما سبق ونورد بعضاً آخر في ما يلي :

١ ــــ قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون [1] البقرة ١٣٩

٢ ــــ سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها[1] « ١٤٢

٣ ــــ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل

---

(١) السياق في مواقف اليهود واحوالهم واخلاقهم .

عما يعملون . ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذاً لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونـه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (١) البقرة ١٤٤ — ١٤٦

- ١٣ -

٧) ويظهر من فحوى بعض الآيات انهم كانوا يتعاطون السحر . فقد ذكرت احدى آيات البقرة في سياق التنديد باليهود للجاجهم ونقضهم للعهد ونبذهم كتاب الله وعدم تصديقهم برسوله انهم بدلا من اتباع الحق اتبعوا ما تتلوا الشياطين من اعمال السحر في حين انهم يعرفون ما في هذا من خروج عن الدين وابتعاد عن جادة الرشد والهدى . ويظهر كذلك من الآية انهم كانوا يزعمون ان سليمان (ص) كان هو ايضاً يتعاطى السحر الذي سخر به الشياطين ، وان علمهم فيه هو من ذلك العلم :

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب (١) كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون النـاس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون (٢)

البقرة ١٠١ — ١٠٢

---

(١) السياق في مواقف اليهود واحوالهم واخلاقهم .

(٢) في تفسير الطبري ج ١ ص ٣٤٧ اسم ساحر يهودي في المدينة هو لبيد ابن الاعصم . الفقرة الاخيرة من الآية الثانية ترجع الكلام الى اليهود الذين بدء بالكلام عنهم في اولها .

— ١٤ —

هذا ، وان آية آل عمران :

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ... ١١٢

وآية الاعراف المدنية :

واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ... ١٦٧

لتلهمان انه مما كان مشهوداً وملموساً بوجه عام تسربل اليهود بسربال المسكنة والذلة ، وقد تلهمان أنهم كانوا كذلك في الحجاز على الرغم مما كانوا عليه من ثروة وعدد وكيد ومظاهر قوة كما هو شأنهم في غير الحجاز .

كذلك فان آية الاعراف :

وقطعناهم في الارض امماً ... ١٦٨

لتلهم ان شتات اليهود في كل ناحية من انحاء الارض حالة مشهودة ملموسة لدى غيرهم ، وان وجودهم في الحجاز كان مفهوماً انه يمت الى هذه الحالة .

— ١٥ —

وان لمن الطبيعي ان يكون لليهود وهذا مركزهم وهذه صلاتهم ومشاركاتهم في حياة العرب وتقاليدهم وهذه اخلاقهم وعاداتهم ومعايشهم اثر غير يسير في جيرانهم العرب اهل المدينة خاصة ، وأهل الحجاز عامة . فنحن لا نشك في ان كثيراً مما كان يبدو ان العرب قد عرفوه وجادلوا فيه ، وتطور في اذهانهم وعقائدهم وعاداتهم من أخبار الانبياء والملائكة والشياطين وخلقة العالم وقصص الامم الغابرة والشرائع السماوية ، وكذلك مما كانوا عليه من احوال معاشية وصناعية وتجارية وزراعية بل وبعض الطقوس الدينية قد تسرب منهم الى العرب في هذه الحقبة الطويلة التي اقاموها بين ظهرانيهم [١] وقد مرت الاشارة الى ما هو محتمل ان يكون العرب

---

(١) في تفسير الخازن ج ١ ص ١٥٣ عن ابن عباس ان اهل المدينة كانوا يقتدون بكثير من افعال اليهود لانهم يرونهم اهل كتاب ويرون لهم فضلا عليهم .

قد اقتبسوه منهم من الفنون الزراعية واتخاذ الحصون والآكام ؛ وستأتي اشارات اخرى في الفصول التـــالية الى ما تسرب الى العرب واقتبسوه منهم في النواحي الاخرى . وقد افردنا بحثاً خاصاً باليهودية في باب الاديان والعقائد تكملة للصورة القرآنية عن اليهودية واليهود .

النصارى والاجانب الاخرون في المدينة

-١٦-

ونبحث الان في ما اذا كان في المدينة جالية اجنبية غير الاسرائيليين قبل البعثة ، فنقول انه ليس في القرآن اشارة صريحة الى ذلك كمثل التي في آية النحل بالنسبة الى مكة غير انه يوجد فيه آيات مدنية كثيرة ، ورد فيها ذكر النصارى ؛ ووجه اليهم الخطاب ، وحكيت لهم مواقف مستحبة من الدعوة النبوية والقرآن وندد بعقائدهم في المسيح (ص) وجودلوا فيها ، وقرع بعضهم على مواقف مكابرة وجحود وعدوان وصد بدت منهم ، وأمر بعدم موالاتهم ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى. البقرة ١١١

٢ — وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شي ... البقرة ١١٣

٣ — ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . « ١٢٠

٤ — وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا . « ١٣٥

٥ — إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله الا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم .. آل عمران ٥٩—٦٢

٦ — يا اهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله

ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح ان يكون عبدالله ولا الملائكة المقربون ... النساء ١٧١ — ١٧٢

٧ — وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ... المائدة ١٨

٨ — لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ... المائدة ٧٢ — ٧٦

٩ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم أولياء بعض . المائدة ٥١

١٠ — لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ... المائدة ٨٢-٨٣

١١ — واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس أتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن اقول ما ليس لي بحق .. المائدة ١١٦

١٢ — قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو

سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . .

التوبة ٢٩ - ٣٤

١٣ — ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون . . . الحديد ٢٧

وهذا بالاضافة الى آيات وجهت فيها الدعوة الى اهل الكتاب مطلقة مما يرجح ان يكون خوطب بها النصارى واليهود معاً مثل الآيات التالية :

١ — يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ... المائدة ١٥

٢ — يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ... المائدة ١٩

بل لقد تخلل هاتين الآيتين تنديد بعقيدة ألوهية المسيح (ص) مما يسوغ القول انهما موجهتان في الدرجة الاولى الى النصارى :

لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الارض جميعاً ... المائدة١٧

-١٧-

واذا كان ذكر النصارى في بعض هذه الآيات قد جاء استطراداً او تعبيراً عن لسان حال على ماضمناه في بحث اليهود فان اكثرها يحتوي دلالات قوية بل وصريحة على ان النبي (ص) قد التقى في المدينة بطوائف مختلفة من النصارى في اوقات متفاوتة ، ودعاهم ، ومنهم من بدا منه ما وصفته آيات المائدة ٨٢ - ٨٣ من مشهد تصديقي رائع ، ومنهم من جادل وكابر .

واذا كان من المرويات ان وفوداً نصرانية قد قدمت الى المدينة من نجران اليمن ومن الحبشة ومن الشام واتصلت بالنبي (ص) ومنها من تناظر معه وبقي على دينه ومنهم من آمن فان ذكر اقوال ومواقف وعقائد النصارى في الفصول التي يرجح انها نزلت في اوائل العهد المدني، وقبل ان يستفحل امر النبي (ص) ويستقر ليسوغ القول أنه كان في المدينة طائفة مستقرة من النصارى بقطع النظر عن قلة عددها و كثرته.

واذا كان من المحتمل ان يكون من هؤلاء من كان عربا متنصرين من أهل المدينة على ما كان الامر في مكة او عرباً من غير اهلها قدجاؤا واقاموا فيها لظروف اقتصادية وغير اقتصادية فليس ما يمنع ان يكون منهم من هو اجنبي الجنس ايضاً من روم وسريان واقباط وعجم الخ .. واذا كانت ظروف الشام قد حملت بعض النصارى غير العرب على النزوح الى مكة والاقامة فيها ، واذا كان تجار مكة قد استطاعوا جلب بعضهم بالشراء لحاجاتهم الخاصة اوالاقتصادية فالمتبادر ان لايكون هذا قاصراً على مكة ، لا سيما والمدينة أقرب الى الشام من مكة وأقليمها أكثر احتمالا على النازحين من الشام من اقليم مكة ، وقد كانت هذه الميزات مما جعل الاسرائيليين النازحين عن الشام يفضلون الاقامة فيها (١)

— ١٨ —

وآيات التوبة ٢٩ — ٣٤ نزلت على مايكاد يكون يقينياً بين يدي غزوة تبوك التي قادها النبي (ص) ضد نصارى مشارف الشام بسبب ما بدا منهم من عدوان . فاذا استثنيناها لا نجد في الآيات التي نقلناها ما يدل على ان النصارى كانوا في المدينة متكتلين او ذوي اثر محسوس في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية . كما لا نجد شيئاً من صور المكر والدس والتآمر والحسد والبغي الذي احتوته الآيات التي جاءت في حق اليهود ، بل نجد وصفاً شاملا للنصارى بأنهم كانوا اقرب الناس مودة للذين آمنوا وانهم كانوا لا يستكبرون وان في قلوبهم رأفة ورحمة مما يدل بالاضافة الى

(١) في اسد الغابة ج ١ ص ٤١ ذكر نجار رومي اسمه باقوم كان مقيماً في المدينة وهو الذي صنع منبر النبي (ص) ونرجح ان له امثالا عديدين .

دلالته ايضاً على عدم كثرتهم وتكتلهم ؛ وعلى ضعف أثرهم على انهم كانوا بوجه الاجمال ذوي اخلاق دمثة وعواطف رقيقة ، راغبين عن اللددوالعنف في الخصومة الخ . . مما قررنا مثله لنصارى مكة في بحث سابق استلهاماً من الآيات المكية .

ولا يعني هذا انه لم يكن للنصرانية أثر في عقائد العرب واديانهم وافكارهم ومعارفهم ، فأن هذا الأثر غير خفي في كل ذلك مما سنشير اليه في الفصول التالية . ولقد عقدنا في باب العقائد والاديان بحثاً للنصرانية والنصارى ايضاً ، سنلم فيه بهذا الاثر كذلك ونكمل الصورة القرآنية عنها .



الباب الثاني

في الحياة الاجتماعية

تمهيد

ان هذا الباب يتناول وصف مركز كل من الرجل والمرأة وحياة الاسرة وعاداتها، ووصف ما كان يقوم عليه المجتمع من تقاليد عصبية متنوعة، وخطورة الحج ومناسكه ومواسمه والأشهر الحرم وما كان لذلك من تقاليد وما كان لهذه التقاليد من اثر في حياة العرب الاجتماعية في عصر النبي (ص) وبيئته، وفي نهضتهم ونشاطهم، وعقائدهم ومواقفهم من الدعوة الاسلامية وما كان جارياً عندهم في أمر الرق والرقيق، ثم ما كان عليه امر القضاء والطرائق التي كانوا يجرون عليها في حل مشاكلهم وتسوية خلافاتهم، وما كان في مدنهم من سلطات حكومية وقبائلهم من سلطات مشيخية، وما كان من عاداتهم في الحرب وعدتها والسلم ومواثيقها.

ويتألف الباب من اربعة فصول :

الفصل الأول

في حياة الاسرة

الرجل والمرأة — مركز الرجل الممتاز — استدلالات قرآنية — هوان مركز المرأة والاجحاف بها — استدلالات قرآنية — كراهية ولادة البنات — استدراك وصور تدل على ما كان لبعض النساء من بروز وشخصية — دلالة شمول الدعوة الاسلامية للجنسين شمولا متساوياً — عادات وتقاليد متنوعة — الطلاق — الظهار — الايلاء — المرأة في حالة الحيض — حداد الارملة — نكاح أرملة الاب من قبل ابنه لغيرها — جمع الاختين في عصمة واحدة — عدم تحديد عدد الزوجات — التسري بالاماء بلا قيد — نكاح المتعة — التخادن والمسافحة — دلالة ذكر الاماء والكتابيات في صددها — البغاء — الدخول على بعض والسحر عند بعض بدون تكلف — بروز المرأة بزينتها — التفرق في السكنى — التبني — الاسترضاع — الأناة في الفطام — سن الرشد — قتل الاولاد ووأد البنات — حالة التوارث — حالة الآباء — حالة اليتامى

الرجل والمرأة

— ١ —

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً في الرجل والمرأة . منها ما هو عام ومنها ما يتعلق بالتشريع والتكاليف والاصلاحات الاسلامية ، ومن كلا النوعين يمكن ان نقتبس صورة ما للرجل والمرأة ومركز كل منها في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة .

فاولا : من فحوى الآيات العامة التي ذكر فيها الرجل يمكن ان يستدل على انه كان يتمتع بالمركز الممتاز ، فهو قوام الاسرة وربها ، المسئول عن حياتها ورزقها وشؤونها ، وهو المكلف بالحرب والدفاع ، والمطالب بالثأر والغرامات ، وهو المخاطب في المسئوليات الاجتماعية المتنوعة ، وهو صاحب الرأي والكلمة النافذة والمظهر البارز ، وعلى ان المرأة من حيث العموم كانت تابعة للرجل ومنسوبة اليه ،

وتحت حمايته ومسئوليته ، ومسيرة بأمره ، وانه هو الذي يمثلها في مصالحها .

واذا دققنا في الآيات التي فيها دعوة او خطاب ، او جدل او مناظرة ، او انذار او وعد او وعيد ، او التي فيها حكاية عن مواقف الكفار وحجاجهم واقوالهم ، وما كان بينهم وبين المسلمين من شؤون وأحداث وحروب ، او التي فيها قصص الامم الغابرة وانبيائها . بل والتي فيها خطاب للمسلمين في التشريع والتكليف او التنبيه والتحذير ، او الدعوة الى الجهاد بالمال والنفس ، او حكاية لما قالوا وفعلوا ويقولون ويفعلون لوجدناها قد صيغت في الاعم الأغلب بصيغة المذكر مفرداً وجمعاً ، ولوجدنا أكثرها انما قصد به في الحقيقة مخاطبة الرجال والحكاية عنهم .

وليس من الضروري ولا من الممكن استعراض آيات القرآن جميعها طبعاً وهي في الشؤون والاغراض التي ذكرناها ، كما ان القارىء اذا ما رجع الى القرآن فانه يلمس هذه الحقيقة في كل سورة منه بل في كل فصل من سوره ، ولذلك فاننا سنكتفي بايراد بعض الآيات التي فيها ذكر « الرجل » من المرأة او ذكر ما كان له من خصائص ، حيث يمكن ان يكون لهذه الآيات دلالة صريحة وقوية ما كان للرجل في ذهنية المجتمع اذ ذاك من مركز ومظهر لاسيما وقد اختص بالذكر في شؤون خطيرة كما ترى في ما يلي :

١ ـ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ...

البقرة ٢٢٨

٢ ـ والذين يُتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشراً فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن بالمعروف ... البقرة ٢٣٤

٣ ـ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ... البقرة ٢٣٣

٤ ـ للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة أشهر فان فاؤوا فان الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم ... البقرة ٢٢٦ ـ ٢٢٧

٥ ـ وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح ... البقرة ٢٣٧

٦ ـ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب

والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ... آل عمران ١٤

٧ ـ وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا واتوا النساء صدقاتهن نحلة ... النساء ٣ ـ ٤

٨ ـ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ...
النساء ٣٤

٩ ـ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ... النساء ٧٤

١٠ ـ وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ... الانعام ٨ ـ ٩

١١ ـ وبينهما حجاب وعلى الاعراف (١) رجال يعرفون كلاً بسيماهم ...
الاعراف ٤٦

١٢ ـ ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ... الاعراف ٤٨

١٣ ـ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كلٌ على مولاه أين ما يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ... النحل ٧٦

١٤ ـ وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من اهل القرى ...
يوسف ١٠٩

١٥ ـ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ... النور ٣٧

١٦ ـ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي

---

(١) رجال الاعراف ملائكة على أرجح التأويلات فذكروا كرجال.

تظاهرون منهن أمهاتكم ... الأحزاب ٤

١٧ — « وقالوا مالنا لانرى رجالاً كنا نعدهم من الاشرار .. صاد ٦٢

١٨ — «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم... الزخرف ٣١

١٩ — « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولاتضاروهن لتضيقوا عليهن .... الطلاق ٦

٢٠ — « ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم واولادكم عدواً لكم فاحذروهم .... التغابن ١٤

٢١ — « وانه كان رجال من الانس يعوزون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . الجن ٦

في هذه الآيات التي هي قلة من كثرة يظهر مركز الرجل وميزاته، واختصاصه بالمسؤلية والحرب والمهات العظيمة ، والانفاق والهيمنة على زوجته وعلى شؤون الأسرة وبروزه بصورة واضحة ؛ بل ان في آية آل عمران (١٤) قد عبر عن الرجال بكلمة « الناس » كأنما هم الدنيا ، وان النساء والبنين والاموال والزينة والمتع الأخرى انما هي مطالبه ورغباته ومطمح انظاره ومطامعه .

وهذا الأسلوب هو بطبيعة الحال ترديد لما كان واقعاً مألوفاً في المجتمع الذي نزل فيه القرآن وخوطب به أهله بلسانهم لأول مرة ، وما احتوته التشريعات النسائية والعائلية الاسلامية من اصلاح واتخذته من حياطة لحقوق المرأة المتنوعة حالاتها انما توخى فيها تعديل كثير مما كان فيه حيف وضير وارهاق واعنات ونكران حق المرأة مما سنشير اليه بعد هذا الكلام .

—٢—

وثانياً في القرآن آيات عديدة يمكن ان تلهم ما كانت عليه المرأة من الوجهة الحقوقية والاقتصادية والزوجية ومن اضطهاد وسوء معاملة وارهاق ، وكيف كانت تؤكل حقوقها ، وتبتز أموالها وتحرم من ارثها ويبغى عليها في حرياتها وفي متنوع ظروفها الزوجية خاصة ننقل منها مايلي :

١ — « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ولا يحل لكم أن

تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ... البقرة ٢٢٩

٢ ــ «واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم . واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضو بينهم بالمعروف .... البقرة ٢٣١/٢٣٢

٣ ــ « ياأيها الذين آمنوا لايحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً .... النساء ١٩ ــ ٢٠

٤ ــ « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ومايتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليماً . وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعراضاً فلا جناح عليهما إن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير واحضرت الانفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ... النساء ١٢٧/١٢٨

٥ ــ « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه او كثر نصيباً مفروضاً ... النساء ٧

٦ ــ « ياايها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ....الاحزاب ٤٩

٧ ــ « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن امهاتهم إن امهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ... المجادلة ١ــ٢

٨ — « يا ايها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن بعدتهن وأحصوا العـدة واتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينـة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلـكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً . واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الاحمال اجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل لهمن امره يسراً . ذلك امر الله انزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً . أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان أرضعن لكم فأتوهن اجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاثرتم فسترضع له اخرى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ... الطلاق ١ — ٧

ويحسن ان يسلك في هذه السلسلة آيات البقرة ٢٢٦ — ٢٢٧ التي أشارت ايلاء الازواج زوجاتهم وما سبقتها من آيات نهى عن الضرر وأمر بتقوى الله والبر والاصلاح وتحذير عن جعل الله عرضـــة للايمـان ووسيلة للضرر والحيف ٢٢٤ — ٢٢٥

فهذه الآيات جميعها انما احتوت ماالحتوته من اوامر ونواه وتشريعات بسبيل اصلاح ماكان عليه أمر المرأة من غبن وحيف وتعرض للعنت والارهاق والابتزاز كما قلنا، وبالتالي فانها قد انطوت على صور كثيرة مما كانت عليه قبل نزولها او بالاحرى قبل البعثة من مثل هذه الصور المكروهة . ويلفت النظر في ماالحتوته الآيات عامة وآيات سورة الطلاق خاصة من التوكيد والتشديد والتنبيه على تقوى الله الامر الذي يدل على ان المرأة في ظروف الطلاق والمعاملات الزوجية كانت عرضة لشديد البغي ، وكان هذا من الامور الراسخة والشائعة .

وفي سورة الانعام آية صريحة الدلالة على ما كان من غبن للمرأة وانتقاص من شأنها وحقها واتخاذ التقاليد الدينية وسيلة الى ذلك وهي :

وقالوا مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ... ١٣٩

وآيات المواريث مما يلهم ما كان يقع على حق المرأة فيه من هضم ونكران وتلاعب ؛ في أصله حيناً بحيث كان يدعى عصبة الميت انهم هم الذين ينحصر فيهم الارث لانهم هم المحاربون الغارمون ، وفي مقداره حيناً على ماذكرته الروايات ؛ فجاءت الآية السابعة من سورة النساء وقد نقلناها قبل قليل اولاً لتثبيت هذا الحق من حيث الأصل ؛ ثم جاءت آيات المواريث ١١ — ١٢ التي نقلنا اكثرها في بحث الاعداد والحساب والتي انتهت بتشديد على وجوب التزامها .

وتنبه خاصة على ارث الكلالة ، فقد كان ارث الميت الذي لانسل له وخاصة لانسل له من الذكور ولا أبوان له يصرف الى اخوته وعصبته وينكر على الاخوات فيه حقهن ، وهذا يفهم من اهتمام القرآن لتثبيت هذا الحق في آية المواريث ١٢ وفي آية اخرى من سورة النساء وهي :

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ماترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا ... ١٧٦

— ٣ —

ثالثاً ولقد وردت في القرآن آيات تحكي ما كان لولادة البنات من كراهية ، وتندد بالكفار على نسبتهم البنات الى الله بينما المفضل عندهم البنون ، وبينما المعقول ان يكون لله ماهو الأفضل ، وتذكر وأدهم للبنات كما ترى في الآيات التالية :

١ — « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون . واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء مايحكمون ... النحل ٥٧/٥٩

٢ — « واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ... الزخرف ١٧—١٩

٣ — « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . ام خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ... الصافات ١٤٩—١٥٠

٤ — « ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذاً قسمة ضيزى ... النجم ٢١—٢٢

٥ — « واذا الموؤودة سئلت . بأي ذنب قتلت ... التكوير ٨—٩

فهذه الآيات تدل على ما كان للانثى بوجه عام من مركز هين على الرجل، وعلى ما كان لولادتها من أثر سيء في نفسه، ولو كان ذلك لأسباب خارجة عن ذات المرأة كما نرجح بل نجزم مثل خوف الآباء من العار والمتاعب وتفضيل الذكر لانه اكثر غناء في الحرب ومواقف العصبية وكسب الرزق .

وفي آية الزخرف (١٨) خاصة اشارة الى سبب يمت الى ما قلناه حيث تشير الى ما كان من عدم غنائها وابانتها في مواقف القول والخصومة .

— ٤ —

واذا كان هذا الذي قلناه عن مركز الرجل والمرأة هو الواقع والمظهر العام ، فلا يعني انه لم يكن للمرأة شخصية ما في المجتمع العربي وفي عصر النبي (ص) وبيئته بنوع خاص . وفي القرآن آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على انه كان لها بعض الشأن .

فاولاً : هناك آيات تشير الى المنافقات والمشركات كما تشير الى المنافقين والمشركين ، وتتوعدهن كما تتوعدهم ، وتذكر اعمالهن وتضامنهن في النفاق والشرك وصد مع الرجال ؛ وهذا التخصيص بالذكر يلهم او بالاحرى يدل على ان من النساء من كان لها دور بارز أبان السيرة النبوية ، وبالتالي على ان منهن بارزات نابهات نشيطات لم يكن في عزلة عما يجري من امور خطيرة في بيئتهن وكن يشتركن فيها كذلك قبل البعثة ايضاً :

١ — المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم . التوبة ٦٧

٢ — يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات   الاحزاب ٧٣

٣ — ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم واعد لهم جهنم وساءت مصيرا ..
الفتح ٦

ولا يرد في ما يتبادر لنا أن موقف النساء انما كان تبعاً لموقف الرجال ، فمع مافي هذا من وجاهة فانه لولم يكن يبدو احياناً من المرأة المنافقة والمشركة مواقف مؤذية لما اقتضت الحكمة بذكرها في بعض الآيات ، في حين ان الامر لو كان كذلك تماماً لاكتفى بايراد ذكر المنافقين والمشركين في جميع الآيات التي ذكروا فيها بصيغة التذكير التي لم يكن يخفى انها تشمل الجنسين .

على ان في القرآن آيات فيها دلالات خاصة فضلاً عما في الروايات الكثيرة المعتبرة .

فقد ذكرت امرأة أبي لهب في صورة المسد مع زوجها باسلوب يدل على ما كان لها من دور في الهاب نار الفتنة والصد :

« تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد .   «صورة المسد»

فلو لم يكن لها من موقف شديد ابان الدعوة ولا سيما في اوائل عهدها لان السورة مما نزل مبكراً جداً لما اختصت بهذا الوصف والانذار القرآنيين ؛ وفي هذا بطبيعة الحال صورة لشخصية امرأة عربية قوية في اوائل البعثة . ولقد روى في ما روي انها اثرت في زوجها حتى جعلته يخالف تقاليد العصبية الشديدة ويناوىء ابن اخيه العداء ، واثرت في ولديها حتى حملتها على تطليق ابنتي النبي (ص) وقد تمت خطبتها قبيل البعثة

وكما ورد في القرآن آيات تذكر المرأة في نفاقها وشركها فقد ورد فيه آيات تذكرها في ايمانها وصبرها وهجرتها وجرأتها .

١) في آية من سورة البروج ذكرت المؤمنات مع المؤمنين في محنة فتنة المسلمين وخاصة ضعفاؤهم في مكة من قبل زعماء المشركين :

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنم ولهم عذاب الحريق . البروج ١٠

وهذه المحنة من اشد وانكر ما واجهها المسلمون في مكة ، ومعنى هذا ان المرأة استجابت للدعوة وناصرتها وتعرضت في سبيلها للأذى والاضطهاد منذ ايامها الاولى . وفي الروايات اسماء عدد من النساء المؤمنات اللاتي تعرضن للأذى فصبرن حتى زهقت روح بعضهن وعمى بصر بعضهن .

٢) وفي سورة آل عمران ذكرت المرأة المسلمة في كل ما ذكر الرجل المسلم في ما تعرض له المسلمون من أذى :

« فاستجاب لهم ربهم إني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار . ١٩٥

ولقد ذكرت الروايات اسماء عدد غير قليل من النساء اسلمن وقاتلن وقتلن واوذين في سبيل الله وهاجرن الى الحبشة والى المدينة رغم أهلهن ومنهن من كن بنات زعماء كانوا يقودون حركة المعارضة أو أخواتهم .

٣)وفي سور اخرى آيات اخرى فيها تنويه بالمسلمات مقروناً بتنويه بالمسلمين مما يدل على انه قد بدا من المرأة المسلمة من مواقف الاخلاص والتفاني ماقضت الحكمة بتخصيص التنويه بها وعدم الاكتفاء بذكر المسلمين بصيغة التذكير ولو انها ينطوي فيها الجنسان معاً :

١ — والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم . التوبة ٧١

٢ — من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون . النحل ٩٧

٣ — إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين

والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما ... الاحزاب ٣٥

٤) وفي سورتي النساء والفتح آيات تدل على ان بعض النساء المسلمات اللاتي عجزن عن الهجرة الى المدينة ظللن ثابتات على الاسلام رغم ما كان يحدق بهن من خطر وسوء جوار مما فيه دلالة على قوة الجنان والعزيمة والجلد :

١ — وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ... النساء ٧٥

٢ — ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّةٌ بغير علم ... الفتح ٢٥

٥) وفي سورة الممتحنة آية تشير الى ان من النساء المسلمات اللاتي ظللن في مكة من قوى على خوق النطاق والافلات من قريش واللحاق بالنبي (ص) ما يدل على قوة نفس ومضاء عزيمة واقدام :

ياايها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فأن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار (١) ... الممتحنة ١٠

٦) وفي السورة نفسها امر خاص ببيعة المؤمنات ، وقد رؤي ان بعضهن اتين النبي وطلبن منه ان يأخذ بيعتهن مستقلة وأسوة بالرجال فنزلت الآية بالايجاب مما يدل كذلك على ما كان من المراجعات من شعور بالشخصية والطموح الى التساوي مع الرجل :

يأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على انْ لا يُشركن بالله شيئاً ولايسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ... الممتحنة ١١

٧) وفي سورة المجادلة آية تحكي مجادلة احدى النساء المسلمات النبي (ص)

---

(١) هذه الحادثة وقعت على اثر صلح الحديبة الذي كان من شروطه الزام المسلمين اعادت من يأتي اليهم مسلماً رغم أهله :

في أمر زوجها وشكواها منه فنزلت باقرار الشكوى وتقرير الحق فيها وهي :

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ... ١

ففي الآيات جميعها صور تدبت ولا ريب شخصية بارزة وشأناً كانت المرأة المسلمة تسجلها لنفسها في مختلف المواقف والمجالات ؛ مما يسوغ القول بأن هذه الصور هي من صور المرأة العربية في بيئة النبي (ص) وعصره ، لا يعقل ان تكون مما استُحدث ابتداءاً : لاسيما والمرأة المسلمة والمشركة والمنافقة سواء في هذا المظهر بوجه عام مهما اختلفت الاشكال .

ولقد كانت دعوة القرآن عامة للرجل والمرأة على السواء . ولقد كلفت المرأة فيه بجميع الواجبات الايمانية والتعبدية والمالية البدنية والاجتماعية الخطيرة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبادل النصر مع الرجال والجهاد بالمال والنفس ومنحت حقوقها وحريتها تتصرف فيها كما يتصرف الرجل من حيث الاجمال وفي ما عدا استثناءات قليلة معينة . فمن الممكن ان يدل هذا على انها قد كانت المرأة العربية وهي اولى النساء المخاطبات بالقرآن على العمومية مترشحة لكل ذلك ، وانها وصلت الى طور كانت فيه متأهلة لاثبات شخصيتها ووجودها وممارسة حقوقها او الى طور اخذت تبدو اهليتها لذلك قوية بارزة .

عادات وتقاليد متنوعة

— ٥ —

ومن الآيات التي استعرضناها ومن آيات أخرى سنستعرضها بعد قليل يمكن الاستدلال على عادات وتقاليد متنوعة تتصل بحياة الاسرة والمواريث واليتامى والمرأة .

اولا : ان الفراق بالطلاق كان معروفاً قبل البعثة : لأن الآيات فيه تلهم ذلك وتلهم انها بسبيل تنظيمه ومنع مافيه من شذوذ وغبن . وقد كانت عقدته بيد الزوج وقد كان الازواج يتخذون الطلاق احياناً وسيلة لمضارة الزوجة وابتزاز اموالها وحملها على افتداء نفسها بالمال من زوجها ؛ كذلك فان آيات الطلاق تلهم ان منه

ما كان باتاً ومنه من كان رجعياً ؛ وان الطلاق الرجعي كان كذلك وسيلة الى ابتزاز المـال او المضارة من ناحية الزوج حيناً ومن ناحية أهل الزوجة حيناً ؛ حيث كان الزوج يطلق طلاقاً غير بات — وهو الذي سميناه رجعياً — فتبقى الزوجة معلقة في عصمته لا يسرحها ولا يمسكها بمعروف وحسن معاشرة ، او حيث كانوا أهل الزوجة يمنعون الزوجة من الرجوع الى زوجها ، اما بقصد ابتزاز مال منه او بسائق الحقد . . .

ثانياً : انه كان عند العرب عادتان لهجران الزوج زوجته في العلاقات الزوجية مع بقائها في عصمته وبيته اولاهما : « الظهار » وذلك بأن يقول الزوج لزوجته « أنت عليّ كظهر أمي » فتصبح محرمة عليه جنسياً ، ولكنها لا تخرج من عصمته ، فهي معلقه لا زوجة ولا مطلقة . وقد كانوا يفعلون ذلك على ما يستفاد من اقوال المفسرين والرواة سخطاً على ولادة البنات ؛ فاذا ولدت الزوجة ابنة وكره الزوج ذلك أمرها ان تئدها ، فاذا ترددت قال لهـا انت عليّ كظهر أمي ان لم تدسيها . ولا يبعد انهم كانوا يظاهرون من نسائهم اللاتي اعتدن ولادة البنات تشاؤماً ومخافة ان تظن تلدهن اذا استمرت العلاقات الجنسية على طبيعتها . ومن المحتمل انهم كانوا يعمدون الى هذه الطريقة بدلاً من الفراق بالطلاق وحينما يكون للزوجات اولاد فيمسكهن ازواجهم براً باولادهن واشفاقاً عليهم ، وربمـا كانوا يمسكونهن أنفة من ان ينكحهن غيرهم كما يحتمل انهم يعمدون الى هذه الطريقة لأرهاق الزوجة وابتزاز اموالهـا واسترجاع ما أخذته من صداق في الحياة — وقد نبهت الآيات اكثر من مرة على ذلك وشددت في منعه — او الاستيلاء على تركتها بعد الموت .

وثانيتهما : الايلاء . ومعناه اللغوي اليمين . فقد كان الزوج يحلف بعدم قرب زوجته فتصبح محرمة عليه ولكنها تظل في عصمته ، معلقه لا زوجة ولا مطلقة وقد كانوا يفعلون ذلك سخطاً على الزوجة اذا خالفت لزوجها امراً ورفضت له مطلباً ، وقد يكون من اسبابه اعتياد ولادة البنات كما ان من المحتمل ان يكون قوم اعتادوا الهجر بالظهار وأخرون بالايلاء . والاسباب التي كانت تحملهم على هذا الهجر دون الطلاق نفس الاسباب التي ذكرناها في عادة الظهار على ما هو المتبادر

ثالثاً : ومن هذه العادات عزل النساء في المحيض . فلا يقربن ولا يجالسن ولا يواكلن حتى يطهرن ؛ ويستفاد من اقوال المفسرين والرواة ان هذه العادة من عادة اهل المدينة ؛ والغالب انها تسربت اليهم او الى العرب من اليهودية التي تعتبر الحائض نجسة الى ان تطهر ، وتوجب عزولها عن سائر افراد العائلة ولا يزال السامريون وهم طائفة من الاسرائيليين او اليهود يتمسكون بالتوراة دون التلمود يأخذون أنفسهم بهذه الشريعة الى الآن . وهذه العادة مما يستلهم من الآية التالية :

ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . . . البقرة ٢٢٢

حيث روى في صددها ان بعض المسلمين سأل النبي (ص) عن المحيض وما كان من عادة عزل النساء في كل شيء فنزلت تحذر من قربهن جنسياً فحسب دون سائر الامور .

رابعاً : وكان من العادة ان تلتزم الزوجة التي يتوفى عنها زوجها الحداد حولا كاملا فلا تخرج من بيتها ؛ ولا تعرض نفسها للزواج ولا يتعرض الغير لها فيه ولا تتطيب ولا تلبس الثياب المفرحة ولا تتزين طول السنة ويسمى ذلك عدة الحداد ؛ وهذا يستلهم من الآية التالية :

والذين يتوفّون منكم ويذرون ازواجاً وصية لازواجهم متاعاً الى الحول غير إخراج فأن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن من معروف البقرة ٢٤٠

حيث احتوت تشريعاً بوجوب الانفاق على الزوجة من مال الزوج طول الحول وعدم حق الوارثين في اخراجها ؛ وتخفيفاً عليها بحيث لا يكون حرج عليها اذا خرجت من بيت زوجها المتوفى قبل انقضاء العام .

وخامساً : وقد كان من السائغ ان يتزوج الرجل بزوجة ابيه المتوفي كما أشارت الى ذلك احدى الآيات باسلوب استنكاري شديد :

ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ... النساء ٢١

ولا نستبعد ان تكون هذه العادة وسيلة كان يتخذها الولد الوارث لحجز زوجة ابيه عن الزواج او حملها على التنازل عن حقوقها في الميراث كما نرجح انها لم تكن عادة شائعة . وقد ذكر المفسرون والرواة في صدد الآية ان ابن الزوج المتوفي اذا اراد زوجة ابيه القى عليها ثوباً قبل دفن الميت او فور دفنه فيكون ذلك علامة . وهذا قد يسند ما قلناه من عدم الشيوع اولاً ومن قصد حجز الحرية والابتزاز .

-٧-

سادساً : وقد كان من السائغ ان يجمع الرجل الأختين زوجتين في عصمته في وقت واحد كما يفهم من آية تحريم المناكح .

حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من أصلابكم وإن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ... النساء ٢٣

وننبه على اننا لم نطلع في ما قرأناه على ان من هذه المحرمات ما كان سائغاً غير محرم عند العرب عدا جمع الاختين وزواج الابن أرملة أبيه ، كما ان القرآن لم يشر الى حظر مخصص كان جاريا في ما سلف الا الى هاتين الحالتين ؛ مما يمكن ان يستدل به على ان محرمات الانكحة في الآية كانت من الحرمات قبل البعثة ايضاً عدا جمع الاختين . وقد تلهم الفقرة الواردة بشأن الربائب أنهن كانا يحرمن على الرجال ولو لم يدخل بأمهاتهن . اما وصف حلائل الابناء بالذين هم من الاصلاب فالقصد منه اخراج حلائل الابناء بالتبني اي الذين هم من غير الاصلاب . وهو موضوع له علاقة بعادة اخرى سنشير اليها بعد قليل .

سابعاً : وكان يسوغ للرجل ان يتزوج ما يشاء من النساء دون تحديد في العدد؛[1] فاعتبرت الآية (٣) من سورة النساء وقد نقلناها تحديداً لما يجمعه الرجل في عصمته من الزوجات وهو اربع ؛ وكان الزواج عقداً ، والزوج يدفع مهراً ، وعقدة الزواج بيده .

ثامناً : وقد كانت عادة تسري الاماء فاشية ؛ ولم يكن عدد الاماء اللاتي يمكن للرجل ان يتسراهن محدوداً ؛ فكان يستطيع ان ينكح من امائه ما يشاء بدون عقد زواج ولا مهر ؛ لانهن ملك يمينه ، وان يهب او يبيع من ينكحها منهن بدون طلاق اذا لم تكن قد ولدت له .

وقد أقر الاسلام هذه العادة على حالها ؛ حيث احتوى القرآن بضع آيات ومنها آية تحريم الانكحة جاء الكلام في هذا مطلقاً لا تحديد فيه ، وجرى العمل على ذلك في العهد النبوي على ما هو ثابت يقيني ؛ وهذه بعض الآيات التي وردت في هذا الشأن ومنها المكي ومنها المدني :

١ — والذين هم لفروجهم حافظون إلا على ازواجهم او ما ملكت أيمانهم فأنهم غير ملومين ... المؤمنون ٥ — ٦

٢ — فان خفتم ألاّ تعدلو فواحدة او ما ملكت أيمانكم ... النساء ٣

٣ — والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم ... النساء ٢٤

٤ — لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ... الاحزاب ٥٢

— ٨ —

تاسعاً : وكان من العادات السائغة نكاح « المتعة » وهو زواج لاجل معين يتفق عليه الزوجان فاذا ما انتهى فارق كل منها رفيقه . وقد أقرت هذه العادة ردحاً من العهد النبوي ثم ابطلت ؛ ومما روي انها ظلت سائغة الى خلافة عمر بن الخطاب

---

(١) من الثابت اليقيني ان النبي (ص) جمع في عصمته تسع زوجات .

(رض) وهو الذي منعها ؛ غير ان بعض المذاهب الفقهية لم تر انها نسخت وظلت تعتبر هذا الزواج مشروعاً .

وننبه على ان القرآن لم يشر الى هـذه العادة بوضوح وصراحة ؛ غير ان المفسرين والفقهاء رأو انها مندمجة في آيه النساء ٢٤ :

والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانـكم كتاب الله عليكم وأحل لـكم ما وراءذلكم أن تبتغوا بأموالـكم محصنين غيرمسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم في ما تراضيتم به من بعد الفريضة ...

وقد قال بعض المفسرين والرواة أن ابن عباس كان يقرأ بعد « منهن » جملة « الى اجل مسمى » كانما كان يقولها تفسيراً (١)

ومها يكن من أمر فالظاهر ان هذه العادة التي لا تزال مستمرة الى الآن كما قلنا كانت من العادات السائغة في العهد النبوى وما قبله .

عاشراً : وفي القرآن آيات ذكر فيها اتخاذ الاخدان في صدد الرجال والنساء معاً كما ذكر فيها المسافحة ايضاً كما ترى في الآيات التالية :

١ — ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات(٢) المؤمنات فمن ماملكت أيمانـكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بأيمانـكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات (٣) غير مسافحات ولا متخذات أخدان فاذا أحصن فأن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لـكم والله غفور رحيم... النساء ٢٥

٢ — اليوم أحل لـكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لـكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات(٣) من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الاخرة من الخاسرين ... المائدة ٥

---

(١) اقرأ الكشاف ومجمع البيان في تفسير الآية .

(٢) المحصنات هنا بمعنى الحرائر اي غير الاماء .

(٣) هنا بمعنى العفة .

حيث احتوت أشارات الى صلات الرجل الجنسية بالمرأة عن غير طريق النكاح الشرعي والعقدي وبغير قصد الأحصان وأنشاء كيان عائلي ، وهي السفاح واتخاذ الاخدان ؛ والأسلوب مما يلهم ان هذه الصلات مما كان جارياً في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ حيث توخى في الآيات حظره . وقد روى المفسرون انه كان من العادات السائدة في الجاهلية ان يتخذ الرجال خليلات وان تخذ النساء أخلاء بدون عقد . والراجح ان هذا التخالل كان سائغاً بنوع خاص بالنسبة لغير المتزوجين والمتزوجات اولاً وبالنسبة للأماء والكتابيات ثانياً وهو مما يمكن ان تلهمه الآيات كما ان الراجح ان هذا التخالل كان مما تطول مدته وليس من نوع الصلات الجنسية العابرة ، وهذا هو مفهوم التخادن على ما هو المتبادر .

اما المسافحة فهي قضاء الشهوة الجنسية بدون طريق عقدي مطلقاً ، غير ان النهى عنها في صدد الزواج بالأماء والكتابيات يلهم انه نوع آخر من التخادن ، وليس من نوع الصلات الجنسية العابرة ؛ فالنهى منصب على ايجاب نية الأحصان والكيان العائلي في التزوج بالأماء والكتابيات .

وتخصيص النهي عن المسافحة والمخادنة في الأماء والكتابيات يلهم انهن اكثر تعرضاً للبغاء وارتكاساً فيه ايضاً كما يلهم ان البغاء كان مستساغاً بالنسبة اليهن كذلك بالاضافة الى استساغة التخادن والمسافحة معهن . وينبه خاصة على الآية(٢٥) فانها لا تشجع على التزوج بالأماء الا في حالة الضرورة ، وتحث على الصبر وتفضله على ذلك ، وتذكر مع ذكر نكاحهن عدم السفاح والمخادنه، كأنما هذان الامران مما هو متوقع منهن . وتجعل عقوبة الزنا عليهن نصف ما على الحرائر كأنما تعتبر ارتكاسهن في الفاحشة اكثر توقعاً وتعرضهن للبغاء أقرب أحتمالاً ، وعار ذلك أقل شدة ؛ وفي هذا سند لما قلناه في صددهن كما هو المتبادر .

وفي سورة الأحزاب آية وردت في صدد زي النساء وهي :

يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ... ٥٩

وقد قال المفسرون والرواة أن الآية نزلت لتمييز الحرائر من الأماء ؛ لان

الشباب وطلاب الشهوة والفاسقين كانوا يتعرضون للاماء في السكك والطرق ، وكان يحدث ان يخلطوا بينهن وبين الحرائر فينال هؤلاء من ذلك الاذى . والآية في فحواها ظاهرة القصد ، وتؤيد من ناحية ما ما نحن في صدده من كون الاماء اكثر ارتكاساً في البغاء وتعرضاً له من الحرائر .

— ١٠ —

حادي عشر : وفي القرآن آيات عديدة مكية ومدنية في الزنا منها ما ذكر بلفظه هذا وما يشتق منه ومنها ما ذكر بوصف الفاحشة ومنها ما ذكر باسم البغاء والزانية باسم البغيّ كما ترى في الآيات التالية :

١ — واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهنّ سبيلا . واللذان (١) يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً ... النساء ١٥ — ١٦

٢ — ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً ... الاسراء ٣٢

٣ — قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ... مريم ٢٠

٤ — والذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ... المؤمنون ٥ - ٧

٥ — الزاني والزانية فاجلدوا كلّ واحد منهما مأة جلدة ... النور ٢

٦ — الزاني لا ينكح إلا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ... النور ٣

٧ — ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً (٢) ... النور ٣٣

٨ — والذين لا يدعون مع الله إلهاً أخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا

---

(١) الزاني والزانية كما جاء في كشاف الزمخشري .

(٢) لا تحبسوا إمائكم عن التزوج اذا اردنه فان في ذلك أكراها لهن على البغاء . وهذا هو الوجه الصحيح فيما نعتقد من تأويل الآية وليس ما هو متداول في كتب التفسير من تكسب بعض الناس من اجبار امائهم على البغاء .

بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . . .   الفرقان ٦٨

حيث تسوغ القول ان بيئة النبي (ص) في عصره لم تكن لتشذ عن طبيعة الحياة الانسانية وتخلو من الزنا العابر ، بل وتلهم ان هذا لم يكن ضيق الشيوع وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً . ويلاحظ خاصة ان آيات النساء لم تفرض عقوبة معينة على الزناة بل جنحت الى معاملتهم بشيء من التخفيف كما انها فرضت اربعة شهود عليهم مما لا يكاد يتيسر وقوعه الا في حالة الاستهتار التام اوالندرة النادرة ، وأن آيات النور بالجلد والتشديد في الزجر لم تنزل الا بعد مدة ما ؛ وهذا وذاك مما يدل على رسوخه وشيوعه بحيث اقتضت الحكمة التدرج في الزجر عنه أولاً وتفادي شيوع أخباره بالتشدد في اثباته ثانياً . ولعل هذا التشدد يلهم ان اتهام الناس بعضهم بعضاً به كان كذلك كثير الشيوع ، وهذا هو في حد ذاته سند لما كان عليه من رسوخ وشيوع .

ولقد ذكرت الروايات ان آية نزلت في رجم الزناة المتزوجين ، واختلف في صيغتها وفي نسخها ، والجمهور على أنها منسوخة لفظاً وباقية حكماً ؛ وحكمة نسخها على هذا الوجه وقد احتوت حكماً خطيراً غير مفهومة ، والذي نميل اليه ترجيح احتمال نزولها ثم اقتضاء حكمة التنزيل نسخها بالمرة . واذا صح هذا ففيه ما يدعم ما قررناه ايضاً . وواضح ان هذا لا يتعارض مع ما ذكرناه قبل قليل استلهاماً من القرآن من أن الاماء والكتابيات ، كن الاكثر تعرضاً للبغاء وارتكاساً فيه . ولقد روى في صدد آية الممتحنة في مبايعة النساء (١٢) التي نقلناها قبل قليل ان هنداً زوجة أبي سفيان حينما بايعت النبي (ص) ووصل القول الى جملة «ولا يزنين» هتفت قائلة وهل تزني الحرة ؛ مما يمكن الاستئناس به على صحة استلهامنا ايضاً .

— ١١ —

ثاني عشر : وكان من العادات السائغة ان يدخل الرجال الى البيوت بدون تكلف واستئذان ، وان يسمر الرجال والنساء معاً ، وان يباح خاصة للخدم وملك اليمين الدخول على المخادع في أي وقت ، وهذا مستلهم من آيات وردت بالنهي عن ذلك وبتعليم الادب اللائق في صدده وهي :

١ — يأيها الذين أمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم
النور ٢٧/٢٨

٢ — يايها الذين أمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون [١] ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم .واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ...
النور ٥٨ — ٥٩

٣ —يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه [٢] ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب [٣] ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ...
الاحزاب ٥٣

—١٢—

ثاني عشر: كذلك كان من العادات السائغة ان تبرز المرأة للرجال ؛ وتترأى أمامهم متبرجة متزينة مكشوفة العنق والصدر ، وكان النساء يحلين بالحلى في أرجلهن بالأضافة الى حلي ايديهن وأذانهن وأجيادهن كما تلهمه الآيات التالية التي وردت في معرض التعليم والتأديب :

١ — « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن

(١) حين تخلعون ثيابكم .
(٢) غير منتظرين نضجه .
(٣) من وراء ستر اي لا تدخلوا ولو كان لكم شيء تطلبونه .

ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أوأبناء بعولتهن او أخوانهن أو بني أخوانهن أو بني أخواتهن أونسائهن اوماملكت أيمانهن او التابعين غير اولي الاربة[1] من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنين لعلكم تفلحون ... النور ٣٠–٣١

٢ — والقواعد من النساء اللاتي لايرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ... النور ٦٠

ثالث عشر : وكانوا على ماتلهمه آية اخرى يتفرقون في السكنى بحيث يسكن الآباء لحدتهم والابناء لحدتهم فضلاً عن سكنى كل من الاخوان والاعمام والاخوال والأخوات والعمات والخالات لحدتهن :

ولا على انفسكم ان تأكلوا من بيوتكم او بيوت آبائكم أو بيوت امهاتكم او بيوت إخوانكم او بيوت أخواتكم او بيوت أعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت أخوالكم او بيوت خالاتكم .... النور ٦١

-١٢-

رابع عشر: وكان من عاداتهم التبنى ؛ حيث كان الرجل يلحق به ولداً من غير صلبه ويدعيه ابناً له ؛ فيصبح بمثابة ابنه من صلبه ، ويدعى اي ينتسب اليه فيتسمى باسمه ، ويتوارث معه ، وتكون محارم المتبنى محارمه كما لو كان من صلبه ؛ فلا يحل للمتبنى ان ينكح مطلقة متبناه او ارملته ، ولا ابنته ولا امه ولا اخته ، ولا يحل للمتبنى مثل ذلك . وقد تبنى النبي (ص) قبل بعثته غلاماً اسمه زيد بن حارثة فصار يدعى زيد بن محمد . وكان التبني يجرى على ملاء من الناس فيعلن المتبنى تبنيه ويشهد على نفسه بذلك بعبارات مأثورة[2] وقد خطأ القرآن هذه العادة وابطلها في الآيات التالية :

١ — وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم .... الاحزاب ٤–٥

(١) القدرة الجنسية (٢) أسد الغابة . ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥

٢ ــ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً . وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبي من حرجٍ في ما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً الا الله وكفى بالله حسيباً . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ... الاحزاب ٣٦ـ٤٠

٣ ــ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم . . . النساء ٢٣

وآيات الأحزاب ٣٦ ـ ٤٠ وما روي في صددها تدل على رسوخ حرمة تقاليد التبني وخاصة تزوج المتبني بمطلقة متبناه في نفوس العرب وحتى في النبي (ص) نفسه حيث لم يكن بد من مباشرة النبي (ص) ابطال هذا التقليد بنفسه ؛ وحيث كانت هذه المباشرة مما ثقل على نفسه خشية كلام الناس ، وبدل كذلك على ان فريقاً من المخلصين والمنافقين معاً قد استعظموا هذا الابطال ، وكان لهرد فعل شديد وجرى فيه قيل وقال ...

خامس عشر : وكان من عادة البيوتات العربية وخاصة في المدن ان يسترضعوا أولادهم في البوادي أي يسلموهم لمرضعات بدويات فيكون لهم بذلك فرصة قضاء زمن الطفولة الاولى في البادية حيث الهواء النقي والصحة الجيدة والعروبة الخالصة . وهذه العادة على هذا الوجه لم تذكر في القرآن وانما وردت فيه اشارة الى الاسترضاع وهي :

وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف..

البقره ٢٣٣

وقد ذكرت الروايات الاسترضاع على الوجه الذي شرحناه والذي يبدو منه ان هذه العادة كانت شائعة شيوعاً غير يسير .

سادس عشر : وكان من عادة العرب أن لا يستعجلوا في فطام أطفالهم ، حيث ذكرت إحدى الآيات ان مدة الرضاع التامة سنتان واخرى ان الفصال أي الفطام عامان ، وأشير في أحداها الى ان مدة الحمل والفصال ثلاثون شهراً وهذا يعني ان مدة الرضاع المتعارف عليها تزيد على عشرين شهراً :

١ — والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ...
البقرة ٢٣٣

٢ — ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ...
لقمان ١٤

٣ — ووصينا الانسان بوالديه احساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ... الاحقاف ١٥

سابع عشر : وكان من العادة ان يعتبر من يبلغ سن النكاح او بتعبير آخر سن القدرة الجنسية راشداً كما يستلهم من هذه الآية التي تضمنت بعض التعديل بسبيل الاستيثاق من الرشد العقلي أيضاً :

وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ...
النساء ٦

—١٣—

ثامن عشر : وكان من العادات الجارية قتل الاولاد ووأد البنات كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... الانعام ١٥١

٢ — واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب .. النحل ٥٨-٥٩

٣ — ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً ... الاسراء ٣١

٤ — يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ... الممتحنة ١٢

٥ — وإذا الموؤدة سئلت . بأي ذنب قتلت ... التكوير ٨ - ٩

ويمكن ان يستلهم من هذه الآيات ان فريقاً من العرب كانوا يقتلون اولادهم من الفقر والأملاق أو خشيته منها ، وأن فريقاً آخر كانوا يئدون بناتهم سخطاً وكرهاً لولادتهن . وآيات النحل والاسراء خاصة تلهم هذا التنوع في الاسباب ، وتلهم أن قتل الاولاد خشية الاملاق أو بسببه كان يتناول الذكور والاناث معاً ، ولعل هذا كان يقع في سني القحط والجدب التي كان اقليم الحجاز معرضاً لمحنتها ، ولعله كان يقع في البوادي اكثر مما يقع في المدن . وواضح ان وأد البنات ودسهن في التراب كان بسائق غير هذا السائق وهو سائق المتاعب ومواقف الخجل والخزي وعار السبي وعدم الغناء في الحروب ودواعي الحمية والعصبية والتكاثر حيث كان كل هذا مما هو من مظاهر ومتاعب ومشاكل عصر النبي (ص) وبيئته.

ونتبه على ان في سورة الانعام آيات تدل على ان العرب كانوا يذبحون أحياناً أبناءهم قرباناً للآلهة وبسائق ديني ، وقد تركنا الكلام على هـذه العادة الى باب العقائد والاديان .

—١٤—

تاسع عشر: وآيات المواريث التي نقلناها (١) وآية الوصية التي نزلت قبلها وهي: كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين . فمن بدله بعد ما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ... البقرة ١٨٠ - ١٨١

يمكن ان تلهم (١) أنه لم يكن نظام محـدود للمواريث يعرف به كل وارث حقه في أرث المتوفي من ذوي رحمه وقرباه (٢) أن حق النساء زوجـات وبنات واخوات في الارث لم يكن شيئاً مقرراً ثابتاً بل انه كان متموجاً حسب الظروف (٣) أن حق الأبوين في الارث لم يكن كذلك مقرراً ثابتاً (٤) أن الأولاد الذكور هم الذين كانوا يستولون على التركة ثم يكون الأجداد والنساء وذووا القربى الآخرون تحت رحمة الظروف يحرمون حيناً ويعطون حيناً . (٥) أن وصية المورث لم يكن يعمل بها كأمر واجب التنفيذ بل تكون كذلك تحت رحمة

(١) آيات سورة النساء ٧-٨ و ١١-١٤ و ١٢٧ و ١٧٦

الظروف وهوى الوارثين (٦) ان التوريث كان احياناً حسب وصية المورث (٧) ان ارث الذي يموت كلالةً أي بدون ولد ولا أبوين كان من الامور المعقدة التابعة لقوة رجال العصبة وقلما كان الأخوات خاصة ينلن نصيبهن او نصيبهن الكامل منه

عشرون : ولقد ورد في القرآن آيات عديدة تحث على احترام الوالدين ومعاملتهما بالرفق والحسنى وتنهي عن إغضابهما وعقوقهما وتأمر بالانفاق عليهما والوصية لهما ثم تعين لهما نصيباً مفروضاً في تركة ولدهما ولا تتركهما تحت رحمة الوصية المتموجة والظروف المتنوعة كما ترى في ما يلي :

١ — يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ... البقرة ٢١٥

٢ — واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين ... النساء ٣٦

٣ — قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ... الانعام ١٥١

٤ — وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ... الاسراء ٢٣-٢٤

٥ — ووصينا الانسان بوالديه احساناً حملته أمه كُرهاً ووضعته كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه واصلح لي في ذريتي إني تبت اليك وإني من المسلمين . اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في اصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ... الاحقاف ١٥-١٦

٦ — يضاف الى هذه الآيات آيات الوصية (١٨٠-١٨١ البقرة) وآيات المواريث (١١-١٤ النساء)

فهذا التوكيد والتكرار بهذا الاسلوب على وجوب رعاية حق الوالدين

وكرامتهم والانفاق عليهم والايصاء لهم ثم النص على نصيب معين لهم في تركة أولادهم يمكن أن يلهم بان حق الوالدين وكرامتهم ومعيشتهم لم تكن مصونة على وجه واف قبل البعثة، وانهم كانو عرضة للاهمال والعقرق والعوز؛ ولعل هذا كان شأن الذين يبلغون اوذل العمر منهم في الدرجة الاولى ...

وننبه على ان هناك آيات مكية ومدنية تسقط واجب الطاعة عن الاولاد اذا ما أمرهم أبواهم بالشرك، وتأمر بعدم اتخاذ الآباء أولياء اذا استحبوا الكفر على الايمان مثل آيات سورة لقمان ١٤ - ١٥ والعنكبوت ٨ والتوبة ٢٣ — ٢٤ والمجادلة ٢٣ لنقول إن هذه الآيات مما هو متصل بظروف الدعوة الاسلامية والسيرة النبوية واستدراك لما أمرته آيات القرآن بطاعة الآباء اطلاقا .

- ١٤ -

واحد وعشرون : ولقد ورد كذلك في القرآن آيات عديدة مكية ومدنية تحث على رعاية اليتيم والبرّ به وعدم أكل أمواله والتلاعب فيها في صيغ وأساليب متنوعة وشديدة كما ترى في ما يلي :

١ — ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ... البقرة ١٧٧

٢ — يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين ... البقرة ٢١٥

٣ — ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح [١] ... البقره ٢٢٠

٤ — وآتو اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم إنه كان حوباً كبيراً . وأن خفتم الاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ... [٢] النساء ٢ — ٣

---

(١) تحرج المسلمون من شدة تحذير القرآن في صدد التنظيم فنزلت

(٢) كان الاوصياء على اليتيمات الغنيات يضنون بتزويجهن للغير لئلا تذهب اموالهن من أيديهم فيتزوجونهن او يزوجوهن من اولادهم فاذا لم يكن جميلات نالهن الأذى فنبهت الآيات على عدم الوقوع في الاثم المحتمل .

٥ — وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ... النساء ٦

٦ — إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ... النساء ١٠

٧ — واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين ... النساء ٣٦

٨ — ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط (١) النساء ١٣٧

٩ — ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده (٢)

الانعام ١٥٢

١٠ — واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الانفال ٤١

١١ — ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الحشر ٧

١٢ — ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ... الانسان ٨

١٣ — كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . . .

الفجر ١٧ — ١٨

١٩ — فلا اقتحم العقبة . وما ادراك ما العقبة . فك رقبة . او إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة ... البلد ١١—١٦

٢٠ — أما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر ... الضحى ٩—١٠

---

(١) في هذه الآية توضيح للآية ٣ من النساء

(٢) في سورة الاسراء آية مماثلة لهذه الآية .

٢١ — أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع [١] اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين ... الماعون ١—٣

ومع ان المسلم به ان العناية بالضعفاء من المبادىء العليا التي انطوت في الدعوة الاسلامية فان هذه الحفاوة العظيمة بامر اليتيم ءكن ان تلهم انه لم يكن مضمون الحق او موضع بر وعنـــاية كافية فكان هذا التشديد وهذه الحفاوة في صدد الامرين ، كما يمكن ان تكون منطوية على صور مما كان يعامل به اليتيم ويتلاعب في امواله في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة .



(١) يدفعه بشدة

الفصل الثاني

في العصبية الاجتماعية

أثر العصبية الاجتماعية في بيئة النبي (ص) وعصره — عصبية الاقارب والارحام ومداها — صور واستدلالات قرآنية في صددها — ولاية الدم والعقل — مدى حفاوة القرآن بالبر بالاقارب — عصبية الاقارب ومداها — صور واستدلالات قرآنية — عصبية التحالف القبيلي ومداها — صور واستدلالات قرآنية — ذكر الاحزاب في القرآن ومدى ذلك — استمرار هذا النوع من التحالف الى ما بعد البعثة — التفاوت في قوة العصبيات التي سبق الكلام عنها — استطراد الى تصحيح خطأ عن فردية العرب — عصبية الولاء ومداها — صور واستدلالات قرآنية — الولاء الجمعي — مفهوم ومنشأ تسمية المسلمين غير العرب بالموالي — عصبية الجوار ومداها — صور واستدلالات قرآنية — عصبية التقاليد ومداها — صور واستدلالات قرآنية — أثر هذه العصبية في موقف العرب الجحودي من الدعوة الاسلامية — ما يلمح من الحكمة في ابقاء كثير من التقاليد القديمة في الاسلام

— ١ —

في القرآن آيات عديدة يستدل من بعضها صراحة ومن بعضها ضمناً أو لمحاً على مظهر من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في عصر النبي (ص) وبيئته يقوم عليه البنيان الاجتماعي الى حد كبير وهو «العصبية» بين الوحدات الاجتماعية، ونقصد بها تعصب أفراد الوحدات التي كان يتألف منها المجتمع اذ ذاك كالقبيلة والعشيرة والبطن والعائلة لبعضهم في ما يكون بينهم من مصالح مشتركة، ونصرة بعضهم لبعض حمية وأنفةً وذباً عن هذه المصالح معنوية كانت أو مادية.

وقد كانت هذه العصبية شديدة قوية وذات أثر كبير في التوازن بين قوى

الجماعات التي كان يتألف منها المجتمع ، وفي دفع الناس بعضهم ببعض ، وصيانة حقوقهم وكرامتهم وحياتهم . ولقد بلغ من شدة رسوخها انها ظلت قوية ، وكان لها أثر فعال في كثير من أحداث التاريخ الاسلامي وسيره وتطوره الى اواخر القرن الهجري الثالث أو بكلمة اخرى الى ان انحلت عقدة السلطان العربي ، وذلك بالرغم من تنديد القرآن بها ، وتحذيره منها استهدافاً لاقامة بنيان المجتمع الاسلامي الذى كان في أوله عربياً على أساس الاخوة الدينية العامة والمصلحة المشتركة بين الذين تألف منهم هذا المجتمع وولاية المسلمين بعضهم بعضاً، بقطع النظر عن اختلاف القبائل والبطون والمناشيء والنحل السابقة والأحساب والانساب والطبقات الخ بدلا من الاساس الذي كان يقوم عليه وهو العصبية القبيلية والعائلية الضيقة النطاق. كما ترى في الآيات التالية :

١ — واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ... آل عمران ١٠٣

٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ... النساء ١٤٤

٣ — إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ... المائدة ٥٥ — ٥٧

٤ — وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين. وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم . يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ...

الانفال ٦٢ — ٦٤

٥ — إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ... الانفال ٧١

٦ — والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير ... الانفال ٧٢

٧ — والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ... الانفال ٧٥

٧ — فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ... التوبة ١١

٩ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون ... التوبة ٢٣

١٠ — والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... التوبة ٧١

١١ — انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ... الحجرات ٩

١٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ... الممتحنة ١

١٣ — لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم او إخوانهم او عشيرتهم ... المجادلة ٢٢

—٢—

واليك الآن المظاهر التي كانت تظهر بها العصبية الاجتماعية .

اولاً عصبية الاقارب وذوي الأرحام :

كان افراد العائلة او الفخذ او البطن او الحامولة اي افراد الوحدة الاجتماعية الصغرى الذين تجمع بينهم الارحام القريبة يتضامنون معاً في الدفاع عن بعضهم والاستنصار لبعضهم في مختلف المواقف والمصالح ، بحيث يكون من واجب كل فرد ان يحمي وان ينتصر لأي فرد من أفراد وحدته اذا وقع في مأزق او وقع عليه عدوان ، وان يثأر له من المعتدي اومن ذوي رحمه وقرباه ؛ وبحيث يكون ما اجترحه

احدهم ضد آخر من وحدة اخرى من عدوان او قتل او ظلم مطلوباً ثأره وغرمه من اي فرد من افراد وحدته ، هـذا عدا ما يكون من واجب كل فرد منفردين ومجتمعين من التضامن في الدفاع عن سمعة الوحدة وشرفها ومصلحتهـا المشتركة والانتصار لها ممن يكون قد اعتدى عليهـا ، وبكلمة واحدة ان ذوي الارحام والقربى كانوا يتنـاصرون ظالمين او مظلومين حتى ولو كانوا متغايرين في العقيدة والميول ويمكن استلهام هذا من الآيات التالية :

١) ففي سورة النساء هتاف بالناس بان يتقوا الارحام التي يتساءلون بها اي يعز عليهم أمرها ويتأثرون في حياتهم المادية والمعنوية بها :

واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . . . النساء ١

٢) وفي سورة محمد تنديد بالمنافقين على جبنهم وتذكير لهم بما يمكن ان يجره هذا الجبن من تقطيع الارحام :

فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم . . .

محمد ٢٢

كأنما في الآية مناشدة بالارحام كما في الآية السابقة ممـا يدل على درجة شدة روابطها .

٣) وفي سورة الانعام آية روى المفسرون انها نزلت في موقف ابي طالب عم النبي (ص) وأقاربه الذين كانوا يدافعون عن النبي (ص) بينما كانوا ينأون عن الاستجابة الى دعوته وهي :

وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . . .

الانعام ٢٦

ومن الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين ان فريقاً كبيراً من اقارب النبي هاشميين ومطلبيين كانوا ينتصرون فعلا للنبي (ص) بينما كانوا يتمسكون بدين الآباء بسائق عصبية الرحم والقربى، وانه كان لانتصارهم هذا أثر كبير في بقاءالنبي(ص) في مكة حينما اشتد الأذى على المسلمين واضطر كثير منهم او اكثرهم ممن لا حامي لهم الى الهجرة الى الحبشة .

وشذوذ عم النبي (ص) عبد العزى الذي لقبه القرآن بأبي لهب في سورة المسد لاينقص هذا لانه شذوذ فردي ؛ على ان بعض الروايات ذكرت ان ابا لهب قد ثارت مرة ثائرته عصبية لاخيه أبي طالب في احد مواقف نصرته ، وتهدد زعماء قريش بانه سينضم اليه اذا هم لم يحترموا له شيخوخته وجواره ، وانه جاء الى النبي (ص) بعد موت ابي طالب وقال له امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان ابو طالب حياً فاصنعه وحلف له بانه لا يوصل اليه حتى يموت [1]

٤) وفي سورة الشعراء آيات يمكن استلهامها في تصوير هذه العصبية وتوكيدها وهي :

وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل إني بريء مما تعملون . . ٢١٤—٢١٦

فمع ان رسالة النبي (ص) عامة فان في هذا التخصيص دلالة على ما كان من أثر عصبية ذوي الارحام القريبة وتبعاتها ، ومن الممكن ان يلمح من حكمتها انه كان لموقف أكثر ذوي رحم النبي (ص) الأقربين الجحودي تأثير شديد في مقابلة أهل مكة الدعوة بالفتور والاستخفاف ، حيث اعتادوا ان يتناصر الاقربون في كل شيء ؛ ورأوا ان أولى الناس باتباع النبي (ص) هم اقرباؤه الأدنون استتباعاً لوثاقة عصبية ذوي الارحام ومقتضياتها . وهذا يدعم ما نحن بسبيله على ما هو المتبادر .

٥) وفي سورة التوبة آية عوتب فيها النبي (ص) والمسلمون على استغفارهم لذوي قرباهم من المشركين الميتين :

ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ... ١١٣

---

(١) — ابن هشام ج١ ص ٣٣٢ وابن سعد ج١ص ١٩٥ ومهما يقوم في النفس من شك في الروايتين فانهما ليسا بعيدتين عن الاتساق مع ما كان من قوة العصبية العائلية .

حيث تلهم ان العصبية العائلية حدت بالنبي وبعض المسلمين الى الاستغفار لأناس من ذوي رحمهم ماتوا على الشرك ، وفي العتاب توكيد للهدف الذي استهدفه القرآن من اعتبار الوحدة الجديدة هي وحدة الاسلام ...

٦) وفي سورتي الأنعام والنساء آيات تأمر بالعدل والقسط دون أن يكون للقرابة والرحم أي تأثير في ذلك ، مما يلهم ما كان من شدة عصبية العائلة او الأرحام بحيث قد تدفع افراد الوحدة الى الوقوف بجانب بعضهم مهما كان في ذلك من ظلم واجحاف واضاعة حق للآخرين :

١ — وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ... الانعام ١٥٢

٢ — يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ... النساء ١٣٥

٧) ولقد كان يصدف ان يكون الأبن او الأخ او الأب في صفوف المسلمين والأب او الاخ او الابن كافراً في صفوف الكفار في عهد السيرة النبوية ، فكانت عصبية الارحام القريبة خاصة مما يواجهه المسلمون من المشاكل المحرجة ، حتى اقتضت الحكمة الايحاء بآيات التوبة ٢٣ — ٢٤ والمجادلة ٢٢ التي نقلناها في مطلع الفصل ، باسلوبها الشديد ليكون فيها زجر وتنبيه قويان ، وفي هذا ما هو ظاهر من توكيد ما كان لعصبية ذوي الارحام القريبة من اثر راسخ قوي في الناس .

٨) وفي سورة الممتحنة آيات جاءت عقب الآية الاولى التي نهت عن اتخاذ الكفار اعداء الله واعداء المسلمين اولياء تضمنت تنبيهاً على ان الارحام والاولاد لن تغني شيئاً عند الله ودعوة للتأسي بابراهيم (ص) والمؤمنين معه حيث عالنوا قومهم العداوة والبغضاء بسبب كفرهم بسبيل تخفيف اثر عصبيتها وتهوين شدة المشاكل المحرجة التي كان المسلمون يواجهونها في عهد النبي (ص) بسببها على ما ذكرناه آنفاً :

لن تنفعكم أرحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً

—٣—

٩) وقد كان من المعروف في التقاليد العربية ان للقتيل ولياً او صاحب دم يطالب به ويكون حقه في هذا الطلب معترفاً به من الجميع ويكون له بهذا سلطان اي حق واجب . وقد أشارت الى هذا المعنى آية في سورة الاسراء في صدد النهي عن الاسراف في الثأر :

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ... ٣٣

والولي او صاحب الدم هذا انما يكون من عصبة القتيل القريبة ، ومما كان يصدف انه لا يكون ابن القتيل او اخاه او اباه بل يكون رئيس العائلة باعتباره ممثلا للعائلة التي يعد القتيل قتيلها والدم دمها .

وفي الآية دلالة على أثر هذه العصبية وما كانت تسوغه من ثأر ، وما كان يجره هذا من ثارات دون الوقوف عند حد القصاص .

١٠) ومما يمكن ان يذكر كتقليد من تقاليد هذه العصبية مسئلة « العقل » وهي توزيع وجمع الدية عن قتيل ما اذا تم صلح او حكم قاض بدفع ديته والكف عن الثأر له بالدم . فالدرجة الاولى للعقل هي ان يتضامن ذووا القربى والأرحام في جمع الدية المطلوبة منهم مقابل الدم الذي اراقه احدهم . كذلك فان هذه الدية تدفع الى أهل القتيل الذين هم ذوو رحمه وقرباه والذين تجعلهم تقاليد عصبية الارحام القريبة أصحاب الحق بدمه والسلطان المنصور في المطالبة به فتوزع عليهم .

ومن هنا جاء جنوح الرجال الى اعتبار انفسهم أصحاب الحق في الأرث دون النساء والأطفال لأنهم هم الغارمون على ما ذكرناه قبل

وفى سورة النساء آية فيصدد دية قتيل الخطأ يمكن أن تلهم وجود هذا التقليد على الوجه الذي نذكره وخاصة في ذكرها وجوب تسليم الدية الى اهل القتيل ، وهو تعبير يمكن ان يكون اوسع نطاقاً من اب او ام او ابن او أخت :

ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله إلا أن يصدقوا

فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ... ٩٢

— ٤ —

هذا ، وننبه على ان القرآن من ناحية اخرى احتفى حفاوة غير يسيرة بحث المسلمين على البر بأقاربهم والعناية بهم في آيات مكية ومدنية كما جعل ذوي الارحام من المسلمين بعضهم أولى ببعض في الشؤون الحقوقية الأرثية . ومن هذه الآيات آيات البقرة ١٧٧ و ٢١٥ والنساء ٣٦ التي نقلناها في الفصل السابق ، ويسلك في هذا السلك آيات المواريث وقد نقلناها كذلك ، واليك بعض آيات اخرى :

١ — واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ... النساء ٨

٢ — والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض ... الانفال ٧٥

٣ — إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ... النحل ٩٠

٤ — وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ...

الاسراء ٢٦

٥ — ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسّعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ... النور ٢٢

٦ — النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وازواجُه أمهاتهم وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين... الاحزاب ٦

في هذه الآيات من ناحية ترديد لما كان من التواثق في صلات القربى والعصبية بين ذوي الارحام فيما يتبادر لنا ، ومن ناحية أخرى هو مما يتسق مع طبيعة الاشياء، لان الظاهرة التي نحن في صددها متصلة بطبيعة الحياة الانسانية في مختلف الادوار والظروف والبيئات من حيث الاصل ، ولم تكن بيئة النبي (ص) وعصره شاذين فيها بطبيعة الحال ، وكل ما كان من أمر انها كانت فيها قوية شديدة حيث كان ذلك هو المنسجم مع طبيعة الحياة الاجتماعية التي كانت تحياها تلك البيئة في ذلك العصر وماقبله.

ثانياً عصبية القبيلة

كان افراد كل قبيلة يتضامنون تجـاه القبائل الأخرى في الحروب والدماء والدفاع عن المصالح والتبعات المشتركة ، بحيث كانوا يتناصرون ظالمين ومظلومين ، ويتعاونون على المسئوليات والمغارم ، وبحيث كان كل فردمن قبيلة يرى أن أي اعتداء يقع على احد افراد قبيلته انما هو واقع عليه ، وأن من واجبه أن ينتصر له ويدفع عنه ، وان يثأر له من المعتدي أو من أي فرد من افراد قبيلته ، وبحيث اذا نشبت حرب بين قبيلتين تضامن أفراد كل قبيلة في الدفاع والهجوم مهما كان الباعث ، حتى ولو كانت ميولهم وعواطفهم متغايرة . وفي القرآن آيات يمكن ان يستأنس بها في تثبيت هذه الصورة .

منها آيات تشير الى موقف المنـافقين من بني قومهم المخلصين في الحروب التي كانت تقع بين المسلمين وبين المشركين :

١ — يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض او كانوا غزّى لو كانوا عندناما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ... آل عمران ١٥٦

٢ — وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم ... آل عمران ١٦٧

٣ — الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ... « ١٦٨

٤ — وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقامَ لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون الا فراراً ...
الاحزاب ١٣

٥ — يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ...
المنافقون ٨

فآية آل عمران ١٦٧ تضمنت دعوة للمنافقين الى الاشتراك في وقعة أحد إن لم يكن في سبيل الله ففي سبيل الدفاع استجابة لداعي العصبية القبيلية ، وجوابهم

بانهم لو تأكدوا من وقوع القتال لاستجابوا الى هذا الداعي وتضامنوا معهم [1].
وفي آيتي آل عمران ١٥٦ و ١٦٨ حكاية اقوال نرجح ان المنافقين سوغوا لانفسهم قولها للمخلصين من بني قومهم بسائق هذه العصبية . وآية المنافقين تدل على أن المنافقين قد خرجوا فعلا واشتركوا في احدى الغزوات ، وأن بعضهم قد اغتاظ من حادث ما فقال ما قال إركاناً على ما يعرفه من قوة رابطة العصبية القبلية التي تربط بين افراد قبيلته بقطع النظر عن اختلاف السريرة والعقيدة [2] . وآية الاحزاب تتضمن تقرير كون المنافقين قد تضامنوا ولو بالظاهر مع بني قومهم في وقعة الخندق وعسكروا مع المسلمين في ظاهر المدينة .

وفي آيات سور المائدة ٥٥ — ٥٧ والانفال ٧٢ والمجادلة ٢٣ التي نقلناها سابقاً ملهمات تدعيمية ايضاً ، حيث شددت على المسلمين النهي عن موالاة الكفار ، وحيث يستلهم من سياقها وظروف نزولها أن النهي عن موالاتهم هم القرشيون الذين تربط بينهم وبين المهاجرين عصبية القبيلة ، كما يستلهم بطبيعة الحال أن هذه العصبية كانت ما تزال قوية مؤثرة بالرغم عما كان من اختلاف في العقيدة، ومكايدات واضطهادات واضطرار الى الهجرة من مكة ...

وفي سورة النساء آيتان اخريان في صدد لحمة هذه العصبية وأثرها :

١ — إلاّ الذين يصلون الى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم او يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ... ٩٠

(١) ذكرت روايات السيرة ان شخصاً اسمه قزمان قاتل يوم احد قتالا شديداً حتى قتل بضعة نفر من المشركين وجرح وحمل الى احدى الدور ؛ وجاء الناس يعودونه ، وان أحدهم قال له إبشر يا قزمان فاجابه بماذا أبشر فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي .

(٢) قائل القول زعيم المنافقين عبد الله بن أبي الخزرجي ، وقد قاله بسبب ملاحاة وقعت بين قرشي ومدني واستصرخ كل منهما قومه ، فوجد الفرصة لما قال . والحادثة في ذاتها انطوت على ما يستأنس به على صحة الصورة .

٢ — ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما رُدوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويُلقوا اليكم السلمَ ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ... النساء ٩١

وفي الآيتين من حيث الأساس مظهر من مظاهر ما وصلت اليه قوة المسلمين بحيث صارت القبائل تخشى بأسهم وتتزلف اليهم ؛ ومع هـذه الرغبة في الفريقين الذين أشارت اليها الآيتان فان الاول منها اشترط ان يكون التهادن وحسن الصلات بينه وبين المسلمين قائماً على اساس عدم تضامنه مع المسلمين ضد قومه ؛ أما الثاني فقد وقف موقف المتردد الحائر في ما ينبغي أن يختار من السلامة وحسن الصلات اللذين يرغب فيها مع المسلمين او الاستجابة لداعي العصبية القبيلية وتبديل موقفه من المسلمين بموقف العداء الصريح ...

—٦—

ثالثاً عصبية التحالف القبيلي او عصبية الأحزاب

كثيراً ما كان قبيلتان أو اكثر تعقد بينها حلفاً وميثاقاً لتكون صفاً واحـداً متسانداً ؛ فتنشأ عصبية بين هذه القبائل المتحالفة تدفعهم الى التضامن في الحروب والتعاون في تبعات الدماء ، فاذا دعى داعي الحرب نفر أفراد هذه القبائل ليكونوا صفاً واحداً ، واذا اعتدى معتدٍ على إحدى هـذه القبائل المتحالفة أو على بعضهـا هبوا الى النصرة والثأر ، واذا تحملت قبيلة تبعة دماء رأت من حقها أن تستعين على حملها بحلفائها من القبائل الأخرى .

وفي القرآن آيات تشير الى هذا النوع من التحالف وما يوجده من عصبية بين القبائل المتحالفة وتدعم الصورة التي رسمناها لهذا النوع من العصبية .

فاليهود كانوا متحـالفين مع الأوس والخزرج ، فريق منهم حالف الأوس وفريق حالف الخزرج ، وكان كل فريق يقف مع حليفه متسانداً متضامناً في مايقع بينهم وبين الآخرين من حوادث وطواريء . والاصل مشار اليه في آيات سورة البقرة ٨٤—٨٥ التي نقلناها في فصل اليهود والتي تندد بهم لمخالفتهم شرائعهم وقتال بعضهم بعضاً وأسر بعضهم بعضاً ، لان هذا كان مما لا بد من حدوثه في حالة الحلف

القائمة مع فريق عدو لفريق آخر .

وقد اشير في بعض الآيات الى ثبات المنافقين من أهل المدينة في تحالفهم هذا ، ووعدهم لليهود بالمناصرة اذا قوتلوا وبالتضامن معهم اذا أخرجوا وهي آية الحشر ١١ التي نقلناها كذلك في الفصل المذكور حيث كان المنافقون يتخذون الحلف وسيلة للجهر في هذا الموقف .

على ان تمسك الأوس والخزرج بعصبيتهم الحلفية مع اليهود لم يكن قاصراً على المنافقين منهم ، بل ظل المخلصون متأثرين بذلك مدة غير قصيرة كما يستلهم من توالي النهي الموجه الى الذين آمنوا عن موالاة اليهود مما هو منطو في آيات آل عمران ١١٨ — ١٢٠ والمائدة ٥١ التي نقلناها في فصل اليهود وفي الآيات التالية :

١ — لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير ...
آل عمران ٢٨

٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ... النساء ١٤٤

وفي آيات الاحزاب ٢٦ — ٢٧ التي نقلناها سابقاً أيضاً تنطوي صورة لمحالفة بين قبيلة يهودية وبين قريش واحزابها ، حيث ظاهرت القبيلة اليهودية وهي بنو قريظه هؤلاء وفاقاً لهذه المحالفة ضد المسلمين حينما قدموا يغزون المدينة في الوقعة المعروفة بالخندق .

ولقد جاء ذكر « الأحزاب » في القرآن أكثر من مرة :

١ — ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ... هود ١٧

٢ — والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه ... الرعد ٣٦

٣ — ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيماناً وتسليماً ... الاحزاب ٢٢

وليس من شك في أن كلمة «الاحزاب» تعني فرقاً او طوائف او قبائل متحزبة متحالفة على أمر ما ، وآيتا هود والرعد قد تكونان عنتا ما كان من تحزب الفرق

المختلفة ضد الدعوة النبوية ، غير أن آية الأحزاب صريحة الدلالة على قصدها قريشاً والقبائل المتحالفة معها التي جاءت الى غزو المدينة ؛ وبالتالي انها صريحة الدلالة على ما كان يقع من تحالف بين القبائل ولعل هذا كان أكبر ما وقع منه في الحجاز او من أكبره ، لان عدد الغزاة قد بلغ نحو عشرة آلاف على ما ذكرته روايات السيرة وهو عدد ضخم في تلك الظروف والبيئة .

— ٧ —

ولقد استمر هذا النوع من التحالف وتبعاته الى ما بعد البعثة النبوية حيث كان حلف اليهود مع قريش واحزابها ضد النبي (ص) وحيث كان النبي (ص) يعقد المواثيق والمعاهدات مع قبائل العرب التي ظلت متمسكة بشركها وجنحت الى المسالمة او رغبت في المهادنة بالاضافة الى ما كان يعقده مع اليهود ، وحيث كانت واجبات هذه المحالفات تراعى مراعاة دقيقة مما تلهمه آيات عديدة رأينا ان نوردها لان من الممكن ان يكون فيها بعض الملهمات لما كان يجري الامر عليه :

١ — أوَ كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ...

البقرة ١٠٠

٢ — ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولاتتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً . إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق ...

النساء ٨٩ — ٩٠

٣ — آية النساء ٩٢ وقد نقلناها قبل .

٤ — إن شرّ الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ... الانفال ٥٥—٥٦

٥ — والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ...

الانفال ٧٢

٦ — براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... التوبة ١

٧ — إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ... التوبة ٤

٨ — إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ... التوبة ٧

ومما يلفت النظر خاصة في صدد ما نحن فيه هو كون المعاهدات لمدة معينة . ولا ندري هل كان هذا مما كان يجري الامر عليه في التحالف القبلي قبل البعثة ام لا ، وان كنا نميل الى النفي في الجواب ، لان هناك روايات عربيـة تذكر ان الحلف القبلي كان يستمر جيلا بعد جيل ولا ينتقض إلا بسبب احداث جسيمة ، ويصبح صلة لاحمة متوارثة بين القبائل المتحالفة . وحلف قبائل اليهود في المدينة مع الأوس والخزرج لم يكن حديث عهد ، وانما كان مستمراً في الابناء بعد الآباء الى الهجرة النبوية ، وهذا التشديد القرآني في التنديد باستمرار هـذا الحلف ، والامر بقطعه يمكن ان يلهما هـذا الذي نقوله . اما المدة في المعاهدات التي عقدها النبي (ص) مع المشـركين فيمكن ان يكون لوحظ فيها تطور ظروف الدعوة الاسلامية وامكانياتها المقبلة .

— ٨ —

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن عصبية التحالف القبلي ليست أصلية ، وإنما هي طارئة ، وذلك عكس عصبية القبيلة وعصبية ذوي الأرحام القريبة ، فانها أصلية تستمد وجودها من المصلحة المتحدة الطبيعية بين بني القبيلة الواحدة الذين يكونون في الغالب ذوي أرحام وقربى قد تباعدت بعض التباعد مع انتسابهم الى جد أعلى واحد ، ثم بين بني العائلة الواحدة او العشيرة الواحدة او البطن الواحد الذين تجمعهم صلة الدم والرحم القريبة . وعلى هذا فان قوة العصبية والحمية فيها والاستجابة اليها والتأثر بها تكون على درجات اقواهـا عصبية ذوي الارحام والقربى ، ثم عصبية القبيلة ثم عصبية الحلف القبلي . وهذا التفاوت التدرجي في القوة والحمية في العصبية وتقاليدها وأثرها متسق مع طبائع الأشياء كما ان من الممكن ان يستلهم من الآيات التي نقلناها .

— ٩ —

ونستطرد هنا إلى تصحيح خطأ يقع فيه بعض الباحثين في وصفهم العرب بالفردية ،وبتناقض مع طبيعتهم الاجتماعية ، وفي عزوهم ذلك الى خلق آبائهم الاولين ولا سيما أبان بداوتهم . فان في ما أوردناه دليلا على أن تقاليد التضامن الاجتماعي أو العصبية الاجتماعية كان راسخاً في العرب الاولين ، وانه كان ركناً من أركان حياتهم الاجتماعية إن لم يكن اقوى ركن فيها ، لاغنى لهم عنه ولا معدى؛هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان العصبية الاجتماعية سواء فيما بين ذوي الارحام والقربى او فيما بين ابناء القبيلة او فيما بين القبائل المتعددة المتحالفة حاجة طبيعية في حياة البدو او الأمة التي في طور الكيان البدوي قليلاً او كثيراً بوجه عام ،لانه لايمكن حفظ التوازن والحقوق والدماء في هذه الحياة او الطور بدونها . واذا كان من مجال للنقد بالنسبة للعرب فانما هو في رسوخ العصبية الاجتماعية الضيقة النطاق التي لم تكن تتعدى الوحدات الاجتماعية الاولى كالعائلة والعشيرة والقبيلة رسوخاً كان عاملا من عوامل التفكك الذي حل في العرب في القرون الاسلامية الاولى كما أشرنا الى ذلك في مطلع هذا الفصل .

على انه قد يكون من الحق ان يقال إن هذا ليس شيئاً خاصاً بالعرب أوبالطبيعة البدوية العربية ، وانما هو عام في البشر الذين مروا جميعهم في هذا الدور ، وان ذلك التفكك قد كانت له عوامل اخرى اثيرت فيها العصبية القبلية الضيقة النطاق إثارة متعمدة لغايات سياسية وحزبية ، في ظروف لم تكن قد رسخت فيها بعد الاخوة العامة الشاملة التي دعا اليها القرآن وجاهد النبي (ص) في سبيل إقامتها مقام تلك العصبية رسوخاً كافياً يصعب زلزلته .

— ١٠ —

رابعاً عصبية الولاء :

كان من عادات العرب ان يلتحق أحد أفراد قبيلة بشخص من قبيلة اخرى ويتولاه ، فيصبح كانه من ذوي رحمه وقبيلته بالولاء اذا قبل الشخص هذا الالتحاق، وحينئذ يكون على الملتحق وله جميع تبعات عصبية الملتحق به الخاصة والعامة، وكان

يسمى الملتحق باسم « مولى » فلان الذي التحق به . وقد أشارت بعض آيات القرآن الى هذه الصورة . ففي سورة الاحزاب آية تستنكر التبني وانتساب امرء لاسم غير اسم ابيه الاصلي ، وتأمر بنسبته الى ابيه الاصلي وضماً للامر في نصابه الطبيعي .
وقد سمح في هذه الآية بأن يكون الابن بالتبني مولى المتبني اذا لم يعرف ابوه :

وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم .... الاحزاب ٤ — ٥

ففي هذه الاشارة مايؤيد وجود تقليد الولاء الذي تواترت بوجوده الروايات كما هو المتبادر .

وننبه على أن كلمة « مولى » هنا ليست في معنى « مولى » التي كانت تطلق احياناً على الارقاء بل هي في المعنى الذي اشرنا اليه ، ووصف الابناء بالتبنى في حالة معرفة آبائهم بالاخوان والموالي قرينة حاسمة .

وقد كان هذا الولاء يقوم أحياناً على أساس تعاطي العهد والميثاق على أن يكون المتولى جزءاً من المتولي وان يحمل معه سائر تبعاته العصبية ، وعلى أن يكون المتولى كذلك بالنسبة إلى مولاه ، وقد أورد الخازن مأثوراً عن هذا الميثاق الذي كان يشهد عليه الملاء حيث كان يقول الواحد للآخر : دمي دمك ، وهدمي هدمك ، وثأري ثأرك ، وحربي حربك ،وسلمي سلمك ، ترثني وأرثك ، وتطالب بي وأطلب بك ، وتعقل عني وأعقل عنك [١] » وقد قال الخازن وغيره من المفسرين ان جملة «والذين عقدت ايمانكم » في هذه الآية :

ولكل جعلنا موالي [٢] مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً .. النساء ٣٣

قد عنت فيما عنته مواثيق الولاء وعقوده ، وان كلاً من المتولي والمتولى كان يرث صاحبه بمقدار السدس ، وان هذا كان ثابتاً الى مابعد الهجرة النبوية ، وأيد

---

(١) العقل هو دفع دية القتيل التي تستحق الدفع .
(٢) الكلمة هنا بمعنى الوارثين .

في هذه الآية ثم نسخ وحصر الارث بين ذوي الارحام في آيات المواريث.

وفي سورة الاحزاب آية قال بعض المفسرين انها هي التي نسخت توارث الولاء وهي:

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وازواجه أمهاتهم واولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطورا ... ٦

حيث تقرر أن أولو الارحام من المؤمنين هم أولى ببعضهم في الارث، وتجعل فعل المعروف للاولياء اختيارياً، وبعبارة اخرى تنقل درجة المولى من نطاق الارث إلى نطاق المنح والهبة. فيمكن والحالة هذه ان يقال ان هذه الآية تلهم وجود التقليد وتبعاته على النحو الذي ذكرناه.

- ١١ -

ولم يكن الولاء مقصوراً على الافراد؛ بل كثيراً ما كان يلتحق بطن أو عائلة من قبيلة بقبيلة اخرى. بل كان يصدف ان تلتحق قبيلة برمتها بقبيلة اخرى على طريقة الولاء، فيكون أفرادها «موالي» القبيلة الجديدة، وتقطع تبعاتها ازاء وحدتها الاولى، وتنتقل اليها تبعات القبيلة الجديدة العصبية من حروب ودماء وعقل ومصالح مشتركة اخرى. وفي كتب السيرة والتاريخ والترجمة أسماء كثيرين حينما يذكرون تذكر اسماء قبائلهم بالولاء فيقال مثلاً القرشي ولاءً أو الثقفي ولاءً ويراد بذلك هذا الولاء الذي نشير اليه وليس معنى العبودية والرق. ولعل في ورود كلمة أولياء في آية الاحزاب التي نقلناها الآن قرينة ما على ولاء الجمع مثل ما فيها من قرينة على ولاء الافراد.

ولقد ذكرت كلمة «المولى» في القرآن كثيراً واريد بها على الاكثر «النصير» او «الحليف». وترى المعنى الذي تحمله هاتان الكلمتان منسجماً مع المعنى الذي ذكرناه لكلمة المولى في الامثلة القرآنية الآتية:

١ — يدعوا من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد. يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ... الحج ١٢/ ١٣

٢ — واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ... الحج ٧٨

٣ — يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ... الدخان ٤١

٤ — ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ... محمد ١١

٥ — إن تتوبا الى الله فقد صغت(١) قلوبكما وإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ... التحريم ٤

ولعل في آية الدخان ما يبرز المعنى الذي نحن في صدد تقريره إبرازاً قوياً لان فيها أشارة إلى تبادل الولاء بين شخصين وتسميـة كل منها مولى الآخر وهو الظاهرة الجوهرية في هذا التقليد .

والغالب في التحاق فرد بآخر أو قبيلة بقبيلة اخرى على طريق الولاء أن يكون الملتحق أضعف من الملتحق به ، وأن يبتغي عنده المنعة والقوة والعزة . وقد جاء هذا المعنى في احدى آيات سورة الاسراء حيث تلهم أن اتخاذ المولى انما يكون في حالة الضعف او الحاجة او الذل كما ترى فيها .

وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذل وكبره تكبيراً ... ١١١

ومعلوم أن العرب بعد الاسلام قد اطلقوا تعبير « الموالى » على غير العرب من المسلمين . ومن الواضح أن هذا الاطلاق قد استمد من مفهوم هذا التعبير التقليدي عند العرب قبل البعثة ، فالعرب المسلمون اعتبروا الذين اعتنقوا الاسلام من غيرهم انما التحقوا بهم أو انتسبوا اليهم التحاق ولاء فاطلقوا هـذا التعبير عليهم جرياً على عادتهم التقليدية فيه . وإذا كان العرب قد نظروا الى الموالى نظر الرفيع او القوى لمن هو دونه او نظر المتبوع للتابع ، فان هذا يرجع الى مافي مفهوم حلف الولاء أو رابطة الولاء من هذا المعنى على ماهو المتبادر .

— ١٢ —

خامساً عصبية الجوار :

وقد كان من عادات العرب ان يطلب شخص من آخر ان يجيره أي أن يجعله في حمايته، ويدفع عنه البغي والظلم . فاذا قبل المستجار به أن يجير المستجير أعلن ذلك على ملأ

(١) اي مالت ويراد بالجملة أن تتوبا فتكون قلوبكم قد رجعت عن مابدا منها وقيل فقد حقت عليكم التوبة لانه بدر منكم شيء من الميل عن جادة الصواب .

من الناس ليكونوا على بينة من الأمر ، وأصبح المستجير في ذمتـه و « جواره » كأنه من ذوي رحمه أو قبيلته، يتمتع بحمايته بما يحمى به عائلته أو قبيلته؛ وكذلك يصبح على كل من يتضامن مع المجير عصبية ولا سيما عصبية الرحم والقربى واجب حماية المستجير الذي أصبح جاراً لهم بعـد أن يكون رئيسهم قد أجاره ؛ وتحامى الناس حينئذ المستجير لما يكون له من حماية وعصبية من قبل المستجار به وجماعته .والغالب في الجوار أن يطلبه ضعيف في عصبيته ؛ وقد يطلبه شخص بعيد عن عصبيته اذا خشي الظلم في أرض هو غريب فيها ..

واحياناً يعين المستجير الشخص او القبيلة التي يطلب حماية منها بحيث يقول : أنا عـائذ بك او مستجير بك من فلان أو من القبيلة الفلانية ، أو يسأله ما اذا كان يقبل أن يجيره على فلان أو على القبيلة الفلانية .

ولم يكن كل شخص يقبل أن يجير أي شخص آخر أو على أي شخص أو قبيلة. فالناس يعرفون أقدارهم وقواهم، ولا يورطون أنفسهم فيما لاقبل لهم به ، لانهم كانوا يرون في ذمة الجوار وعصبيته امراً خطيراً فيه كرامتهم بل وحياتهم ومماتهم ايضاً.

ويظل الجوار مرعياً الى أن يرده المستجير إلى صاحبه الذي أجاره ، ويبرىء له ذمته وجواره على ملأ من الناس ، حتى إذا اعتدى عليه بعد ذلك لا يتحمل المجير تبعة هذا الاعتداء ؛ أو الى أن يبلغ المستجير مأمنه اذا كان غريباً في أرض ، وكانت له عصبية تحميه في أرضه .

وفي القرآن بضع آيات ذكر فيها « الجوار » بالمعنى الذي عنيناه ، وتساعد على تثبيت شيء من الصورة التي رسمناها.منها ما أذن للنبي (ص) فيها بأجارة من يستجير به من المشركين حتى يلقاه ويسمع منه كلام الله ثم يكون في ذمته وجواره الى أن يبلغ مأمنه :

وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ...
التوبة ٦

فقد أخذ المشركين يخشون بأس النبي (ص) بعد أن قوي وفتح مكة وآذن المشركين ببراءة الله ورسوله منهم ، وصاروا يرغبون في الوفادة عليه نحاروا في

أمرهم وابلغوا النبي (ص) حيرتهم فنزلت الآية ، وفيها صورة لأجارة المستجير الذي ليس له عصبية في أرض على النحو الذي شرحناه . ومنها ماورد في سياق مشاهد غزوة بدر :

وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ... الانفال ٤٨

حيث حكت انها قيلت لقريش حينما أزمعوا الخروج لحماية قافلتهم من النبي (ص) ، وكان بينهم وبين بني كنانة دماء فخافوا ان يأتوهم من خلفهم فقال لهم الشيطان سراقة ابن مالك وكان من زعماء كنانة انا جار لكم من كنانة فلن تروا منها ماتكرهون؛ فخرجوا وكانت واقعة بدر الكبرى . (١) وتعبير « إني جار لكم » هو من تعابير الجوار التقليدية حيث يتقدم من يريد أن يحمي طالب جواره فيعلن أنه جار فلان...

وهناك ثلاث آيات اخرى في صدد اثبات عظمة الله وقوته ، ولكنها تحتوي كلمة الإجارة ومشتقاتها بمعنى الجوار ومفهومه الذي نحن في صدد تقريره :

١ — قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ... المؤمنون ٨٨

٢ — قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ... الملك ٢٨

٣ — قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ... الجن ٢٢

وتعبير « يجير ولا يجار عليه » أيضاً من تعابير الجوار التقليدية إذا ماأريد مدح سيد من سادات العرب ، والتنويه بعزته وقوته ، حيث يعنى ان السيد يقدر على إجارة من يشاء ولكن أحداً لايجرأ على تحديه بأجارة عدو له .

— ١٣ —

سادساً عصبية التقاليد :

وهذا النوع ليس مما كان معروفاً باسمه هذا ، وإنما كان معروفاً بمفهومه . والمقصد

---

(١) وفي الروايات ان ابليس تمثل لقريش في صورة سراقه بن مالك ليغريهم وليغريهم مع ان كلمة الشيطان تطلق على بغاة الجن والانس وعلى ابليس ايضاً

به هو التعصب للعادات والتقاليد المتوارثة وشدة التمسك بها . وقد كان هذا مما هو راسخ في المجتمع العربي قبل البعثة ، بحيث كان يعد فضيلة لا معدى عنها ، وجزءاً من حيـاة المجتمع لاينفصل عنه ، ولو أدى إلى الحروب واراقة الدماء والمواقف المهلكة المحرجة .

وفي القرآن آيات عديدة تشير الى مفهوم هـذه العصبية في معرض التنديد والتقريع للمشركين والمناوئين للدعوة النبوية والكائدين لها . وهي تصور باساليبها المختلفة شدة تمسك العرب قبل البعثة بتقاليدهم المتوارثة ابآ عن جد ، وعدم العدول عنها مهما ظهر باطلها ، ووضح ضررها وشرها كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ... البقرة ١٧٠

٢ ــ وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ... المائدة ١٠٤

٣ ــ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها ...

الأعراف ٢٨

٤ ــ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ...

لقمان ٢١

٥ ــ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ... سبأ ٤٣

٦ ــ قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ...

الزخرف ٢٢

وقد بلغ من قوة هذه العصبية فيهم ان اصبحت ديناً ، وان اخذوا يرون ان ما هم عليه من عادات وتقاليد هو من أوامر الله كما حكت آية الاعراف (٢٨) وكما حكت الآيات التالية :

١ ــ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه

لنا إن تتبعون الا الظن وإن انتم الا تخرصون... الانعام ١٤٧

٢ — وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ... النحل ٣٥

حيث كان المشركون يحتجون بأن ما هم عليه من تقاليد دينية متنوعة هي من مشيئة الله ورضاه ؛ لانها لو لم تكن كذلك لمنعهم عنها . . . وفي أقوالهم المحكية في آيات البقرة والمائدة ولقمان وسبأ والزخرف ما يفيد أنهم كانوا يعتبرون ما هم عليه من تقاليد هو الأهدى والأصلح وقد توارثوها ابأ عن جد، وأن دعوة النبي (ص) تستهدف صدهم عن ما هو الأهدى والأصلح .

— ١٤ —

وهذه الآيات تفسر لنا شيئاً من ذلك الموقف الشديد المؤذي الذي وقفه أهل مكة من الدعوة الاسلامية وصاحبها وضعفاء المسلمين ، فان قوة عصبية التقاليد كانت من العوامل المؤثرة في ذلك ، حتى انها حالت دون اهتداء كثير من ذوي قربى النبي (ص) الذين كانوا ينصرونه ويدفعون عنه عصبية وفي مقدمتهم عمه وحاميه ابو طالب ، وغلبتهم على امرهم بالرغم عن معرفتهم بصدق النبي (ص) وعظم اخلاقه وصفاء قلبه ؛ وتيقنهم أنه لا يمكن أن يدعو الى باطل ، ولا يمكن ان يفترى ما يقوله ، وبالرغم عن ما كان لهم من الفخر العظيم في ظهوره ونجاح دعوته وكثرة الناس الذين يستجيبون له ، وبالرغم عن ما كان لموقفهم من تأثير ايجابي غير يسير في الموقف الجحودي الذي وقفه اهل مكة منه ، بل بلغ الأمر الى ان يشذ احد اعمام النبي (ص) عن تقليد عصبية الرحم وان يقف فى صفوف المناوئين لابن اخيه والكائدين له تعصباً للتقاليد الدينية الموروثة

وفي سورة القصص حكاية لقول بعض زعماء المشركين المعتدلين :

وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ... ٥٧

حيث تلهم ان القائلين كانوا يعترفون بأن ماجاء به النبي (ص) هدى ولكنهم كانوا يخافون ان هم تخلوا عن تقاليدهم أن يفقدوا مزية حرمهم المادية والمعنوية .

وكثير من الذين أسلموا انما أسلموا ادرءاً للخطر أو جلباً للنفع ، وفي نفوسهم

ما فيها من الحياء والألم لتخليهم عن عاداتهم وتقاليدهم وما كان عليه آباؤهم ، ولم يحسن اسلامهم الا بعد ان مضى عليهم ردح من الزمن ، وبعد ان أصبحت الدعوة الاسلامية عامة جارفة ، وهؤلاء او من هؤلاء من سماهم القرآن باسم « المؤلفة قلوبهم »

ولعل في آيات الأحزاب ٣٦ - ٤٠ التي نقلناها في بحث التبني والتي نزلت في صدد زواج النبي (ص) من مطلقة ابنه بالتبنى صورة قوية لقوة عصبية التقاليد واثرها في بيئة النبي (ص) وعصره . فالذي يتمعن في الآيات يرى أولاً انها تمهد بوجوب اطاعة الله ورسوله ، وانهم اذا قضوا أمراً فانه لا يبقى للمؤمن حق الخيار فيه . وظاهر ان ذلك مصروف الى إيجاب الطاعة في التخلي عن ما يأمر الله ورسوله بالتخلي عنه من التقاليد عامة وتقليد التبنى خاصة . وفي صيغة الآيات قوة يمكن ان يلمس منها ما كان للتقليد من قوة ورسوخ في نفوس الناس جميعاً والمؤمنون والمخلصون على السواء ويرى ثانياً أن النبي (ص) نفسه كان متردداً في الاقدام فضلا عن أنه لم يكن ليقدم غيره ، وأنه كان يتهيب من رد فعل الغاء تقليد التبني وتزوج المتبني بمطلقة متبنيه في الناس ؛ وقد احتوت الآيات شيئاً من العتاب واللوم من جهة وتأييداً للنبي (ص) وتبريراً من جهة اخرى مما ينطوي فيه كذلك قوة دلالة على ما كان للتقليد من أثر راسخ في النفوس .

ولقد اشتبه في وقوع حركة حربية من قبل سرية من سرايا النبي (ص) الأولى بعد الهجرة في اول يوم من ايام الشهر الحرام ، فأثار المشركون ضجة كبيرة على المسلمين لأنهم خرقوا حرمة هذا الشهر المقدسة وأثرت هذه الضجة في عامة المسلمين فاندمجوا في النقد والتساؤل مما أشارت اليه إحدى الآيات :

يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه اكبرُ عند الله والفتنةُ اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم . . . البقرة ٢١٧-٢١٨

ويلاحظ قوة الآية الاولى التبريرية للقتال في الشهر الحرام وما فيها من بيان خطر المشركين على المسلمين وسوء نواياهم نحوهم ، ومن تبرير ما فعله المجاهدون الذين لم يكونوا يرجون إلا رحمة الله ، وفي تطمينهم برحمة الله وغفرانه . ففي كل هذا صورة قوية لما كانت عليه عصبية التقاليد اقتضت حكمة التنزيل أن تهدئ في المسلمين بهذا الاسلوب القوي الحكيم .

وانه لمن الممكن ان نتفهم من هذه الآيات وغيرها شيئاً من الحكمة التي اقتضت الابقاء على كثير من التقاليد التي كان عليها العرب قبل البعثة ، سواء منها ما كان يتصل بحياتهم الاجتماعية والعائلية ، او ما كان له صبغة دينية وطقسية كرمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة واستلام الحجر الأسود وتقبيله والوقوف في عرفات وعند المشعر الحرام وذبح القرابين وتحريم الصيد وحرمة الاشهر الحرم والتسري بالاماء بدون تحديد ، والابقاء على الحالة الحاضرة في الرق ، والسماح بأربع زوجات الخ ، فقد كان رسوخ التقاليد الموروثة وتعصب الناس لها ، واعتبارهم اياها جزءاً من كيانهم الاجتماعي والديني شديداً الى الدرجة التي كان الغاؤها من الصعوبة بمكان ، وكان يمكن ان يكثر بسببه العثرات والعقبات في سبيل انتشار الدعوة الاسلامية واقبال الناس عليها والدخول تحت لوائها ، فالغى ما لا بد من الغائه مما كان يتناقض مع اسس الدعوة واهدافها السامية ، او كان فيه قبح او فحش ينبو عنه الحس والذوق ، او ما كان متنافياً مع المصلحة العامة من التقاليد القديمة كالزواج من امرأة الأب وجمع الأختين ، والزنا والتخادن والمسافحة ، والطواف العاري والذبح عند الانصاب ، وحرمة صيد البحر ، وتحريم اكل لحوم القرابين واطعامها للفقراء ؛ واكتفى بتهذيب الباقي تهذيباً يجعله مفيداً وصالحاً ومنسجماً مع تلك الأسس والأهداف او غير متناقض معها وخاصة ابقاء تقاليد الحج التي فيها منافع عظيمة متنوعة للمسلمين ومهبط وحي الله معاً . ووضعت أسس تشريعية تسمح بالتصرف بما يكون هو الأصلح والأعدل والأفضل مما كان موجوداً كالوحدة في الزواج اذا غلب احتمال الجور ، وكترك أمر الأسرى للسلطان يمن عليهم او يفاديهم فيقضى بذلك على الرق في المستقبل ، الخ الخ

الفصل الثالث

في الحج والاشهر الحرم

سبب وضع هذا الفصل في باب الحياة الاجتماعية ــ موضوعا الفصل ــ الحج والكعبة والآيات القرآنية فيها ــ دلالة حفاوة القرآن ــ استدلالات قرآنية على كون الحج وتقاليده والكعبة وحرمتها مما كان قبل البعثة ــ استدلالات قرآنية على تداول العرب صلة ابراهيم (ص) بالكعبة وتقاليد الحج وأمن الحرم ــ استدلالات قرآنية على ما كان لاهل مكة من مركز خاص بسبب الحج والكعبة ــ أشهر الحج ومداها وحرمتها ــ بدعة النسيء ومداها ــ وقفة عرفات ويوم الحج الاكبر ــ الافاضة والاجازة ــ رمي الجمرات ومجالس المفاخرة في منى ــ الطواف حول الكعبة ــ الحلق والتقصير ــ الاحرام ــ الصفا والمروة ــ الهدى والقلائد ــ تحريم الصيد وحالة الحرم ــ سقاية الحاج ورفادته وعمارة المسجد الحرام ــ اسواق الحج وأثرها ــ الأشهر الحرم ومداها والآيات القرآنية فيها ــ استدلالات قرآنية على تقليد حرمتها ــ خطورة التقليد وأثره في حياة العرب ــ ماهية الاشهر الحرم واولياتها ــ رأي في بعد غاية التقليد ودلالته

— ١ —

قد يبدو أن هذا الموضوع متصل بحياة العرب الدينية ومظاهرها اكثر ، ومن الأولى ان يبحث في باب العقائد والأديان ، غير اننا رأينا ان يكون فصلا في باب الحياة الاجتماعية لأن لكثير من تقاليده علاقة قوية بكيان العرب الاجتماعي ، وكان له من أجل ذلك أثر كبير في حياتهم الاجتماعية .هذا اولاً وثانياً لأنه كان شاملا للعرب جميعهم على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم ، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية ، حيث كانوا يفدون الى منطقة مكة ــ البيت الحرام ــ من كل صوب وحدب ؛ فيلتقون في موسم الحج واسواقه ؛ وفي ظل أشهره الحرم ، ويجتمعون ويتعارفون ، ويتبايعون ويتشاورون ، ويتناشدون الاشعار ، ويعقدون

المجالس للمفاخرات وحل المشاكل ؛ ويخطب فيه مصاقع الخطباء ... وفي كل ذلك مظهر قوي بارز من المظاهر الاجتماعية . وثالثاً لأنه سنحت للعرب في ظروفه — وخاصة قبيل البعثة النبوية — فرصة لحركة او نهضة قومية وسياسية واجتماعية وفكرية وأدبية ؛ وان كان من الجائز ان تكون قد استمدت من عوامل اخرى سياسية وفكرية ونفسية .

وسيكون هذا الفصل مؤلفاً كما جاء في عنوانه من موضوعين رئيسيين ، وان كانا متصلين ببعضهما : الاول الحج والثاني الأشهر الحرم .

الحج
— ٢ —

في القرآن الكريم آيات عديدة تشير الى الحج ومناسكه وتقاليده ومنافعه ، والكعبة البيت الحرام وحرمتها وأمن منطقتها نوردها في ما يلي :

١ — آيات البقرة ١٢٥ — ١٢٩ التي نقلناها في بحث اصل سكان بيئة النبي (ص) في الباب الاول .

٢ — قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ... البقرة ١٤٤

٣ — ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ...
البقرة ١٤٩ — ١٥٠

٤ — ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم ... البقرة ١٥٨

٥ — ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم

كذلك جزاء الكافرين ... البقرة ١٩١

٦ — يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيتُ للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ... البقرة ١٨٩

٧ — وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدي (١) ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهديُ محله (٢) فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك(٣) فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهديِ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعةٍ إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب . الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوقَ ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولي الألباب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فاذا أفضتم من عرفاتٍ فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب . واذكروا الله في ايامٍ معدوداتٍ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون ...

البقرة ١٩٥—٢٠٣

٨ — قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إن اول

---

(١) الهدى = القربان او الاضحية .

(٢) محله = المكان الذي لا يحل الذبح الا فيه

(٣) قربان

بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فان الله غني عن العالمين ... ٩٥—٩٧

٩ — يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد (١) ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً واذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ...
المائدة ٢

١٠ — جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ... المائدة ٧٧

١١ — وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اولياءه إن اولياؤه إلا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءً وتصدية (٢) فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ...
الانفال ٣٤ — ٣٥

١٢ — وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ... التوبة ٣

١٣ — ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر أولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجدالحرام كمن آمن بالله واليومالآخر وجاهد في سبيل الله ... التوبة ١٧ — ١٩

١٤ — يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام

---

(١) القلائد كناية عن الهدي الذي يوضع في عنقه القلادة اشارة الى كونه قرباناً لله .

(٢) قال المفسرون ان المكاء هو الصفير والتصدية هي التصفيق .

بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، إن الله عليم حكيم ... التوبة ٢٨

١٥ — واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم. ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ...

ابراهيم ٣٥—٣٧

١٦ — ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يردفيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم[1] وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ... الحج ٢٥—٣٣

١٧ — والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها[2] فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ...

الحج ٣٦ — ٣٧

---

(١) ليزيلوا اوساخهم .

(٢) فاذا سقطت الى الارض اي ماتت بعد الذبح

١٨ — قل إنما أمرت أن اعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ... النمل ٩١

١٩ — وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء ... القصص ٥٦

٢٠ — أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ... العنكبوت ٦٧

٢١ — هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ... الفتح ٢٥

٢٢ — لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون ... الفتح ٢٧

٢٣ — فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ... قريش ٣ — ٤

— ٣ —

ولا يستكثرن القارىء الآيات التي أوردناها ؛ ولقد تعمدنا نقل ما في القرآن جميعه في هذا الصدد لاننا نريد أن ندلل به على ما كان للحج من خطورة في حياة العرب وعلى ما اسبغه القرآن على هذه الخطورة من حفاوة .

والآيات تحتوي مواضيع عديدة ، وتستهدف اهدافاً متنوعة . وفيها كثير جاء في معرض تشريع مناسك الحج في الاسلام .

غير انها جميعها تحتوي دلالات صريحة أو قرائن قوية على كثير مما يتصل ببيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة من شؤون الحج ومناسكه والكعبة وحرمتها ، وما كان يتداوله العرب بشأن أولياتها .

(١) فآيات النمل ٩١ والقصص ٥٧ والعنكبوت ٦٧ وقريش ٣ — ٤ تتضمن دلالات صريحة على ان أمن الحرم والبلدة الحرام والبيت الحرام (وكلها تهدف الى حرمة منطقة مكة تبعاً لقدسية الكعبة التي هي فيها وحرمتها) مما كان متعارفاً عليه قبل البعثة ، ومما كان أهل مكة يجنون من ورائه الفوائد العظيمة ، مادية ومعنوية،

واقتصادية واجتماعية . وهذا المعنى الاخير خاصة مندمج في آية المائدة ٩٧ مع شمول هذه الفوائد للناس او بالاحرى للعرب الذين هم ناس ذلك العصر والبيئة حيث ذكرت ان الله قد جعل البيت الحرام عاملا قوياً في اقامة الناس أودهم وحياتهم .

(٢) وآية البقرة ١٩١ تحتوي دلالة صريحة على ان القتال في منطقة المسجد الحرام مما كان محظوراً في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة بحيث اقر الاسلام ذلك وناط الاخلال بهذه الحرمة باخلالها من قبل المشركين حيث يباح للمسلمين مقابلة الاعتداء بمثله على ما ذكرته الآيات التالية لهذه الآية ايضاً .

(٣) وآيات البقرة ٤٤ و ١٤٩ — ١٥٠ في القبلة تلهم ما كان للكعبة من حيز عظيم وحرمة بالغة في نفوس العرب ، فقد عدل النبي (ص) عن الاتجاه اليها في الصلاة بسبب ما لقيه من جحود قومه وما احاطوها به من مظاهر الشرك ، ولكن الرغبة في الاتجاه اليها ظلت تعتلج في نفسه ، وظل يرى في ذلك وضعاً للأمر في نصابه الحق ، لانها أول بيت وضع لعبادة الله للناس ، وأقدم من المسجد الاقصى ، ومتصلة بابراهيم (ص) الذي يدعو الى ملته ؛ وان هذا كله مما كان يعرفه العرب ، الذين كانت من اجل ذلك مهوى افئدتهم ومثابتهم جميعاً ، وكان يقلب بصره في السماء حيناً بعد آخر آملاً بالهام الله وأذنه ، فحقق الله أمله ، وولاه القبلة التي يرضاها وهي الكعبة . ويلفت النظر خاصة الى عبارة لئلا يكون للناس عليكم حجة حيث تتضمن قرينة قوية على أن الاستمرار في الاتجاه الى المسجد الأقصى مع ماتشغله الكعبة في نفوس العرب من الحيز العظيم كان يثير ألماً أو حيرة في الناس أي في العرب الذين هم ناس بيئة النبي (ص) مسلمين وغير مسلمين ، فاقتضت الحكمة مراعاة ذلك حتى لا يبقى حجة للتبرم او الحيرة أو الانتقاد أو الألم من هؤلاء أو هؤلاء

(٤) ان اسلوب آيات آل عمران ٩٥ — ٩٧ يتضمن قرينة قوية على ان حج البيت على المستطيع هو استمرار لفرض إلهي قديم على الناس ومعترف به وممارس من بعضهم ، فهو اول بيت وضع للناس فيه البركة والهدى وفيه مقام ابراهيم (ص) ويلفت النظر خاصة الى مدى تعبيره « الناس » في هذا المقام حيث تستقر فيه قوة القرينة .

(٥) كذلك آيات الحج ٢٥ —٣٣ فانها تتضمن قرينة قوية في اسلوبها ومضمونها إن لم نقل دلالة صريحة اولاً على ان العرب جميعهم أو القسم الاكبر منهم وسواء منهم الدانون والقاصون كانوا يأتون الى مكة ويمارسون مع أهل منطقتها مناسك الحج قبل البعثة ، وثانياً على انهم كانوا يتداولون خبر اتصال الحج ومناسكه بابراهيم (ص) . فهي تحمل على الكفار بسبب صدهم عن المسجد الحرام في حين أن الله قد جعله مثابةً للناس جميعاً مقيمهم وباديهم منذ بناه ابراهيم (ص) وأذن في الناس بالحج اليه ، فيأتون اليه من كل فج عميق ، مشاةً وركباناً ، رجالاً ونساءً ليقوموا بمناسكه ، ويوفوا ما عليهم من نذور ، وليطّوفوا بالبيت العتيق ، ويتمتعوا ويشهدوا منافعهم العظمى في موسمه . ويلفت النظر خاصة الى الآية (٢٧) فانها تؤيد بقوة ما ذكرته الروايات من ان الذين كانوا يشهدون موسم الحج ويؤدوا مناسكه ويفدون الى اسواقه لم يكونوا قاصرين على أهل منطقة مكة او القطر الحجازي ، ثم على المشركين من العرب ، بل كان منهم من يأتي من الانحاء القاصية كاليمن ونجد ومشارف الشام كما كان منهم الموحدون الحنفاء اوالصابئون والنصارى واليهود منهم من كان يأتي للاتجار، ومنهم من كان يأتي للتبشير ومنهم من كان يأتي للمفاخرة والخطابة وإنشاد القصائد ، ومنهم من كان يأتي بسبيل حل مشاكل لا يمكن حلها الا في ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه ؛ بالاضافة الى أن الاكثر كان يأتي الى زيارة الكعبة واداء مناسك الحج التي كانت من الحرمات العربية العامة .

(٦) وآيات التوبة ٢٧ — ١٩ والانفال ٣٤ — ٣٥ صريحة الدلالة على ان المشركين او بتعبير آخر العرب كانوا قبل البعثة يمارسون بعض الطقوس عند الكعبة ، وأن منهم من كان مختصاً بمهمة عمارتها وخدمتها كما كان منهم المختص بسقاية الحاج . وهذا يعني أن مناسك الحج وتقاليده مما كان يمارس قبل البعثة طبعاً، وآية التوبة (٢٨) تدل بصراحة على أن المشركين من العرب ظلوا يؤمون المسجد الحرام ويقومون بتقاليد الحج الى ما بعد فتح مكة بمدة ما استمراراً لممارستهم السابقة .

(٨) إن العبارات الواردة بشأن مقام ابراهيم (ص) وآياته البينات ـ أي علاماته الظاهرة أو الواضحة ـ في آيات البقرة ١٢٥ ـــ ١٢٩ وآل عمران ٩٥ ـ ٩٧ تتضمن قرينة قوية إن لم نقل دلالة صريحة على ان العرب قبل البعثة كانوا يتداولون خبر بناء ابراهيم (ص) للكعبة ، وبالتالي خبر صلته بتقاليدزيارتها وحجها وأمن منطقتها . ولقد ذكرت كتب التفسير والحديث والسيرة روايات عديدة بشأن مقام ابراهيم (ص) جاء فيها انه حجر فيه موقع قدمين كان العرب يعتقدون أنهما قدما ابراهيم (ص)، أثرا في الحجر حينما كان يقف عليه ويرفع قواعدالكعبة على ما ذكرته آيات البقرة ، وأن عبارة « آيات بينات » تعني مافي هذا الحجر من علامات ظاهرة هي موقع القدمين . وهذا متسق مع روح العبارة القرآنية من حيث الاجمال . ولعل في آيات البقرة المذكورة بمجموعها روحاً واسلوباً بل ومضموناً قرينة تدعم تقرير تداول العرب لذلك حينما يمعن النظر فيها ، حيث جاء مافيها بأسلوب يلهم أن ماتقرره ليس غريباً على اسماع السامعين الاولين وهم العرب وبنوع خاص أهل بيئة النبي (ص) .

وفي هذه الآيات ، ثم في آيات سورة ابراهيم ٣٥ ـ ٣٧ أشارة الى ان أمن منطقة البيت الحرام انما كان بدعوة من ابراهيم (ص) ؛ واستلهاماً من روحها ومضمونها ومن اعتقاد العرب وتداولهم أن ابراهيم واسماعيل (ص) هما اللذان بنيا الكعبة وأن الحجر الذي كان يقف عليه ابراهيم (ص) ما يزال موجوداً يحتفظ بأثر قدميه يسوغ القول أن العرب قبل البعثة كانوا كذلك يعتقدون ويتداولون أن حرمة البيت الحرام وأمنه هما بدعوة ابراهيم (ص) ايضاً .

ـ ٤ ـ

هذا من جهة تقاليد الحج والكعبة وأمنها وأوليائها بوجه عام .

ومن جهة أخرى فان في الآيات مايلهم ما كان لاهل مكة خاصة من ميزات ومركز وما كانوا يشعرون به عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج . فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة جوار البيت الحرام ، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه كما تدل على ذلك آية الانفال (٢٤)

كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليهم من كرامتها وقدسيتها وجعلها مثابة للناس وأمناً ، لا يسفك فيها دم ولا يثار فيها نزاع وقتال ، فكانوا يتضامنون في القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب واكرام وقرى باعتبار انهم ضيوف بيت الله الذي في بلدتهم والذي هم سدنته الاقربون ، وكان منهم من اختص بسقاية الحاج ومنهم من اختص بعمارته كما تدل ذلك آيات التوبة ١٧ - ١٩ ومنهم من اختص برفادة الحاج أي قراه كما ذكرت ذلك الروايات المعتبرة . ومن هنا جاءت عليهم الحملة محكمة لأنهم خالفوا العرف العام بحرية قدوم الناس الى مكة والقيام بزيارة الكعبة ومناسك الحاج ، فصدوا المسلمين عن المسجد الحرام على ما ذكرته آيات الانفال ٣٤ والحج و ٢٥ والفتح ٢٥ ، هذا بالاضافة الى ما كان ييسر لهم موسم الحج وأسواقه من منافع اقتصادية عظيمة كانت عاملا من عوامل ثرائهم وحافزاً من حوافز نشاطهم التجاري على ماذكرناه في احد فصول الباب الاول .

— ٥ —

كذلك فأن في الآيات مايمكن ان يساعد على رسم صور من طقوس الحج ومناسكه قبل البعثة النبوية ايضاً .

١) فآيات البقرة ١٩٧ والحج ٢٨ تذكر ان للحج أشهراً معلومات او اياماً معلومات ، وفي آية البقرة ١٨٩ ذكر أن الأهلة هي مواقيت للحج اي ان أشهر الحج تعين بالأهلة . ولا يوجد في القرآن صراحة باسماء هذه الاشهر غير أن الروايات المتواترة ذكرت أنها ثلاثة أشهر هلالية من الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ولقد قال بعض المفسرين استناداً الى بعض الروايات أن أشهر الحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة . فاذا كان ما استندوا اليه صحيحاً فيكون التعديل إسلامياً في مانعتقد وبدون ملاحظة الانطباق على الاشهر الحرم . ومهما يكن من امر فالذي نعتقده أن أشهر الحج قبل الاسلام هي الأشهر الحرم المتعاقبة الثلاثة التي ذكرناها ، فالعرب لايمكنهم أن يشدوا رحالهم حاجين الى مكة وهم آمنون مطمئنون وقد تكون منازلهم عنها بعيدة إلا في ظل هدنة الاشهر

الحرم التي أولها ذو القعـدة وليس منها شوال .

وحكمة جعل ثلاثة أشهر للحج مع ان موسمه واسواقه لا تستغرق إلا شهراً وأياما واضحة ؛ فالمسافات الشاسعة التي يضطر الحاج الى قطعها من الانحـاء القاصية تحتاج الى مدة كافية للاياب والذهاب . ولعل في هذا دليلا من ناحية ما على اشتراك العرب من مختلف انحاء الجزيرة واطرافها بالحج وشهودهم موسمه وأسواقه وعـدم اقتصار ذلك على عرب الحجاز .

وآية البقرة ١٩٧ تنهى عن الرفث والفسوق والجدال في الحج حيـنما يفرض المرء على نفسه القيام بواجب الحج ويلفت النظر الى جملة « فمن فرض فيهن الحج » أي فى اشهر الحج المعلومات . ولا ندري اذا كان يصح ان يستلهم منها أن المرء الذي ينتوي الحج يجب عليه ان يمتنع عن كل مالا يتلاءم مع طاعة الله والتفرغ لهـا ، والمشادة والمهاترة مع الناس منذ دخول أشهر الحج ، او ان هذا الواجب يترتب عليه حينما ينوي الحج ويخرج اليه أو يدخل منطقة الحرم ولو كان قـد فعل ذلك بعد انقضاء شهر أو اكثر من اشهر الحج ، ونحن نميل الى شمول النهي اشهر الحج او على الاقل منذ اعتزام المرء الرحلة الى الحج كانما دخل في ظرف عبادة لا يصح له ان يتجاوز نطاقه . وهذا ماجعل المسلمين في عهد النبي (ص) على مايبدو يتحرجون من الاشتغال في التجارة والتكسب في موسم الحج واسواقه حتى اباحت ذلك الآية التالية لهذه الآية على ماشرحناه في بحث سابق . ولاندري هل هذا ما كان يأخذه الورعون على انفسهم قبل البعثة أو هو اسلامي ؟ ونحن نميل الى أن شيئاً من هذا كان قبل البعثة استتباعاً لما كان العرب قد حرموه على انفسهم من نزاع وقتال وسفك دم ، حتى دم الصيد في الاشهر الحرم التي هي أشهر الحج نفسها وفي منطقة الحرم على ماسوف نذكره بعد ، ثم استتباعاً لما كان قرن بعضهم العمرة بالحج بحيث يبقى في حالة الحرم الى ان يقضي جميع مناسكه ، بل لقد كان هذا هو الاصل ، وجعل المسلمون بالخيار بين القرن وبين الاستمتاع بحـالة الحل بين العمرة والحج مقابل كفارة قربان أو صيام في حالة العجز عن القربان على سوف مانذكره أيضاً . وننبه على أن بعض الورعين من المسلمين يخرجون من بيوتهم محرمين ولا يحلون الا بعد انتهاء جميع مناسك الحج .

هذا ، وقد ابتدع العرب قبل البعثة بدعة النسيء ، وهي انساء أي تأخير الاشهر الحرم أو تحليل بعضها وتحريم آخر مكانها . فكانت أشهر الحج بسبب النسيء تدور أحياناً فيصبح ذو القعدة مكان ذي الحجة وذو الحجة مكان المحرم والمحرم مكان صفر أو يصبح شوال مكان ذي القعدة وذو القعدة مكان ذي الحجة وذو الحجة مكان المحرم وفي الحالة الاولى يحل ذو القعدة الحقيقي وهو محرم ويحرم صفر وهو غير محرم، وفي الثانية يحرم شوال وهو غير محرم ويحل المحرم وهو محرم — مع الاحتفاظ بعدد الاشهر بقصد مسايرة مواسم السنة احياناً ، واستجابة لداعي العصبية والثارات احياناً اخرى . والى هذه البدعة أشارت آية التوبة (٣٦) وسفهتها واعتبرتها نقضا لحرمة الاشهر الحرم الاصلية :

« إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لايهدي القوم الكافرين . . . . »

وسنعود الى شرح آخر في هذا الصدد في بحث الاشهر الحرم .

— ٦ —

(٢) اعظم أيام الحج هو يوم الوقوف في عرفات ، وهو اليوم التاسع من ذي الحجة . حيث يجتمع في هذا اليوم كل من أتى الى الحج ويكونون جميعاً في صعيد واحد هو صعيد عرفات ، ولايكون الحاج حاجاً إلا إذا شهد هذا اليوم في عرفات (١) وقد سماه القرآن على مارجحه كثير من المفسرين بيوم الحج الأكبر في آية التوبة (٣) التي نقلناها في جملة مانقلنا من الآيات . ونرجح ان لم نقل بجزم ان هذه التسمية كانت متعارفة من قبل ، استلهاما من اسلوب الآية التقريري ، ولان القرآن انما خاطب الناس بمفهوماتهم ، وخاصة لان في الآية امراً باعلان براءة الله ورسوله من المشركين على الناس جميعا في يوم الحج الأكبر الذي لايعقل الا ان يكون معلوما عندهم من قبل .

---

(١) في أسد الغابة ج ٣ ص ٣٢٨ حديث نبوي « الحج عرفة »

وعرفات هذه منبسط فسيح جداً من الارض يتسع للآلاف المؤلفة من الناس ومحاط بالجبال،وفي بعض اطرافه صخور وهضاب ،وقد ذكرت في آية البقرة١٩٨.

ويؤخذ من روايات الرواة واقوال المفسرين في صدد الآية المذكورة والتي بعدها انه كان ليوم عرفات رئيس من بيت معين من بيوتات العرب لايفيض الناس الا بعد افاضته، ولعل الزعماء واصحاب الشأن في العرب كانوا يتخذون هذا اليوم المشهود وسيلة لاعلان بعض الامور وابلاغها للناس . وقد كان الناس بعد أن يفرغوا من حجهم يأتون الى صاحب الامر في النسيء ليسمعوا منه ما يريد ان يعلن الى الناس من تأخير أو تقديم في الاشهر الحرم [1] . وقد ارسل النبي (ص) في السنة التالية لفتح مكة ابابكر (رض) اميراً على الحج فأقام للناس حجهم . وقد ذكرت الرواية التي ذكرت هذا [2] خبراً مهما في بابه وهو أن الناس كانوا في تلك السنة على منازلهم على الحج التي كانوا عليها في الجاهلية . وقد اتخذ النبي (ص) فرصة هذا اليوم المشهود وسيلة الى الاعلان للناس براءة الله ورسوله من المشركين على ما ذكرنا قبل فأعلن هذا للناس من قبل ابي بكر (رض) في رواية وعلي بن ابي طالب (رض) الذي ارسله النبي (ص) خصيصا في رواية [3] اخرى . وقد ذكرت بعض الروايات ان الاعلان كان صبيحة عرفات في منى حيث كان يوم النحر أو عيد الاضحى . وعلى كل حال ففي هذه الروايات ما يستأنس به على يوم الحج الاكبر وما كان في فرصة اجتماع الناس آلافا مؤلفة فيه من كل جهة وقبيل من قضاء امور هامة واعلانها ، وعلى ان ماجرى في الحج الاسلامي الرسمي الاول بعد فتح مكة انما كان استمراراً لما كان يجري عليه العرب قبل البعثة .

— ٧ —

(٣) ولقد جاء في آية البقرة ١٩٨ — ١٩٩ تعبير « فاذا افضتم من عرفات »

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٤٣

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٨ و ٣٦١

(٣) ج ٣ ص ٣٦٠

و « ثم افيضوا من حيث افاض الناس » ومعنى الافاضة اللغوي الاندفاع بشدة ، ومعناها الاصطلاحي الرجوع من عرفات بعد انتهاء امد الوقوف فيها . ومن نحوى الآيتين يستدل على انه كان هناك افاضتان واحدة من عرفات ، واخرى من المشعر الحرام ، وهاتان الافاضتان قد انتقلتا الى الاسلام ، ولاتزالان . فحينما يعود الحجاج من عرفات يأتون الى مكان يعرف اليوم بالمزدلفة في المكان الذى سماه القرآن في آية البقره ١٧٨ بالمشعر الحرام ، فيتوقفون هنا الى الفجر ثم يفيضون منه الى منى.

وفي كتب التفسير والسيرة[١] يوجد بعض الروايات حول هاتين الافاضتين اللتين كانتا من تقليد الحج قبل البعثة ايضاً حسب ما جاء فيها من جهة واستلهاماً من الآية (١٩٩) التي تأمر بالافاضة من حيث أفاض الناس والتي تلهم أنما كان ان بعض الناس كانوا لايفيضون من حيث افاض الناس ويسلكون طريقاً خاصة بهم من جهة اخرى .

ويستفاد من ذلك انه كان رجال من الطبقة الرفيعة من قريش يرون لانفسهم امتيازاً على الناس بسبب شرف بيوتاتهم وسداتهم للكعبة ، وكانوا يرون ان هذا الامتياز يخولهم ان لايسلكوا طريق الحجاج العامة في الرجوع من عرفات أو المشعر الحرام . وفي بعض الروايات انهم كانوا يكتفون بالوقوف في المزدلفة — عند المشعر الحرام — ولا يشاركون الناس في الوقوف في عرفات ، ويسلكون في الرجوع من هنا طريقاً خاصة بهم . وقد عرفت هذه الطبقة باسم « الحمس » أو «الاحماس » وكان هؤلاء هم الذين يسنون للناس السنن في مناسكهم وتقاليدهم . ويظهر أن البيئة الاجتماعية كانت تتسع لهذا التمايز والتفاوت ؛ على اننا نبدى شكنا في رواية عدم مشاركة الاحماس الناس في الوقوف في عرفات ، لانه كان ركناً أساسياً في تقاليد الحج ، وآية البقرة (١٩٨) تذكر الافاضة من عرفات كأنما هي شيء طبيعي وعام لا استثناء فيه والآية (١٩٩) انما تأمر بالافاضة من حيث افاض الناس من المشعر الحرام فقط .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٥ والخازن والطبرسي لآيتي البقرة .

كذلك يستفاد من تلك الكتب (١) انه كان هناك بعض بطون أو بيوتات معروفة لرؤسائها الحق في التقدم في الافاضة بحيث لا يفيض أحد الا اذا أفاض رئيس هذا البطن أو البيت ، فيقف الناس محجوزين ينتظرون افاضته ليفيضوا من ورائه، وكانت افاضة الرئيس تسمى « إجازة » وكان هناك إجازتان احداهما من عرفات الى المشعر الحرام عند الافاضة الاولى ، والثانية من المشعر الحرام الى منى عند الافاضة الثانية .

أما المشعر الحرام فهو العلامة الارضية التي كانت تفصل المزدلفة عن منطقتي عرفات ومنى . ولعل جعل هذا المكان حداً يفصل بين المنطقتين وتسميته بهذا الاسم ، وتوقف الناس عنده كان بقصد اشعار الناس أنهم قد انتهوا من الواجب الاساسي في الحج ، واصبحوا حجاجاً وان لهم الحق في التعييد بعده ؛ وفعلاً فان الناس بمجرد افاضتهم من المشعر الحرام الى منى يصبحون معيدين عيد الاضحى حيث يقربون القرابين ويستريحون بعض الايام ، أو لعله سمي كذلك لأنه حد منطقة عرفات التي لا يكون الحاج حاجاً الا في الوقوف فيها . . .

— ٨ —

(٤) ومن التقاليد التي انتقلت على حالها الى الاسلام تقليد رمي الجمرات في منى . وهذا التقليد لم يذكر في القرآن بصراحة ، وانما وردت في سورة البقرة آية هي الآية (٢٠٣) ذكر المفسرون (٢) هذا التقليد ورووا عنه بعض الروايات في سياق تفسيرها .

والحجاج يقضون منذ عهد النبي (ص) أيام العيد في منى بعد افاضتهم من عرفات والمشعر الحرام ، يكبرون الله ويذكرونه عقب الصلوات ويرمون الجمرات، وهذه الآية تشير الى هذه الايام التي يقضيها الحجاج في منى بالتكبير ورمي الجمرات .

والآية تلهم ان الناس كانوا على رأيين منهم من كان يرى البر في التعجيل ؛ ومنهم من كان يراه في التمهل ، وان المسلمين كانوا بعد الاسلام كذلك على رأيين

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٥

(٢) الخازن ج ١ ص ١٣١ — ١٣٥ وغيره

استتباعاً لما كانوا عليه ، فجعلتهم الآية في الخيار ، فلا إثم على من تعجل ولا إثم على من تمهل اذا كان رائد الفريقين نية البر وتقوى الله . . .

وقد ذكر بن هشام (١) ان بعض حجاج العرب قبل البعثة كانوا يتذمرون من تأخر الاجازة احياناً من المزدلفة الى منى فيأتون الى زعيمها يلحون عليه بالتعجيل حتى يفيضوا الى منى ويرموا جمراتهم وينتهوا من مناسكهم، وروح الآية وهذه الرواية تؤيدان رجوع هذا التقليد الى ماقبل البعثة كما ترى .

والجمرات هي المحلات التي ترمى بالحصى . وهي ثلاثة الاولى والوسطى وجمرة العقبة .والحجاج يرمونها بالحصى يومياً على ايام ثلاثة ، فيرمون جمرة العقبة بسبع حصوات في اليوم الاول ، ثم يرمون الجمرات الثلاث في اليوم الثاني واليوم الثالث كل واحدة بسبع حصوات في كل يوم ثم ينصرفون من منى الى مكة ، ومن الناس من يكتفي برمي يومين بدلا من ثلاثة ايام . (٢)

واصل هذا التقليد على مايستفاد من الروايات والاقوال أن الشيطان ظهر لابراهيم (ص) في هذه المحلات الثلاثة ليشوش عليه مناسك الحج أو ليصرفه عن تنفيذ الرؤيا التي رآها بذبح ابنه . وكان كل ما ظهر له في محل منها رجمه فساروا على سنته ؛ وقد اشار بعض المفسرين الى هذه الاولية في سياق تفسير آيات رؤيا ابراهيم (ص) في سورة الصافات ، وهي :

« فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يابني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياابراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم . . » الصافات ١٠١ — ١٠٧

(٥) وقد كان للعرب في منى تقليد آخر . وهو عقد مجالس المفاخرة بعد ان يكونوا انتهوا من مناسك الحج . وقد ذكر المفسرون هذا التقليد في سياق تفسير آية البقرة (٢٠٠) وقالوا ان الحجاج كانوا بعد قضاء مناسكهم يعقدون المجالس في منى

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣

(٢) في اسد الغابة ج ٣ ص ٣٢٨ حديث نبوي فى هذا الصدد .

ليتناشدوا الاشعار ، ويعددوا مفاخر الآباء والقبائل . والآية يمكن ان تلهم هـذا الذي تناقلته الروايات لاسيما وايام منى هي ايام عيد واكل وشرب وراحة؛ فأمرت الآية بذكر الله والتحدث بنعمه بدلا من المفاخرات الجاهلية التي تزيد في قوة العصبية الضيقة.

— ٩ —

(٦) ولقد كان الطواف حول الكعبة من أهم تقاليد الحج . وهو ركن من اركانه في الاسلام . وقد اشير اليه في آيتي الحج (٢٦ و ٢٩) ، ونص الآية الاولى كأنما يخبر بشيء موجود متعارف عليه ، مما يساعد على اتخاذها قرينة قرآنية على ان القول ان هذا التقليد كان جارياً قبل البعثة فضلاً عن الروايات المتواترة اليقينة في ذلك.

والطواف هو مراسم زيارة الكعبة او تحيتها . وزيارة الكعبة نوعان : زيارة عمرة وزيارة حج ، والاولى يمكن ان تكون في غير موسم الحج او بغير نية الحج . فالقادم إلى مكة يجب عليه لاول قدومه ان يزور الكعبة مرة أي ان يطوف حولها سواء كان القدوم في موسم الحج او لا ، وبنية الحج أو لا . فاذا كان القدوم في غير موسم الحج او بغير نية الحج سميت عمرة ، هذا بالاضافة الى ان للقادم الى مكة او المقيم فيها ان يذهب الى المسجد الحرام وان يطوف حول الكعبة مراراً . وقد ذكرت الزيارتان الرسميتان المذكورتان في آيتي البقرة ١٥٨ و ١٩٦ . وهاتان الآيتان نزلتا على مايرجح قبل الفتح بمدة قصيرة ، ويساعد على هذا التوقيت ماجاء في الآية ١٩٦ من ذكر احتمال الأحصار أو المنع القهري عن اتمام واجب العمرة والحج . وهذا مع اسلوب الآيتين وروحهما يسوغ القول اولاً أن هاتين الزيارتين كانتا رسميتين ايضاً قبل البعثة ؛ وثانياً ان من العرب من كان يقوم بهما كلاً على حدة ؛ ومنهم من كان يجمع بينهما معاً ؛ والعمل الجاري الآن هو إما ان الحاج يلبس ثياب الاحرام عند حدود مكة بنية العمرة أي زيارة الكعبة فقط ، واما ان يلبسها بنية جمع العمرة والحج معاً ، فالاول بعد زيارته للكعبة يحلل من احرامه ويتمتع بما تبيحه له حالة الحل الى ان يأتي وقت الوقوف في عرفة فيحرم ثانية ـ يلبس ثياب الاحرام ـ ويطوف بالكعبة ثم يذهب الى عرفات . أما الثاني فانه يزور الكعبة ثم يبقى محرماً الى ان تتم وقفة عرفات ، وجملة «فمن تمتع بالعمرة الى الحج» قد عنت الحالة

الاولى، ولقد اوجبت الآية ١٩٦ على الذين يتمتعون بين العمرة والحج من غير اهل منطقة الحرم تقديم قربان ما أو صيام عشرة ايام ثلاثة في الحج وسبعة في الموطن كفارة عن هذا التمتع . ويلهم هذا ان الاصل أو الافضل هو بقاء القادم الى الحج في حالة الحرم [1] الى ان يتم مناسكه جميعها ، وعدم استمتاعه بحالة الحل بين العمرة والحج . ويبدو ان استثناء اهل منطقة الحرم من الكفارة ناشئ عن ظروف اقامتهم ، فهم لم يكونوا كالقادمين الموسميين الذين قد شدوا الرحال بقصد اداء هذه المناسك الدينية ، وظروف اقامتهم الدائمة تستلزم ان لا يتفرغوا مثلهم للمناسك وان يكتفى منهم بما هو جوهري الوجوب . أما الطواف النفل فمن الممكن للقادمين المستمتعين بحالة الحل واهل منطقة الحرم ان يقوموا بالطواف بدون ثياب الاحرام . ونخمن ان هذا كله أو جله كان هو الجاري من قبل ايضاً .

والطواف في الاسلام هو سبعة أشواط على مدار بناء الكعبة . ويبدء كل شوط من الركن الذي فيه الحجر الاسود . والطائف يستقبل هذا الركن ويستلم الحجر أو يقبله او يشير اليه . وليس للحجر الاسود واستلامه أو تقبيله ولا لعدد الاشواط السبعة ومبدئها اشارة ما في القرآن ، ولكن ذلك ثابت بالسنة النبوية المتواترة التي لم ينقطع العمل بها . ونخمن ان لم نقل نجزم ان هذه المراسم قد انتقلت الى الاسلام على حالها التي كانت عليه قبله .

والحجر الاسود كان مقدساً قبل البعثة ، فابقيت له في الاسلام حرمته وعادة استلامه أو تقبيله ، والبدء باشواط الطواف من الركن الذي هو فيه . وهو حجر صواني اسود لامع ؛ وفي تقاليد العرب المروية انه نزل من السماء ، ولعله قطعة من نيزك سماوي نزل في وقت ما على مرأى من بعض العرب فتبركوا به أو عدوه هدية سماوية ووضعوه في احد اركان الكعبة ثم جعلوا بدء اشواط الطوف منه .

هذا ؛ ولقد جاء في بعض الآيات ذكر للحلق والتقصير اي تقصير الشعر كعلامة للتحلل من الاحرام عقب اداء المناسك التي من جملتها ذبح الضحية المهدية لله . وذلك في آيات البقرة ١٩٦ والفتح ٢٧ ، والآية الاولى تحظر حلق الرأس قبل ذبح الضحية

---

(١) في ما يأتي شرح لهذه الحالة .

في المكان الذي يحل فيه ذبحها أي عند الكعبة أو منطقتها كما تدل على ذلك آية الحج ٣٣ وتوجب على المضطر الى حلق رأسه بسبب المرض او اذى القمل ان يقدم كفارة تعبدية ما ، كصدقة او صوم او قربان . وتقريب القربان الرسمي جار الآن بعد الانتهاء من مناسك الحج والوقوف في عرفات ، وليس من الجاري ان يقرب الحاج قرباناً رسمياً عقب طوافه الرسمي الاول بالكعبة ، بل انه يتحلل من احرامه بقص شعره أو حلقه ولبس الثياب العادية اذا لم يكن قارناً بين العمرة والحج. ولعل في هذا قرينة اخرى على ان الاصل هو بقاء الحاج القادم في حالة الاحرام الى ما بعد الوقوف في عرفات . وعلى كل حال فاننا نخمن ان لم نقل نجزم ان الحلق او التقصير كانا قبل البعثة ايضاً من علامات التحلل من الاحرام وان الحجاج لم يكونوا يفعلون ذلك الا بعد تقريب قرابينهم .

— ١٠ —

(٧) وقد قلنا ان المسلم يؤدي الزيارتين المذكورتين للكعبة وهو في ثياب الاحرام اي في ثياب غير مخيطة . ويظهر ان لهذا اصلا ما قبل البعثة ايضاً . فقد ذكرت كتب السيرة والتفسير [١] في صدد احدى آيات سورة الاعراف :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... ٣١ » ان بعض الحجاج قبل الاسلام كانوا يطوفون حول الكعبة عراة وان الآية بسبيل التنديد بذلك وتقرير كون الثياب زينة وحشمة ، ووجوب اخذ الناس زينتهم والظهور بمظهر الحشمة عند كل عبادة ومسجد [٢] . وقد ذكرت فيما ذكرته ان العرب كانوا يتكرهون ان يطوفوا بالكعبة وعليهم ثيابهم الاعتيادية حذر ان يكونوا قد اتوا بعض الآثام والفواحش وهي عليهم ، فسن لهم الاحماس خلعها والتستر بمآزر كان الاحماس

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٩٢ و ١٩٣ والخازن ج ٢ ص ٨٣ مثلا .

(٢) كل عبادة فيها سجود وكل مكان عبادة يسمى مسجداً . وقد كان النبي (ص) يصلي في ارض ما فيسمونها مسجد رسول الله . وقد سمى القرآن معبد اليهود في القدس مسجداً وكذلك سمى فناء الكعبة والكعبة مسجداً قبل فتح القدس وقبل فتح مكة .

يعدونها خصيصاً للحجاج ويسمونها « المآزر الاحمسية »؛ (١) وحينما ينتهي الطائف من طوافه اوالحاج من مناسكه يعود الى لبس الثوب الذي خلعه . اما الذي يطوف بثوبه فانه يحرم عليه لبسه بعد الطواف ويجب عليه طرحه ، ويسمون ذلك «لقى» ، فكان الحجاج الذين لايجدون مآزر احمسية او لايقدرون عليها ؛ ويضنون بثيابهم ان يلقوها ويفقدوها يخلعونها قبل الطواف ، ويطوفون عراة رجالا كانوا اونساء.

وقد ظلت عادة الطواف بالعرى الى ما بعد فتح مكة ، فلما نزلت آيات براءة الله ورسوله من المشركين واعلان تحريم المسجد الحرام عليهم لأنهم نجس وهي آيات التوبة ٣ و ٢٨ وابلغ ذلك للناس يوم الحج الاكبر ابلغوا ايضاً إبطال هـذه العادة على ماذكره الرواة والمفسرون في صدد تفسير الآيتين .

ومما يلحق بهذا مانهت عنه آية البقرة (١٨٩) من دخول البيوت من ظهورها واعلان المسلمين بها انه ليس في ذلك بر ولا قربى لله . وقد ذكر المفسرون (٢) في صدد هذه الآية ان العرب ــ وفي الروايات ما خصص اهل المدينة منهم ــ كانوا إذا احرموا (٣) تكرهوا ان يظللهم سقف ماداموا محرمين لئلا يفسد احرامهم الذي يفسد بستر الرأس . وكان ذلك سنة من سنن الاحماس . فكانوا إذا ارادوا الدخول إلى بيوتهم لحاجة ما اتوها من ظهورها وسطوحها تفاديا من الدخول من الابواب التي يعلوها سقف او غطاء ما . وقد ابطلت الآية هذه العادة في ما ابطلته لان فيها حرجاً وكلفة . ونلفت النظر إلى ان من شروط الاحرام في الاسلام عدم ستر الرأس ، فلعل في هذا تعديلا لذلك التقليد .

ـ ١١ ـ

(٨) ومن التقاليد التي كانت قبل البعثة الطواف بين الصفا والمروة. وقداشارت آية البقرة (١٥٨) الى هذا التقليد باسلوب يدل بصراحة على انه من التقاليدالقديمة.

---

(١) لعله كان مطوفون للحجاج مثل اليوم وانهؤلاء هم الذين كانوا يعدون المآزر

(٢) الخازن ج ١ ص ١٢١ و ١٢٢ .

(٣) الاحرام في الاسلام لبس غير المخيط غير انه جاء في الخازن ج ١ ص ٤٩٣ مايفهم منه انه كان يطلق على دخول منطقة الحرم اوعلى دخول الشهر الحرام.

والصفا والمروة [1] هضبتان صخراويتان قريبتان من الكعبة ؛ وبعيدتان عن بعضهما نحو اربعمائة متر وكان المشركون قد وضعوا عندهما على ماجاء في الروايات بعض اصنامهم ، وكانوا يقومون عندها ببعض الطقوس ، ويقربون لها القرابين ، ومن جملة هذه الطقوس الطواف بهما . وقد ذكر المفسرون والرواة في سبب نزول هذه الآية ان المسلمين تحرجوا من الطواف بهما كما كانوا يفعلون قبل الاسلام نزلت الآية ترفع الحرج عنهم ، بل وتحضهم على الاستمرار بالتطوف بهما ، وتقرر انهما من شعائر الله . والطواف الاسلامي بهما هو مايسمى بالسعي بين الهضبتين سبعة اشواط ذهاباً وايابا يبدءه الحاج من احداهما مكبراً ثم يمشي ويهرول بسرعة في منتصف الطريق بعض الخطوات عند علامة معينة ويظل يتلو الادعية ويذكر الله في الاشواط جميعها ، ونحن ان لم نقل نجزم ان التطوف بهما قبل البعثة كان السعي بينهما اشواطاً سبعة كما هو جار بعد الاسلام .

-١٢-

(٩) وفي آيات البقرة ١٩٦ والمائدة ٢ و ٩٧ والحج ٢٨ و ٣٦ والفتح ٢٥ اشارات الى الهدى والقلائد . ومضامين الآيات واساليبها تلهم بقوة وصراحة انها كانت من تقاليد قبل البعثة التي اقرها الاسلام . والهدى هو الحيوان الذي يسوقه الحاج معه ليذبحه بعد اداء مناسكه قربان شكر لله . وقد كان من عادة الحجاج العرب تقليد الهدى اي وضع قلادة من سيور الجلد او الياف الشجر او فتيل الخيطان في عنقه اعلانا بانه هدي فيصبح محرماً محترماً . وهـذا هو القصد من تعبير « القلائد » ، ولعل النهي عن إحلالها هو النهي عن اخذ القلائد من اعناق الهدى لما في ذلك من عدوان على حرمته او تعريض له للعدوان والنهب ، والهدى يطلق على الحيوان الذي يخصص للقربان ، فاذا كان الحيوان من البقر والابل سمي بُدناً ؛ وقد جاءت هذه التسمية في آية الحج (٣٦) . وكان من السائغ ان يشترك اكثر من حاج واحد في البَدنه فتكون قرباناً عن اكثر من حاج واحد . ولعل تعبير « الهدى » مشتق من الاهداء على اعتبار ان القربان هدية من الحاج الى الله او الى الكعبة .

---

(١) في اللغة الصفا للصخر القاسي والمروة للصخر اللين .

والمسلمون يسمون قرابينهم اليوم باسم الاضاحى والاضحية ، وقد سمى عيد الحج باسم عيد الاضحى من اجل ذلك لان الاضاحي تذبح بعد الافاضة من المشعر الحرام ويكون ذلك اليوم العاشر من ذي الحجة وهو اليوم الاول من العيد .

ومن صيغ الآيات يمكن ان يستدل على ما كان لتقاليد الهدى والقرابين من اهمية عظيمة . وقد نوه القرآن بها وهو يقرها في الاسلام واشار الى ما فيها من إقامة أود الناس لاسيما الفقراء والمساكين والبائسين . واذا لاحظنا ان الذين يهدون الهدى هم الاغنياء والقادرون ، وان كثيراً من الناس او بالاحرى اكثرهم فقراء ، يفدون الى الحج ليؤدوا مناسكهم متحملين في سبيل ذلك الشدائد والمتاعب والحرمان ادركنا اهمية هذا التقليد وفوائده في ظروف الحج وبيئته قبل البعثة وبعدها معاً .

وقد كان العرب يحيطون هذا التقليد بالعناية والحرمة بل بالتقديس والرهبة . وقد بلغ منهم ذلك الى درجة ان بعض الحجاج كان يترك هديه سائماً وخاصة حينما يكون مقلداً فيتحاماه الناس ولا يتعرض له احد بسوء .

وقد كان من عادتهم على ماذكره الرواة[1] « إشعار » البدن » أي جرحها جرحاً خفيفاً ليسيل دمها على ظهرها اشارة الى كونها هدياً . ويسمون البدنة المجروحة بهذا القصد « شعيرة » . ومن المفسرين من فسر كلمة شعائر الله في آيات الحج ٣٢و٣٦ على انها الهدي المجروح على الوجه الذي ذكرناه . والذي نخمنه ان هذه العادة كانت تقوم مقام القلائد ، فالجرح والدم السائل علامتان اثبت من القلائد التي يمكن ان تخلع من أعناق الهدي كما هو المتبادر . ولعل من العرب من كان يقلد هديه ، ومنهم من كان يشعره .

وقد كان من عادتهم ان يلطخوا جدران الكعبة بدماء هديه ظناً منه ان في هذا تقرباً الى رب البيت . والى ذلك اشارت احدى آيات الحج (٣٧) على ماذكره بعض المفسرين والرواة ، حيث نبهت على ان الله لايناله شيء من لحوم الهدي ولا دمائه وإنما الذي يريده من الناس التقوى والاخلاص ، وبذلك أبطلت هذه العادة .

وقد كانوا يتأثمون من أكل لحوم هديهم ، ويتركونها للفقراء والمساكين والسباع

---

(١) أسد الغابة ج٣ ص٢٢٨

والجوارح ، فأباح القرآن لأصحاب الهدي ان يأكلوا منه إذا شاؤوا ، وان يطعموا البائس والفقير والقانع والمعتر أي المحتاجين سألوا او لم يسألوا[1] .

وكانوا يذبحون هديهم عند الأوثان والأنصاب في فناء الكعبة ويذكرونها اثناء الذبح . وفي آية الحج (٣٠) أمر بوجوب اجتناب الرجس من الأوثان جاءت في سياق ذكر الأنعام ، ويمكن ان تكون قرينة قرآنيـة فضلاً عن ثبوت ذلك بالروايات المتواترة . وقد شددت آيات كثيرة في النهي عن ذلك ، واكدت وجوب ذكر اسم الله على الأنعام حين ذبحها وإن مالم يذكر اسم الله عليه فهو فسق لأنه أهل[2] لغير الله كما جاء في آيات نقلناها في بحث اطعمة العرب ، وكما ذكر هذا في آيات الحج في سياق ذكر الأنعام التي تذبح في موسم الحج .

وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة يشترك فيهـا البشر جميعهم في بعض ادوارهم واطوارهم ومختلف بيئاتهم . غير ان الروايات ذكرت ان العرب كانوا يرجعون تقاليدهم في ذبح القرابين الى ابراهيم (ص) الذي امتحن بذبح ولده ففداه الله بذبح عظيم على ماجاء في آيات الصافات التي نقلناها قبل في سياق تقليد رمي الجمرات، وإن هذا كان في مايتداولونه من الروايات في اليوم العاشر من ذي الحجة. ونرجح ان العرب كانوا يعرفون خبر هذه المحنة ويتناقلونها ، ويرجعون اليه او يعللون به ذبح الضحايا كما كانوا يرجعون أولية الحج الى ابراهيم (ص) ويعرفون ويتناقلون صلته بالكعبة ومقامه في فنائها .

— ١٣ —

(١٠) وكان من تقاليدهم تحريم الصيد في حالة « الحُرُم » ؛ ولقد احتوت آيات المائدة ١ و٢ و٩٤—٩٦ نهي للمسلمين عن إحلال الصيد وهم حرم ، وروح الآيات تلهم ان هذا التقليد ليس إسلامياً، وإن النهي توكيد لتقليد سابق للاسلام، ويدعم هذا ماتلهمه آيات القرآن من تأثم العرب مسلميهم ومشركيهم على السواء من القتال في الأشهر الحرم حيث يصح أن يقال إن هذا كان فرعاً عن تقاليد تحريم القتال في هذه

---

(١) تفسير الخازن ج١ ص ٤٣١=٤٤٢ و ج٣ص ٢٨٧—٢٤٠

(٢) اي ذبح .

الأشهر التي هي اشهر الحج ، وهكذا يكون العرب قد وصلوا في تأثمهم من سفك الدم والقتال في هذه الأشهر الى ان يجعلوا هذا شاملاً لسفك دم الصيد ايضاً. على ان اسلوب الآيات قد يلهم ان تقليد تحريم الصيد في حالة « الحرم » قد ضعف اثره وتهوون فيه فاقتضت حكمة التنزيل تثبيته من حيث الاساس تبعاً لما ثبتته من حرمة الأشهر الحرم واشهر الحج ومنطقة الحرم وتحريم القتال وسفك الدماء فيها . ولا نستبعد ان يكون هذا التهاون قدبدامن المسلمين حيث ظنوا ان هذا التقليدلاضرورة له لأنه لم يثبت في التنزيل القرآني الذي نزل مبكراً، لاسيماوقد رأوا هذا التنزيل المبكر يبيح لهم قتال المشركين في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام مقابلة على مابدا منهم من عدوان وأذى ضد المسلمين في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام كما جاء في آيات البقرة ١٩١—١٩٤ وخاصة آية البقرة هذه :

« يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ... ٢١٧

وآية المائدة ٩٦ تلهم انها تحتوي تشريعاً اسلامياً فيه تخفيف للتقليد القديم ، حيث تبيح للمسلمين صيد البحر وأكله مطلقاً وتبقى صيد البر محرماً عليهم ما داموا حرماً ؛ حيث نرجح استلهاماً من روح الآية اولاً ومن اطلاق النهي عن الصيد في آيتي المائدة ١و٢ ثانياً إن ذلك التقليد كان شاملاً لصيد البحر والبر معاً . وحالة الحرُم في الاسلام هي مدة لبس ثياب الاحرام ، بحيث الذي يستمتع بحالة الحل بين العمرة والحج يستمتع بكل ماهو محظور على المحرم ومن ذلك الصيد وقد لاتدوم هذه المدة إلا أياماًمعدودات، اي من حين دخوله منطقة الحرام الى ان يزور الزيارة الرسمية الأولى ، ثم من حين ذهابه الى عرفات الى ان يعود منها الى منى ؛ وعلى هذا فيمكن ان يقال ان كلمة « حُرم » الواردة في آيات المائدة ٩٤- ٩٦ قد صار لها في الاسلام معنى اصطلاحي . أما قبل الاسلام فليس في إمكاننا ان نقرر بجزم مدى هذه الكلمة فيه مع ترجيحنا انه على كل حال أوسع من مداها الاصطلاحي الاسلامي الجديد ونخمن ان الكلمة إما انها كانت تعني ظرف الأشهر الحرم وإما انها كانت

تعني حلول المرء في منطقة الحرم او كليهما معاً ونحن نرجح هذا ؛ بحيث كان العربي يعد نفسه بحالة الحُرم حينما تحل الاشهر الحرم واشهر الحج منها او حينما يحل في منطقة البيت الحرام ، فكان يحرم عليه في الحالين سفك دم الصيد البري والبحري كما يحرم عليه القتال وسفك الدم فيه . وقد يدعم ترجيح كونها تعني الحالتين معاً تحريم صيد البحر وصيد البر معاً ؛ لأن صيد البحر لم يكن ممكن الوقوع في الغالب إلا خارج منطقة الحرم ، كما يمكن ان يدعمه ما كان من تحريم القتال وسفك الدماء في منطقة الحرم بصورة مطلقة أي في الاشهر الحرم وغيرها(١) .

— ١٤ —

(١١) ولقد اشرنا إشارة عابرة الى ما كان من اختصاص بعض بيوتات قريش بمهام عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وهي مما اشارت اليه آيات التوبة ١٧ — ٢٠ ؛ واسلوب الآيات يدل على ما كان اصحاب هذه المهام يرونه من شرفهم بها وحقهم بالزهو بسببها وبالتالي يدل على ما كان يراه العرب فيها من خطورة . وقد رأينا ان نعود الى الكلام عن ذلك في هذه السلسلة لأن هاتين المهمتين اولاً ، ومهمات اخرى متصلة بالكعبة والحج ثانياً مما يصح ان يعد في ذات الوقت من تقاليد الحج المهمة .

ولقد ذكر المفسرون والرواة(٢) ان هذين التقليدين مع تقليد آخر هو الرفادة أي قرى الحجاج مما سنه قصي بن كلاب جد النبي (ص) الثالث من سنن لقريش ليقوموا بواجب حرم الله وحجاجه لأنهم اهله الأقربون .

والسقاية هي الاضطلاع بمهمة تحضير المياه للحجاج حينما يأتون الى مكة ، وحينما يذهبون الى عرفات ثم يعودون منها الى منى . فالمياه كانت شحيحة ومتعسرة وكان لابد من تهيئتها وتوفيرها للحجاج . وقد كان القائم بهذه المهمة يهيء بالاضافة الى المياه مياهاً فيها زبيب او تمر لتغيير طعمها الذي كان مالحاً بعض الشيء ، وكان هذا يقدم لأكابر الحجاج وعيونهم ؛ وكان آخر من تولى هذه المهمة في عهد النبي (ص) وقبل الفتح المكي العباس بن عبد المطلب (رض) عم النبي (ص) .

---

(١) في الخازن ج١ ص٤٩٣ مايعضد هذا الترجيح .

(٢) اقرأ مثلاً ابن هشام ج١ ص ١١٦ — ١١٨

وعمارة المسجد هي خدمة الكعبة وسدانتها وحراستها. ومن المعقول ان يدخل في هذا المعنى تسهيل الزيارة وإرشاد الزوار ومساعدتهم في اداء مناسكهم . ولا يبعد ان يكون للبيت الذي كان اليه هذا التقليد صفة دينية. وقد ذكرت الروايات تقليداً باسم « الحجابة » أى حق فتح باب الكعبة وغلقه وحفظ مفتاحه . ولعل الحجابة والعمارة كانتا تقليداً مزدوجاً في بيت واحد . فالآية ذكرت « العمارة » وليس في الروايات التي اطلعنا عليها تقليدان كل منهما مستقل عن الآخر احدهما عمارة والثاني حجابة . وكان آخر من تولى هذه المهمة في عهد النبي (ص) وقبل الفتح المكي طلحة بن شيبة ؛ وقد أقر النبي (ص) هذا التقليد فيه وفي ذريته وما يزال الى الآن .

والرفادة هي تقديم الطعام للحجاج في أيام عرفات ومنى ؛ وقد كانت بيوتات مكة تتعاون على نفقات الطعام ، ويتولى امره رئيس احدى البيوتات ، واختصاص آية التوبة السقاية والعمارة بالذكر يمكن ان يلهم ان تقليد الرفادة دونها خطورة ومدى .

-١٥-

(١٢) ولقد أشرنا في بحث نشاط مكة التجاري الى الأسواق العامة التي كانت تقام في موسم الحج . ونريد ان نزيد هنا على ماقلناه ان إقامة هذه الاسواق يصح ان تعد من تقاليد الحج لأنها كانت في ايام واماكن مستقرة مستمرة . واذا كانت هذه الاسواق من جهة مجالاً لنشاط اهل مكة التجاري فقد كانت من جهة اخرى تقليداً خطير الشأن جليل النفع بالنسبة لسائر العرب الذين كانت لهم في الحج وأشهره الحرم فرصة الغدو والرواح آمنين مطمئنين ، فيلتقون في هذه الاسواق يتبادلون السلع ويقيمون أودهم ويتزودون بما هم في حاجة اليه من العروض ويشهدون فيها منافع عظيمة اخرى لهم . ولقد تواترت الروايات على ان العرب كانوا يفدون على موسم الحج واسواقه من كل جهة من الشام ونجد والعراق واليمن وتهامة والبحرين على مختلف القبائل والبيئات واللهجات والعقائد كما قلنا قبل واستلهمناه من جملة «من كل فج عميق » في إحدى آيات الحج ، وكانت لهم في اسواقه خاصة — لأن أيام

الحج لا يكون فيها متسع – فرص لاقامة مجالس المفاخرات وإنشاد الاشعار والمفاضلة بين الشعراء ، ولعقد حلقات السمر ، ومجالس القضاء لحل المشاكل والقضايا المعقدة ، كما كانت فرصة لتسيير الاخبار وبث الافكار والقاء الخطب ، وتعارف الزعماء والنبهاء والشعراء والخطباء .

ومن المتواتر في كتب السيرة ان النبي (ص) كان يغتنم فرصة هذه الاسواق فيسعى الى لقاء وفود العرب ونبهائهم ويعرض عليهم رسالة ربه ويتلو عليهم القرآن ، وانه التقى فيها بوفود يثرب وتم بينه وبينهم الاتفاق الذي نتج عنه حادث الهجرة الاكبر الذي كان له اعظم الاثر في نجاح الدعوة الاسلامية وسطوع نورها الوهاج. وإننا نرجح ان الوافدين على هذه الاسواق لم يكونوا قاصرين على مشركي العرب ، بل كان يفد عليها نصارى العرب ويهود يثرب ايضاً للتبشير والاتجار ولعل منهم من كان يشترك في بعض مناسك الحج ايضاً . وفي سورة البقرة آيات لعلها تلهم هذا جاءت في صدد تبرير تبديل سمت القبلة الى الكعبة وذكر فيها ان اهل الكتاب يعلمون ان هذا التبديل حق ، وانهم ليعرفونه كما يعرفون ابناءهم :

... فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ومابعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ... ١٤٣ – ١٤٥ » .

ورواية خطبة قس بن ساعدة او قس بني ساعدة الايادي في أحد مواسم الحج من الروايات العربية المشهورة وهو نصراني على الارجح .

وناهيك بما يمكن ان يكون لهذا كله من أثر اجتماعي وأدبي عظيم في العرب الذين أتوا من كل جهة ثم تفرقوا الى منازلهم وقد امتلأت جعباتهم بالاخبار وذاكراتهم بالاشعار والخطب والكلمات المختارة واكتظت اذهانهم كذلك بمختلف الصور والمشاهد مما ساعد دون ريب على تقريب العرب من بعضهم واستقرار معنى

القومية المشتركة في اذهانهم ، وتوحيد اللغة وتصفيتها ، وبعث او تقوية حركة نشيطة بدت تباشيرها وتطورها التقدمي قبل الاسلام فيما كان من تطور من الوثنية الى الشرك ثم الى اعتبار الشركاء شفعاء عند الله ومن استنكار العرب لما بين الكتابيين من خلاف ونزاع وتنديدهم بهم وتمنيهم او توقعهم بعثه نبي منهم فيهم وحلفهم الايمان بانهم اذا جاءهم نذير ليكونن اهدى من الكتابيين، ومن ظهور طبقة الموحدين الذين اخذوا يشمئزون مما عليه بنوقومهم ويطوفون في الارض ينشدون ملة ابراهيم ويتعبدون عليها او على ما ظنوا انها هي ؛ ومن اقتباس العرب كثيراً مما عند الكتابيين وغيرهم من معارف دينية وغير دينية مما سوف نلم به في فصول أخرى .

الاشهر الحرم

-١٦-

يستدل من الآيات القرآنية وما ورد في صددها من روايات وقائعية وتفسيرية انه كان لهذه الاشهر اثر عظيم في حياة العرب الاجتماعية وخاصة في بيئة النبي(ص) قبل البعثة . فبينما تكون الحروب مستمرة والغارات قائمة ، والناس مندفعين وراء ثاراتهم واحقادهم وعصبياتهم يقف كل هذا حين حلولها تعظيماً واحتراماً ، ويصبح الجميع في هدنة طبيعية شاملة ، ويتلاقى الاعداء واصحاب الثارات في اثنائها في منطقة بيت الله المحرم وخارجها فلا يكون بينهم شر ولا قتال ؛ بل لقد وصل تأثمهم من سفك الدم فيها انهم حرموا الصيد اثناءها ايضاً لما في الصيد من معنى التحرش وسفك الدم وما في ذلك من انتهاك حرمة هذه الاشهر على ماذكرناه قبل . وفى القرآن عدة آيات في صدد هذه الاشهر نورد في مايلي مالم نورده سابقاً :

١ ـ الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحرماتُ قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ... البقرة ١٩٤

٢ ـ فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فأن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

سبيلهم ان الله غفور رحيم ... التوبة ٥

٣ — إنّ عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ... التوبة ٣٦

٤ — وينبغي ان يسلك في هذه السلسلة آيات البقرة ٢١٧ والمائدة ٢ و ٩٤ — ٩٧ والتوبة ٣٧ التي نقلناها في البحث السابق لأنها كذلك متعلقة بالاشهر الحرم.

وفي هذه الآيات شواهد صريحة على ان حرمة الاشهر الحرم كانت قائمة قبل البعثة بزمن طويل لا يعرف العرب المعاصرون اوله ، كما فيها تثبيت وإقرار لهذه الحرمة في الاسلام استمراراً لما كان عليه الأمر قبله ؛ وآية التوبة ٣٦ تشير اولاً الى هذا القدم والاقرار وثانياً تجعل الاشهر الحرم مستقرة التعيين ، وتمهد للآية ٣٧ التي جاءت بعدها في الحملة على بدعة النسيء التي كان من شأنها ان تغير في عين الاشهر وتجعل غير المحرم في اصله محرماً والمحرم في اصله حلاً غير محرم تقديماً وتأخيراً على النحو الذي شرحناه سابقاً ، وينطوي في حملة الآية جعل الحرمة ثابتة مستقره لأعيان الاشهر ومنع التلاعب فيها وبالتالي ينطوي قصد التنوية بخطورة حرمتها كما هو المتبادر . وأية التوبة (٥) تأمر بتأخير قتال المشركين المحاربين والغادرين لعهودهم الى ما بعد انقضاء الاشهر الحرم كما ان آية المائدة ٢ تنهى عن إخلال حرمة الشهر الحرام وفي كل هذا تثبيت لحرمة الاشهر في الاسلام بالاضافة الى ما تلهمه روح الآيات من ان هذا التثبيت إقرار لما كان الامر جارياً قبله . وفي آية المائدة ٩٧ أشارة الى ما في حرمة الشهر الحرام من فوائد عظمى للناس لأن فيها قيام أودهم كما في الكعبة .

ولقد نبهنا في مناسبة سابقة على ما كان من استغلال مشركي قريش لحادثة سرية من سرايا النبي (ص) اشتبه بأنها قاتلت في اول أيام الشهر الحرام ، وما كان من ضجتهم وتأثر المسلمين المخلصين بها حتى نزلت آية البقره ٢١٧ في تبرير ذلك لان المشركين قد اعتدوا على المسلمين وآذوهم وفتنوهم وصدوهم عن المسجد الحرام في ظروف الاشهر الحرم ... وهذه الضجة واثرها شاهد قريب على ما كان لحرمة

الاشهر الحرم في تنفس العرب من حيز عظيم وخطورة مقدسة بالغة .

ونحن في غنى عن الاسهاب في شرح خطورة هذا التقليد في بيئة ليس فيها سلطان نافذ وازع ، والغارات والثارات بين أهلها متواصلة متبادلة ، والعصبية على انواعها قوية شديدة ، والأنفة والحمية متأصلتان ؛ ولهم في ذات الوقت حاجات كثيرة : تجارة لا بد لها من مشترين ومستهلكين ، وزراع لابد لهم من المبادلة على غلاتهم وثمارهم ، وأعراب لابد لهم من استيفاء حاجاتهم السنوية من ماعون وثياب وغير ذلك ومن بيع مايزيد عندهم من أنعام ومواشي ، وشعر ووبر وصوف ، فماذا تكون حالتهم لو لم تكن هذه الهدنة العامة ، ولو لم ييسر لهم بسببها إقامة تلك الاسواق العامة وشهودها وكل هذا عبرت عنه آية المائدة (٩٧) بالايجاز القرآني الباهر . وظاهر من روح الآيات ان العرب كانوا يسبغون على حرمة الاشهر الحرم وهدنتها صفة تقديسية ويصبغونها بصبغة دينية . ولسنا نشك في أنهم كانوا يعتقدون بان الاخلال بحرمتها وقداستها يجلب عليهم الشر والنحس والشؤم تبعاً لما كانوا يستهدفونه في تدينهم على ما سوف نذكره في فصول أخرى ؛ وان هذا الاعتقاد كان الوازع المانع دون الاخلال بهذه الحرمة والقداسة .

— ١٧ —

والاشهر الحرم ليست معينة في القرآن كما رأيت . غير ان التواتر الذي لم ينقطع قد عينها بصورة يقينية ، وهي رجب وذو القعده وذو الحجة والمحرم . والاشهر الثلاثة الأخيرة هي أشهر الحج ، على ما رجحناه في مناسبة سابقة وعلى الأقل قبل الأسلام ، أما شهر رجب فقد روى انه كان يسمى « رجب مضر » [(١)] ، وانه مشتق من الترجيب « اي التعظيم [(٢)] وقد جاء في طبقات ابن سعد [(٣)] ان أهل مكة كانوا يحتفلون بعيد ديني لهم في رجب فلا يبعد ان يكون هذا العيد في شهر رجب عيداً خاصاً بقبائل مضر او قبائل الحجاز او بعضها ، وان يكون هذا

(١) الخازن ج ٢ ص ٢٣٠ في حديث نبوي

(٢) النسفي ج ٢ ص ٢٣٠ هامش الخازن

(٣) ج ٨ ص ٩ طبع ليون

أصل حرمته ليتمكنوا من الأياب والذهاب والقيام بمناسكهم وطقوسهم بمكة في ظل هدنة مقدسة دينية . وهذا لا يعني ان تكون حرمة هذا الشهر بقيت قاصرة على قبائل مضر والحجاز ؛ بل اننا نميل الى القول انها عمت سائر العرب ، وان شهر رجب صار في وقت لا يعرف اوله جزءاً لا يتجزأ من الأشهر الحرم . وفي آية التوبه (٣٦) التي ذكرت الأشهر الحرم بدون تفريق بينها في الحرمة والشمول والتي أشارت الى ان من اشهر السنة الاثنى عشر اربعة حرماً بصيغة مطلقة وتعميمية ، والتي نزلت في ظروف كانت بلاد الحجاز فيها مهوى افئدة العرب ، ومركز محورهم ومحجهم ، ثم في عدم تفريق العرب بين الاشهر الحرم واعتبارهم اياها سواء في الحرمة والتقديس كما يلاحظ في الروايات الواردة تأييد لما نقول .

ولم نطلع في ما اطلعنا عليه على اولية حرمة الاشهر الحرم . والمعقول ان تكون هذه الحرمة قد تقررت لها بعد وجود موسم الحج وتقاليده واسواقه ، وبعد وجود الموسم الديني لمضر او الحجاز بالنسبة لشهر رجب ،وان يكون قد حدث احداث ثارية ، ووقعت وقائع سفكت فيها الدماء بين الناس استجابة لدواعي العصبية في اثناء هذه الموسم ، فاختل الأمن ، وانقطع وفود الحجيج الى مكة وتعطلت مناسك الحج ، ومنافع الناس في موسمه واسواقه ،فحفز هذا ذوى النفوذ والسلطان والنظر والثاقب من الزعماء والرؤساء ففرضوا الأشهر الحرم وهدنتها تمكيناً للناس من القيام بمناسكهم وشعائرهم وقضاء حاجاتهم . ولعل هذا الفرض كان من زعماء مكة وأصحاب السلطان وأن تكون طبقة الاحماس التي كان لها بعض الأمتيازات او الصفات الدينية التشريعية ، والتي كان الناس يسيرون على ما تسن لهم ويعتبرونه سنناً دينية واجبة التنفيذ على ما أشرنا اليه من قبل قد ساعدتهم او شاركتهم في إقراره . ويساعد على تصويب هذا التقرير ما كان لمكة من مركز ديني محترم في نظر سائر العرب ، وما كان من اهتمام عظيم لحرمة الأشهر الحرم عند زعماء مكة ، وما كانوا يقومون به من اعمال في سبيل رعايتها مما احتوت آية البقره (٢١٧) من الأشارة اليه في ما كان من استعظامهم ماوقع من المسلمين واثارتهم الضجة ضدهم وضد النبي (ص) حتى أثرت في كثير من المسلمين بل في

النبي (ص) نفسه (١) الى ان نزلت الآية المذكورة ؛ ثم من تشديد القرآن في النهي والتنبيه على حرمة هذه الأشهر وعدم الأخلال بهـا ، وتنويه بما فيها من منافع حيوية للعرب على ماهو واضح في الآيات التي نقلناها قبل قليل . ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب الحديث ان زعمـاء مكة تعـاقدوا بسبب حادث عدواني على زائر من الزوار على الا يجدوا بمكة مظلوماً من الناس إلا قاموا معه وكانوا على ظالمه حتى ترد عليه مظلمته ، وهو العهد المعروف بحلف الفضول (٢) والذي أثر عن النبي (ص) انه شهده وانه قال أنه اذا دعي الى مثله لأجاب . ولقد ذكرت كذلك حرب الفجار وأيامها (٣) وقد كانت ضد قوم وقع منهم قتل في الشهر الحرام وشهود النبي (ص) لها وهو فتي يهيء النبل لبعض أعمامه ؛ فهذا كله مما يدعم ما كان من حرص زعماء مكة خاصة على رعاية حرمة الأشهر الحرم ، ورجحان كون النسي الأول قد كان منهم .

— ١٨ —

ولقد يكون محل للتساؤل عما اذا كان الزعماء وأصحاب الكلمة او الأحماس الذين سنوا سنة الهدنة المقدسة في الأشهر الحرم قد استهدفوا غاية أبعد من حفظ حرمة المواسم الدينية وتمكين الناس من اشتراكهم فيها بأمن وطمانينة .

وقد خطر لنا رأي في هذا الصدد رأينا عرضه دون ان نجزم بوجاهته ، وهو ان هؤلاء الذين سنوا هذا التقليد العظيم قد استهدفوا غاية أبعد من تلك الغاية وهي تضييق نطـاق القتال والحروب والاحقـاد بين العرب ، وتوثيق عرى الالفة والاتحاد بينهم ، تمهيداً لايجاد تضامن عام في كيان واحد ، والدفاع عنه وحمايته مما يمكن ان يكون بعثت عليه بواعث واحداث خطيرة هزت الناس هزاً ، وجعلت

---

(١) اقرأ ابن هشام ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٤ ، وقد جاء في رواية ص ١٩٤ ان النبي (ص) حينما رجعت سرية عبد الله بن جحش قال لهم ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٢٥

(٣) ابن هشام ج ١ ص ١٧٣ — ١٧٥

رؤساءهم يفكرون في الاستعداد لهـا ، واتخاذ الوسائل لدرء ما ينجم عنها من اخطـار ؛ ولعل غزوات الاحباش لليمن من هذه البواعث والاخطـار او أهمها . ونستطيع ان نجد في اسماء الاشهر العربية سنداً ما لهذا الرأى .

فمن المروى الذي يسند صحته اسماء الاشهر العربية المعروفة أن هذه الاسمـاء ليست هي التي كانت للأشهر في القديم ، وانها انما اطلقت مجدداً عليهـا . واذا لاحظنا احتمال اشتقاق اسم رمضان من « الرمضاء » وهي الرماد الشديدة الحرارة وقد قال هذا كثيرون ، وما في تسمية شهرى « ربيع الأول » و « ربيع الثاني » من الاشارة الموسمية أمكننا ان نقول ان تسمية الأسماء الجديدة للأشهر كان في موسم الصيف ، وان الشهر الذي كان يصادف شهر رمضان كان أشد اشهر الصيف قيظاً فاطلق عليه اسم رمضان فيكون شهر شعبان قبله وشهر شوال بعده من أشهر الصيف مع شهر رمضان ، وأشهر الصيف تمنع حرارتهـا الناس من الحركة او بالاحري من القتال والسعي اليه في قطر شديد الحرارة شحيح الماء ، ثم يأتي ذو القعده وذو الحجة والمحرم ، وهي أشهر الحج وكانت حين التسمية الجديدة موسم الخريف فحرم فيها القتال ، ثم حرم القتال في شهر رجب ، فصارت سلسله مؤلفة من سبعة أشهر ليس الى القتال فيهـا سبيل ، اربعة حرم وثلاثة هي موسم الصيف الشديد ، وفي الاشهر الخمسة التالية للمحرم ينتشر العرب للكلأ والمرعى شتاء وربيعاً فلا ينتهون الا وقد عاد رجب المحرم وهكذا دواليك . واذا كان لابد من قتال وطلب ثارات بسبب طبيعة الحياة البدوية وعصبيات العرب في الاشهر الخمسة كفاية ، وفيها مجال لتنفيس سورة الغضب والعصبية في الناس . على ان في انقطاع الناس عن القتال سبعة اشهر متولية مجالاً لحل ما يمكن حله من المشاكل والعقد ، وخاصة في موسم الحج واسواقه ومجتمعاته ، ولا نفثاء غضب الناس وسكونه .

فاذا صحت لهذا الرأى وجاهته فيكون من حقنا ان نرى في هذه السنّة الجليلة الشأن والاثر دلالة على نهضة قومية وفكرية اخذت تبدو تباشيرها في الجزيرة العربية عقب تلك البواعث والأحداث الخطيرة ، وكرد فعل لها .

وفي بدعة النسيء التي ابتدعت لتقديم وتأخير الاشهر الحرم والتي أشرنا اليها في مناسبة سابقة قرينة شيء من موجهات هذا الرأي او مركزاته . فالاشهر العربيـة القمريـة تدور مع الزمن وتصبح أشهر الشتاء منهـا اشهر صيف واشهر الصيف اشهر شتاء كما لا يخفى ؛ فابتدعت البدعة لمسايرة مواسم السنة والتوفيق بين حساب السنة القمرية والسنة الشمسية حتي يظـل موسم الحج واسواقه في الخريف وتظل سلسلة امتناع القتال في الاشهر السبعة مستقرة ثابتة .

ومع اننا نعرف ان بعض الروايات (١) ذكرت ان النسيء كان يجرى احياناً بطلب من الناس ليتسنى لهم متابعة حروب لهم بدأوهـا قبل او طلب ثارات لهم ، فاننا مازلنا نرجح انه ابتدع في الاصل لمسايرة المواسم السنوية ، وتعديل اشهر الحج تعديلاً يتسق مع امكانيات الانتقال بدون مشقة ؛ واذا كان صار يطلب لاغراض حربية او ثأرية فان ذلك جاء متأخراً ، واساءة لاستعمال البدعة ، ولعل الحملة القرآنية على النسيء انما كانت بسبب سوء الاستعمال هذا فلا يجرأ الناس على انتقاص الحرمات وخرق التقاليد النافعة (٢) .

ومهما يكن من أمر فان خطورة هذا التقليد واثره في حياة العرب الاجتماعية على تعدد وجوهها واضحـا القوة والمدى وفيها الدلالة الـكافية على قوة عقول الذين انشأوه وثاقب نظارهم وسعة تأثيرهم ونفوذهم .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٤٣ — ٤٥

(٢) في ذيل ابن هشام ج ١ ص ٤٣ تعليل مزدوج للنسيء اي انه كان للقتال احياناً ولمسايرة المواسم احياناً.

الفصل الرابع

في

نظام الحكم و الطبقات

تحليلات وقرائن وملهمات قرآنية في صددوجود سلطات حكومية ومداها— ترجيح وجود سلطات حكومية في مكة في صورة مشيخة أشراف — مركز ابي سفيان في هذه المشيخة — ترجيح تشابه الحال في الطائف ويثرب — الحالة في القبائل البدوية — الآيات القرآنية الواردة في صدد القضاء — ما تحتويه من الدلالات بوجه عام — عادات وشؤون بارزة في القضاء مستلهمة من الآيات : كان الاحتكام للقضاة اختيارياً — كان منوطاً باتفاق الطرفين — لم يكن للقاضي سلطة مجبرة — كان عند القضاة نوع من الأنظمه والاقضية المتعارف عليها — كان القضاء إرثياً في الغالب — العصبية الاجتماعية واثرها في التنفيذ القضائي — تطور الحالة في العهد الأسلامي النبوى — قضاة من اليهود للعرب — القضاء عند اليهود والنصارى في بلاد الحجاز — قرائن وتحليلات وملهمات قرآنية بوجود تفاوت طبقي معترف به — بحث في الرق قبل البعثة والآيات القرآنية الملهمة — ما تلهمة الآيات القرآنية من أمور عديدة في احوال الرق والرقيق — ما يستأنس به من الروايات في صدد ذلك إنما ما للصورة — تحرير الرقيق قبل البعثة والملهمات القرآنية في صدده— مايستأنس به من الروايات .

السلطات الحكومية

— ١ —

إن بيئة وعصراً مثـــل البيئة والعصر الذين ندرسهما ، وفيهما المدن والقرى الكثيرة التي كان أهلها على جانب غير يسير من الحضارة ، والأتصال بالعالم المتمدن لا يعقل بطبيعة الحال ان يكونا خاليين من سلطات حكوميه وقضائية بشكل من الأشكال ، تبعث في نفوس الناس الهيبة والشعور بأحترام حقوق بعضهم ، وما

درجوا عليه من عادات وتقـاليد وواجبات متبـادلة ، وتوقيف البغاة والأشرار والمفسدين والشاذين عند حدهم ، وان يكون كل هذا منوطاً بوازع العصبيات الاجتماعية وحده مهما كان قوته واثره .

ونريد في هذا البحث ان ندرس ما في القرآن من الدلالات والقرائن التي تساعد على اقتباس صورة لنظام الحـكم في ذلك العصر والبيئة .

ففي القرآن اولاً آيات تذكر « اولى الأمر » وتوجب طـاعتهم ورد الأمور اليهم كما ترى في ما يلي :

١ — ياايها الذين أمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منـكم ...
النساء ٥٩ .

٢ — واذا جاءهم أمر من الأمن أوالخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم النساء ٨٣

وأولو الأمر هم أصحاب القيادة والرأسة والسلطان على ما قاله بعض المفسرين . والمرجح ان الآيات قدارادت ذلك .

والمسئلة هنا هي ما اذا كان هذا التعبير مما كان مستعملاً قبل البعثة ويراد به أصحاب القيادة والرأسة والسلطات ، وما اذا كان في مكة والطـائف ويثرب مثلاً اصحاب حكم وسلطان ورآسة يطلق عليهم هذا التعبير .

اننا نميل الى النفي او الشك على الأقل في الأجابة وخاصةبالاستلهام من القرآن اذا كنا نريد ان نفهم من هذاالتمبيرذلك النوع من الحكومات التي تفرض وجودها وإرادتها فرضاً ، وتستند في ذلك الى قوة تنفذ ارادتها وتؤيدهـا في وجودهـا وفرض ارادتهـا . فأنه ليس في هذه الآيات وما ورد في القرآن مما يماثلهـا او فى معناها ما يساعد على القول بوجود سلطات حكومية وقضائية منظمة ونافذة . بل ان اسلوبها ليلهم انها كانت بسبيل تنيظم وتوطيد سلطان ذي قوة اجرائيـة نافذة لم يوجد بعد ولم يعتد عليه .

— ٢ —

غير ان هذا لايعني نفي وجود سلطات يرجع اليهـا في مهم الامور والاحداث ،

ويكون في استطاعتها ان تبعث الهيبة الاحترام في الناس ، وان تحملهم على الطاعة والوقوف عند حدودهم بشكل من الاشكال ؛ كما ان في بعض الآيات والتعابير القرآنية وفي بعض روايات السيرة قرائن ووقائع تساعد على ثبوت وجود شيء من هذا .

فقد ورد في سورة مريم مثلاً كلمة « ندي » في الآية التالية :

واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا . ٧٣

وورد في سورة العلق كلمة « نادي » في الآيات التالية :

« كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه : سندع الزبانية . كلا لاتطعه واسجد واقترب ... ١٥ — ١٨

وقد فسر المفسرون كلمة « النادي » بمجلس القوم ودار مشورتهم ، وكذلك كلمة « الندي » . وروح آية مريم توحي بتحدي الكفار للمؤمنين ، ومفاخرتهم لهم بمجالسهم وقوتهم ؛ وروح آية العلق توحي بتحدي القرآن للطاغية في دعوة مجلسه ليفعل مايريد ، وبأنذاره بقوة زبانية الله — أي منفذي اوامره — ثم تأمر النبي (ص) بعدم الاكتراث لتهديده ووعيده . ومما يلفت النظر ورود آية في سورة مريم بعد الآية التي نقلناها فيها انذار للكفار بأنهم سيعلمون من هو اضعف جنداً رداً على تحديهم ومناظرتهم : « فسيعلمون من هو شر مكاناً واضعف جنداً » ، مما يمكن ان يكون قرينة ما على ان الذين كانوا يفاخرون المؤمنين بنديهم هم من أصحاب السلطان في مكة .

وقد ورد في سورة الأنفال في سياق التذكير بما كان من الكفار من تآمر على النبي (ص) هذه الآية :

واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ... ٣٠

وقد فسر المفسرون كلمة « يثبتوك » بمعني ليحبسوك . وروح الكلمة تلهم معنى « النفي » في تعبير « يخرجوك » كما تلهم صحة تفسير المفسرين لكلمة « يثبتوك » ، ومؤدى هذا انه كان في مكة قوة او سلطة ما تستطيع ان تنفي وان تحبس .

وفي القرآن آيات جاء فيها تعبير الاخراج وحده ومع الهجرة كما نرى :

١ ـ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا ... آل عمران ١٩٥

٢ ـ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .. الحج ٤٠

فتعبير « الاخراج » في الآيات وان كان مما يتبادر الى الذهن ان يكون قد قصد به اضطرار المسلمين الى الخروج والهجرة بسبب الاذى والاضطهاد فأن فيه معنى الاخراج بالقوة او النفي ايضاً اما مباشرة واما بسبب ما احيط به ضعفاء المسلمين من مظاهر الاعنات والاذى بتدبير زعماء مكة ورؤسائها وأصحاب الشأن والسلطان فيها .

ونذكر في هذا المقام الموقف الجحودى العنيد للدعوة النبوية في مكة الذي شمل اكثرية سكانها الساحقة ، وقاده الزعماء والرؤساء ، مما استفاضت به الآيات القرآنية المكية بحيث يجعلنا نكتفي بأيراد مثلين من ذلك :

١ ـ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لوهدانا الله لهدينا كم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ... ابراهيم ٢١

٢ ـ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ص ٦

حيث يوحيان انه كان هناك « ملأ » اى أشراف وأصحاب نفوذ يأمرون وجمهور يؤمر ويتبع . فهذا الموقف بهذه الصورة يوحي ان يكون القادة والزعماء أصحاب سلطان وقوة لم يكن بد للجمهور من الائتمار بأمرهم ،واتباعهم في موقفهم وتوجيهم ...

ولقد وردت كلمة «السجن» في عدة أيات في سورة يوسف منها الآية التالية: « ثم بدالهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان ـ ٣٥

فورود لفظ السجن في القرآن دليل على انه كان مفهوم الدلالة ، وقرينة على انه

كان معروفاً ومستعملاً في البيئة التي كان القرآن ينزل فيها ، وعلى انه كان هناك قوة تستطيع ان تستعمله كما هو المتبادر ؛ ومثل هذا يقال في صدد تعبير « حرس » الذي جاء في احدى آيات سورة الجن : «و إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً» حيث يدل هذا التعبير على انه مفهوم الدلالة ، ويلهم بأنه كان هناك سلطة ما تستخدم حرساً ولو كان جاء في صدد حرس الله في السماء.

-٣-

ونشير هنا بالاضافة الى هذه القرائن القرآنية الى المهام التي ذكرتها آية التوبة (١٩) وهي سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لنقول اننا نرجح بأن هذه المهام لم تكن شخصية او عائلية مجردة من ملابسات أخرى ، وأن البيوتات التي كان يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها أرتجالاً وبقوتها الخاصة فقط ، بل أنها كانت مهام ذات صفة او سلطه رسمية ما اضطلعت بها هـذه البيوتات . وعلى هذا فأنه من الممكن ان يقال كذلك ان المهام الاخرى التي ذكرتها الروايات [١] مع هذه المهام وهي « الرفادة » اي قرى الحجاج « والسفارة » بين أهـل مكة وغيرهم حين طروء احداث تقتضى ذلك و « قيادة الجيش » في الحرب و « عقد اللواء » و « أصحاب الراية » لم تكن هي الاخرى شخصية بل كانت مثلها ذات صفة او سلطة رسمية ما اضطلعت بها البيوتات التي كان ممثلوها يقومون بها بهذه الصفة .

ولقد حكت آيات في سورة النمل المحـاورة التي جرت بين ملكة سبأ ورجال حكومتها كما ترى فيها :

« قالت يا أيها الملا افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون .. ٣٢ — ٣٥

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ وأسد الغابة ج ٤ ص ٥٣

والمتبادر ان هذه المحاورة لم تحتو شيئاً غريباً على اسماع السامعين من حيث المفهوم بالاضافه الى القصة نفسها .

ولقد احتوت آيات عديدة تعبيرات لا تكون إلا في ظروف حكومية وسلطات رسمية في الاغلب مثل الجند والملك والعهد والميثاق والسلم كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك . البقرة ٢٥٨

٢ — إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق . النساء ٩٠

٣ — وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . الانفال ٦١

٤ — الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة . « ٥٦

٥ — ... فسيعلمون من هو شرمكاناً واضعف جنداً . مريم ٧٥

٦ — ... اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها . الاحزاب ٩

— ٤ —

فاذا ربطنا هذه الحلقات في سلسلة واحدة ، وأضفنا اليها أن أهل مكة لم يكونوا منقطعين عن العالم المتمدن بل كانوا شديدي الصلة به ، وكانوا يعرفون اشياء كثيرة عنه بما في ذلك ما عنده من حكومات وولاة وشرطة وجند الى غير ذلك من مظاهر الحكومات ووسائلها ، كما انهم اقتبسوا منه كثيراً من وسائل حضارته وترفه جاز لنا ان نقول إنهم لابد من ان يكونوا قد اقتبسوا شيئاً من تلك المظاهر والوسائل ، ووائموه مع بيئتهم ، فكانت لهم بذلك وسائل ومظاهر حكومية تسد الفراغ الذي لا غنى عن سده في بيئة مثل بيئتهم .

وما دمنا نعلم من الروايات المتواترة أن رؤساء ونبهاء البيوت الشريفة هم الذين كانوا يتولون المناصب الدينية والمدنية في مكة فاننا نستطيع ان نقول إنه كان في مكة حكومة شيوخ الاشراف او مشيخة الاشراف ، وإن سلطتها كانت دينية ومدنية معاً ، وإن اصحاب مناصبها الرئيسية كانوا يتولون مناصبهم ارثاً عائلياً حسب طريقة كانت جارية عندهم .

واذا ذكرنا ما كان لأبي سفيان بن حرب في عهد النبي (ص) من مركز ، وكيف كان يقود الجيش ويدير الحروب ويعقد العهود ، وكيف ان العباس بن

عبد المطلب عم النبي (ص) وهو احد زملائه في حكومة الاشراف اتي به الى النبي (ص) بقوة دالّته عليه ، ومكان قرابته منه وهو على ابواب مكة يوم الفتح ليبايعه ، وكيف ان النبي (ص) استقبل هذه البيعة بأرتياح ، وكرّم ابا سفيان بأعلان الأمان لمن يدخل بيته مما ذكرته الروايات العديدة [1] استطعنا ان نقول انه هو الذي كان رئيس هذه الحكومة او العضو النافذ الاول فيها قبيل البعثة .

— ٥ —

ونرجح ان الحالة في المدن الاخرى كالطائف ويثرب كانت على شيء مما كانت عليه الحالة في مكة . ولقد ذكرت الروايات ان الخزرج وهي كبرى قبيلتي يثرب كانوا ينظمون لعبد الله بن أبي لآلىء التاج ليعلنوه ملكا على يثرب قبيل الهجرة النبوية ؛ مما يمكن ان يستأنس به في دعم مارجحناه . كذلك يمكن ان نجد في آيات الزخرف :

« قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياه الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ... ٣١—٣٢

قرينة ما بالنسبة الى الطائف التي هي احدى القريتين على ماذكرناه في مناسبة سابقة ، فضلاً عن ما فيها من قرينة عامة تشمل مكة ويثرب ايضاً ؛ حيث تلهم انه كان في الطائف عظماء ذوو نفوذ كما كان في مكه ، وحيث تحكي قول المشركين انه لو كان حقاً لكان أنزل على رجل من رجالات مكه او الطائف العظام ؛ على اعتبار ان هؤلاء هم الذين يستطيعون ان يسنوا للناس السنن وان يخطوا لهم الطرق وان يأمروهم باتباعها فيجدوا فيهم الاستجابة اليهم نظراً لسلطانهم ونفوذهم . وفي

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ و ٣٤٦ — ٣٨٣ و ج ٣ ص ٦٥ و ٦٩ — ٨٩ — ٢٣٠ و ٢٣٣ و ٢٣٨ . ولعل هذا يدعم بما كان من تطلع بني امية الى الحكم والسلطان واعتبارهم انفسهم الاولى به بعد موت النبي (ص) وخاصة بعد استشهاد عمر بن الخطاب (رض) .

الرد الذي احتوته الآية الثانية قرينة قوية اخرى ، حيث ترد عليهم منددة بما مؤداه انهم اذا كانوا يرون انفسهم أصحاب سلطان ونفوذ ، واذا كان الله قد شاء ان يرتفع الناس بعضهم على بعض فأنما هذا وذاك هو لتدبير امور الدنيا حيث يكون بعض الناس آمرين وبعضهم مسخرين .

- ٦ -

اما البادية فليس في القرآن مايساعد على اقتباس صورة لنظام الحكم فيها ، او على القول بجزم انه كان للسلطات الحكومية في المدن امر نافذ عليها .

والذى نميل الى ترجيحه هو ان شيوخ القبائل البدوية وذوو الكلمة والشأن والرآسة فيها هم الذين كانوا اصحاب السلطة والحكم في قبائلهم ، بالتوارث ابناً عن اب ، وبالاستقرار على الاغلب في بيوت معروفة ؛ وانهم هم الذين كانوا يقودونها في المعارك ، ويمثلونها في الشؤون الخارجة ، ويزعونها في التصرفات الداخلية ، ويعقدون باسمها المواثيق السلمية والحلفية ، ويضعون الناس في اقدارهم ، ويردعون الاشرار عن شرورهم ، ويقررون ماينبغي ان يقرر من خطط وسنن لحفظ كلمة القبيلة ومركزها وكرامتها واحقاق الحق لاصحابه فيها ؛ وتدعم ذلك العصبيات الاجتماعية المتنوعة ، كذلك فاننا نميل الى القول انه لم يكن يخلو الامر من كلمة نافذة ، وسنة ماضية للسلطات الحكومية في المدن في القبائل التي تكون حولها او تكون صلتها اشد واوثق ، حيث لا تستطيع هذه القبائل إلا رعايته لأن في ذلك مصالح متنوعة لها مما يتصل بعوامل الرغبة والرهبة والحاجة وظروف البيئة المشتركة ؛ وقد يصح الجزم خاصة بالنسبة الى السنن التي تسنها المدن للحياة الاجتماعية والدينية ومظاهرها مما يكون قدراً مشتركا بين الحضر والبدو . وقد مر بنا صور متنوعة لما كان نافذ المفعول على الناس جميعهم بدوهم وحضرهم من هذه السنن والمظاهر .

- ٧ -

ان هذا الذي قلناه آنفاً والصورة التي رسمناها انما تتعلق بالسلطات الحكومية بصورة عامة وخاصة بالسلطات العليا منها .

ولقد ورد في القرآن أيات عديدة يمكن ان تساعد على الاستدلال على وجود سلطات او مراجع قضائية لحل مالا بد من وقوعه بين الناس من مشاكل وخلافات .

(١) ففي بعضها ورد ذكر « الحكام » في صدد نهي الناس عن اكل اموال بعضهم بالباطل . والرجوع الى الحكام واغرائهم او الاحتيال عليهم للوصول الى احكام تساعدهم على اكل اموال الناس بالاثم ايضاً : ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون ١٨٨ البقرة .

(٢) وفي بعضها وردت تعابير « التحاكم » و « الحُكم » و « الحكَم » و « حكم الجاهلية » في صدد القضاء بين الناس كما ترى في الآيات التالية :

١ — إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل . . . النساء ٥٨

٢ — ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . . . النساء ٦٠—٦١

٣ — فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما . . . النساء ٦٥

٤ — إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . . . النساء ١٠٥

٥ — وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما . . . النساء ٣٥

٦ — فان جاؤوك فاحكم بينهم او أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوارة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. إنا انزلنا التوارة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما انزل الله فاؤلئك هم الكافرون المائدة ٤٢ — ٤٤

٧ — وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه . . . المائدة ٤٧

٨ — افحكم الجاهلية يبغون (١) ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون. . . المائده ٥٠

٩ — واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل اولئك هم الظالمون . إنما كانقول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . . . النور ٤٨ — ٥١

(٣) وفي بعضها وردت تعابير الشهود والشهادة والا ستشهاد في صدد القضاء بين الناس وحفظ حقوقهم كما ترى فى الآيات التالية :

١ — واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحداها فتذكر إحداهما الأخرى ولايأب الشهداء اذا مادعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً او كبيراً الى أجله ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وأدني ألا ترتابوا إلا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس

---

(١) السؤال التنديدى في حق اليهود

عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ...
البقرة ٢٨٢

٢ — ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فأنه آثم قلبه ... البقرة ٢٨٣

٣ — يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين إن يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ... النساء ١٣٥

٤ — ياايها الذين امنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم او آخران من غيركم ان انتم ضربتم في الارض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا اذا لمن الآثمين . فأن عثر على انهما استحق اثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الاوليان فيقسمان بالله لشهادتنا احق من شهادتهما وما اعتدينا إنا اذا لمن الظالمين . ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها او أيخافوا ان ترد أيمان بعد ايمانهم واتقوا الله واسمعوا ... المائدة ١٠٦—١٠٨

٥ — فاذا بلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله ... الطلاق ٢

— ٨ —

فهذه المجموعة من الآيات تحتوي كما رأيت تعابير وطرائق ووسائل قضائية متنوعة ؛ واذا كان فى بعضها ما يدل على انه تشريع قرآني للنبي (ص) والمسلمين او توطيد قرآني لنفوذ حكم النبى (ص) وقضائه وايجاب التحاكم اليه فان لهجتها التقريرية من جهة ومضامين اكثرها وصيغتها من جهة اخري تدل على سابق إلفتها واستعمالها في مدلولات قضائية مفهومة من قبل السامعين ، مما يجعلنا نقول انه كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة قضاة وحكام يتحاكم الناس عندهم في مشاكلهم الاقتصادية وغير الاقتصادية كالارث والانكحة والديون والدماء وحقوق الملك والنزاعات التجارية والمالية الاخرى بما درج عليه العرف والتقاليد ، وانه كان للقضاة والحكام او للقضاء طرائق يسار عليها ، واصولاً يرجع اليها في استماع

الشهادات وتقديم البينات ، والادلاء بالحجج ، وأن هذا لم يكن خاصاً بالحضر بل كان يشمل البدو والحضر ، ونعنى انه كان قضاة وحكام في البدو كما كان في الحضر ايضاً ، دون ان يكون هذا مانعـاً من القول بترجيح ارتقـاء القضاء وطرائقه في الحضر بالنسبة للبدو ، لتفوق الحضر على البدو في الحضارة ومظاهرهـــا ، وما يستتبع هذا من تنوع في المشاكل ، وتفنن عند الحضر لايكون عادة في البدو والبادية .

— ٩ —

ومن الآيات التي استعرضناها يمكن ان يستدل على أمور بارزة في نظام القضاء في ذلك العصر والبيئة .

منها أن الاحتكام الى القضاة والحكام كان اختيارياً مهما كان نوع القضية . نعني ان صاحب الحق اذا احب ان يرجع الى القضاة والحكام رجع ، والافليس هناك شيء يقــال له حق عام تتولى ملاحقته سلطة قضائية عامة وملزمة ؛ وهــذا يستأنس عليــه بآيات النساء (٦٠ — ٦١) والمائدة (٤١) والنور (٤٨) ، والمتبادر أن الذين لايأتون الى القضاة يكونون من الأقوياء الذين يعتمدون في اخذ حقوقهم والانتصاف لانفسهم على قوتهم الشخصية والعصبية ، ومن المعقول أن يكون هذا في الدرجة الاولى في البادية وإن لم يكن قرينة قرآنية على ذلك .

ومنها أن الاحتكام الى القضاة والحكام كان منوطاً بأتفاق الطرفين المتخاصمين فاذا راجع أحد الطرفين قاضياً فليس لهذا القاضي قوة تجبر الطرف الثاني على المثول لديه ، فأذا احب هذا ان يجيب الدعوة كان به والا فلا إجبار قضائي عليه . ويستأنس على هذا بآيات النساء (٦٠ ـ ٦١) و (٦٥) وآيات النور (٤٨-٥١) .

كذلك فأنه لم يكن للقاضي سلطة اجبارية على الشهود تضطرهم الى الحضور بين يديه وأداء شهاداتهم ، حيث كان هــذا منوطاً بالشهود انفسهم ان شاؤوا حضروا وشهدوا والا فلا ؛ وبعض ما جاء في آية البقرة (٢٨٢) يلهم ان بعض الشهود كان ينــالهم أذى من جراء شهادتهم ، وقد يكون هذامما كان يحملهم على الامتناع .

ومنها ان الخصوم هم الذين كانوا يختارون القاضي الذي يتحاكمون لديه بعد ان

يكونوا قد اتفقوا مبدئياً على القاضي . ويستأنس على هذا بآيات النساء (٦١—٦٥) والمائدة (٤٢ — ٤٤) .

ومنها — انه ليس من شأن القاضي ولا من سلطته ان يجبر المحكوم عليه بانفاذ الحكم واعطاء الحق المحكوم به لصاحبه . ويستأنس على هـذا بآيات النساء (٦٥) والنور (٤٨ — ٥١) ؛ فالقاضي يصدر حكمه بعد أستماع الدعوى والبينات وتقف مهمته عند هذا الحد . فاذا اذعن المحكوم عليه من نفسه للحق او اذا كان لخصمه قوة عصبية لا يرى لنفسه مناصاً من الاذعان رهبة منها كان به ، وإلا فالامر يتوقف حينئذ على المحكوم له ، وما يستطيع ان يفعل في هذا الموقف .

ومنها — انه كان نوع انظمة او اقضية معروفة يحكم بها القضاة في الاحداث المتماثلة . ويستأنس على هـذا بآية المائدة (٥٠) التي يفهم منها ومن السلسلة السابقة لها (٤١ — ٤٩) ان اليهود راجعوا النبي (ص) في قضية على أمل ان يحكم فيها وفق الاقضية العربية السابقة المعروفة فلم يحقق املهم، لأنه أراد ان يحكم او حكم فيها وفقاً للشريعة التوراتية او لأمر الله بأن لا يحكم الا بما أنزله الله عليه من الكتاب وان لا يتبع اهواءهم ويسايرهم في ما يريدون .

وتعقيباً على هذا كله نستطيع ان نقول :

اولاً ان القضاة والحكام كانوا في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة قضاة وحكاماً بالعرف والتقليد ، وبما يكونون قد اكتسبوه من التجارب والوقائع من خبرة ومران وسمعة وأسم ، وليسوا قضاة رسميين تختارهم السلطات الرسمية التي كانت تقوم في ذلك المجتمع وتمدهم بنفوذها . وهذا ما نرى مثله اليوم في المجتمعات والحياة البدوية. ولا نستبعد ان يكون القضاء إرثياً ينتقل من الأب الى الأبن ، وتشتهر به البيوتات ، فيتخرج الابناء على آبائهم في ما يشهدون لديهم من الوقائع والأقضية .

ثانياً ان مركز القضاة السلبي في ما يتعلق بالأجبار كان ولا ريب يسد فراغه ما كان من تقاليد العصبية الأجتماعية على انواعها من عائلية ، وقبلية ، وحلفية وولائية وجوارية وهذا مما يظهر اثر هذه العصبية العظيم وضرورتها اللازمة في المجتمع العربي .

- ١٠ -

ولقد ظلت هذه الانظمة او الحدود القضائية على حالها الى ما بعد بعثة النبي (ص) بل الى ما بعد الهجرة النبوية بمدة غير قصيرة ، ثم اخذ الأمر يتطور بتطور السلطان الاسلامي وتوطده في شخص النبي (ص) كما هو واضح في الآيات الى ان حل الاجبار محل الاختيار في التقاضي لدى النبي (ص) وفي الاستجابة الى دعوته اذا دعا وفي تنفيذ حكمه اذا حكم ، وصار هنالك معنى لحق عام يلاحقه النبي (ص) الذي كان يمثل السلطان والقضاء الاسلامي في حق الذين يقترفون الجرائم ويعيثون في الارض فساداً .

هذا ، وآيات النساء ٦٠ — ٦١ تلهم أنه كان من اليهود قضاة اعتاد العرب التحاكم لديهم ، حيث قال جمهور المفسرين ان « الطاغوت » في الآيات (٦٠) عنت قاضياً يهودياً هو كعب بن الاشرف . والأرجح ان عرب المدينة ومنطقتها هم الذين كانوا يفعلون ذلك لانه لم يكن في مكة والطائف جالية يهودية ذات شأن على ما سلف القول ، كذلك فان آيات المائدة ٤١ — ٤٤ تلهم ان أحبار اليهود وربانييهم هم الذين كانوا يتولون القضاء بين أصحاب المشاكل من اليهود انفسهم ؛ على أساس الشريعة التوراتية . والآيات تلهم ان الاسلام قد اقرهم على هذا اذا شاؤا أن لا يتقاضوا الى المسلمين على شرط ان تكون احكامهم مستمدة من التوراة . ولعل هذا الحال كان بالنسبة الى النصارى الموجودين في مكة او غيرها من الحجاز ولعل آية المائدة (٤٧) مما يلهم ذلك ايضاً .

التفاوت الطبقي

- ١١ -

ان ما تقدم في هذا الفصل من ابحاث واستدلالات ، سواء بما يتعلق منها بوجود طبقة الاحماس التي كانت من بيوت معينة يتوارث مركزها وحقوقها الابناء عن الآباء ، وما كانت تفرضه للناس من سنن وتقاليد ، وتراه لنفسها من امتياز يخولها الترفع عن الناس ؛ او بما يتعلق بالبيوتات الشريفة التي كان يمثلوها

يتوارثون النفوذ والمناصب الرئيسية العليا الدينية والمدنية في مكة وأندادهم في الطائف وغيرها ، او التي كان لمثليها البارزين التقدم على الناس في الافاضة والاجازة وإنساء الاشهر الحرم حقاً ارثياً ؛ او بما يتعلق بطبقة القضاة والحكام الذين رجحنا انهم كانوا يتوارثون القضاء ، او بما يتعلق بزعماء القبائل واصحاب الشأن والسلطات عليها الذين كانت زعامتهم في الاغلب إرثية هي الاخرى يحدونا الى التساؤل عما اذا كان يصح ان يقال انه كان في بيئة النبي (ص) قبل البعثة نظام طبقات ما ؟ نتساءل عن هذا ونتحفظ في كلمة « نظام » ونقول إننا لا نقصد منها نظاماً لتقسيم الطبقات كما كانت الحالة في الهند مثلاً ، وانما نقصد ما اذا كان هناك شيء معترف به ومؤثر تقليدياً من تفاوت الطبقات وتمايز بعضها عن بعض ، ووجود طبقات عليا وطبقات سفلى ، وطبقات مسخِّرة وطبقات مسخَّرة ، وطبقات اشراف وطبقات سوقة وعوام ...

ونميل الى الايجاب في الجواب، فالآيات التي استعرضناها ، والدلالات والقرائن التي رأيناها فيها ، وما دعمها من روايات السيرة ووقائعها تساعد على هذا الجواب الايجابي . وخاصة آيات الزخرف ٣١ — ٣٢ التي حكت استنكار طبقة العظماء لنزول القرآن على النبي (ص) دونها .

على انه يوجد آيات اخرى يمكن ان تسند هذا الجواب وتؤيده كما ترى في ما يلي :

١ — اذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب ... البقرة ١٦٦

٢ — وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ... الاحزاب ٦٧

٣ — وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً ... سبأ ٣٣

٤ — فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ... غافر ٤٧

٥ — يا ايها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم

ولا نساء من نساء عسى ان يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون... الحجرات ١١

٦ ـ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ... الحجرات ١٣

- ١٢ -

فنحن لا نعتقد أن القول بأن التفاوت بين طبقات المجتمع البشرى مظهر عام في كل زمن ومكان يكفي لتعليل التفاوت الذي تلهم وجوده هذه الآيات في عصر النبي (ص) وبيئته ويبرر جعله من نوع التفاوت العادي العام . وفي هذه الآيات ثم ما في توارث الزعامات والمناصب والرآسات والامتيازات الدينية مما اشرنا اليه قبل ملهمات قوية مؤيدة لما قلناه من وجود تفاوت طبقي في ذلك العصر والبيئة مستقر ومعترف به .

وآية الحجرات (١٣) بمثابة صرخة داوية تعلن للناس أنهم سواء في اصل الخلقة وفي حق الحياة وفي الاستمتاع بالحرية فيها ، وأن اكرم الناس عند الله هم المتقون الذين يوفون بواجباتهم الدينية والدنيوية مستشعرين بعظمة الله وليسوا هم العظماء والكبراء وابناء البيوتات الشريفة بسبب التقليد الطبقي الذي درجوا عليه ؛ وهذه الصرخة من اقوى القرائن في ما يتبادر لنا على وجود ذلك التفاوت الطبقي حيث استهدفت هدمه ، والتسوية بين الناس في الحقوق والواجبات ، وطبيعي أنه لا يقال إنها استهدفت نسف التفاوت العام الذي كان ولم يزل سنة من سنن الاجتماع البشري والذي يتمثل في فقر فريق وغنى فريق آخر وقوة فريق وضعف فريق اخر وكثرة فريق وقلة فريق اخر الخ ...

الرق عند العرب قبل البعثة

- ١٣ -

والرق مظهر من مظاهر التفاوت الطبقي كما لا يخفى ، ولقد كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة من التقاليد الراسخة ، وكان فاشياً بمقياس واسع . وقد

رأينا إفراد بحث خاص عنه في هذا الفصل بسبب ذلك وعقب البحث السابق للتناسب القائم بينهما ، مع التنبيه اننا لا نعني بطبيعة الحال ان الرق كان حالة خاصة بالبيئة العربية ، حيث كان نظاماً عاماً شاملاً مختلف البلاد والبيئات ومنذ العصور القديمة.

ولقد ورد في القرآن آيات كثيرة متنوعة الاهداف والاساليب حول الرق والرقيق يمكن الاستدلال بها على اشياء كثيرة مما كان عند العرب عنها ، واليك هي:

١ — يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ... البقرة ١٧٨

٢ — ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مومنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ... البقرة ٢٢١

٣ — فان خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ... النساء ٣

٤ — من هذا الباب آيات النساء ٢٤ و ٢٥ التي نقلناها في ما سبق .

٥ — واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجَنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ... النساء ٣٦

٦ — وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراودفتاها عن نفسه ... يوسف ٣٠

٧ — ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون ... النحل ٧٥

٨ — وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ، وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيَهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصناً ... النور ٣٢ — ٣٣

٩ — ويسلك في هذه السلسلة آيات النور ٣١ و ٥٨ التي نقلناها سابقاً .

١٠ — ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ... الروم ٢٨

١١ — ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ... الزمر ٢٩

١٢ — ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ... الطور ٢٤

١٣ — يطوف عليهم ولدان مخلدون ... الواقعة ١٧

١٤ — والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ... المعارج ٢٩ — ٣٠

— ١٤ —

ويستطاع ان يستلهم من هذه المجموعة بسبب ما احتوته من مصطلحات عربية لا بد ان تكون معروفة عند العرب قبل نزولها الامور التالية :

١ — إن الرق كان فاشياً في الاوساط العربية .

٢ — إن الرجال والنساء على السواء كانوا يملكون الرقيق .

٣ — إن من العرب من كان يملك عدداً كبيراً من الرقيق ،

٤ — إن الرق كان يتناول الذكور والاناث .

٥ — إنه كان يطلق على الرقيق تعبيرات « العبد » للمفرد و « العباد » للجمع من الذكور و « الأمة » للمفرد و « الأماء » للجمع من الاناث . كما كان يطلق عليه تعبيرات « المملوك » و « الغلمان » و « الولدان » و « الفتى » و « الفتاة » . . . وتبعاً لاستعمال تعبير الغلمان والولدان فانه كان يستعمل ايضاً تعبير « غلام » و « ولد »

٦ — إن تعبير « الفتى » و « الفتاة » كان يطلق من باب التلطف والتحبب ، وان تعبير « الغلمان » و « الولدان » كان يطلق على الارقاء الذكور الذين لم يصلوا بعد الى سن كبيرة والذين يقومون بخدمة مالكيهم الخاصة .

٧ — إن تعبير « العبد » للذكر « والأمة » للأنثى هو الذي كان فاشياً على الأغلب . وقد كان يستعمل نقيض تعبير « الحر » و « الحرة » تماماً .

٨ — إن لفظ العبد مشتق من العبادة التي هي الخضوع . ولذلك نرى هذا

التعبير قد استعمل في آيات كثيرة مفرداً وجمعاً في صدد نسبة الناس الى الله ولاسيما الانبياء والصالحين والملائكة ، مع التنبيه ان هذا ورد احياناً ليؤدي معنى التلطف والأعزاز باعتبار أن الخضوع لله هو الخضوع الحق الذي ليس فيه تلك الغضاضة والهوان اللذين يكونان في عبودية الانسان للانسان .

٩ ـ إنه كان يملك العبد او الأمة اكثر من مالك واحد شراكةً .

١٠ — ليس من شأن العبد او الأمة ان يكون له ملك أو ثروة خاصة .

١١ — ان الرقيق كان أحياناً عرضة للاساءة والقسوة من مالكه بدليل التوصية باحسان معاملته .

١٢ — إن مالكي الرقيق كانوا يسخرون عبيدهم وإماءهم في اعمالهم وخدماتهم المتنوعة .

١٣ — كان من الممكن ان يشتري الرقيق نفسه من مالكه اذا وافق المالك على ذلك ، وكان من طرائق هذا الشراء « المكاتبة » وهي تعهد العبد بايراد مبلغ معين الى سيده ضمن مدة معينة ثمناً لنفسه ، على ان يسمح له بالتكسب للحصول على هذا المبلغ ، وهذا مستلهم من صيغة آية النور ٣٢ حيث تلهم انها تشجع على حالة مألوفة .

١٤ — كان مالكو الأماء لا يتساهلون في تزويج إماءهن وكان هذا مما يدفع الأماء الى الارتكاس في البغاء .

١٥ — إن مالك الأماء كان ينكح من إمائه ما يريد بدون تقيد بعدد وبدون عقد نكاح باعتبارهن ملك يمينه يتصرف فيهن كما يشاء . ولا يسمى هذا زواجاً .

١٦ — لم يكن العبد ولا الأمة يستطيعان التزوج إلا باذن سيدهما .

١٧ — كان من الجائز أن يتزوج الحر بأمة اذا أذن سيدها .

١٨ — لم يكن الزواج من الأماء شيئاً مرغوباً فيه من قبل الأحرار . وإنما يتزوجهن العبيد على الأغلب واذا تزوجهن حر فيكون بسبب الفقر وعدم استطاعته التزوج بالحرة .

١٩ — لم يكن من السائغ ان يقتص من حر بعبد . فاذا قتل حر عبداً لا يقتل به . ويقتل العبد بالحر طبعاً .

٢٠ — كان الأماء أكثر تعرضاً للبغاء وارتكاساً فيه .

-١٥-

ولا كمال الصورة نلحق بالملمات القرآنية المذكورة بعض ما كان من عادات استناداً الى الروايات المتواترة :

١ — كان الرقيق بمثابة الاموال المقومة والمنقولة . يباع ويشترى ويورث ويؤجر .

٢ — ابناء الأماء من سيدهن احرار ؛ غيرانهم ينبزون بنبز « الهجين » لمكان امهاتهم من العبودية .

٣ — ان ابناء الاماء من أزواجهن الأحرار عبيد لسيدهن . وكذلك ابناء الاماء من ازواجهن العبيد .

٤ — اذا ولد لأمة من مالكها ولد تسمى أم ولد ولا يصح عليها بيع ولاشراء ولا هبة . وتصبح حرة بموت سيدها .

وواضح مما اوردناه انه كان للرقيق شأن عظيم ، وكان يشغل حيزاً واسعاً في ذلك العصر والبيئة ، وانه كان عليه معول اقتصادي ومعاشي كبير . فمن المعقول والحالة هذه أن يكون الناس وخاصة الزعماء والرؤساء والأغنياء قد استكثروا منه ، واعتبروه جزءاً مهماً من وسائل حياتهم الاقتصادية والمعاشية .

ومصدر الرقيق الأول السبي في الحروب كما هو معلوم . فالقبيلة التي كانت تغلب القبيلة العدوة تستطيع ان تسبي نساءها واطفالهابل ورجالها وان تسترقهم وان تتصرف بالسبي تصرف السيد بالعبد . وكراهة الأناث في العرب آتية من خوف عار السبي او ان هذا الخوف من أسبابها .

ومن الروايات المتواترة يفهم أن كثيراً من الرقيق عندالعرب كانوا سودالبشرة ، ويدل هذا على انه كان يجاب جلباً ايضاً من بلاد السودان ؛ او ان جيلاً بشرياً أسود كان هاجر او جلب في الازمنة السابقة فنما وتكاثر وظل طابع العبودية ثابتاً عليه .

كذلك فان الروايات قد تواترات على ان من هذا الرقيق من كان حبشياً

او رومياً او قبطياً او كلدانياً مما يدل على ان تجار الحجاز كانوا يشترون من اسواق البلاد التي يصلون اليهـا في رحلاتهم التجارية افراداً من الرقيق لينتفعوا بهم شتى الانتفاعات. ونرجح ان من هؤلاء من كان صاحب مهنة او حذق في الخدمة ، ومنهم من كان يكتب ويقرأ ايضاً .

— ١٦ —

هذا ، وفي القرآن آيات عديدة تشير الى فك الرقاب — أي تحرير العبيد — والحث عليه ، والتقرب الى الله بذلك ، واتخاذه كفارة عن بعض الذنوب كما ترى في الامثلة التالية .

١ — ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتـاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ... البقرة ١٧٧

٢ — ومن قتـل مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهـله ... النساء ٩٢

٣ — ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ... المائدة ٨٩

٤ — إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعـاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ... التوبة ٦٠

٥ — والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبة من قبل أن يتماسا ... المجادلة ٣

٥ — فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فكّ رقبة ... البلد ١١ — ١٣

فهذه الآيات وإن كانت تتضمن تشريعاً للمسلمين وهدفاً من اهداف الدعوة الاسلامية في الرفق بالرقيق وعتقه فاننا لانتجوز اذا استأنسنا بها لنقول إن تحرير الرقيق لم يكن شيئاً غير معروف قبـــل البعثة ؛ بل ان آيات البلد خاصة جاءت بصيغـة تلهم بقوة أن فك الرقاب من المكرمات المطلوبة ، عدا ان ايات البقرة (١٧٧) والتوبة (٦٠) تلهم ان هذا مما كان مألوفا . على ان الروايات العربية

المتواترة تفيد أن هذا كان واقعياً ، وأنه كان يعد من المكرمات التي يتسابق اليها أولو الأريحية والمروءات ؛ وان الناس كان ينذرون فعله شكراً لله اولآلهتهم[1] . وقد باشر النبي (ص) هذه المكرمة بنفسه قبل البعثة ، إذ استوهب زيداً بن حارثة (رض) مملوك السيد خديجة (رض) وأعتقه وتبناه[2] . كذلك فأن ابابكر (رض) قد اشترى بعض ارقاء المسلمين من مالكيهم الذين كانوا يعذبونهم واعتقهم وكان ذلك في اوائل الدعوة الاسلامية[3] . وقد كان العتيق يحتفظ بولائه لمعتقه ، وإذا مات بدون وارث ورثه ، واذا مات وله ورثة كان له نصيب من إرثه . وقد انتقل هذا التقليد الى الأسلام وهو ما يعرف في الفقه الأسلامي بولاء العتاقة او مولى العتاقة[4] .



(١) اسد الغابة ج ٢ ص ١٦٨

(٢) اسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٨٨ — ٢٩٠

(٤) تفسير الخازن وغيره

الباب الثالث

في

الحياة العقلية

تمهيد

يتناول هذا الباب ما يمكن ان يكون فيه دلالة ومقياس على قوى العرب العقلية في بيئة النبي (ص) وعصره كاللغة وفنونها وكالقراءة والكتابة وانتشارهما ، وكالعلوم والمعارف ومدى ما كان للعرب من مشاركة فيها ، وما كان عند العرب من سحر وكهانة وما يمكن أن تدلا عليه من اطوار العقل العربي ، وما كان من مدى إلمام العرب باللغات الاجنبية ، وكموقف المشاقّة والمعارضة التي وقفها المشركون من الرسالة في مكة ويثرب ومدى ماتدل عليه من قوى عقلية .

ويتألف الباب من ثلاثة فصول :

الاول : اللغة القرآنية مقياس لقوى العرب العقلية .

الثاني : العلوم والمعارف ووسائلهما .

الثالث : مواقف المشاقة ودلالتها على قوى العرب العقلية .

الفصل الأول

اللغة القرآنية مقياس لقوى العرب العقلية

اللغة مقياس صحيح لقوى الأمة العقلية — اللغة القرآنية وتمثيلها للغة بيئة النبي (ص) وعصره — تحليلات وتعليقات واستدلالات قرآنية في صدد صحة ذلك — سمو طبقة القرآن ودلالتها — بحوث وتعليقات اضافية في صدد ذلك — فنون اللغة — الشعر ومدى مفهومه — مدى نسبة الشعر الى النبي (ص) ونفيها — خطورة الشعر والشعراء — السجع والسجع القرآني — تعليقات وتنبيهات في صدد السجع وخطورته — الترسل والترسل القرآني — تنبيهات على البراعة الاسلوبية في استعمال السجع والمرسل — الأمثال والأمثال القرآنية — القصة والقصص القرآني — النحو والصرف والاشتقاق ودلالة نضوجها التام — فنون الكلام القرآني الاخرى ودلالاتها — اللغة الأدبية واللغة التخاطبية وميزتها العجيبة التي تحدان فيها .

— ١ —

مما لامراء فيه أن لغة أمة ما في احد عصورها هي من مقاييس قواها العقلية في ذلك العصر ؛ لأن اللغة وسيلة للتعبير عما يكون في ذهن الانسان من افكار ومعان ، وما يشعر به من حاجات مختلفة ؛ فاذا كانت أمة ما في احد عصورها ضعيفة المادة والأداء ، ضيقة المجال كان ذلك برهاناً على ضيق افق تلك الأمة في ذلك العصر وضعف معارفها وتجاربها وقواها العقلية ، وعلى العكس من ذلك اذا كانت غزيرة المادة دقيقة الاداء ، تتسع لشتى الافكار والمعاني ، غنية في المفردات فأن ذلك يكون دليلاً على نشاط الذهن وسعة الأفق ، وقوة الافكار والتجارب والحيوية العقلية ، فنحن على صواب اذا اتخذنا اللغة مقياساً من مقاييس القوى

العقلية للعرب ، او مظهراً من مظاهر حياتهم العقلية في عصر النبي (ص) وبيئته.

وليس في يدنا صورة للغة ذلك العصر والبيئة اصدق ولا أوثق ولا أغزر مادة من لغة القرآن . فهو من جهة فوق كل مظنة او شبهة في أنه وصل الينا كما بلغه النبي (ص) ، وهو من جهة ثانية الكلام الوحيد الذي وصل الينا مدوناً وسليماً من كل شائبة وشك من ذلك العصر ؛ في حين اننا لانستطيع ان نقول هذا القول بهذه القوة والجزم عن اي كلام مما روي من كلام ذلك العصر والبيئة ؛لانه لم يدون الا بعد مدة طويلة ، وقد ظل طول هذه المدة تتناقله الالسن ، وعرضة للتبديل والتحريف والزيادة والنقص بل والتلفيق والصنع،والأهواء والأغراض.

وكون لغة القرآن تمثل لغة عصر النبي (ص) وبيئته بنوع خاص مما لايحتمل شكا ولا كلاماً في ما نعتقد ، وقد أكدنا هذا في فصل سابق ، واستعرضنا في سياقه الآيات القرانية العديدة التي فيها الدلالة والدعامة الصريحتان القويتان ، وانتهينا استناداً الى النصوص القرآنية الى تقرير كون لغة القرآن هي من حيث المفردات والمصطلحات والتراكيب والاستعارات والتشابيه هي ما كان مألوفاً ومفهوماً ومستعملاً من حيث الاجمال — وبقطع النظر عن الكثرة والقلة والسعة والضيق — في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة بنوع خاص وسائر العرب بوجه عام .

— ٢ —

وقد أعدنا استعمال جملة « من حيث الاجمال » هنا كما استعملناها هناك لنقول بالاضافة الى ما قلناه هناك انه في كل بيئة — حتى في ارقاها التي يكون التعليم فيها قد يُسرت وسائله تسييراً واسعاً — لابد من ان يوجد تفاوت بين افرادها في قوة الفهم والتعبير باللغة ، وحسن الأداء والتاقي ، ودقة الاستعمال ، وعمق النفوذ ، وحسن السبك والاسلوب ، وغزارة المادة ، وان هذا التفاوت هو مظهر من مظاهر التفاوت الطبيعي في قوة العقل وحدة الذكاء ، وسعة الاطلاع والتجارب وغزارة العلم والمعرفة ،وأننا لنجد من أجل هذا في الأمة الواحدة او في مجتمعاتها من لا يكون في واعيته اكثر من الفي كلمة يستعملها في حاجاته والتعبير عن ما في

نفسه ، بينا نجد من يكون لديه عشرة آلاف كلمة او اكثر يستعملها كذلك في حاجاته والتعبير عما في نفسه ؛ ومع ذلك تكون اللغة بمجموعها من مفردات وتراكيب ومصطلحات مهما تفاوت الافراد في ما بينهم من النصيب فيها هي لغة مجموع الأمة من حيث الاجمال . ومن الطبيعي ان ينطبق هذا على الأمة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته ايضاً. واذا كان من المسلم به ان طبقة لغة القرآن السامية لايمكن أن تمثل من حيث الاستعمال والأسلوب وسعة التناول والأداء اكثرية الأمة العربية في ذلك العصر ، وان من المعقول انها من هذه الناحية لاتمثل إلا اقليتها او فئة محدودة منها فان من الحق ان يقال إنها من حيث فهمها ومداها تمثل اكثرية الامة ، وان قول بعض المؤلفين انها كانت فوق مستوى عقول الناس ومتناولهم ومدركاتهم وخاصة من حيث الفهم لايتفق مع الوقائع من جهة ولا مع طبيعة مهمة الرسول (ص) وهي الاتصال بجميع الناس ومختلف فئاتهم ودرجاتهم ومخاطبتهم بلغة القرآن التي كانت حتماً هي لغة النبي (ص) وتلاوة القرآن عليهم من جهة اخرى ، وهي الطبيعة التي يمكن استشفافها من آيات قرآنية كثيرة نورد منها الأمثلة التالية :

١ — ... كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... هود ١

٢ — ... وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون ... النحل ٤٤

٣ — ... وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ... الاسراء ١٠٦

٤ — الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً... الكهف ١-٢

وفي القرآن آيات كثيرة جداً حكت اقوال المشركين في القرآن ولجاجهم تدل دلالة صريحة على انهم فهموه كل الفهم وجادلوا فيه ، واقوالهم المحكية مندمجة في الأسلوب القرآني اندماجاً تاماً ؛ حتى على فرض ان يكون القرآن قد حكى مآل اقوالهم بأسلوبه فان هذا لاينقض دعوى كون اقوالهم في مفرداتها واساليبها

مماثلة لمفردات وأساليب القرآن ،ومثل هذا يقال بالنسبة لآيات كثيرة حكت اقوال ومواقف المسلمين والكتابيين من القرآن مما لايكاد يحصى كثرة ويكاد يكون في كل سورة من السور الطويلة والمتوسطة،وما سبق في الفصول السابقة امثلة كثيرة له ، وما يجعلنا نكتفي بما نورده هنا من امثلة قليلة اخرى :

١ — واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون...الأعراف٢٠٤

٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلا أساطير الأولين ... الأنفال ٣١

٣ — واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه أيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ... التوبة ١٢٤

٤ — وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون ... النحل ٤٤

٥ — وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون ... النحل ٦٤

٦ — وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ...الاسراء١٠٦

٧ — طاها . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . . طاها ١—٣

٨ — وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزورا . وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ... الفرقان ٤—٥

٩ — وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ... الفرقان ٣٢

١٠ — وان أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ... النمل ٩٢

١١ — وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم تغلبون... فصلت ٢٦

١٢ — ... وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ... الاحقاف ١٢

ولقد كان اتصال النبي (ص) بطبيعة الحال بجميع الطبقات من حضر وبدو مكيين وغير مكيين وحجازيين وغير حجازيين ، وأميين وكتابيين ، بل وعرب اقحاح واجانب لا يعرفون العربية الا لماماً او بالتعلم ، وكان اول ما يخاطبهم به ويتلوه عليهم هو آيات القرآن ، ولا يكون هذا ممكناً لو لم تكن لغة القرآن مفهومة من هذه الفئات والطبقات المتفاوتة والمتنوعة .

وليس فيما نرى في وجود طبقة من اهل بيئة النبي (ص) وعصره تفهم لغة القرآن فهما عميقاً وتستعملها — ولو كانت قاصرة على النيرين في المدن — مع فهم اكثر الطبقات والفئات الاخرى لها فهما اجمالياً وهو ما يتبادر الى الذهن في هذا الموضوع ، تناقض او ثغرة يورد علينا منها ان طبقة لغة القرآن لا تمثل بيئة النبي (ص) وعصره ذلك التمثيل العقلي الذي نريد ان نقرره . فأن هذا هو الشأن العام في كل أمة وفي اى عصر من عصورها . واللغة المدونة لأمة او عصر هي التي تصل عادة الى العصور التالية وتكون الوسيلة لقياس قواها العقلية من هذه الناحية دون ما اعتراض او تناقض . وهذا المعنى يكون اقوى بالنسبة لعصر النبي (ص) وبيئته الذين لم يكن التعليم فيهما كافيين لايجاد طبقة خاصة من النبهاء والنيرين بوسائل ثقافية منظمة واصطناعية ؛ حيث تكون دعوى سعة نطاق طبقة المتكلمين والفاهمين لما يصل الى الاجيال التالية من لغتها المدونة اصح حجة واشد سنداً .

— ٣ —

هذا ؛ ولقد كتب العلماء والفضلاء والادباء واللغويون قديماً وحديثاً عن الطبقة السامية التي عليها لغة القرآن من قوة البيان ، وروعة الاسلوب ، وبلاغة التعبير ، ونفوذ المعنى ، ودقة الاداء ، ونصاعة الحجة ، وسعة المتناول ، وغزارة المادة وفنونها مالا مزيد عليه إلا ان نقول ان كل ذلك يصح ان يعتبر مصوراً الناحية من النواحي العقلية العربية في بيئة النبي (ص) وعصره ، ومظهراً من مظاهر حياتها العقلية كما اعتبرنا ما جاء فيه مصوراً لحياتهم المادية والمعاشية . فبيئة في عصر

أصل مادة التعبير عما في ذهنها من معان وحاجات ، وما يدور في رأسها من افكار بهذه اللغة القوية في بيانها ، الرائعة في اسلوبها ، البليغة في تعبيرها ، النافذة في معانيها ، الدقيقة في ادائها ، الناصعة في حجتها ، الواسعة في متناولهـا ، الغزيرة في مادتها وفنونها لا يمكن إلا ان تكون من حيث الاجمال على حظ غير يسير من رقي العقل ، وحدة الذكاء ، واضطرام الذهن ونشاطه ، واتساع الأفق والتجربة والمعرفة .

ولقد يقول قائل إن القرآن كلام الله ، وانه لا يصح ان تقاس به قوى العرب العقلية ، وانه قد تحدى الكفـــار بأن يأتوا بحديث او سورة او سور من مثـله فعجزوا كما جاء في الآيات المكية التالية :

١ — أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ...

يونس ٣٨

٢ — أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثـــله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ...

هود ١٣

٣ — قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ...

الاسراء ٨٨

٤ — أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين

الطور ٣٣—٣٤

غير اننا نقول ان هذا التحدي والعجز عن الاستجابة اليه لا يتعـارضان مع ما قررناه من كون لغة القران بمادتها ومفرداتهـا وتراكيبها هي لغـة عصر النبي (ص) وبيئته ، وانها كانت اللغة المفهومة المأنوسة من الناس على اختلاف طبقـاتهم بوجه عام ، واللغة المفهومة المأنوسة والمستعملة في الحديث والكتابة من الطبقة النيرة بوجه خاص مما يسنده تقريرات القرآن الصريحة التي استعرضناها قبل .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الناس يسمعون الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، ويقرأون الكاتب العبقري فيفهمون كلامهم كل الفهم وخاصة الطبقة المثقفة منهم ، وينفذون الى دقائق ما يسمعون ويقرأون ، دون أن يرد بأن ما يقرأون

ويسمعون هو غير لغتهم او غير طبقة لغتهم ، ودون ان يخرجهـــا إبداع الشاعر والخطيب والكاتب في الاسلوب عن طبقتهم اللغوية . وامتيازهم انما يكون في إبداع الأسلوب الذي يقفون منه على روعة وقوة وسمو حديث له حلاوة وطلاوة تجعلان لا صحابه تلك الميزة الابداعية التي يتميزون بها والتي يعجز الناس عن الأتيان بمثلها ولله ولكتابه المثل الأعلى ؛ على أن هذا لا يعني في حال انقطاعاً بين طبقة هؤلاء وبين طبقة لغة البيئة الأدبية الراقية مفردات ومادة وتركيب وقواعد الخ الخ ؛ والالكان من المتعذر ان تفهم الوحدة اللغوية في بيئة من البيئات فهماً صحيحاً . والواقع يؤيد هذا ، حيث يوجد دائماً تقارب ما في الاسلوب والاداء والروعة في كتابة وخطابة وشعر عصر من العصور ولا سيما الطبقة المتفوقة ، ولا يندر ان يأتي اكثر من واحد بأسلوب فيه روعة وسمو وابداع ، ونعتقد ان هذا ينسحب على لغة أهل عصر النبي وبيئته لانه ظاهرة طبيعية .

على اننا نرى من ناحية اخرى ان التحدي الذي تحدى به الكفار هو لما في القرآن من روحانية وصدق لهجة واستقامة دعوى ، ونصاعة حجة ومضامين وروعة نظم معاً وليس لمادته ومفرداته اللغوية وفنونه اللفظية والصرفية والقاعدية لذاتها . وبهذا يستقيم الأمر ويتسق المدى القرآني في تقرير عروبة لغة القرآن ، وكونها لغة ولسان العرب ولسان النبي (ص) وقومه ، وفي تحدي الكافرين في آن واحد.

وفي النصوص القرآنية ما يسند بقوة هذه التوجيه الذي لم ننفرد به . فمن جهة قد جاء قبل آيات التحدي او بعدها آيات من مثل ذلك كما ترى في ما يلي .

١ — ... وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ... يونس ٣٧

٢ — ... بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله (١) كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ... يونس ٣٩

٣ — فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ... هود ١٤

---

(١) لم يظهر بعد تحقيق ما وعد به وأشار إليه فتعجلوا بالتكذيب .

٤ — ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ... الاسراء ٨٩

٥ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فأني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ... الطور ٢٩ — ٣٢

ومن جهة قد جاء في سورة الانعام والانفال آيتان هما :

١ — ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ... الانعام ٩٣

٢ — وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الاولين (١) ... الانفال ٣١

حيث تلهمان ان من أهل بيئة النبي (ص) من ادعى القدرة على حكاية القرآن؛ ومع أن عجزهم عن ذلك لا ريب فيه فانهم لم يكونوا ليدعوا هـــذا إلا لكونهم رأوا أن القرآن في مادته وتراكيبه وفنونه اللفظية إنما هو مثل تراكيبهم ومادتهم وفنونهم اللفظية ، وأن هذا في متناولهم ، وغفلوا عن تلك الروحانية واللهجة الصادقة ، والدعوة المستقيمة ، والحجة الناصعة ، والدعوة الحق فتحداهم الله بأن يأتوا بمثله من هذه النواحي .

ولعل في تكرار حكاية نسبتهم افتراء القرآن إلى النبي (ص) مـا يدخل في هذا المعنى على ما هو المتبادر .

---

(١) في ابن هشام ج ٦ ص ٣٢ ان النضر بن الحرث كان إذا جلس رسول الله (ص) بمحل دعا فيه إلى الله تعالى وتلا القرآن وحذر مما أصاب الامم الخالية خلفه في مجلسه فحدثهم عن رستم الشديد وعن اسفنديار ومـلوك فارس ثم يقول والله ما محمد بأحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الاولين أكتبها كما اكتتبها .

على أننا نعرف أن بعض الذين يقولون أن التحدي إنما كان للتراكيب والمادة والاسلوب والنظم يقولون بنظرية الصرف ، أي أن الله قد صرف الكافرين عن الاتيان بمثله من هذه النواحي فعجزوا مع أنه من جنس لغتهم . وفي هذا القول اعتراف كما هو واضح بأن لغة القرآن في مادته وأسلوبه ونظمه وفنونه اللغوية كان مما يدخل في متناول العرب الاتيان بمثله لو لم يصرفهم الله عن ذلك ؛ وقد قالوا هذا لانه لم يسعهم أن يدعوا بأن لغة القرآن غير لغة أهل بيئة النبي (ص) وعصره في مادتها اللغوية وفنونها اللفظية . وفي هذا تأييد لوجهة نظرنا من حيث الاساس بقطع النظر عما إذا كان يستقيم القول بأن الله قد صرف العرب عن شيء تحداهم فيه ، إذا تكون النتيجة أنه لو لم يصرفهم لأتوا بمثله...

— ٤ —

وفي آيات القرآن وفي أساليبه دلائل على ما كانت عليه اللغة العربية في عصر النبي (ص) من فنون يمكن أن تكون مقاييس على قوى العرب العقلية ونشاطهم الذهني وذوقهم الفني ايضاً .

من هذه الفنون « الشعر » ، فقد أشير إلى الشعر والشعراء في عدة آيات كما ترى .

١ — بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ... الانبياء ٥

٢ — والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ... الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٧

٣ — وما علمناه الشعر وماينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ... ياسين ٦٩

٤ — ويقولون أءنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ... الصافات ٣٦ — ٣٧

٥ — أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ... الطور ٣٠ — ٣١

٦ — وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ... الحاقة ٤١

وإذا كان قرض العرب في عصر النبي (ص) وبيئته للشعر من البدائه التي لا تحتاج إلى تقرير فان هناك أموراً مهمة يصح أن تضاف إلى هذه البديهة في هذا المقام ؛ منها أن شعر العرب في ذلك العصر والبيئة لا بد من أنه كان متساوقا في سمو طبقته وبلاغته وروعته مع لغة القرآن ؛ وذلك ما يـــدل عليه نسبة العرب الشعر والشاعرية إلى النبي (ص) وهم يسمعونه يتلو آيات القرآن وروائعه أكثر مما يدل عليه نماذج الشعر المروية التي قد تحمل التوقف كثيراً أو قليلا من وجهة صحة النسبة . وأن الامة التي تصل قوة الشــاعرية والشعراء فيها في عصر من عصورها إلى طبقة من السمو والقوة تتساوق مع طبقة سمو القرآن وقوتها وروعتها لتنم عن رقي في إحساسها ، وفوران في عواطفها ، وقوة في خيالها ومشاعرها إلى درجة رفيعة .

ومنها ما يحسن التساؤل فيــه عن السبب الذي جعل العرب ينسبون الشاعرية إلى النبي (ص) . فالقرآن لا يحتوي شعراً منظوماً يتفق مع أنمــاط الشعر العربي المنظوم وأساسه البيت المؤلف من شطرين متوازيين ، وإذا كان البيت من قصيدة فتلازم وحدة القافية في أواخر كل بيت منها . فهل كان العرب يعبرون عن الكلام البليغ الذي يحتوي معاني رائعــــة أو شعرية بكونه شعراً ولو لم يكن موزوناً ومقفى ؟ أو هل كانوا يطلقون تعبير الشعر حتى يتناول الكلام المسجوع بدون وزن او المقفى بدون سجع أيضاً بالاضافة إلى إطلاقه على المقفى الموزون . فانه إذا لم يكن في القرآن كلام موزون ومقفى يصح أن يطلق عليه إسم الشعر كما عرفــه علماء العروض ففيه كثير من الآيات بل السور ما جاء بأسلوب مسجع أو أسلوب مقفى ، بل وفيه ما يكاد يكون موزوناً ومقفى بعض الشيء ، وفيه مايشبــه الرجز كذلك ولو لم تكن الجملة في كل من النوعين مؤلفة من شطرين مترابطين كما ترى في الامثلة التالية :

١ ــ والنجم إذا هوي . ما ضل صاحبكم وما غوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمــه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الأعلى . ثم دنى فتدلى . فــكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى .

ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ... النجم ١ — ١٢

٢ — يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر . فاذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ... . المدثر ١ — ٣٠

٣ — والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها ... . الشمس ١ — ١٦

٤ — والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً . إن الانسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد . أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير ... العاديات ١ — ١٠

٥ — فيقول هاؤم اقرؤا كتابية . إني ظننت أني ملاق حسابية . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الايام الخالية ... الحاقة ١٩ — ٢٤

وإن التالي لهذه الايات وأمثالها الكثيرة في القرآن وخاصة المكي ليجد كلاماً قوياً أخاذاً ليس بالشعر المنظوم ولكنه غير بعيد منه ولا غريب عنه ، ويجد فيه شيئاً مما يقال له ضرورات الشعر في التقديم والتأخير لمساوقة الروي كما هو في آيات

المدثر والعاديات ؛ بالاضافة إلى ما يجـده فيه من التمثيل الرائع والوصف البليغ والمعنى النـافذ .

ومع أننا لا نستطيع أن نجيب على ما تساءلنا عنه جواباً شافياً مد لامن القرآن، وأنه لا يسعنا إلا التسليم بأن الشعر المنظوم هو الذي كان مفهوم كلمة الشعر ، وأن الشعراء الناظمين هم الذين كانوا مفهوم كلمة الشعراء بصورة عامـة بسبب التواتر الذي بلغ مبلغ اليقين في تقرير هذاأولا، وبالقرينة القرآنية القائمـة خاصة في آيات سورة الشعراء ثانياً ، فاننا نسوغ لانفسنا أن العرب ما كانوا ليقولوا عن النبي (ص) أنه شاعر لو لم يروا في القرآن ما يصح أن يطلق عليه اسم الشعر في روعـة النظم والاسلوب والقوة الاخاذة المؤثرة في أعماق النفس ، والمحتوية بليغ الامثـال ، وروائع الاستعارات والوصف دون أن يروا ضرورة التقيد بوزن أو بحر ؛ لا سيما هذه الآيات القصيرة التي فيها روى أو قافية ، وفيها نـبرة الشعر وأدائه . فاذا صح هذا فان مدى الشعر وتعريفه عند العرب أو عنـد الطبقة النيرة _ أو المتأدبة منهم إن صح التعبير - منهم على الاقل في عصر النبي (ص) وبيئته كان أوسع من تعريفه المعروف الذي يقوله علماء العروض ؛ وهـذا المعنى الاوسع هو الذي يقول به الادباء الحديثون وهم يقسمون الشعر إلى منظوم ومنثور ، ويلاحظون في وصف الشعر جماله وروعته وفنـه وجماله معاً . وهكذا يكون ادباء عصـر النبي (ص) وبيئته قد نفذوا الى معنى لم ينفذ إليه الا بعد قرون طويـلة ، ودلوا على ذوق فني ، وروح ملهمة ، ونظره بعيدة وافق اوسع ايضا .

—٥—

ولا يقتضي من قولنا هذا ان يكون النبي (ص) شاعراً بالفعـل . فالقرآن قد رد على الذين قالوا عنه ذلك ، ونفي ان يكون قد تعـلم الشعر ، وقرر انه لا ينبغي له ؛ وهذا حق كل الحق وصدق كل الصدق من دون ريب؛ والروايات متواترة على ان النبي (ص) لم ينظم شعراً وانه كان حينما يتمثل بأحد ابيـات الشعر المنظوم لم يكن يأتي به على وزنه وقافيته ، وكان احياناً يكتفي بالاشارة اليـه . وانما هذا لاينفي ان يكون العرب قد رأوا كما قلنـا في القرآن ما هو بسبيل الشعر وانمـاطه

واستعاراته وتشبيهاته وبلاغته وادائه ونبرته ومقاطعه ، فأطلقوا عليه « الشعر » وقالوا عن النبي (ص) انه شاعر . وبالاضافة الى هذا يمكن أن يقال إن الله تعالى اراد بهذا النفي والتوكيد اخراج النبي (ص) من طبقة الشعراء الذين كانوا يتصفون بما وصفتهم آيات الشعراء ايضاً ؛ وتقرير اختصاصه بكرامة النبوة والرسالة ، وانه ليس ممن يلقون القول على عواهنه ، ويهيمون في كل واد ويقولون مالا يفعلون كما كان شأن الشعراء ، وان القرآن انما هو ذكر وقرآن مبين ، وان الذين اتبعوه ليسوا من الغاوين الذين يتبعون الشعراء ويتأثرون بهم . وكل هذا يمكن الاستئناس به على المعنى الذين نحن بسبيل تقريره . وورود آية « إن هو الا ذكر وقرآن مبين » في آيات سورة ياسين التي تقرر ان الله لم يعلم النبي الشعر ولا ينبغي له قد يكون دليلا او قرينة قوية على صواب ما تقرر . وتزيد الآية التالية لهذه الآية هذا التقرير قوة حيث جاء نصها « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ».

— ٦ —

هذا ، ومن الممكن الاستدلال مما جاء في القرآن من الحملة على الشعر والشعراء اولاً على ما كان للشعر والشعراء من خطورة في بيئة النبي (ص) وعصره ، وعلى أنه كان من اهداف القرآن مقاومة او إضعاف هذه الخطورة ليصفو المكان للقرآن دون الشعر وللنبي (ص) دون الشعراء . وثانياً على ما كان لشعراء الكفار من موقف مؤذ في العهد الاسلامي مستمد من قوة مركز الشعراء وتأثيرهم وخطورتهم . واستثناء المؤمنين من التشنيع في الآية الاخيرة من سورة الشعراء يدل على ان النبي (ص) اضطر الى مجاراة الظروف والاهتمام لخطورة الشعر والشعراء ، وتشجيع شعراء المسلمين على الرد على شعراء الكفار ومقابلتهم بالمثل ؛ فكان في هذا الاستثناء حافز ومشجع . وثالثاً على انه كان من عادة الشعراء في ذلك العصر والبيئة الترادد او الملاحاة او المعارضة فيرسل الشاعر قصيدة في هجو او عتاب او فخر فيقابله خصمه عليها بهجو اوعتاب او فخر وهكذا دواليك ، وعلى انه كان من العادة كذلك ان ينافح الشاعر عن قومه او قبيلته او نحلته ، فيرد شاعر الخصم عليه منافحاً كذلك عن قومه او قبيلته او نحلته . واستثناء الشعراء المؤمنين الذين

انتصروا أي ردوا على العدوان بمثله قرينة قرآنية على هذه العادات التي تواترت الروايات عنها حتى بلغت مبلغ اليقين . ورابعاً على ان الشعراء كانوا ينحون منحى المبالغة والتهييج والاثارة دون ان يكونوا في هذا صادرين عن عقيدة واخلاق وجد وحقيقة صادقة .

ولقد كان العرب يعتقدون ان بين الشعراء والجن بعض الملاقات والاتصالات، وكان لهذه العقيدة اثر في نسبة الشعر والشاعرية الى النبي (ص) وهذا ما سوف نشير اليه في الباب الرابع .

— ٧ —

ومن الفنون اللغوية التي يستدل عليها من القرآن « السجع » وهو الكلام المقفى الذي لا يشترط فيه وزن ولا بحر . وفي القرآن جملة صالحة ورائعة منه ، منها الطويل ومنها القصير ننقل منها الامثلة التالية بالاضافة الى مانقلناه قبل قليل :

١ — اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل امر مستقر . ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر ...
القمر ١ — ٥

٢ — الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان ...
الرحمن ١ — ٨

٣ — هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل واغلالاً وسعيراً . إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً
الانسان ١ — ٦

٤ — والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل اذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا

في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ... الفجر ١—١٢

٥ — ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول . سورة الفيل

٦ — إنا عطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ... الكوثر

وفي القرآن اربع سور [1] مسجعة الآيات ، ولآياتها لازمة ، وذلك ان تردد آية بذاتها فيها انذار او تذكير او تنديد بعد كل آية او جملة آيات . وهو فن آخر من اساليب الكلام لم ينسج على منواله فيما نعلم [2] ، ولم نرا احداً من علماء الادب نوه به مع انه ظاهر الميزة . وهذه امثلة منه :

١ — ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهاعينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

الرحمن ٤٦—٥٣

٢ — ألم نهلك الاولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدرمعلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الارض كفاتاً . احياء وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسي شامخات واسقيناكم ماء فراتاً . ويل يومئذ للمكذبين . المرسلات ١٦ – ٢٨

— ٨ —

والروايات العربية تقول في صدد السجع انه كان في الغالب كلام الكهان والعرافين والهواتف في الاحلام . والذي ذكرته الروايات من الكلام المسجع

(١) الشعراء والقمر والرحمن والمرسلات .

(٢) رأينا في بعض خطب للأستاذ أسعاف النشاشيبي شيء من هذا النحو .

القديم انما كان جله معزواً الى هذه الطبقة (٣) . ولقد كان العرب كما حكت آيات القرآن يقولون عن النبي (ص) انه كاهن .ولعل من جملة اسباب ذلك ما كان يتلوه من الآيات والسور المسجّعة . ويمكن ان يكون في قولهم على هذا التعليل دليل على صحة أصل الروايات العربية من أن اجوبة الكهان للناس كانت سجعاً وان كنا نشك في ما يعزى اليهم من المقطعات المسجّعة المدونة والتي لا تخلو من آثار الصنعة والتلفيق رواية ونصاً . اما الصورة الصادقة الصحيحة للسجع ومقطعاته وفنونه فانما هي في القرآن . ومن النماذج التي نقلناها منها وهي قليل من كثير يمكن ان يرى المرء في السجع فناً وذوقاً وجمالاً وقوة أداء وتأثير ، وفي هذا مظهر من مظاهر القوة العقلية العربية لأنه متصل باللغة العربية كما هو واضح .

وفي القرآن ثمان وستون سورة مسجعة او في مدى ذلك ، منها (٥٧) قصيرة وخمس متوسطة وست طويلة ومعظمها اي (٦٤) منها مكي . ولعل في هذا دليلاً على ما كان للسجع من دولة وتأثير ونفوذ في الاسماع والقلوب في عصر النبي (ص) وبيئته . وقد أردنا من جملة « او في مدى ذلك » السور التي آياتها موزونة بدون قافية ، حيث رأينا انها تدخل في نطاق التسجيع من ناحية مع الاشارة الى أن السور التي ينطبق عليها وصف السجع الصحيح اى المقفى هي الأكثر .

وننبه اولاً على انه بالاضافة الى ذلك العدد من السور التي هي مسجعة او

---

(٣) مما رواه هشام ج ١ ص ١٣٤ من اقوال الهاتف الذى أمر عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص) بحفر بئر زمزم : « احفر زمزم . لا تنزف ولا تذم . تسقي الحجيج الأعظم . وهي بين الفرث والدم . عند نقرة الغراب الأعصم » . ومما رواه كذلك ج ١ ص ١٥ من اقوال سطيح الكاهن في تفسير رؤيا تُبّع اليمن : « أحلف بما بين الحرتين من حنش . ليهبطن ارضكم الحبش . فيملكن ما بين أبْيَن الى جرش . ولما سأله تبع اليمن عن موعد ذلك أجاب : بعد ملكه بحين بستين او سبعين . يمضين من السنين . ونحن اذ نورد هذين النموذجين لا نرويهما كحقيقتين ولكن ورودهما في كتاب من أقدم الكتب العربية يعطينا صورة عن سجع الكهان والهواتف الذي تناقلته الألسنة وحفظته الصدور .

موزونة كلها فان السور الاخرى قلما تخلوا من جملة آيات مسجعة أو موزونة ايضاً ، وهو يؤيد ما قلنادمن قوة السجع ونفوذه ، وثانياً على ان السجع ليس واحد القافية في السورة الواحدة دائماً ، فهناك سور فيها سلاسل مسجعة ذات قواف متعددة كما هو في آيات سورة المدثر والمرسلات والفجر التي نقلناها ، وهناك سور فيها سلاسل مسجعة بقواف واحدة أومتعددة وسلاسل موزونة الآيات بغير قافية واحدة ، بل وهناك موالاة بين هذا وذاك في سلسلة واحدة ايضاً . وفي كل هذا مظاهر فنية من مظاهر اللغة القرآنية التي هي لغة بيئة النبي (ص) وعصره جديرة بالتنويه في هذا المقام .

— ٨ —

ومن هذه الفنون «المرسل» الذى لا يتقيد بقافية ولا وزن . وا كثر آيات القرآن من هذا النوع ؛ حيث هو أسلوب اكثر السور الطويلة والمتوسطة ، وفيه الطويل بحيث تزيد كلمات بعض الآيات منه على المئة وعلى السبعين كما ترى في الامثلة التالية :

١ — يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فا كتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً أو لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى اجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ان لا ترتابوا إلا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ...

٢٨٢ البقرة

٢ — ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من

شيء قل إن الامر كله لله يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ...

آل عمران ١٥٤

وفيه المتوسط وهو اكثر المرسل القرآني وهذه أمثلة منه :

١ـ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ...

التوبة ١٠٩ـــ١١٠

٢ ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ... يونس ٩ ـــ ١٠

٣ ـ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ... هود ٦٧ ـــ ٦٨

وليس في هذا النوع قصير جداً ، وكل ما في الأمر أن بعض آيات تكون في بضع كلمات كما ترى في الامثلة التالية :

٤ ـــ بل هم في شك يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب اليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ...

٩ ـــ ١٦ الدخان

ونلفت النظر مع ما وصفنا به المرسل إلى أن المرسل القرآني لا يخلوا من رنة تركيزية او توزينية في اواخر آياته بقطع النظر عن عدم التقفية والوزن والروي كما هو ظاهر في الأمثلة التي نقلناها ، وفي الآيات القرآنية المرسلة التي هي غالب آيات القرآن .

ـ ٩ ـ

كذلك نلفت النظر الى نقطة مهمة في صدد نوعى النثر والسجع والمرسل وهي

البراعة الأسلوبية في استعمال كل منها في المقام المناسب له . فالذي يتدبر آيات القرآن يجد ان الآيات المسجعة القصيرة وكذلك المرسلة القصيرة قد استعملت في الغالب في مقام التبشير والانذار والوعد والوعيد والانذار والتمثيل ، لان في اسلوبها ونبراتها واداثها ما يسترعي الانتباه بسرعة ، ويخاطب العاطفة والقلب ،وان الآيات المرسلة المتوسطة والطويلة والآيات المسجعة الطويلة استعملت في الغالب في مقام الجدل والحجاج والتعليم والتشريع والتقرير والحكاية وضرب الامثال لان هذه المقامات تتطلب على ما هو متبادر نفساً طويلاً ، ويخاطب بها العقل اكثر مما تخاطب بها العاطفة ، ويقصد بها التفهيم والتبصير وحمل المخاطب على التفكير والتدبر والمقايسة والاستنتاج اكثر مما يقصد بها الترهيب والترغيب والوعد والوعيد

وليس من ريب في ان هذا الذي اتسعت له اللغة من التنويع والمطاوعة في الأداء والبيان والتناسب مع مقامات القول فضلاً عن السلاسة وحسن السبك وروعة الديباجة ليعطي للسان العربي في عصر النبي (ص) وبيئته صورة رائعة حقاً ، ويضعها في درجة رفيعة جداً .

— ١٠ —

ومن هذه الفنون « الأمثال »وهي في القرآن على نوعين . أحدها تمثيل ومقارنة وفيه بعض الاسهاب ، وثانيها أمثال قصيرة . ومن النوع الأول جملة صالحة جاءت باسلوب في غاية السمو والروعة ، وقد تضمنت من الحكم الاجتماعية والعظات الأخلاقية ما يتناسب مع اسلوبها السامي الرائع نورد منها الأمثلة التالية:

١ — أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جُفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال الرعد ١٧

٢ — ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها

ما لها من قرار ... ابراهيم ٢٤—٤٥

٣ — الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دريّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم ... النور ٣٥

وهذه أمثلة من النوع الثاني مع التنبيه على انها لم ترو من قبل القرآن كأمثال ، وانما تداولها الناس أمثالاً بعد نزولها لما فيها من الحكمة البالغة والمعنى النافذ الذي تكون الجملة المأثورة به مثلاً سائراً :

١ — قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ...	البقرة	٢٦٠
٢ — فبُهت الذي كفر	〃	٢٥٨
٣ — قضي الأمر الذي فيه تستفيان	يوسف	٤١
٤ — أضغاث أحلام	〃	٤٤
٥ — حاجة في نفس يعقوب	〃	٦٨
٦ — إن كيدكن عظيم	〃	٢٨
٧ — إن بعض الظن أثم	الحجرات	١٢
٨ — مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً	الجمعة	٥

ولم نطلع على ما يساعد على القول بثقة او جزم ان في القرآن امثالاً قصيرة مما كان سائراً قبل البعثة ؛ مع ان مما لا يكاد يحتمل شكاً أنه كان منها شيء كثير ، تسلك به في سلك الفنون اللغوية والأدبية العربية قبل البعثة ، وهو الذي جعلنا نسوغ ذكر الامثال في هذه السلسلة .

وننبه على شيء مهم وهو ان علماء اللغة ساروا على وتيرة واحدة حينما يذكرون الأمثال كفن من فنون اللغة ،وذلك بالاكتفاء بالنوع القصير ، في حين أن القرآن قد احتفى بالنوع الأول حفاوة كبيرة ، واختصه بالتنويه والاشارة ، اذ كل ماجاء واحد منه ذكر قبل البدء او بعد الانتهاء منه أنه مثل وان الله كذلك يضرب الأمثال او ما في معنى ذلك كما رأيت في الأمثلة التي نقلناها . وما دام القرآن هو

اصدق وأوثق صورة للغة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته فقد كان ينبغي ان لا يغفل هذا النوع من الأمثال كفن من فنونها .

-١١-

ومن هذه الفنون « القصة » او « القصص » . وفي القرآن قصص كثيرة عن الأنبياء السالفين وأممهم وما جرى لهم وعن غير الانبياء (ص) ايضاً بأسلوب جميل نورد منها بعض الأمثلة مما لم يرد في العهد القديم والعهد الجديد (اسفار التوراة والانجيل) :

١ — وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين او امضي حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال ارأيت إذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا اعصي لك امراً . قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم اقل إنك لن تستطيع معي صبراً . قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسراً . فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً . فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجراً . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً . اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت أن اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا ان يبدلهما ربهما

خيراً منه زكاة واقرب رُحماً . واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينـة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحاً فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلته عن امري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً ... الكهف ٦٠-٨٢

٢ — وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخـلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال ماليَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً او لأذبحنه او ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون . ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والارض ويعلم ماتخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الـكاذبين . إذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا ايهـا الملأ اني ألقي إليّ كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألاّ تعـلوا عليّ وأتوني مسلمين . قالت يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولواقوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة اهلها أذلة وكذلك يفعلون . واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسـلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون . إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . قال يا ايها الملأ ايكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني

أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم . قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي ام تكونُ من الذين لايهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنامسلمين . وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير . قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ... النمل ١٧-٤٤

وفي سورة يوسف انموذج رائع للقصة القرآنية التامة ايضاً مع التنبيه انها جاءت من حيث التفصيل والحوادث مقاربة كثيراً لما جاء عنها في التوراة . ولم ننقلها تفادياً من التطويل ، ويحسن بالقاريء ان يقرأها في المصحف بتمعن ليرى جمالها وروعتها .

ونلفت النظر الى مافي القصتين اللتين نقلناهما وما في قصة يوسف (ص) من حوار شائق ومن عبر بالغة ، ومن عظات حكمية تخللت حوادث القصة وسردها واسبغت عليها لوناً بديعاً .

-١٢-

وهناك ناحية فنية اخرى من اللغة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة تتمثل في القرآن ونعني بها النحو والصرف والاشتقاق ، حيث احتوى جملة صالحة بل الجملة الصالحة فيها ، ولعل اتصال هذه الناحية بلغة اهل عصر النبي(ص) وبيئته قبل البعثة أشد وضوحاً من جهة ومما لايحتمل اي توقف او سؤال من جهة اخرى ، لأن مما لايحتمل أي ريب ان ما احتواه القرآن هو صورة لقواعد نحو وصرف واشتقاق كان مستعملاً قبل نزول القرآن وطابعاً مستقراً للغة العربية التي نزل بها ، وفيه دلالة قوية على ماوصلت اليه هذه اللغة من هذه الناحية من الدرجة الرفيعة والنضوج التام الذي كان وما زال مثار إعجاب الباحثين ودهشتهم ، سواء في كمال دقتها وحروف جرها ومعانيها وإعرابها ، او في تنوع أوزانها وجموعها وصفاتها وصيغها بحيث لم تصل الى درجتها اي لغة مع ملاحظة ان هذا كان منذ الف واربعمائة سنة ونيف على اقل تقدير : وطبيعي ان هذا المظهر الرفيع العجيب يصح ان يكون دليلاً

على ذهنية حية جوالة ونشيطة ، وعلى ذوق فني بديع . ولا نرى في هذا مايحتاج الى امثلة او تحمله هنا . لأنه الأساس الشائع العام في اللغة القرآنية واللغـة العربية الفصحى المتعارف عليها والتي تجري فى مجرى الأولى بوجه عام .

وننبه في هذه المناسبة على مافي تطبيق الصرف والنحو والاشتقاق القرآني وما يعرف بغريب القرآن على الشعر العربي الجاهلي حسب ماجرى عليه علماء اللغة والمفسرون وجعل القرآن تابعاً من هذه الناحية لهـذا الشعر من خطأ وبعد عن الصواب . فالقرآن لاغيره هو الذي وصل الينا مدوناً سليماً ، والقرآن لاغيره هو الذي يصح ان يكون مرجع القاعدة اللغوية الصحيح الصادق ، وما يمكن ان يكون فيه شذوذ عن قاعدة مطردة فيه فانه من قبيل المستثنيات التي توجد في كل لغة حية . والشعر الجاهلي الذي يجعل اصلاً للقاعدة لم يصل مدوناً الى عهد التدوين ، وكثير منه مصنوع بعد الاسلام لأغراض متنوعة لعل منها التعالم في هذا التطبيق نفسه ...

— ١٣ —

ومما يدخل في هذه الناحية اللغوية التعريب ؛ وهو مما يتمثل في القرآن ايضاً، حيث احتوى جمـلة من الالفاظ المعربة أعلاماً وأجناساً عن الرومية والحبشية والفارسية والعبرية وغيرها مثل ابراهيم واسمـاعيل واسرائيل ويوسف ويعقوب وسليمان وداوود وعيسى وموسى وجالوت وطالوت وجبريل وميكال ؛ ومثل درهم ودينار وسجيل واستبرق وربيين وحواريين وسرادق ومشكاة وكافور وزنجبيل وسندس الخ ... والتعريب يدلنا اولاً على أن العرب قبـل البعثة قد اخذوا كثيراً من الألفاظ الأجنبيـة التي لم يكن لها مقابل في لغتهم حينما استعملوا او اقتبسوا مسمياتها ، وان هذا كان من اسباب نمو هذه اللغة ، وثانياً على أنهم كيفوا هـذه الألفاظ في الأعم الأغلب وكيفوا كذلك الأعلام الاجنبية على اوزانهم وعدلوا وبدلوا في حروفها حتى يتم لهم حسن الاداء والموائمـة مع نبرتهم وحروفهم . وفي هذا وذاك دلالة على سعة صدر اللغة العربية ومرونتها وحيويتها في ذلك العهد البعيد وبالتالي على ذهنية جوالة نشيطة ومرنة في الناطقين بها ثم على الصلات الكثيرة بينهم وبين الأمم والبلاد المختلفة المجاورة واقتباسهم منهم كثيراً من وسائل ومظاهر

الحضارة والمعرفة . ولا يرد احتمال تناقض بين نص القرآن بانه لسان عربي مبين ، وبين وجود الفاظ أعجمية الأصل فيه كما هو المتبادر ، لأن هذه الألفاظ قد اندمجت في اللسان العربي بصيغتها ونبرتها المعدلة او المعربة وغدت جزءاً منه قبل نزول القرآن ؛ بل وإن هذا ليلهمنا أن هذه المعربات ترجع الى عهد غير قريب من البعثة ونزول القرآن ، وأن دلالات وجودها التي نبهنا عليها تزداد بذلك قوة ووضوحاً ، هذا مع التنبيه على ان هناك تزيدات وادعاآت قائمة على الغرض او التحكم في صدد الفاظ قرآنية كثيرة .

ولقد ذكر بعض القدماء ان في القرآن الفاظاً اعجمية لم يعرفها العرب قبل نزوله ، وان حكمة نزولها هي كون رسالة النبي (ص) لمختلف الأمم فاقتضى ان يكون في القرآن الفاظ من لغات امم مختلفة ليتسق بذلك مع مدى الآية « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ... ابراهيم ٤ » ، والتهافت في هذا واضح بحيث لايحتمل نقداً .

-١٤-

. يضاف الى ماذكرنا من الفنون اللغوية ما يتمثل في القرآن من فنون الكلام الأخرى كالجدل والبرهان المفحم ، وكوصف حالات نفسية في منتهى الروعة والنفوذ الى أدق الاحساسات ، وكوصف مظاهر الطبيعة وسنن الكون وصفاً قوياً أخاذاً يجعل سامعه وقارئه يرى فيه من العظمة والابداع والنظام الدقيق المدهش مايحمله على التسليم بعظمة البارىء عز وجل . وكوصف مايلقي الناس في الآخرة من حساب ونعيم وعقاب وصفاً قوياً رائعاً يكاد سامعه وقارئه كذلك يشعر به أنه أمام مشاهد ماثلة يحسها بيديه ويراها بعينيه ، مما قد لايعد فناً مستقلاً كالفنون التي افردنا لها ابحاثاً خاصة ، ولكن فيها من القوة والسمو وبلاغة التعبير والأداء والأسلوب مافيه الدلالات الوافية على مبلغ سعة اللغة القرآنية لشتى فنون الكلام بأرقى درجاتها ، وأروع مظاهرها ، وأعمق نفوذها ، وأبلغ تعبيرها ، وبالتالي على مبلغ النشاط الذهني في اهل العصر والبيئة التي تمثلهم هذه اللغة وارتقاء اذواقهم وسعة تفننهم .

والآيات التي تتمثل فيها هذه الفنون كثيرة جداً ، بل هي كل آيات القرآن تقريباً ، ولا بد لمن يريد ان يشعر بها نفسه، ويتذوق مافيها من حلاوة وروعة وقوة خلود من أن يتلوها المرة بعد المرة ، ويقف عند روائعها وقوف المتمعن المستبصر ؛ ولهذا رأينا من التطويل غير الشافي ايراد امثلة هنا ، والاكتفاء بالاشارة الى ارقام بعض مجموعات الآيات . فآيات البقرة (٨-٢٠) مثال رائع لوصف المنافقين و (٧٤) مثال لتصوير مبلغ قسوة قلوب اليهود؛ وآيات آل عمران (٥٩- ٦٠) مثال للجدل المفحم وآيات الأنعام (٥٩-٦٥ و ٩٥-٩٩) مثال لوصف عظمة الكون وخالقه ، وآيات الأحزاب (١٣-٢٠) مثال لوصف جبن المنافقين في الشدة وسلاطتهم في السعة وآيات ابراهيم (٤٢-٤٧) مثال لتنديد القارع بالظالمين وآيات الحاقة (١٣- ٣٧) مثال لوصف يوم البعث والحساب والجنة والنار ، وآيات المدثر (١١ - ٢٩) مثال للتنديد القاصم بالبغاة ووصف مواقفهم الجحودية الخ ..

-١٥-

هذا ، ونختم هذا البحث بالقول إننا لسنا منفردين في ماقلناه عن ما بلغ اليه اهل عصر النبي (ص) وبيئته من بلاغة وفصاحة وبيان ، وتفنن في اساليب القول مما يمكن ان يكون مقياساً على ما كانوا عليه من قوة عقل ورجاحة رأي ، ورقي ذوق ، بل قال هذا غير واحد من المفسرين نذكر على سبيل المثال ما قاله الطبرسي في تفسيره مجمع البيان :

« إن الله خاطب قوماً عقلاء فصحاء ، قد بلغوا الغاية القصوى من الفصاحة ، وتسنموا الذروة العليا من البلاغة » . وما قاله الزمخشري في تفسيره الكشاف :

« إنهم كانوا من صحة التمييز بين الصحيح والفاسد ، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال والاصابة في التدبير والدهاء والفطنة بمنزل لايدفعون عنه » .

وما قاله النيسابوري في تفسيره آية (٢٢) من البقرة التي جاء في آخرها « فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون » :

« أي وانتم اهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال ، وهكذا كانت العرب خصوصاً قطان الحرم من قريش وكنانة لايشق غبارهم في الدهاء والفطنة » .

هذا الى أن تقريرات جمهور المفسرين مجمعة على أن لغة القرآن هي من مادة ومفردات وتراكيب وقواعد ومصطلحات بيئة النبي (ص) وعصره . والذي يمكن أن نكون أضفناه هو أننا استدللنا بسمو طبقة القرآن ومافيه من روعة أداء وقوة بيان وتفنن في الأساليب ـ وهي الطبقة الوحيدة التي وصلت الينا عن ذلك العهد سليمة لاشك فيها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ـ على ما كانوا عليه من بلوغ الغاية القصوى من الفصاحة ، وتسنم الذروة العليا من البلاغة ، وما هو من المعقول ان يكون وراء هذا من عقل راجح ، وفكر ثاقب ، وفطنة ودهاء ، وذوق ونشاط ذهني بعيد المدى .

-١٦-

ونقول استطراداً إن بيئة النبي (ص) وعصره لم يكونا ليخرجا عن الظاهرة الطبيعية العامة المعروفة من وجود لغة تخاطب ولغة أدب وكتابة الى جانب بعضها فيها . ويستأنس على هذا بأسلوب الأحاديث النبوية وأحاديث الصحابة وأحاديث العرب المروية ومقايسته بالأسلوب القرآني . فالأحاديث كانت احاديث مجالس اعتيادية في الأغلب ، وهي دون طبقة اللغة القرآنية نظماً وسبكاً وأناقة وابداعاً كما لايخفى . ويستأنس على هذا ايضاً بما هو مروي من سجع الكهان ومأثورات العرافين ، وخطب خطباء العرب وشعر شعرائهم المشهورين ، مما هو أرق سبكاً وأناقة وابداعاً كذلك مما هو مروي من لغة الأحاديث بصورة عامة ، مع تحفظنا وتوقفنا ازاء كثير مما يروى من هذا وذاك .

ومع ذلك فهناك ظاهرة عجيبة لما كانت عليه اللغة العربية من رقي ونضوج يتجليان في أنه لايكاد يوجد فرق مهم بين مفردات وتراكيب لغة التخاطب والحديث وبين مفردات وتراكيب اللغة الأدبية والكتابية الراقية اولاً وفي اتحاد كلتا اللغتين في قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والتعريب ثانياً .

الفصل الثاني

في

العلوم والمعارف ووسائلهما

ملاحظة مبدئية — القراءة والكتابة في الاوساط الكتابية ودلالتها ومداها — في مكة — في المدينة — مافي القرآن من مسميات وسائل القراءة والكتابة — كثرة الآيات ودلالتها — تفنيد بعض الروايات — القراءة والكتابة في البدو — هل كان لتعليم الصبيان كتاتيب — اللغات الأجنبية عند الكتابيين — عند العرب غير الكتابيين — اطلاع العرب على الكتب الأجنبية — كلمة العلم في القرآن — فهم العرب لمعناهـا الفني — تحفظ لابد منه — المعارف التاريخية عند العرب وتحليلات واستدلالات قرآنية — مدونات تاريخية وقصصية عند العرب — المعارف الجغرافية عند العرب واستدلالات قرآنية — المعارف الفلكية واستدلالات قرآنية — المعارف الطبية — علم الانساب — مهاب الرياح — القيافة — معارف العرب الزراعية والحسابية — كلمة اجمالية — صلة الكهانة والسحر بموضوع الفصل — مركز الكهان عند العرب — تعبير الكاهن في القرآن — صورة الكاهن عند العرب وسبب نسبتهم الكهانة الى النبي (ص) الكهانة طور من اطوار العقل العربي — السحر والسحرة في القرآن — الصورة التي تلهمها الآيات القرآنية — كلمة الحكمة في القرآن ومعانيها — مفهومها عند العرب — حكماء العرب ولقمان الحكيم في القرآن.

القراءة والكتابة

— ١ —

من الحق ان يلاحظ قبل كل شيء في صدد ما يتناوله هذا الفصل أن القراءة والكتابة والعلوم والمعارف التي تتصل بها ، والتي لا بد منها لهـا بالنسبة الى بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة بصورة خاصة ، والى طبيعة ذلك العهد في مختلف

انحاء العالم المتحضّر بصورة عامة هما اقل مدي بالنسبة الى عصرنا ؛ سواء من حيث الانتشار والاقبال ، أو الوسائل والاشكال ، او النطاق والامكانيات ، او النفع والانتفاع ، أو الحاجة والضرورة ؛ وان من الواجب التحفظ في اعتبار درجة انتشارها في بيئة ما من البيئات القديمة مقياساً صحيحاً من مقاييس الثقافة العقلية فيها على اطلاقه كما هو شأنها في عصورنا التي يسّرت الطباعة ونظام المدارس الحديثة فيها القراءة والكتابة وزيادة المعرفة الانسانية لمختلف الطبقات والبيئات ، وصارت القراءة والكتابة بحق من مقاييس القيم الثقافية . وننبه على اننا لا نعني بهذا التحفظ تقليل شأن القراءة والكتابة في العصور والبيئات القديمة بل قد يكون شأنهما بسبب طبيعة هذه البيئات والعصور ذا خطورة خاصة ، وقد يكون لدرجة انتشارهما في بيئة ما سعة وضيقاً معنى غير يسير في الدلالة على نشاط وحيوية وثقافة هذه البيئة .

— ٢ —

هذا والكلام في موضوع القراءة والكتابة مصبوب بطبيعة الحال على البيئة النبوية عامة ؛ وما دام انه كان في هذه البيئة كتابيون وأميون = غير كتابيين = ومن الكتابيين من كان عربياً ومن كان أعجمياً فمن المعقول ان يقال كلمة عن القراءة والكتابة في أوساط هؤلاء ولو أنهم اقلية من جهة ، وان المطلوب معرفة قوادالعقلية هم العرب في الدرجة الاولى من جهة أخرى . على ان لمعرفة مدى انتشار القراءة والكتابة فى هذه الاوساط ضرورة وفائدة على كل حال . فمن الكتابيين من هم عرب نصارى ويهود ، ودرجة معرفتهم الكتابة والقراءة مما يصح ان يتناولها الكلام ، وان تدخل في مدى التدليل على القوة العقلية العربية ؛ عدا انها تصح أن تعد من المؤثرات في غير الكتابيين من العرب لا سيما اذا كانت واسعة قوية . وهذه النقطة الاخيرة واردة بالنسبة للكتابيين من غير العرب الذين كانوا يعيشون في الوسط العربي ، ويندمجون في مختلف صفحات حياته الاجتماعية والثقافية والمادية .

وفي القرآن آيات كثيرة تدل دلالة صريحة على أن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين في الكتابيين بوجه عام ، وفي الكتابيين اليهود بوجه خاص بمقياس

يصح أن يقال عنه إنه كان واسعاً بعض الشيء .

وانت اذ تقرأ ماجاء في الآيات المكية التي هي في الذين كانوا منهم في مكة مثل آيات الانعام ٢٠ و ١١٤ والاعراف ١٥٧ ويونس ٩٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧—١٠٨ والنحل٤٣ والحج ٥٤ والقصص ٥٢ — ٥٥ والعنكبوت ٤٦—٤٧ والشورى ١٤ والشعراء ١٩٧ والاحقاف ١٠ والنمل ٧٦ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وتمعن كذلك في آيات النحل (١٠٣) والفرقان (٤—٥) التي نسب الكفار فيها الى الكتابيين تعليم النبي (ص) ما يتلوه من قرآن يحصل عندك ترجيح بان اكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون . ولقد انتهى بحثنا فيهم الى انهم لم يكونوا جالية جنسية واحدة وكبيرة وانما كانوا افراداً قليلين من متنوع الأجناس ، ومنهم من كان حديث عهد ، ومنهم من جاب جلباً لمزية ما فيه ؛ وهذا كله قد يدعم ما تلهمه الآيات من أن اكثرهم يقرأ ويكتب.

اما اللغة التي كانوا يقرأونها ويكتبونها فليس من الممكن الجزم بها ، غير ان من ما يصح تخمينه ان الاسرائيليين القلائل كانوا يكتبون ويقرأون العبرانية وان النصارى الاجانب كانوا يقرأون ويكتبون لغاتهم او لغة الأنجيل الذى نرجح انه كان بالسريانية واليونانية ــ اللاتينية ، وهاتان اللغتان كانتا شائعتين في ذلك الظرف في الشام والعراق ومصر . على أن هذا لا يعني ان هؤلاء الاجانب لم يكونوا يقرأون ويكتبون العربية ؛ فاننا لا نستبعد ان لم نقل نرجح ان منهم وخاصة القديمين من كان يقرأها ويكتبها ايضاً ، أما الكتابيون العرب فنرجح انهم كانوا يكتبون ويقرأون العربية ، ، وان منهم من كان يقرأ ويكتب لغة الانجيل . ولقد ورد في حديث بخاري ان ورقة بن نوفل قد تنصر وكان يكتب العبرانية .

— ٣ —

اما الكتابيون في المدينة ومعظمهم اسرائيليون فالآيات النازلة فيهم مثل آيات البقرة ٤١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، وآل عمران ٧٨ ، ٩٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٩ والنساء ٤٤ ، ٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٢ والمائدة ١٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٨ والجمعة ٥ التي نقلناها كذلك في الفصل الثالث من الباب الاول تسوغ ترجيح

كون الكتابة والقراءة منتشرتين فيهم ايضاً بنطاق غير ضيق ، ولكنه اضيق من نطاق انتشارهما في كتابيي مكة . ففي آية البقرة ٧٨

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ ، إنْ هم إلا يظنون »

قرينة قوية على صحة هذا التحفظ حيث تقرر ان من اليهود من لم يكن يحسن القراءة والكتابة . وفي طبيعة الكيان الأسرائيلي المؤلف من جاليات كبيرة نازحة من عهد غير قصير نزوحاً عائلياً ، فيها الكبار والصغار والرجال والنساء والزراع والعمال دليل آخر على صحته ايضاً .

والمرجح ان لم نقل المحقق أن الاسرائيلين الذين كانوا يقرأون ويكتبون انما كانوا يقرأون ويكتبون العبرانية في الدرجة الأولى فهي لغتهم القومية والدينية . وحديث البخاري عن ورقة بن نوفل ، وحديث آخر ذكر فيه ان النبي (ص) أمر زيداً بن ثابت بتعلم العبرانية وهو من الانصار دعامات لهذا الترجيح . على اننا نرجح كذلك ان منهم من كان يقرأ ويكتب العربية ايضاً .

واما بالنسبة لغير الاسرائيلين من الكتابيين فما قلناه عن الاجانب والكتابيين في مكة يطرد هنا بتمامه على ما هو المتبادر .

— ٤ —

والآن ننقل الكلام على القراءة والكتابة بين اهل الحجاز العرب غير الكتابيين وهم اكثرية السكان الساحقة ؛ بل هم المقصودون في الدرجة الاولى من تعبير اهل عصر النبي (ص) وبيئته فنقول إن القرآن قد احتوى آيات عديدة ذكرت فيها ادوات الكتابة والقراءة من كتب وقرطاس ورق وصحف وأقلام ومداد وسجلات كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين . الانعام ٧

٢ — قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . الانعام ٩١

٣ — وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه

منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا... الاسراء ١٣ ــ ١٤

٤ ــ أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ... الاسراء ٩٣

٥ ــ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ... الكهف ١٠٩

٦ ــ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ... الانبياء ١٠٤

٧ ــ ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ... لقمان ٢٧

٨ ــ والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور ... الطور ١ ــ ٣

٩ ــ ن . والقلم وما يسطرون ... القلم ١ ــ ٢

١٠ ــ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ...(١) المدثر ٥٢

١١ ــ إن هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ... الأعلى ١٨-١٩

١٢ ــ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم ... العلق ١ ــ ٤

ونتبه على ان هذه الآيات جميعها مكية ، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن أهل مكة الذين كانوا اول من سمعوها كانوا يفهمون مدلولاتها .

ولقد وردت كلمات الكتابة ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرة ونيف وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرة ونيف بأساليب متنوعة كما ترى في الامثلة المكية التي اخترناها لتدل على المعنى الذي يتناولها الكلام مباشرة :

١ ــ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ... يونس ٩٤

٢ ــ وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلاً ... الفرقان ٥

---

(١) هذه الآية في آيات تنديدية بالمشركين لاعراضهم عن سماع التذكير والدعوة النبوية ، فكأنما تقول انهم معرضون لأن كلاً منهم يريد ان تنزل عليه صحيفة خاصة يقرأها .

٣ — ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ...
الشعراء ١٩٨ – ١٩٩

٤ — وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ... العنكبوت ٤٨

٥ — وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير ...
سبأ ٤٤

ويجب ان تضاف الى هذه الآيات ، الآيات التي نقلناها قبل قليل ايضاً لأنها من من بابها من حيث الدلالة .

— ٥ —

واذا كانت الآيات المدنيــة التي ذكرت فيها كلمات القراءة والكتابة ومشتقاتها بكثرة هي حول اهل الكتاب واليهود خاصة على الأكثر فان فيها ماهو موجه الى المسلمين الذين كانوا عرباً من اهل بيئة النبي (ص) وفي صدد تعليم متصل بالحركات التجارية والحسابية الجارية ونعني بها آية الدين (٢٨٢) الطويلة من سورة البقرة .

فورود هذه الآيات الكثيرة في القرآن تحتوي اسماء وسائل وادوات القراءة والكتابة ، وتحتفي بالقراءة والكتابه هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصـــره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات واستعملوهـا وعلى ان القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيق ، فكثرة الترديد تدل على الألفة ، وهذه لاتكون إلا حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير .

واذا لاحظنا ان أولى آيات القرآن نزولاً على ماعليه الجمهور ويلهمه مضمونها هي آيات سورة العلق الأولى التي نوه فيها بالقراءة والكتابة « اقرأ باسم ربك الذي خلق — والذي علم بالقلم » باسلوب يدل على حفاوة عظيمة ، وان ثانية آيات نزلت بعدها على ماعليه كثير من الرواة هي آيات سورة القلم الأولى التي اقسم الله فيهـا بالقلم والكتابة (والقلم وما يسطرون) مما يدل كذلك على حفاوة بالغة ازداد قولنا قوة وتأييداً .

ولعل في آية الأنعام (٧) وفي آية الاسراء (٩٣) بنوع خاص قرائن قوية ايضاً ، فالآيتان قد جاءتا في معرض التحدي والتنديد ، وبصيغة الجمع ، واسلوب آية

الاسراء اسلوب الاليف للقراءة والكتابة ؛ ومن أقوى القرائن آية المدثر (٥٢) اذا ما امعن في مضمونها ومداها، ومثل هذا يقال بالنسبة لآيات الاسراء (١٣-١٤) التي تفرض جميع الناس يقرأون ويكتبون ولو كان الكلام في صدد مشاهد الآخرة .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان مكة مدينة تجارية ، وكانت رحلات تجارها متوالية الى بلاد كانت على حظ غير يسير من الحضارة كالشـــام ومصر والعراق وفارس واليمن ، ومن المعقول ان يكون هؤلاء الغـادون الرائحون قد تأسوا بما رأوه هناك من ذيوع الكتابة والقراءة ووسائلها فشجعوا على اذاعتها في بيئتهم. هذا الى ما كانت طبيعة مشاغلهم التجارية تقضي به من القراءة والكتابة والاعمال الحسابية؛ فان هذا ايضاً مما ينبغي ان يكون حملهم على التشجيع والاذاعة . ويلفت النظر خاصة الى آية البقرة (٢٨٢) وما فيها من الحث على العناية بتسجيل الاعمال التجـارية وعقود الديون ، فان هذا يلهم انه كان من الممكن تنفيذ مايحث السامعون عليه . واستعداد البيئة له بمقياس غير ضيق ، عدا مايلهم ذكر الكاتب على الوجه الذي جاء في الآية بأسلوب حفي من وجود طبقة مخصوصة تحترف الكتابة والتسجيل وكتابة العقود التجارية ، وما في هذا من دلالة على سعة الاعمال التجارية واقتضائها وجود مثل هذه الطبقة .

ثم ان القرآن المكي ضعف القرآن المدني تقريبـاً ، وكانت آياته تكتب في الصحف ويتداولها المسلمون في بيوتهم يقرأونها وينسخونها ، فاذا كان من المحتمل ان اكثر رجال المسلمين في مكة[1] او ان كثيراً منهم كانوا يقرأون ويكتبون وهم أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل مكة فيكون من المعقول ان عدد الذين يقرأون ويكتبون في مكة كان كبيراً ؛ لاسيما وان اكثرية الطبقة البارزة من زعماء ووجهاء وتجار

---

(١) ان حادثة اسلام عمر بن الخطاب (رض) التي ذكرها ابن هشام في الجزء الاول ص ٣١١ من سيرته والصحيفة القرآنية التي وجدهـا في يد شقيقته فاطمة وهي من الحوادث المعروفة المروية كثيراً تدل على ان من النساء المسلمات من كن يقرأن ويكتبن قبل البعثة . أما الروايات التي تذكر النساء المسلمات القارئات الكاتبات بعد الهجرة فكثيرة . وليس من ريب ان هذا استمرار لما سبق من ناحية ما .

واغنياء لم تكن في عداد المسلمين ، وهؤلاء او اكثرهم مظنة القراءة والكتابة . بل إن هناك من الروايات مايدل على اكثرمن هذا ذكرها المفسرون وكتاب السيرة[1] في سياق تفسير آيات الاسرى ٦٧ — ٧٠ في سورة الانفال حيث ذكر فيها أنه كان بين الاسرى فقراء لايملكون فداء ، فجعل النبي فداءهم أن يعلم الواحد منهم عشرة من اطفال المسلمين القراءة والكتابة ، وهذا يعني ان القراءة والكتابة كانتا فاشيتين في اهل مكة بحيث لم يكن الفقراء والمتوسطين خارجين عن نطاقها فضلاً عن طبقة الزعماء والاغنياء والتجار .

يضاف الى هذا وجود تلك الجالية الاجنبية في مكة والتي نسب الى بعض افرادها تعليم النبي (ص) ومساعدته كما سبق القول . فليس من التجوز ان يظن ان من هؤلاء الذين رجحنا أن اكثرهم يقرأون ويكتبون من كان يعلمها للعرب او اطفالهم او اطفال الاغنياء والزعماء الذين كان منهم بعض افراد هذه الجالية رقيقاً عندهم ، وبالتالي من كان يساعد على اذاعتها .

كذلك يضاف الى هذا وجود عرب متنصرين من اهل مكة طارئين ومستقرين فيها مما رجحناه في الفصل الثالث من الباب الاول . ولقد رجحنا قبل قليل غلبة احتمال معرفة هؤلاء او اكثرهم القراءة والكتابة ايضاً ، فليس من التجوز ان يكونوا ممن ساعد على اذاعة القراءة والكتابة في مكة ايضاً .

وعلى هذا كله ايضاً نقرر ان ماذكره بعض المؤلفين القديمين ونقله عنهم بعض المؤلفين الحديثين[2] من انه جاء الاسلام ولم يكن يكتب ويقرأ في مكة إلا سبعة عشر شخصاً ، وانه لم يكن في جميع اليمن من يكتب ويقرأ ، وان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثة النبوية ، وان الافراد القلائل الذين تعلموها من أهل مكة لم يتعلموها الا في هذا الظرف ، وان وسائل الكتابة في عصر النبي (ص) وبيئته لم تكن تعدو لحاء شجر واكتاف عظام ، وقطع جلد ، ورقائق حجارة

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ ص٦١

(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ج١ ص١٢٤

الخ انما هو قول جزاف لا يثبت أمام التمحيص والتدبر ، وقد نقضته الحقائق العلمية الراهنة [1] .

— ٦ —

واذا كان جل ما قلناه قد انصب على سكان مكة من العرب فلا يعني هذا أن العرب سكان يثرب وغيرها من المدن الحجازية لم يشملهم الكلام والقرائن القرآنية ، فاللغة المكية هي لغة العرب في هذه المدن ، والدلالات والملهمات القرآنية تنسحب عليهم بطبيعة الحال ولو كان ما نقلناه من الآيات مكياً . على ان في القرآن المدني آيات كثيرة في صدد القراءة والكتابة والكتب لا يصح أن يشك في ان سكان يثرب من العرب كانوا يفهمون دلالاتها ولو كان جلها ورد في صدد الكتابيين عامة واليهود خاصة . ولقد كانت يثرب مقر جالية يهودية كبيرة كان لها كتبها ومدارسها ومعلموها وأحبارها وربانيوها ، ولقد رجحنا أنه كان بين الأسرائيليين من يحسن القراءة العربية ، ولقد رجحنا كذلك وجود كتابيين غير اسرائيليين من عرب وغير عرب ، فهؤلاء يدخلون من جهة في متناول تقرير انتشار الكتابة والقراءة ، ومن جهة اخرى في احتمال مساعدتهم في تعليم واذاعة القراءة والكتابة العربية .

والمدينة بعد مركز تجارى وطريق تجارية ، وليس من المعقول كما هو المتبادر ان يبقى عربها في عزلة عن القراءة والكتابة ، وان لا يكونوا قد احتاجوا اليهما وتأسوا فيها بمن بينهم قبل البعثة ؛ ولهذا فنحن لا يسعنا ان نسلم بصحة رواية ابن سعد [2] في سياق اشتراط تعليم أسرى قريش لابناء المسلمين من أن أهل مكة كانوا يكتبون وأهل المدينة لم يكونوا يكتبون . واشتراط تعليم أسرى قريش

---

(١) في احد فصول تاريخ الأسلام للمستشرق الطلياني كايتاني بحث مسهب في نشأة الخط العربي اثبت فيه بالدلائل المادية والاستكشافية الحاسمة ان الخط العربي قديم الوضع والذيوع في مختلف أنحاء جزيرة العرب والشمالية منها خاصة ومنها الحجاز وفي مقدمة تفسيرنا بحث واف انتهينا به الى التقرير الاستدلالي بان القرآن كان يدون على رقوق وصحف ، وقراطيس .

(٢) ج ٢ ص ٦١

لابناء المسلمين الأنصار ليس برهاناً على عدم انتشار القراءة والكتابة في المدينة ، ففي كل بيئة مهما كانت القراءة والكتابة فيها فاشيتين يوجد اطفال كثيرون حرموا من فرصة التعلم لسبب ما . وهذا الواقع يفرض في بيئة النبي (ص) وعصره بقوة اكثر ؛ هذا عدا أن المهاجرين لم يكونوا جمهرة كبيرة في ظروف وقعة بدر ، وكثير منهم هجر مكة وفيها افراد من عائلته بل ومنهم من تخلف نساؤه عنه كما تلهمه آيات الممتحنة ١٠ — ١١ : التي تنهي المسلمين عن التمسك بعصم زوجاتهم الكافرات وتأمر بالتعويض على الأزواج المسلمين الذين فاتتهم زوجاتهم الى الكفار :

١ — ولا تمسكوا بعصم الكوافر ... ١٠

٢ — وأن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ... ١١

ولهذا كله يصح القول إن الكتابة والقراءة في يثرب والمدن الحجازية الاخرى كالطائف وجده كانتا كذلك منتشرتين ، وان كان مما يصح ان يكون انتشارهما في مكة ويثرب اوسع منه في غيرها .

اما البدو او الأعراب فاننا نميل الى القول ان الكتابة والقراءة فيهم لم يكن لها نصيب من الشيوع . ولا يمنع هذا ان يكون بعض افراد في أنحاء الحجاز المختلفة قد الموا بهما إلماماً ساذجاً . وفي روايات السيرة ما يستأنس به على صحة هذا القول ؛ حيث ذكرت إن بعض نابهيهم قابل النبي (ص) في احد المواسم وكان معه ما سماه مجلة لقمان [١] .

— ٧ —

ونود أن نتساءل عما اذا كانت القراءة والكتابة في المدن الحجازية تعلمان للصبيان في مدارس او كتاتيب ؟ ونميل الى الايجاب في الجواب وإن لم يكن في القرآن ما يثبت هذا او ينفيه . فان عدداً من شباب المسلمين المكيين عرفوا بانهم يقرأون ويكتبون . ونعرف كذلك أن كتاب النبي (ص) كانوا من الشباب سواء

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٨ الطبعة الاخيرة للبابي

منهم المكيون او المدنيون . فمعاوية بن ابي سفيان مثلاً كان حدثاً يوم الفتح — اذ ذهب مع جيوش الفتح وهو فتى ، وتولى حكم الشام وهو شاب ؛ وقد هاجر الى المدينة بعد الفتح وكان من كتاب النبي (ص) ؛ ونستطيع ان نذكر عدداً غير قليل مثله اذا اردنا الاستقصاء ، فهذه الطبقة تعلمت الكتابة والقراءة في سن الحداثة على ما هو المتبادر ، وليس من المستبعد أن تكون قد تعلمت على يد معلمين بصورة جمعية وهذا معنى الكتاب او المدرسة مهما كان الشكل .

ولقد ذكرت كتب التراجم أن والد الحجاج بن يوسف امير العراق كان معلم كتاب في الطائف [1] ، والحجاج ولد في اواخر عهد الخلفاء الراشدين ، وربما كان كتاب ابيه إذا صحت الرواية في عهد عمر بن الخطاب (رض) او قبله بمدة ما . وليس من التجوز ان يقال انه لم يخترعه وان يكون استمراراً من عهد ما قبل البعثة ، حتى ولو لم تصح الرواية في ذاتها وأريد بها غمز أصله او أرومته فانها تدل على ان هذا النوع من الكتاتيب كان موجوداً ومعروفاً في عهد ابي الحجاج ، وهو مقارب لعصر النبي (ص) إن لم يكن نفس العصر . واننا نرجح ان الكتاتيب والمدارس كانت معروفة في بلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيادة الرومان الذين لا نشك في انهم كان لصبيانهم مدارس وكتاتيب يتعلمون فيها وفي انهم اقاموا مثلها في هذه البلاد ؛ ومن المحتمل ان يكون تجار الحجاز وزعماؤها الذين كانوا يترددون على هذه البلاد قد اقتبسوا ذلك في جملة ما اقتبسوه .ونرجح أن الجالية اليهودية الكبيرة في يثرب قد انشأت لصبيانها مثل ذلك ؛ وندعم ترجيحنا بجملة جاءت في احدى آيات آل عمران خطاباً لليهود :

ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ... ٧٩

حيث تلهم مهما كانت في صدد آخر انه كان لليهود نوع من المدارس يعلم أحبارهم وربانيوهم فيها الكتاب . ولا نستبعد ان يكون للجالية الكتابية في مكة مثل ذلك ، ولعل ما في الشام ومصر منه هو الاصل الذي نقل عنه كتابيو الحجاز وجالياتهم ، ولعل بعض هؤلاء الكتابيين والعرب او المستعربون منهم خاصة كانوا

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨

قد ساعدوا أهل المدن الحجازية في انشاء هذه المدارس او تولوا تعليم أبنائها فيها .

- ٨ -

ويخطر بالبال سؤال آخر وهو ما اذا كان بعض اللغات الاجنبية منتشراً في عصر النبي (ص) وبيئته بين العرب ، ولم نتساءل عن انتشار شيء من اللغات الاجنبية بين الكتابيين غير العرب لأن هذا في اعتقادنا لا يحتمل شكا ، وآية النحل (١٠٣) صريحة بان ممن كان في مكة منهم كان أعجمي اللسان ؛ وايات الشعراء (١٩٨ - ١٩٩) ايضاً قوية الالهام بانه كان في مكة أناس عجم اللسان . والآيات العديده المدنية الواردة في بنى اسرائيل والتي تشير الى ما كان بين أيديهم من كتب يقرأونها ويتدارسونها وفي الروايات العديدة التي ذكرت ان النبي (ص) أمر بعض الشبان المسلمين في المدينة بتعلم العبرانية ، وأن النبي (ص) في بعض مواقف الحجاج اليهودية أمر اليهود باحضار التوراة وكلف احد مسلميهم عبد الله بن سلام بقراءتها ، وعدم ورود أي رواية أو خبر عن وجود ترجمة عربية للتوراة اذ ذاك قرائن يصح ان تورد في هذا المقام لتدعيم كون اليهود كانوا يعرفون العبرانية ويتدارسون كتبهم بها في عصر النبي (ص) ، والنقطة الأخيرة تصلح لتدعيم الكتابية الأعجمية في مكة والمدينة ، تقرأ كتبها الدينية وتتدارسها بلغتها .

ونقول في صدد الاجابة على السؤال أنه ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على معرفة العرب لغة اجنبية بصراحة . غير ان وجود عرب كتابيين في مكة والمدينة على ما رجحناه في بحث سابق ، وعدم ثبوت ترجمة عربية للتوراة والانجيل يجعل القول باحتمال إلمام هؤلاء الكتابيين أو بعضهم بلغة كتابهم الديني سائغاً . واذا كان من المعقول ان يدخل كتابيو العرب في الحجاز في متناول الآيات القرآنية التي تذكر أهل الكتاب وأهل العلم وأهل الذكر وكتبهم وقراءتهم ودراستهم ، وقولهم حينما كان يتلى عليهم القرآن أنهم كانوا من قبله مسلمين وانه الحق من ربهم ومصدق لما بين ايديهم من الكتب الخ مما نقلناه في الفصل الثالث من الباب الأول فيكون احتمال معرفة الكتابيين العرب او أفراد منهم لغات اجنبية وارداً وصحيحاً

بالأستلهام القرآني ايضاً ، وبالاضافة الى هذا الاحتمال فانه من المحتمل ان يكون هؤلاء قد تعلموا هذه اللغات في مكة والمدينة من الكتابيين الاجانب فيهما . ولقد جاء في حديث بدء الوحي الذي رواه البخاري عن عائشة (رض) ان ورقة بن نوفل كان قد تنصر وكان يكتب باللغة العبرانية ؛ فهذا الخبر جدير بان يستأنس به على ما نحن بسبيل تقريره ويدعمه ، والحديث قد ذكر ورقة بمناسبة شخصية ، فليس من التجوز أن يقال انه لم يكن وحده ملماً باللغات الاجنبية من كتابيي العرب كما هو واضح .

على اننا لا نظن ان الأمر قد اقتصر على كتابيي العرب الحجازيين أو بعضهم ونميل الى الظن بان غيرهم من أهل مكة والمدينة قد ألم قليلاً او كثيراً بلغة اجنبية ما ، فأهل مكة في رحلات تجارية مستمرة ، والبلاد التي كانوا يرحلون اليها وإن كانت محاطة الاطراف بالقبائل العربية فان اللغات الغالبة في مدنها غير عربية ، وقد كانوا يتغلغلون فيها ، ومصلحة التعامل والسفر تقضي بالالمام بشيء من لغاتها وهي اليونانية اللاتينة والأرامية السريانية والقبطية والفارسية ، وصلات أهل يثرب وثيقة باسرائيليين يحتفظون بلغتهم العبرانية ؛ وليس من التخرص ان نقول هذا بالنسبة لأهل جدة ايضاً المتصلين بالعالم الخارجي عن طريق الملاحة ، والملاحون دائماً يلمون باللغات الاجنبية بطبيعة مهنتهم كما لا يخفى . ولعل ما في اللغة العربية من كلمات كثيرة معربة عبرانية الأصل او يونانية او فارسية اوحبشية او قبطية من القرائن على ما نقول بوجه عام ، فالذين ينقلون من لغة اجنبية الى لغتهم يعرفون في الغالب معناها او يلمون قليلاً أو كثيراً باللغة التي منها الكلمات .

— ٩ —

هذا ، ويستتبع إلمام العرب باللغات الاجنبية احتمال اطلاع بعض الملمين على الكتب المكتوبة باللغات التي ألموا بها . واذا كان هذا وارداً بل ومستلهماً من القرآن بالنسبة للكتابيين العرب على ما أسلفنا قوله فاننا لا نراه غير وارد بالنسبة الأميين — غير الكتابيين — منهم ايضاً . فالمام بعضهم باللغات الاجنبية ، واتصالهم بمن في أيديهم كتب مكتوبة بهذه اللغات دينية وغير دينية من الكتابيين في الحجاز والبلاد

المجاورة مما هو ميسور وواقعي يجعل احتمال اطلاعهم على هذه الكتب او بعضها قائماً إن لم نقل طبيعياً .

ونعقب على هذا كله فنقول انه من الطبيعي أن يكون لالمام العرب باللغات الاجنبية في عصر النبي (ص) وبيئته ، واطلاع الملمين على بعض الكتب الدينية وغير الدينية بهذه اللغات الذى نظن أن ما قلناه كاف لترجيح احتمالها دلالة على سعة أفق أهل بيئة النبي (ص) وعصره وحيويتهم ونشاطهم العقلي من جهة وتأثيرها في اذهانهم وثقافتهم من جهة أخرى مهما كانت دائرة ذلك الالمام والاطلاع ضيقة أو محدودة .

العلوم والمعارف

—١٠—

في القرآن آيات كثيرة يمكن الاستناد اليها واستلهامها في درس مايمكن ان يكون عند أهل بيئة النبي (ص) وعصره من علوم ومعارف بعد أن تبينا ما عندهم من وسائلها كالقراءة والكتابة والالمام باللغات الأجنبية ، والاطلاع على الكتب الأجنبية .

ويحسن بنا قبل المضي في هذا الموضوع أن نتساءل عما اذا كانت كلمة «العلم» مفهومة اذ ذاك ومستعملة بمعناها الفني المعروف .

إن الآيات القرآنية قد رددت كلمة العلم ومشتقاتها مثل العلماء ، والعالمين ، والذين أوتوا العلم ، والراسخين في العلم . وقوم يعلمون ، والذين يعلمون والذين لا يعلمون ورددت كذلك كلمة « التعلم » ومشتقاتها ؛ ورددت كلمة « الدرس » ومشتقاتها في صدد الكتب الدينية والتعاليم الدينية كثيراً حيث بلغ عدد مشتقات كلمتي العلم والتعليم اربعمائة ونيفاً .

ومن المسلم به ان كلمتى العلم والتعليم ومشتقاتها قد استعملت في معان غير معنى « العلم » الفني المعروف حيث استعملت لاداء معاني : الفهم والتفهيم والمعرفة والاحاطة والادراك والالهام والايحاء والبيان والتبيين والتأكيد والتصديق واليقين والرؤية والمشاهدة والاحساس والتمرين والشعور والعلم بأمور الدين

والكتب السماوية ، وكانت احياناً تعني الطبقة النيرة والعقلاء وذوي البصائر والأفهام ايضاً مما هو منبث في سور القرآن المختلفة ولا يحتاج الى تمثيل .

غير ان من الحق ان يقال إن هاتين الكلمتين ومشتقاتها قد استعملت في القرآن كذلك في الدلالة على « العلم » و « التعليم » بمعناها الفني المعروف ، سواء أكان ذلك للعلم والتعليم دينياً أم دنيوياً كما يمكن ان يفهم من الآت التالية :

١ — ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ... البقرة ١٥١

٢ — وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ... البقرة ١٠٢

٣ — إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ... البقرة ٢٤٧

٤ — والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... آل عمران ٧

٥ — ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون آل عمران ٧٩

٦ — ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ... الأعراف ١٦٩

٧ — إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ... النحل ١٠٣

٨ — أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ... الشعراء ١٩٧

٩ — قال الذي عنده علم من الكتاب ... النمل ٤٠

١٠ — وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ... العنكبوت ٤٣

١١ — إنما يخشى الله من عباده العلماء ... فاطر ٢٨

فاذا صح استشهادنا واستنتاجنا فيكون قد وجد عند العرب هذا المعنى وفهموه قبل البعثة ، لا سيما واكثر هذه الآيات مكية أي انها استعملت قبل ان تتسع الدعوة الاسلامية وتتطور معاني الكلمات او بعضها . واذا كان الامر كذلك فليس من التجوز ان يقال إن الذين كان هذا المعنى في لغتهم واذهانهم بالتبعية موجوداً ومفهوماً لا بد من ان يكونوا ملمين ببعض العلوم ومشاركين فيها بشكل من الاشكال وإن لم يكن قد انتهى الينا شيء كثير وموثوق عن ذلك ، وإن لم يكن قد ورد في

القرآن عنه شيء واضح ومعين . ومع هذا فان في القرآن من الدلالات والارشادات والملهمات مايساعد على عرض بعض صور وأشكال من العلوم والمعارف عند العرب في عصر النبي (ص) وبيئته كما سترى في الأبحاث الآتية .

على اننا نود قبل البدء في ذلك أن نبدي تحفظاً في اطلاق وجود « العلم » بمعناه الفني المعروف اليوم الذي يتناول طرائق البحث والتمحيص ، ووسائل الدرس والمقارنة وأصولها واساليبها ، ووضع القواعد والدساتير العلمية والفنية الخ حيث نجزم أن العلم عند العرب في ذلك العصر والبيئة لم يكن قد وصل الى هذه الدرجة او المفهوم الفني ، وكل ما نعنيه من ذلك الاطلاق أن من العرب من اطلع على كتب متنوعة ، وتدارس بعض العلوم ، وفقه بعض قواعدها ، ولم يبق من هذه النواحي سماعياً على سجيته البدوية وبصيرته الطبيعية ، ومكتسباته العابرة .

واليك الآن المواضيع العلمية والفنية التي يمكن أن يستلهم من القرآن انه كان للعرب مشاركة او ألمام فيها ضمن النطاق الذي ذكرناه آنفاً :

-١١-

في القرآن قصص كثيرة عن الامم الغابرة في جزيرة العرب وفي خارجها فمن الاول :

١) ما يتعلق بسبأ قديماً وحديثاً . القديم منه في سياق قصة ملكة سبأ وما كان لها من ملك ضخم وقوة بأس ورجاحة عقل ، وما كان بينها وبين سليمان (ص) النبي الملك الاسرائيلي (آيات النمل ١٦ — ٤٤) [١] ، والحديث منه في سياق الاشارة

---

(١) اكتفينا بالاشارة الى الآيات خلافاً لما سرنا عليه لأن النصوص القرآنية ليست مقصودة بذاتها هنا للاستدلال . ولما كان موضوع الكتاب هو عصر النبي (ص) وبيئته فاننا لم نر لعرض ماتدل عليه الآيات القرآنية من الحضارة العربية القديمة التي قامت في أنحاء الجزيرة العربية المختلفة . وإلا فلآيات تصح ان تكون مصدراً للتعريف بحضارة وعمران ورفاه وبأس قامت في العهود المتقدمة كثيراً عن عصر النبي (ص) في بلاد اليمن وحضرموت ومداين صالح وشبه جزيرة سيناء اي في جنوب جزيرة العرب وشمالها ، وكان العرب يتداولون اوصافها واخبارها جيلاً ـ

الى ما كان من عمران مملكة سبأ بعد ذلك العهد البعيد، وكثرة ما كان فيها من مدن وقرى تكاد تكون سلسلة متصلة الى الحجاز، وما كان فيها من مياه وجنات، ورخاء ونعيم، ثم ما كان من أمر سيل العرم وتقهقر المملكة وهجرة السكان وتمزقهم شر ممزق (آيات سبأ ١٥ — ١٩).

٢) ما تنطوي عليه الاشارات المقتضبة الى تُبَّع مما كان معروفاً ومتداولاً من حكم التبابعة في اليمن (آيات الدخان ٣٧ و قاف ١٤)

٣) ما يتعلق بالأحقاف ـ القسم الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب ـ منازل عاد، وما كان فيها من عمران ومدن وقرى وزروع وعيون وقوة بأس، ومراصد في ذرى الجبال، وخزانات المياه، وما كانوا عليه من قوة جسمانية الخ وما كان من بعثة هود (ص) فيهم وتدميرهم بالريح الصرصر العاتية. (آيات الأعراف ٦٥ ـ ٧٢ وهود ٥٠ ـ ٦٠ والشعراء ١٢١ ـ ١٣٤ وفصلت ١٥ والأحقاف ٢١ ـ ٢٦ والقمر ١٨ ـ ٢٠ والفجر ٦ ـ ٨

٤) ما يتعلق بمنازل ثمود التي سماها القرآن بالحجر ايضاً، وما كان فيها من عمران وجنات ونخيل وزروع ومياه وما كان لهم من بيوت منحوتة في الجبال، وقصور في السهول، وما كان من بعثة صالح (ص) فيهم ومعجزة الناقة لهم ثم ما كان من عقر الناقة وما حل فيهم من تدمير بالرجفة (الأعراف ٧٢-٧٨ وهود ٦٠ ـ ٦٨ والحجر ٨٠ ـ ٨٣ والشعراء ١٤١ ـ ١٥٢ والنمل ٤٥ ـ ٥٢ والقمر ٢٣ ـ ٣١ والفجر ٩)

٥) مايتعلق بمدين وهي في طرف جزيرة العرب الشمالي الغربي، وما كان

ـبعد جيل الى عصر النبي (ص). والآثار التي مازالت الى اليوم في الانحاء المذكورة تؤيد ذلك تأييداً قوياً وعظيماً لانها تدل على قوة وسعة هذه الحضارة بالنسبة للعصور التي وجدت فيها وتدل على ان العرب في عصر النبي (ص) ليسوا بسبيل عهد حضري حديث على الامة العربية، عدا ان ما انشأته الموجات العربية القديمة في العراق والشام ومصر وحضارات يدل على ذلك ويمت اليه ايضاً.

عليه أهلها من ثروة وقوة وحركة تجارية واخذ وعطاء وبيع وشراء وما كان من رسالة شعيب (ص) اليهم وتدميرهم (آيات الأعراف ٨٥ -٩١ وهود ٨٤-٩٥ والشعراء ١٧٦ - ١٩٠) .

٦) مايتعلق بصلة ابراهيم (ص) بمكة واسكانه بعض ذريته في حرمها وبنائه الكعبة وابنه اسماعيل (ص) ومصلاه ألذي عليه علامات واضحة (ابراهيم ٣٥-٤١ والبقرة ١٢٤ - ١٣١ وآل عمران ٩٦ - ٩٧) .

ومن الثاني أي خارج جزيرة العرب ماله صلة بالمذكورين في التوراة ومنه ماليس له هذه الصلة . فمن الأول :

١) نوح (ص) وطوفانه وسفينته (آيات يونس ٧١ - ٧٣ وهود ٢٥ - ٤٨ والمؤمنون ٢٣- ٢٨ والقمر ٩ - ١٦) .

٢) وقصص ابراهيم وقومه (ص) مع قومه وملكهم ونزوحه الى فلسطين ورؤياه ومحاولة تنفيذها وفداء ابنه وذريته الخ . (البقرة ٢٥٨ - ٢٦٠ والأنعام ٧٤ - ٧٨ وهود ٦٩ - ٧٦ ومريم ٤١ - ٥٠ والانبياء ٥١ - ٧٣ والشعراء ٧٠ - ١٠٤ والعنكبوت ١٦ - ٢٥ والصافات ٨٣ - ١١٣)

٣)وقصة لوط (ص) ونزوحه مع ابراهيم وما كان من قومه واخلاقهم السيئة وخسف الله بلادهم والاشارة الى قيام آثارها (الأعراف ٨٠ - ٨٤ وهود ٧٧-٨٣و٦١-٧٧ والشعراء١٦٠-١٧٥ والصافات١٣٣-١٣٨ والقمر٣٣-٤٠٠)

٤) وقصة يوسف (ص) واعوام الجدب في مصر ونزوح آل يعقوب الى مصر (سورة يوسف ٤ — ١٠١) .

٥) وقصص اضطهاد فرعون لبني اسرائيل ونشأة موسى (ص) ودعوته ومعجزاته وموقف فرعون منها وما كان من المناظرة السحرية ومصير فرعون وخروج بني اسرائيل من مصر وتمجيزاتهم وتيههم ومناجاة موسى (ص) ربه وحروب بني اسرائيل وملك داوود وسليمان (ص) والغزوات الخارجية على بني اسرائيل وشتاتهم في الأرض (البقرة ٢٤٦ - ٢٥١ والمائدة ٢٠-٢٦ والأعراف ١٣٠ - ١٣٣ و ١٦٤ - ١٦٩ و ١٣٨ - ١٣٩ و ١٤٢ - ١٤٥ و ١٤٨ والاسراء

٤ - ٧ وطاها ٥٧ - ٧٠ و٧٦ - ٧٧ والأنبياء ٧٨ - ٨٢ والشعراء ١٠ - ٦٨ والنمل ١٥ - ٤٤ والقصص ٣ - ٦ و ٧ ٣٩ وسبأ ١٠ ١٤ وصاد ١٧ - ٢٠ و٢٦ و ٣١ - ٢٩) .

٦) وقصة ايوب (ص) وبلائه وشفائه (الانبياء ٨٣ - ٨٤ وصاد ٤١- ٤٤)

٧) وقصة يونس (ص) وغضبه من جحود قومه وركوبه السفينة وقذفه منها وابتلاع الحوت له وقذف الحوت اياه ثانية وايمان قومه به بعد ذلك (الصافات ١٣٩ - ١٤٨ والقلم ٤٨ - ٥٠)

ومن الثاني :

١) قصة ذي القرنين وامتلاكه المشارق والمغارب وبنائه سد يأجوج ومأجوج (الكهف ٨٣ - ٩٨)

٢) وموسى (ص) والرجل الصالح وما كان من اعمال هذا التي انكرها عليه موسى (ص) لما فيها من مخالفة ظاهرة للحق والمنطق وتفسيره اعماله له بعد ذلك (الكهف ٦٠ - ٨٢)

٣ - وقصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى (ص) المتنوعة وما كان من امر ولادة يحيى (ص) بمعجزة وولادة عيسى (ص) بمعجزة ورسالة عيسى (ص) لبني اسرائيل وايمان الحواريين ، واستنزال المائدة من السماء (آل عمران ٣٢-٦٢ والنساء ١٥٦ - ١٥٩ والمائدة ١٠٩ - ١١٨ ومريم ١ - ٤٠ والزخرف ٥٧ - ٦٥ والصف ٦) .

٤) وقصة أصحاب الكهف ونومهم سنين طويلة ويقظتهم ثم موتهم وعدتهم وكلبهم الخ (الكهف ٩ - ٢٦).

٥) وقصة لقمان وحكمته ومواعظه لابنه (لقمان ١٢ - ١٩

ومن الذى له صلة بالأنبياء المذكورين في التوراة مايتطابق مع قصصهم في القرآن قليلاً أو كثيراً او مجملاً أو تفصيلا مع ما جاء في التوراة ومنها ما يتغاير ومنها مالم يرد في التوراة بالمرة كا كثر قصص ابراهيم (ص) وكقصة موسى (ص) والعبد الصالح .

وفي القرآن آيات عديدة حول أخبار الأنبياء ومواقف أممهم منهم بأسلوب يوحي بان العرب الذين كانوا يسمعونها ليسوا غريبين عنها اي انهم كانوا يعرفونها او يعرفون اشياء منها ، كما تلهمه الآيات الآتية :

١ — ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ... يونس ١٣—١٤

٢ — وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ... ابراهيم .. ٤٤—٤٥

٣ — أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ... طاها ١٢٨

٤ — وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة مافي الصحف الأولى ... طاها ١٣٣

٥ — وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط . واصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوآذان يسمعون بها فأنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور... الحج ٤٢—٤٦

٦ — وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ... العنكبوت ٣٨

٧ — أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ... الروم ٩

٨ — وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين. الا عجوزاً في الغابرين.
ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ...
الصافات ١٣٣—١٣٨

وفي القرآن آيات عديدة حكي فيها ردود كفار العرب على الدعوة النبوية والنذر القرآنية حيث كانوا يرون فيما يرون بأن مايقال لهم ويتلى عليهم هو اساطير الاولين كما ترى في الامثلة التالية :

١ — ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذاجاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا الا اساطير الاولين ...
الانعام ٢٥

٢ — وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا الا اساطير الاولين ...
الانفال ٣١

٣ — وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا... الفرقان ٥
كذلك في القرآن آيات حكي فيها تحدى العرب للنبي (ص) بأن يأتي بمثل ماجاء به الانبياء كما ترى في الامثلة التالية :

١ — بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ...
الانبياء ٥

٢ — فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ... القصص ٤٨
وفي مقدمة آيات قصة يوسف (ص) آية نصها « لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين » كما ان نزول قصة ذي القرنين كانت بناء على سؤال وجه الى النبي (ص) عنه حيث جاء في مقدمتها هذه الآية « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً » وفي آيات قصة أصحاب الكهف مايلهم ان نزولها قد كان بناء على خوض في شأنها : « سيقولون ثلاثة ورابعهم كلبهم ويقول خمسة وسادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم مايعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً » .

فهذه النصوص توحي بأن الذين كانوا يسمعون مايتلى من آيات القرآن المحتوية اخبار الأمم والانبياء كانوا يعرفون هذه الاخبار اجمالاً أو تفصيلاً ، بل وصل الأمر فيهم الى ان قالوا إن النبي (ص) استكتبها فهي تملى عليه في الصباح والمساء حتى يستظهرها ويتلوها عليهم ، والى ان قالوا إننا نعرف الذي يقوله واننا لو نشاء لقلنا مثله لأنه من قصص الأولين واساطيرهم المعلومة ...

ولقد احتوت كتب التفسير شروحاً وبيانات مسهبة حول القصص القرآنية مروية عن الرواة وعلماء الأخبار والصحابة من عرب ويهود مسلمين مما يمكن ان يستأنس بها على انها هي ايضاً مما كان يدور في عصر النبي (ص) وبيئته حول تلك الاخبار والقصص في الأوساط العربية والأوساط الكتابية ، ولا يعقل ان تكون جميعها مصنوعة بعد الاسلام .

وهذا الذي نقوله متسق مع الحكمة والمنطق ايضاً . فالقصص القرآنية انما وردت كما هو واضح من أسلوبها وحكمة تكرارها وتنوعها وسياقها للعبرة والعظة والتمثيل والتذكير ، وهذا انما يكون ابلغ أثراً ونفوذاً الى النفوس إذا كان في صدد مايعرفه السامع ويعترف به . واذا كان هناك بعض آيات وردت عقب قصة نوح (ص) في سورة هود : « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا ... ٤٩ » وعقب قصة يوسف (ص) في سورة يوسف : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ... ١٠٢ وعقب قصة مريم في سورة آل عمران : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون. ٤٤ فان الأولى ان يحمل هذا على مقاصد اخرى اسلوبية أو جزئية أو تعميمية اكثر مما يحمل على الجهل التام للقصة اصلاً ولا موضوعاً . لاسيما وقصتا نوح ويوسف (ص) من القصص التي وردت في التوراة مفصلة والتقارب كبير بين ماجاء عنها في التوراة وفي القرآن، ولا يمكن ان يجهلها الكتابيون اذ ذاك كما انه من الراجح ان لا يجهلها العرب او بعضهم وهم متصلون بهم .

فليس من التجوز في شيء أن نقرر والحالة هذه :

١ — إنه كان لأهل بيئة النبي (ص) العرب حظ ما من المعارف والاخبار التاريخية .

٢ — إنه من المعقول أن لا يكون هذا قاصراً على ماوردت اليه الاشارة مجملاً أو مفصلا في القرآن ، لان ما ورد هو مااقتضت حكمة التنزيل وحيه للعظة والتذكير ومن ذلك كثير مما نقله علماء الصحابة والأخبار والرواة ودونه المفسرون كشروح وبيانات للقصص القرآنية مما لا يعقل ان يكون كله مصنوعاً بعد الاسلام على ماذكرنا آنفاً وبقطع النظر عن ما تحمله وقائعها من نقد وتوقف .

٣ — إن هذه المعارف والأخبار التاريخية ترجع الى مصدرين : الأول عربي المكان والمنشأ والرواية مثل قصص عاد وثمود وسبأ ومدين ولقمان ، وقد يصح ان يسلك في هذا السلك قصص ابراهيم (ص) التي لم ترد اليها أية اشارة في التوراة والمتصلة بتقاليد عربية صرفة ، كاسكانه من ذريته في منطقة البيت الحرام ، وبنائه هو واسماعيل الكعبة ، ووضعه تقاليد الحج ودعوته اليه ، ومواقفه مع قومه في صدد اصنامهم وإلقائه في النار وسلامته منها الخ والثاني طاريء وهو ما جاء عن طريق الجاليات الكتابية وكتبهم ورحلات العرب الى البلاد المجاورة واتصالاتهم بأهلها مثل القصص التوراتية واليهودية والنصرانية الدينية وغير الدينية ، وامثال قصص ذي القرنين ورستم واسفنديار الخ ،مما ذكر في القرآن طرف منه وما لم يذكر حيث كان العرب في بيئة النبي (ص) يتداولون القصص العربية الأصل او المتصلة بالتقاليد العربية جيلاً بعد جيل ، وحيث كانوا يتخذونها هي وما جاءهم من المصدر الثاني قبل البعثة النبوية من وسائل سمرهم وتندرهم ، ويتناقشون فيها في مجالسهم .

-١٤-

بل نحن نذهب الى اكثر من هذا ونقول استلهاماً من القرآن انه يحتمل كثيراً ان يكون عند العرب كتب وصحف ورقوق قد دونت فيها الأخبار والقصص والمعارف التاريخية قبل البعثة العربية وغير العربية قبل البعثة ، ولم يقتصر تناقلها على الألسنة والصدور ، ولو لم يصل الينا منها شيء ، وذلك من تكرار تعبير « أساطير الأولين »

من كفار العرب كل ماتلا النبي (ص) عليهم القرآن . وهذا التعبير وإن كان يطلق على أقاصيص الأولين فاننا نميل الى الاعتقاد أنه ينطوي على معنى كتابات الأولين إن لم نقل ان هذا هو القصد منه ، وان اطلاقه على الأقاصيص القديمة او الخرافية هو اطلاق متأخر ، ولا سيما اذا لوحظ أن « اساطير » من « سطر » وان « سطر » تعني الكتابة وقد استعملها القرآن كذلك في آيات سورتي الطور ١-٣ والقلم ١-٢ التي نقلناها في مناسبة قريبة ، ولعل في آية الفرقان الخامسة التي نقلناها قبل قليل قرينة قوية على صواب مانقرره حيث احتوت حكاية قول الكفار إن النبي (ص) كان يستكتب اساطير الأولين ويحفظها ثم يتلوها عليهم مما يلهم أن كتابة الأخبار والقصص ليست مجهولة عند العرب وأن هناك اشياء مدونة منها كانت وسيلة لزعم مازعمه الكفار بالنسبة للنبي (ص) . وقد ذكر ابن هشام[1] خبرين معينين يصح أن يستأنس بهما في مانقرره الأول ان النضر بن الحرث الذي كان يخالف النبي (ص) في مجالس دعوته ويقص على الناس اخبار رستم واسفنديار كان يقول : « والله ماحديثه بأحسن حديثاً مني وما حديثه إلا اساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها » . والثاني « ان سويداً بن الصامت لقي النبي (ص) في موسم فدعاه الى الاسلام فاجابه لعلك تدعو الى مافي هذه المجلة ثم اخرج مجلة لقمان وعرضها عليه » .

-١٥-

وفي القرآن آيات كثيرة تشير الى البحر واسفاره والريح الطيبة والريح العاصفة والريح القاصفة وكذلك الى الأسفار والرحلات البرية التجارية وغير التجارية والسبل والفجاج والعلامات التي يهتدى بها في الأسفار مما نقلنا منه شيئاً كثيراً في الفصول السابقة وما نورد منه مايلي مما لم ننقله :

١ ـ الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً ... طاها ٥٣

٢ ـ وجعلنا في الأرض رواسي ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ... الأنبياء ٣١

---

(١) ج ١ ص ٣٢٣ وج ٢ ص ٢٧-٢٨

٣ ـ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ... الملك ١٥

فتلك الآيات وهذه وما يسلك في سلكها تدل على كثرة الأسفار البرية والبحرية التي كان يقوم بها الحجازيون قبل البعثة والتي رجحنا ان تكون قد تجاوزت في البحر سواحل البحر الأحمر الى سواحل الحبشة وغيرها من افريقية الشرقية وآسيا الجنوبية، وان تكون رحلاتهم في البر قد تناولت العراق وفارس والشام ومصر وربما بلاد الروم في آسيا الصغرى . وليس من المعقول ان يكونوا قد تمرسوا بهذه الاسفار واكثروا منها إلا وقد تمرسوا بالمعارف الضرورية للملاحة سواء من حيث الطرق البحرية ومهاب الريح ، او من حيث الموانيء والثغور والاقطار والمدن التي كانوا يصلون اليها او يمرون بها ويتجرون معها ، وبكلمة اخرى لابد من ان يكون قد حصل عندهم ما نستطيع ان نسميه بالمعارف الجغرافية سواء منها الطبيعية او الاقتصادية او الاجتماعية ، وسواء منها البرية او البحرية . وفي ما انتهينا الى تقريره من معارف العرب التاريخية ما يدعم هذه النتيجة التي انتهينا اليها هنا دعماً قوياً ايضاً . فالعرب الذين حصلت عندهم هذه المعارف لابد من ان يكون قد حصلت عندهم معارف جغرافية متنوعة عن البلاد والمواقع التي كانوا يتداولون اخبار امما ووقائعها بطبيعة الحال .

-١٦-

كذلك في القرآن آيات عديدة ذكر فيها الشمس والقمر ومنازل القمر وفلك الشمس والقمر وحركاتها وما في ذلك من علم السنين والحساب، وذكر فيها كذلك النجوم وحركاتها والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر في الاسفار الليلية التي هي أهم اسفار العرب في الجزيرة او أعمها بسبب شدة الحرارة وصعوبة السفر في حمارة القيظ في النهار ، بل ذكر في بعضها اسم كوكب بعينه عدا الشمس والقمر كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ يسألونك عن ألاهلة قل هي مواقيت للناس والحج ... البقرة ١٨٩

٢ ــ فالق الاصباح وجعل لكم الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير

العزيز العليم ... الأنعام ٩٦

٣ — وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قدفصلنا الآيات لقوم يعلمون ... الأنعام ٩٧

٤ — هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ... يونس ٥

٥ — وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخرات بامره. النحل ١٢

٦ — والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون ... النحل ١٥ — ١٦

٧ — وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون . الانبياء ٣٣

٨ — ألم تَرَ أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى ... لقمان ... ٢٩

٩ — والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون (١) القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ... ياسين ٣٨ — ٤٠

١٠ — وانه هو رب الشعرى ... النجم ٤٩

١١ — فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس (٢) . والليل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس ... التكوير ١٥ - ١٨

١١ — فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق والقمر اذا اتسق ... الانشقاق ١٦ — ١٨

---

(١) العرجون القديم : غصن النخلة اذا تقادم ويبس وصفر ، والتشبيه هو تشبيه للقمر في أواخر مظاهره الشهرية .

(٢) الجوار : اي السيارة . الكنس : جمع كنساء وهي المحجوبة اوالمختفية . الخنس : جمع خنساء وهي النجوم التي تأتي ثم تكر راجعة .

واسلوب هذه الآيات التي جاءت في معرض التذكير بنعم الله أو التنويه بعظمة الله يدل على ان الذين يسمعونها يفهمون دلالاتها ، وبالتالي يدل على ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره كانوا على شيء من العلم بمواقع النجوم وحركاتها وبعض اسمائها، وانهم كانوا ينتفعون من علمهم هذا في اسفارهم وحلهم وترحالهم ومواقيتهم واسفارهم، وكانوا يقدرون حركتي الشمس والقمر وينتفعون بهما في حساب المواسم والايام وبكلمة أخرى انهم كان عندهم شيء من المعارف الفلكية (١) . هذا مع القيد الى اننا لا نذهب الى القول ان ما كان عند العرب من هذه المعارف مماثل لما كان في عهدهم اوقبله عند اليونانيين من المعارف الفلكية التى كانت لها عندهم قواعد وحدود علمية ؛ وانما نرجح انها كانت معارف اولية مستمدة من تجاربهم واسفارهم ومشاهداتهم .

-١٧-

وما دمنا في صدد الكلام عن معارف العرب التي تدل على قواهم العقلية ومظاهرها فان من الحق ان نقرر انه لا يعقل إلا أن يكونوا قد ألموا او المتطبقة منهم بطبيعة الامراض ومعالجتها والعقاقير واستعمالها بالتجربة والمشاهدة أوبالاقتباس من البلاد المجاورة ، مما يصح أن يسمى « المعارف الطبية » ولو لم يكن في القرآن الا اشارة عابرة بسبيله وهي التي وردت في احدى آيات النحل عن العسل :

ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ... ٦٩

---

(١) من الممكن ان يشار بهذه المناسبة الى تقسيمات البروج واسمائها العربية وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت والى منازل القمر واسمائها العربية وهي السرطان والبطين والنجم والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والبشرة والطرف والجبهة والغرنان والصرفة والعواء والسماك والقفر والزباني والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرع الدلو المقدم وفرع الدلو المؤخر حيث يدل هذا كذلك على عناية العرب بحركات النجوم ورصدها

وننبه على ان الروايات والتراجم احتوت اسماء عدد من العرب أشتهروا بمعاطاة الطب قبل البعثة وفي اثنائها .

-١٨-

كذلك فان حياة العرب القبيلية تجعل من السائغ أن يقال إنهم لا بد من ان يكون قد نشأ فيهم طبقـة قد ألمت المـاماً واسعاً في الانساب وتسلسل القبـائل والعشائر والبطون والبيوت وتطوراتها ومحالفاتها وولائها لان ذلك من مستلزمات هذه الحياة مما يمكن وصفه بعـلم الانساب ، ولو لم يكن قد ورد في القرآن مما يمت الى هذا الأمر اشارات عابرة في آيتين وهما :

١ — فاذا نفـخ في الصور فـلا أنساب بينهم يومئـذ ولا يتساءلون .. المؤمنون ١٠١

٢ — ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبـائل لتعارفوا ... الحجرات ١٣

وهذا القول يمكن تكراره بما يتعلق بمهاب الرياح والأنواء والامطار ومساقط المياه وبما يتعلق بقيافة الاثر ولو لم يمكن الاستناد في تقرير معارف العرب هذه الشؤون الى نصوص قرآنية صريحة .

أما معارفهم الزراعية فلا نشك في انها كانت وفيرة . وقد أشرنا الى ذلك بشيء من الأسهاب واستعرضنا الآيات القرآنيـة الواردة في هذا الصدد في احد فصول الباب الاول . كذلك كانت معارفهم الحسابية ايضاً ممـا بحثناه في مبحث خاص في احد فصول الباب المذكور ، فنكتفي بالاشارة الى ذلك .

-١٩-

واذا اردنا أن نجمل ما قلناه في الأبحاث المتقدمة وان نرسم صورة للعرب في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة بالنسبة للعلوم والمعارف يمكننا ان نقول :

١ — إن القراءة والكتابة كانتـا منتشرتين انتشاراً محسوساً وانه لا يبعد ان يكون في البادية افراد قد ألموا بها .

٢ — إن من العرب من كان يلم ببعض اللغـات الاجنبية ويطلع على ما عنـد

أصحابها من كتب دينية وغير دينية .

٣ — ان العرب كانوا ملمين باخبار الامم وقصص الانبياء ، وإنه كان عندهم كتب وصحف ورقوق ومجلات فيها اخبار ومعارف تاريخيه ، وإن من هذه الاخبار والمعارف ما هو عربي الاصل والمكان ومنها ما هو اقتباس .

٤ — إن العرب كانوا ملمين بمعارف جغرافية وفلكية وطبية بعض الالمام القائم على المشاهدات والتجارب .

٥ — إن العرب كانوا ماهرين بالانساب والقيافة ومهاب الرياح والانواء .

٦ — إن معارفهم الزراعية والحسابية كانت غير ساذجة وبسيطة .

وهذه الصورة تسوغ القول بان قوى العرب العقلية قد تأثرت بهذه المعارف المتنوعة ، وأنهم قد قطعوا في مضمار الحضارة العقلية والثقافية اشواطاً لاباس بها ولو لم يلحقوا بها أهل البلاد المجاورة لهم .

— ٢٠ —

ونريد أن نلحق بهذا الفصل موضوعي الكهانة والسحر في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة لان لهما في ما نرى صلة بمتناوله على اعتبار انهما من العلوم والمعارف النفسية ، وأنهما على هذا الاعتبار يمكن أن يعدا مظهر من مظاهر القوى العقلية عند العرب .

ولقد كان للكهانة والسحر عند العرب شأن غير يسير ، وتأثير غير قليل في اذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية . وكان العرب ينظرون الى الكهان خاصة نظرة احترام وتقدير ، ويرون فيهم اطباءهم الروحيين ، يفزعون اليهم في كل ملمة نفسية ، ومشكلة روحية تطرآن عليهم وتحدثان لهم ازعاجاً وقلقاً واضطراباً ، وينشدون لديهم الطمأنينة والمعرفة . فاذا رأى أحدهم رؤيا رهيبة فزع الى الكاهن ليعبرها له ، وإذا وقع بينهم خلاف على بعض الامور الغامضة رجعوا إلى الكاهن لحله ، وإذا حدث أمر خطير جوى أو أرضى أخاف الناس تهافتوا إلى الكهان يستنبؤنهم الغيب ويطلبون عندهم التفسير والتعليل .

وقد وردت كلمة « الكاهن » في القرآن في أيتين تنفيان عن النبي (ص) الكهانة

التي كان كفار العرب ينسبونها اليه وهما :

١ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ... الطور ٢٩

٢ — ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ... الحاقة ٤٢

وليس في القرآن غير هاتين الآيتين يمكن أن تساعد على رسم صورة واضحة للكاهن عند العرب . غير أن نسبتهم الكهانة إلى النبي (ص) لم تكن بطبيعة الحال إلاّ لأنهم رأوا مشابهة ما على زعمهم بينه وبين الكهان . ويستفاد مما جاء في الروايات العربية عن الكهانة والكهان :

اولاً — إن الكهانة ليست مظهراً دينياً عند العرب .

ثانياً — إن الكهان كانوا يرسلون أقوالهم وإجاباتهم على اسئلة السائلين بالاسلوب المسجع الرنان، ويضمنونها بعض التوريات التي يجد فيها السامع احياناً تفسيراً لما في نفسه .

ثالثاً — إنهم كانوا يحدثون الناس عن المغيبات والمستقبل فيما يرسلونه من الكلام الغامض المسجع المحتوي التوريات .

رابعاً — انهم كانوا يوهمون الناس او أن الناس كانوا يتوهمون ، ولعل الكهان انفسهم ايضاً كانوا يتوهمون بسبب ما كان يجرى على لسانهم من سجع وتوريات أن لهم تابعين من الجن يساعدونهم في مهمتهم ، وأن هؤلاء التابعين كانوا يسترقون السمع ويخطفون الاخبار من السماء ويلقونها في روع الكهان فينطق هؤلاء بها .

وتلفت النظر إلى ان بعض الآيات القرآنية قد أشارت إلى اختطاف الشياطين اخبار السماء واستراقهم السمع كما ترى في الآيات التالية .

١ — ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ... الحجر ١٦—١٨

٢ — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ... الصافات ٦—١٠

٣ — وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ... الجن ٨—٩

٤ — ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير. الملك ٥

وعلى هذا فتكون المشابهة التي رآها الكفار بين النبي (ص) وبين الكهان هي ما كان النبي (ص) يتلوه من الآيات القرآنية المسجعة الرنانة او المتوازنة، ولا سيما في اوائل بعثته، واكثر الآيات المسجعة كانت في اوائل البعثة، وما كان يخبر به من أخبار المستقبل والبعث والحساب والجنة والنار وصلته بالله والسماء والملائكة، وتنزيل القرآن على قلبه بواسطة الملائكة.

وسياق الآيتين اللتين وردت فيها كلمة «الكاهن» وروحها يمكن ان تجعل صورة الكاهن العربي وفق ما ذكرناه مما او ضحته الروايات.

ولقد نقلت الروايات اخباراً كثيرة عن الكهان والكاهنات، ورجوع الناس اليهم في الملمات والمشاكل والاحلام كما انها نقلت اسماء عدد منهم ونماذج من اقوالهم (١). ومهما كان من شأن هذه الروايات فأنها بالاضافة إلى النص القرآني الحاسم الذي يلهم وجود هذه الطبقة تصح أن تكون دليلا على ما كان لها في اذهان العرب من صورة قوية مؤثرة، وما شغلته عندهم من الحيز الكبير والاهتمام العظيم حتى كان من امرهم ان جنحوا إلى تعليل مظهر النبوة في النبي (ص) بالكهانة وسلكه في سلك الكهان لما رأوه من المشابهة بينه وبينهم.

وعلى هذا فنحن على حق إذا عددنا الكهانة طوراً من اطوار العقل العربي ومظهراً من مظاهر قواه ولو كان هذا ليس خاصاً بالعرب من جهة وقاصراً على طبقة قليلة الافراد من جهة اخرى. فان مثل هذه الدعوى والاضطلاع بها، واستهواء الناس اليها على اختلاف طبقاتهم ودون استثناء الزعماء والنابهين لا يمكن أن يكون إلا من افراد وهبوا حدة ذكاء، وسعة حيلة، وقوة عقل وقدرة على التصرف في فنون الكلام. ولعل بعض هؤلاء كانوا يعتقدون فعلاً بسبب ما أوتوه من مميزات وقوى انهم متصلون بالجان ومساعدون منهم على ما كان سائداً في اذهان العرب من اتصال هؤلاء بالنوابغ والعباقرة. وليس من التجوز أن يقال إن وجود

(١) ابن هشام مثلا ج ١ ص ١٤–١٧ و ١٣٥–١٤٤ و ١٩٤–٢٠١

افراد متصفين بصفات مثل هذه في أمة ما في احد عصورها يصح ان يذكر كظاهرة من قوة تلك الأمة العقلية في ذلك العصر ؛ لا سيما إذا كان إلى جانبها طبقات اخرى متميزة بظواهر مماثلة كما هو شأن العرب في عصر النبي (ص) وبيئته على ما جاء في الفصول السابقة ويجيء في الفصول اللاحقة .

— ٢١ —

اما السحر والسحرة فقد جاء ذكرهم في آيات كثيرة ومناسبات متنوعة :

منها ما ورد في قصة موسى (ص) وفرعون كما ترى في الامثلة الآتية :

١ ـ قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم ... الاعراف ١١٥-١١٦

٢ ـ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما ان نكون اول من ألقى . قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ... طاها٦٥-٦٦

ومنها ماورد في معرض حكاية اقوال الكفار ونسبتهم السحر الى النبي (ص) احياناً واعتبارهم دعوته وما بعده ، القرآن من بعث وحشر وحساب وجنة ونار سحراً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ... الانعام ٧

٢ — أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ...يونس٢

٣ — ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ... هود ٧

٤ — ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ... الحجر ١٤- ١٥

٥ — إذ يقول الظالمون إن تتبعون الا رجلاً مسحوراً ... الاسراء ٤٧

٦ — لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ... الأنبياء ٣

٧ — وقالوا إن هـذا إلا سحر مبين • أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون ... الصافات ١٤ — ١٦

٨ — وإن يرو آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ... القمر ٢

ومنها ماورد في معرض التنديد باليهود واتباعهم اقوال الشياطين، وما كان من خبر سحر هاروت وماروت في بابل كما جاء في آية البقرة (١٠٢) التي نقلناهـا في الفصل الثالث من الباب الاول .

ومنها سورة الفلق التي تأمر بالاستعاذة من النفاثات في العقد التي هي أعمـال سحرية على ماذهب اليه جمهور المفسرين :

«قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد ... »

وهذه الآيات ليست كل الآيات التي ورد فيها ذكر السحر والسحرة. فان عدد هذه الآيات يبلغ نحو الخمسين . ومن الغريب انه بينما لم يذكر الكهان إلا في آيتين فان الروايات التي تروي أخبار الكهانة والكهان واقوالهم واسماءهم كثيرة ، وبينما لم يرد في الروايات شيء كثير عن أخبار السحرة والسحر وأعمالهم ورد ذكرهم في هذا العدد الكبير من الآيات القرآنية .

ومهما يكن من أمر فان ترديد بعض كلمات السحر والساحر والمسحور والسحرة في القرآن وحكاية اقوال الكفار في نسبة السحر الى النبي(ص) دليل حاسم على ان العرب قد عرفوا السحر والسحرة قبل البعثة ، وأن هذا المظهر من مظاهر القوى العقلية كان موجوداً عندهم •

ومن الممكن استلهام الآيات القرآنية في التعرف على ما كان السحرة يقومون به من اعمال أو على ما كان في اذهان العرب في صـدر السحر والسحرة من صور كما يلي :

اولاً إنه كان مفهوماً إن بين الشياطين والسحر والسحرة صلات المعلم والمتعلم وإن الساحر يقدر ان يفرق بين المرء وزوجه (آية البقرة ١٠٢) .

ثانياً إنه كان مفهوماً أن الساحر يستطيع ان يخيل للرائي الاشياء على غير حقيقتها

وأن يبعث الخوف والرهبة في نفوس الناس (آيات الاعراف ١١٥ ، ١١٦ وطاها ٦٥ ، ٦٧)

ثالثاً إن العرب كانوا اذا ماسمعوا شخصاً يتكلم بأمور لم يكونوا رأوها او اعتادوها او سمعوها وفيها بعض الأمور الغامضة او الجديدة الخارقة اعتبروه أنه واقع تحت تأثير السحر وقالوا إنه مسحور .

رابعاً ان العرب كانوا يعتبرون احياناً مايقع من الخوارق على ايدي البشر سحراً ولو لمسوه بأيديهم ورأوه بأعينهم .

خامساً إنه كان من جملة اعمال السحرة عقد العقد والنفث عليها اي تلاوة بعض الكلمات السرية او الموهمة ذلك عليها .

سادساً إن من اليهود من كان يتعاطى اعمال السحر .

فاذا اردنا بعد هذا البيان ان نرسم صورة للساحر استطعنا ان نرسمها قريبة من صورة الكاهن ، من حيث هو شخص أوتي ذكاءً حاداً وقدرة على التصرف ، وسعة في الحيلة ، وقوة على الايهام بالاتصال بالجان واستخدامهم في متنوع الاغراض ، وعلى التأثير في القوى الانسانية واستهوائها بحيث يخيل لها وجود مالا وجود له ووقوع مالم يقع . ويقال في السحرة ماقلناه في الكهان من احتمال توهم بعضهم اتصال الجان بهم ومساعدتهم إياهم على اعمالهم بسبب مايبدو لهم في أنفسهم من قوى واستعداد جرياً على عقيدة العرب باتصال الجان بالنوابغ والعباقرة .

وعلى هذا يصح ان يعد السحر كما سبق القول عن الكهانة طوراً من اطوار العقل العربي ومظهراً من مظاهر قوى العرب العقلية .

— ٢٢ —

هذا ، ويحسن قبل ان ننتهي من هذا الفصل ان نشير الى كلمة « الحكمة » التي وردت في آيات كثيرة ، منها مايتصل بالانبياء (ص) ومنها مايتصل بمهمة النبي (ص) ومنها ماهو بسبيل التنويه بها اطلاقاً كما ترى في الامثلة التالية :

١ — ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ... البقرة ١٢٩

٢ — يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً . البقرة ٢٦٩

٣ ــ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني اسرائيل ... آل عمران ٤٨ ــ ٤٩

٤ ــ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم (١) والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ... آل عمران ٧٩

٥ ــ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ... النساء ١١٣

٦ ــ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة (٢) ... الاسراء ٣٩

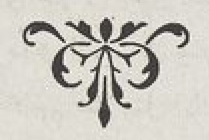
٧ ــ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ... النحل ١٢٥

ويستلهم من الآيات بوجه الاجمال ان الحكمة هبة عقلية يكون صاحبها بها راجح العقل صائب الحكم محكم الرأي ، مستلهما الخير والحق والرشد في مايقول ويفعل ، وانها مظهر من مظاهر رجحان العقل ، وحسن البصيرة والتصرف والنضوج ، وسلامة الضمير والذوق ، وحب الخير والحق ، والعزوف عن الشرور والرعونات . والآيات وإن لم تكن لها صلة مباشرة بحالة العرب قبل البعثة فان ورود الكلمة في القرآن مرات كثيرة تحمل هذه المعاني يسوغ القول أن معناها ومداها مما كان مفهوماً عند العرب ، وان منهم من كان متصفاً بهذه الاوصاف ، يرجع اليهم في مدلهمات الخطوب ، وعويصات المشاكل ، فيصدرون عن عقل راجح وفكر ثاقب ، وقلب زكي ، ورأي محكم ، وبالتالي يسوغ القول ان هذا الطور من اطوار القوة العقلية كان موجوداً في العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة. ولقد سمت الاخبار بعض رجالاتهم فعلا مثل الاكثم بن صفي صاحب الامثال والحكمة والاقوال التي سارت أمثالاً بما فيها من رأي ناضج وفكر ثاقب . واذا صح ان لقمان من العرب ونحن نرجح هذا فهو مثل آخر عدنا به القرآن ، حيث جاء ذكره

(١) الحكم = الحكمة (٢) هذه الآية تعقيب على سلسلة الوصايا القرآنية الجلية الشأن الواردة في سورة الاسراء (٢٢ــ٢٩) التي هي اسمى مصداق لما ذكرناه مما تلهمه الآيات عن معنى الحكمة .

وذكر حكمته في آيات من سورة لقمان فيها المواعظ الحكمية المتسقة مع الوصف الذي وصفناه كما ترى فيما يلي :

ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد . واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب الي ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ... ١٢ — ١٩



الفصل الثالث

مواقف المشاقة ودلالتها على قوة العرب العقلية

دلالة المشاقة ووجاهة هذا الفصل — ما في القرآن من صور لها — بحث في المشاقة ودلالتها على قوة عقل العرب — المشاقة في العهد المكي — صور من الآيات القرآنية عنها — في العهد المدني — صور قرآنية للمشاقة فيه .

— ١ —

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تشير إلى مواقف المشاقة والمعارضة والمناوأة التي كان يقفها العرب من النبي (ص) كفاراً ومنافقين ، وتحكى اقوالهم وافعالهم ، وتصف مكرهم ومكائدهم وحجاجهم ولجاجهم .

والمشاقة والمعارضة في كل زمن وهدف ومهما كان امرها تنطوي على شيء من الحيوية والقوة العقلية التي تدفع اصحابها إلى الوقوف من معارضيهم وخصومهم تلك المواقف ؛ سواء أكان ذلك بدافع العقيدة والايمان أم بدافع الأنانية والطمع والطموح ، أم بدافع الاستكبار والحسد والعناد واللجاج . فان كل ذلك لايمكن أن يبدو من أناس اغبياء غافلين ، وضعفاء خاملين . وبقدر ما يكون عليه موضوع المعارضة والمشاقة من خطورة ، وما يكون الطرفان عليه من قوة مادية او عقلية اونفسية تكون النتائج والمظاهر بطبيعة الحال .

هذا ما جعلنا نعقد هذا الفصل في هذا الباب ، ونستعرض شيئاً مما جاء في صدد مواقف الكفار والمنافقين من أهل بيئة النبي (ص) من الآيات القرآنية لنتبين ما كانت عليه قوى العرب العقلية من هذه الناحية ايضاً . ولا نشك في ان هذه المواقف تصلح لتكون مقياساً لهذه القوى ، ومظهراً من مظاهرها .

والذي يتمعن في الآيات القرآنية يجد فيها صوراً كثيرة لتلك المواقف ، حيث يجد صوراً للجدل العنيف والخصومة العنيدة ، وصوراً للجاج والحجاج والمكابرة ،

وصوراً للمكر والدس والاحراج في المسائل والمطالب والمشاكل ، وصوراً للأنانية والاستكبار والسخرية والاغراء والاغواء . وفي طيات هذه الصور القرآنية تلمح عقلية قوية ، وشعوراً شديد بالذاتية والكيان ، ونفسية طامحة طامعة، ودفاعاً عن تقاليد ومصالح تراءى لاصحابها أنها مهددة ، وعناداً ناشئاً عن استكبار وذاتية وعقل وليس عناد الغبي الغافل ، والضعيف الخامل ، والأحمق الجاهل .

ولهذا فمن الحق ان يطيل الباحث النظر في هذا المواقف والصور ، حيث يرى فيها مظهراً قوياً من مظاهر القوى العقلية في أهل بيئة النبي (ص) وعصره ، وخاصة في المدن ، وبنوع أخص في الطبقات التي تولت قيادة المشاقة والمعارضة والتي عناها القرآن في هذه الآيات :

١ — وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ... الانعام ١٢٣ - ١٢٤

٢ — وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا إنما نحن مصلحون،ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ... البقرة ١٢ - ١٣

واذا لاحظنا ان هؤلاء المشاقين الكفار والمنافقين قد كانوا رجالاً بلغوا أشدهم وبرز اكثرهم في بيئته في مختلف المناحي قبل البعثة النبوية حق لنا ان نرى ان المظهر القوي الذي تمثله مواقفهم لقواهم العقلية إنما تمثل في الحقيقة مظاهر القوى العقلية قبل البعثة ؛ وحينئذ يتسق بحثنا من هذه الناحية .

— ٢ —

ولقد يقال في هذه المناسبة إن المماراة والمعارضة لما جاء به النبي (ص) من الدعوة المؤيدة بقوة الله وروحانية الحق والمنطوية على صدق اللهجة ونصاعة الحجة لا تكون من اناس أقوياء العقول والمدارك ؛ ومع أن هذا هو الذي كان يدفع بعض المؤلفين قديماً وحديثاً الى الحط من تلك العقول والمدارك ، وتصوير عهد

ما قبل البعثة تصويراً قاتماً يخبط اهله بالجهل والغباء، ويرتكسون في الانحطاط والتوحش تديناً وتأثماً ،وذهاباً الى ان هذا الوصف هو الذي يتسق مع مهمة الرسالة النبوية التي ارادها الله لاخراج النساس من الظلمات الى النور ؛ في حين :

(١) إن هذه الظلمات المعنية هي ظلمات الشرك والوثنية والانحرافات الاخلاقية والاستغراق في شهوات الدنيا وملاذها ، ونسيان الآخرة وحسابها وعذابها ونعيمها ، وليست ظلمات الجهل والتوحش وانحطاط المدارك والقوى العقلية كما يمكن ان يفهم ذلك من سياق الآية التى تذكر تلك المهمة النبوية:

«الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذي له مافي السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً اولئك في ضلال بعيد . وما أرسلناه من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم .

ابراهيم ١ - ٤

و (٢) إن العقائد الدينية فى الناس في الأعم الاغلب تكون وراثية وتقايدية ولسان حالهم يقول كما وصف القرآن ذلك :

«بل قالوا انا وجدنا آبائنا على أمة [1] وإنا على على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آبائنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون»

الزخرف ٢٢ - ٢٣

و (٣) إن الاهتداء الى الدين القويم يحصل بهداية ربانية وانشراح الصدر وباعداد او استعداد نفسي كما جاء في آيات سورة ابراهيم السابقة وفي آيات كثيرة منها هذه الآية :

«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

الانعام ١٢٥

---

(١) على طريقة او حالة

و (٤) إن العقائد الباطلة او المنحرفة يمكن أن تكون عند أقوياء العقول والمدارك ، والمترقين في مدنيتهم وعلومهم وثقافتهم كما يعرف ذلك بالبداهة والواقع السابق والحاضر . ففي كل زمن ومكان وجدت أديان مختلفة ، ولا يكون الحق إلا في واحد ، ومع ذلك فالذين لم يكونوا من ذلك الواحد الحق ليسوا دائماً اغبياء منحطين ، وهمجاً جاهلين ، بل كثير منهم يفوقون في عقولهم ومداركهم ومدنيتهم وعلومهم كثيراً من الذين هم من ذلك الواحد الحق ؛ وهذا مشاهد محسوس لا يمكن المراء فيه .

ولقد وقف اليهود وبعض النصارى في بيئة النبي (ص) موقفاً مماثلا لموقف كفار العرب، وجحدوا رسالته وناوئوه وكادوا له، ولم تكن الحملة عليهم ولاسيما على اليهود بسبب جهلهم وضعف مداركهم لان هذا لم يكن ليقال عنهم ، وقد استشهد بهم القرآن المكي على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وإنما بسبب كفرهم ومكرهم عناداً وحسداً واستكباراً بينما كانوا يعرفون أن رسالة النبي (ص) حق ومصدقة لما معهم كما جاء في آيات كثيرة نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول .

و(٥) إن الآيات القرآنية التي سنستعرضها في هذا الفصل تحتوي البراهين القاطعة على أن إصرار كفار العرب على كفرهم ومواقفهم الكيدية والمكرية والشقاقية التي وقفوها ولا سيما اهل المدن وبنوع خاص زعماؤهم وكبراؤهم وأغنياؤهم لا يمت الى سبب الجهل والغباء وانحطاط المدارك ، وإنما يمت الى العناد واللجاج والحسد والغرور والانانية وخشية فقدهم منافعهم وامتيازاتهم ومراكزهم ونفوذهم

—٣—

يضاف الى هذا كله أن كثيرين ممن وقفوا موقف المشاقة والمعارضة مدة قصيرة أو طويلة ولا سيما في مكة قد اسلموا ، وكانوا فيما تولوه بعد الاسلام من أعمال الحرب والفتح والحكم والسياسة والادارة والقضاء مثلا في العبقرية والدهاء وسعة الحيلة وحسن التصرف ، وعظمة النفس وبعد النظر، امثال عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن ابي سفيان ومعاوية بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة رضوان الله عليهم وغيرهم وغيرهم ؛ وطبيعي أن هذه الصفات لم تكن

مفقودة فيهم ، ولم تكن الأهلية التي اضطلعوا بقوتها باعباء مهامهم الكبيرة ونجحوا فيها ذلك النجاح الباهر عفو الساعة ، وإنما كانت فيهم من قبل نامية أو كامنة ، وكان كثيرون منهم بارزين وذوي شأن في بيئتهم .

وهذا عدا كبار الصحابة الذين كانو السابقين الى الاسلام، واظهروا الكفايات العبقرية في الحكم والادارة والقيادة والقضاء كابي بكر وعلي وعثمان وأبي عبيدة وسعد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن ابي طالب رضوان الله عليهم وغيرهم الذين نشأوا في تلك البيئة وكان أكثرهم قد بلغ أشده قبل البعثة ، ومنهم من كان بارزاً ذا شأن في قومه ايضاً .

فبيئة ينبت فيها مثل هؤلاء العقلاء الحكماء الاقوياء في نفوسهم وقلوبهم لا يصح ان تعتبر بطبيعة الحال متوحشة همجية منحطة المدارك والقوى العقلية .

وتحسن الاشارة بهذه المناسبة الى أن عن أمثال هؤلاء وآبائهم صدر كثير من تقاليد الحج والأشهر الحرم وغيرها من التقاليد الاجتماعية التي أقر الاسلام كثيراً منها إما على حاله أو بعد شيء من التهذيب ، وقد انطوت من دون ريب على فوائد ومنافع وغايات بعيدة المدى تدل على البصيرة الصائبة والنظر الثاقب والعقل الراجح .

وكذلك تحسن الاشارة ايضاً الى ان اللغة العربية القرآنية كانت لغة هؤلاء وامثالهم وآبائهم الأقربين ، وهي اللغة التي وصلت الى أسمى الطبقات واروعها فصاحة وبلاغة وقوة بيان وتفنن أسلوب وغزارة مادة وبراعة صرف ونحو واشتقاق وبديع ، والتي استدللنا بها على ما كان عليه اهل بيئة النبي (ص) وعصره من عقل حي وذهن وقاد ، واحساس مرهف وذوق سليم ، وبصيرة نافذة .

ونذكر القارىء بما قلناه في الفصل الأول من هذا الباب من أنا لسنا منفردين بهذا القول ، وقد قاله قبلنا كثير من المفسرين ، وقد نقلنا اقوال ثلاثة من أجلتهم ...

— ٤ —

ومواقف المشاقة والمعارضة التي وقفها العرب كانت في عهد مكة والمدينة على السواء . والقرآن المكي يمثل الاول كما ان القرآن المدني يمثل الثاني .

ولقد كان الاول هو الاشد أذى والأبعد نكاية ، لأن أهل مكة كانوا في موقف القوى العزيز الجانب ، وكان المسلمون في حالة القلة والضعف التي أشارت اليها احدى آيات الانفال مذكرة :

« واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ... ٢٦

وقد ثبت الله نبيه (ص) فظل يحمل المهمة العظمى التي اختاره الله لها ، ولم يبال ما لقيه مقدراً خطورة هذه المهمة تقديراً جعله قوي النفس قوى القلب قوى الجلد، أشد مايكون رباطة جأش وثبات جنان ، وقوة عزيمة ، ومضى في المهمة الى النهاية، فناصبه الزعماء والاغنياء والوجهاء والكبراء والنبهاء عداء شديداً عدته اللجاج والحجاج والجدل والسخرية والاحراج والتكذيب ، وفي كل ذلك يبدون اقوياء عنيفين ، شاعرين بقوتهم وذاتيتهم ، مناضلين عن عقائدهم وتقاليدهم وتراث آبائهم ، وعن ماظنوه مصالح لهم ستضيع ، ومراكز ستهدم ، وامتيازات ستفقد ، وحرمة ستزول نضالاً قوياً عنيفاً فيه من قوة الجدل واللدد والعناد ، وتنوع الاساليب مايدل على أنهم كانوا على جانب غير يسير من العقل والذكاء والفطنة والدهاء ، والادراك والتدبير ، ولم يبالوا بما كان ينذرهم به بلسان القرآن من عذاب الدنيا والآخرة ، بل كانوا يقابلون هذا بالتكذيب تارة والسخرية تارة والتحدي تارة كما تمثله هذه الآيات :

١ ــ واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا اساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء اوآتنا بعذاب أليم ... الانفال ٣١ ــ ٣٢

٢ ــ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ... سبأ ٤٣

ــ ٥ ــ

والآن نأتي الى ايراد شيء من الآيات المكية التي تصور مواقف المشاقة والمعارضة التي وقفها كفار مكة وخاصة كبراؤها وزعماؤها ونابهوها وتابعهم فيها عامتهم .

ولم نر ضرورة للشرح والتنبيه لأنها قوية الوضوح والدلالة كما لم نر ضرورة الى تصنيفها حسب المواقف لأن هذا انما يتصل بالسيرة النبوية(١) في حين اننا بسبيل عرض مافيه دلالة على قوة عقل وشدة مكر ودهاء ، ونحن على يقين تام من ان الذي يتمعن فيها يلمح ما اردنا التدليل عليه بصورة بارزة .

ونحب ان نلفت النظر اولاً الى أننا لم نسرد إلا القليل من الآيات وأن في القرآن شيئاً كثيراً من الآيات التي هي بسبيل المعارضة والمشاقة ، ولا بد من تلاوة القرآن تلاوة إمعان وتدبر ليقف القارىء على هذه الصفحة الرائعة من الخصومة وقوة اللدد في مناسباتها وسياقها . وثانياً الى أننا لم نورد شيئاً من الآيات التي فيها حكاية عقائد العرب وافكارهم الدينية والجدل حولها تاركين ذلك للباب الرابع :

١ — ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين . وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو انزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون .

الانعام ٧—١٠

٢ — ومنهم من يستمع اليك جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . الانعام ٢٥

٣ — قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كُذبت رُسل من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض اوسلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين .

الانعام ٣٣—٣٥

٤ — وكذب به قومُك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل. لكل نبأ مستقر

---

(١) سيصدر بعد هذا كتاب فصول في السيرة النبوية على نمطه ان شاء الله .

وسوف تعلمون . وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .
الانعام ٦٦ — ٦٨

٥ — ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي اليّ ولم يوحَ اليه شيء ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله ولو ترى إذِ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم أخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .
الانعام ٩٣

٦ — وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ...
الأنعام ١١٢

٧ — تسلك في هذه السلسلة آيات الأنعام ١٢٣ — ١٢٤ التي نقلناها قبل قليل .

٨ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله ...
يونس ١٥

٩ — فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى اليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز او جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل . . .
هود ١٢

١٠ — ولو أن قرآناً سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى(١) بل لله الأمر جميعاً أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزيء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ...
الرعد ٣١ — ٣٢

١١ — وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرُهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ...
ابراهيم ٤٦

١٢ — إلهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون .

---

(١) الجواب مضمر تقديره لما آمنوا

لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين . واذا قيل لهم ما ذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ...

النحل ٢٢ – ٢٥

١٣ – وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ...

النحل ٣٥

١٤ – نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونو حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً ..

الأسراء ٤٧ – ٥١

١٥ – وإن كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ...

الأسراء ٧٣ – ٧٤

١٦ – وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترق في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ...

الاسراء ٩٠ – ٩٣

١٧ – ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب قبلا . وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً...

الكهف ٥٤ – ٥٦

١٨ — وقال الذين كفروا ان هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم أخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ...
الفرقان ٤ — ٥

١٩ — وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ...
الفرقان ٣٠ — ٣٢

٢٠ — وإذا راوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ...
الفرقان ٤١

٢١ — وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا . . القصص ٥٧

٢٢ — ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه ايابنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب اليم ...
لقمان ٦ — ٧

٢٣ — وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق أنكم لفى خلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لايؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ...
سبأ ٧ — ٨

٢٤ — وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الايل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ...
سبأ ٣٣

٢٥ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم ائن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيء ...
فاطر ٤٢ — ٤٣

٢٦ — إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ...
غافر ٥٦

٢٧ — وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك ...
الزخرف ٣١ — ٣٢

٢٨ — ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أءلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ... الزخرف ٥٦ - ٥٧

٢٩ — كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون ... فصلت ٣ - ٧

٣٠ — وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فصلت ٢٦

٣١ — ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . واذا علم من اياتنا شيئاً أتخذها هزواً اولئك لهم عذاب مهين ... الجاثية ٨ - ٩

٣٢ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين . أم تأمرهم احلامهم بهذا ام هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . الطور ٢٩ — ٣٣

٣٣ — فلا تطع المكذبين . ودّوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . القلم ٨—٩

٣٤ — وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . القلم ٥١

٣٥ — انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إنْ هذا إلا قول البشر . المدثر ١٨ — ٢٥

٣٦ — إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. واذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. المطففين ٢٩—٣٢

ولا يستكثرن القارىء الآيات التي نقلناها ، فهي مازالت قليلة جداً بالنسبة

لأمثالها في القرآن وقد قصدنا اعطاء صور عديدة ومتنوعة لأساليب الجدل والمكر والتعجيز والاحراج، والسخرية واللجاج والنكاية والاستكبار والصد والاعراض، واللدد في الخصومة ليلمس في ذلك ما نوهنا به من قوة المدارك والعقول ، وحدة الذكاء والبصر في اساليب الجدل والخصومة واللجاج .

ونلفت النظر خاصة الى بعض الصفات التي وصفتهم بها بعض الآيات من انهم كانوا قوماً خصمين ، وانهم كانوا مبينين في الخصومة ، وانهم كانوا شديدي المكر وانهم كانوا يعلمون ، وأنهم كانوا أصحاب أحلام وعقول ؛ ثم الى ما أشارت اليه بعض الآيات وله امثال كثيرة اخرى من ما كان احياناً من اثر مواقفهم هذه في نفس النبي (ص) من أزمات مع ما تحلى به من اخلاق كريمة وصدر واسع ، وعلم بحالات النفوس والقلوب ، وقدرة على الكظم والعفو ، ومداراة الناس ومخاطبتهم حسب عقولهم .

— ٦ —

أما العهد المدني ، فانه مالبث أن صار عهد قوة ومنعة للنبي (ص) والمسلمين ؛ ولذلك اضطر المشاقون والمعارضون إلى الانتشاح بثوب النفاق ، والقيام بدورهم بالدس والختل والمكر والتبييت والمؤامرات السرية والغمز واللمز وايغار الصدر والتثبيط في الفرص المواتية والمواقف المساعدة.

ومهما يكن أمر فان موقفهم لم يكن أقل دلالة على قوة العقل والنفس والكيد والدهاء من مشاق العهد المكي ومعارضيه إن لم يكن اقوي ؛ فمشاقة أصحاب القوة والسلطان تنطوى في احوال كثيرة على جرأة وقوة همة ، وسعة حيلة ودهاء لما يرافقها من التعرض للخطر والأذى ؛ ولذلك فان موقف المشاقين والمعارضين في العهد المدني يصح أن يعد كذلك مقياساً للقوي العقلية في مدينة كبري من مدن الحجاز في عصر النبي (ص) وبيئته ومظهراً لها ، وبالتالي يصح أن يكون دعامة لما تدل عليه مواقف المشاقة والمعارضة من قوي عقلية في عصر النبي (ص) وبيئته بوجه عام وخاصة في المدن الحجازية .

والآن نورد شيئاً من الآيات المكية التي تمثل مواقف المنافقين ، وسيلمح

القاريء فيها جرأة وقوة ، وخبثاً ومكراً سواء في ريائهم وختالهم ومؤامراتهم أم في توليهم الكفار واليهود، أم في جرأة في الاقوال والأفعال في بعض المواقف الحرجة. وقد احتوت الآيات لهذه الأسباب حملة شديدة عليهم ونضائح لهم يتلو بعضها بعضاً، ودعوة إلى الوقوف منهم موقف العنف والصرامة والحزم ، وهو مالم يكن في الآيات المكية بالنسبة للمشاقين في العهد المكي حيث اكتفت الآيات بالتسفيه والأنذار والتنديد . وطبيعي أن هذا متسق مع طبيعة كل من العهدين ، وحالة النبي (ص) والمسلمين فيها :

١ — ومن الناس من يقول أمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين أمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . البقرة ٨ — ١٤

٢ — ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولىّ سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ... البقرة ٢٠٤ — ٢٠٦

٣ — وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ... آل عمران ١٦٦ — ١٦٨

٤ — ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً.

وإذا قيل لهم تعـــالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ... النساء ٦٠ — ٦١

٥ — وإن منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله علي إذ لم اكن معهم شهيداً ... النساء ٧٢

٦ — إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً . بشر المنافقين بان لهم عذاباً اليما . الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذا مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ... النساء ١٣٧ — ١٤١

٧ — لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون. ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ... التوبة ٤٧ــ٥٠

٨ — ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون ... التوبة ٥٦

٩ — ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ... التوبة ٥٨

١٠ — ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم . يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق ان يرضوه إن كانوا مؤمنين ... التوبة ٦١ــ٦٢

١١ — يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا

إن الله مخرج ماتحذرون(١) . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ... التوبة ٦٤-٦٥

١٢ — المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ... التوبة ٦٧

١٣ — ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ... التوبة ٧٥-٧٦

١٤ — الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ... التوبة ٧٩

١٥ — وإذا ما أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطوْل منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ... التوبة ٨٦

١٦ — والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفنّ إن اردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ... التوبة ١٠٧

١٧ — واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون ... التوبة ١٢٧

١٨ — وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وماهي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوْها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار وكان عهد الله مسئولاً ... الاحزاب ١٢-١٥

١٩ — قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير

(١) كانوا يتفكهون في مجالسهم قائلين الآن ينزل فينا على النبي (ص) سورة في معرض الاستهزاء .

اولئك لم يؤمنوا ... الاحزاب ١٨ــ ١٩

٢٠ ــ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين اين ماثقفوا أخذو وقتلوا تقتيلا ... الاحزاب ٦٠ــ ٦١

٢١ ــ ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودونَ لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله (١) بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير... المجادلة ٨

٢٢ ــ اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ... المنافقون ١ــ ٢

٢٣ ــ هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لايفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون ... المنافقون ٧ــ ٨

وهذه الآيات ليست كل ماورد فى صور مواقف المنافقين ، ولكنها تساعد على مانظن على اقتباس الصور التي أردناها ، وتبين مقدار ما كان فيهم من حيوية ونشاط وحدة ذهن وقوة عقل وجلد ودهاء .

---

(١) من قبل الاستهزاء .

الباب الرابع

في العقائد والأديان

تمهيد

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً حول الأديان والعقائد التي كانت سائدة في عصر النبي (ص) وبيئته، وهذه الآيات وان كانت في صدد تفنيد الأديان والعقائد الباطلة ، ومجادلة اصحابها وتقريعهم واقامة الحجة عليهم ، ولفت نظرهم الى ماهم عليه من سخف ، والى ما في أصرارهم على الباطل من بعد عن محجة العقل والمنطق ، ثم في صدد تصحيح العقائد التي كان عليها الكتابيون ، ومحاجتهم في ماهم فيه من انحراف ، وإقرار للامور في نصابها الحق ، فان فيها صوراً كثيرة للعقائد والافكار الدينية التي كانت سائدة في ذلك العصر والبيئة .

وقد عقدنا الباب على العقائد والأديان لانهما متلازمان من ناحيه وبينهما بعض الفروق من ناحية اخرى . فالدين هو الايمان بمعبود ما والاتجاه اليه ، والعقيدة تشمل الدين بالمعنى المتقدم ، وتشمل التقاليد والأفكار وخاصة الدينية منها الراسخة رسوخاً شديداً ، هذا بقطع النظر عما يمكن ان تتناوله الكلمتان من معان اخرى لا نرى ضرورة هنا الى التبسط فيها .

وبحثنا في هذا الباب سيتناول وصف وتصوير ما كان من اديان وعقائد وأفكار وتقاليد دينية أو تمت الى الدين بمعنى من معانيه ، كما سيتناول اليهودية والنصرانية وما كان لهما من اثر وانتشار في عصر النبي (ص) وبيئته ، وما كان يجرى حولهما وفي صددهما من جدال وحجاج . اما العقائد الاسلامية فانها خارجة عن نطاق الكتاب ، ولن يتناول البحث منها الا ما كان بينه وبين ماقبل البعث من لحمة وثيقة قد لا يكون غنى عن الاشارة اليه كما فعلنا في الفصول السابقة .

ولما كان بحث الحج والأشهر الحرم وتقاليدها قد دخل في باب الحياة الاجتماعية فقد اكتفينا بذلك ولم نعد اليه في هذا الباب .

وهكذا سيكون الباب محتوياً الفصول الآتية :

١ — الشرك وما ينطوي فيه من عقائد ومظاهر

٢ — المعبودات المادية أو الوثنية

٣ — الملائكة في القرآن وعقائد العرب فيهم

٤ — الجن في القرآن وعقائد العرب فيهم

٥ — اعتراف العرب بالله وتمنيهم بعثة نبي فيهم

٦ — طبقة الحنفاء او الصابئين

٧ — اليهودية والنصرانية ومدى انتشارهما واثرهما

٨ — الطقوس والعادات والافكار الدينية المتنوعة الاخرى

الفصل الأول

الشرك وما ينطوي تحته من عقائد ومظاهر

الشرك عقيدة العرب العامة — مدى هذه العقيدة ومظاهرها — انواع الشرك والشركاء — مدى تعابير الأولياء والشفعاء والشهداء — رجال المشركين الدينيون. رسوخ عقيدة الشفاعة والشفعاء — مدى تعابير الشركاء والأرباب والأنداد والآلهة عند المشركين — تحليلات وتعليلات لتعدد مسميات الشركاء ومدى مدلولاتهم — مظهر خطوة تطورية دينية — تعليلات وتحليلات لتعدد الشركاء — صورة مقاربة لما كان عليه الحال في صدد تعدد الشركاء — بحث في عقيدة العرب باتخاذ الله ولداً — صورة طريفة في مجادلة المشركين عن عقيدتهم بأن الملائكة بنات الله .

— ١ —

إن كلمة الشرك ومشتقاتها ومدلولاتها قد وردت كثيراً جداً في القرآن ، بحيث يستطاع القول إن « الشرك » هو العقيدة العامة التي كانت تسود العرب في بيئة النبي (ص) وعصره ، بل يصح ان يقال إنها كانت العقيدة العربية المحلية .

فأكثر الآيات التي تضمنت الدعوة الى الاسلام او التي خوطب بها غير المسلمين — عدا الكتابيين — او وجهت الى الناس او بالأحرى الى العرب لأنهم اول ناس خوطبوا بها في صدد تلك الدعوة تحتوي ما يمت الى موضوع الشرك ومدلوله بسبب ؛ سواء أكان ذلك في سياق الدعوة الى ذلك ، أم الجدل حول ما عليه الناس او العرب من عقائد ، او التنديد بهم والتسفيه لهم لاشراكهم مع الله آلهة اخرى ، ودعاء مادون الله و تخاذ الأولياء والشفعاء الخ .

واطلاق كلمة « الشرك » ومشتقاتها مثل « المشركين » و « الذين اشركوا » و « الشركاء » و « الشريك » في الآيات يتناول كفار العرب في الأعم الأغلب مترافقاً في المكية منها مع الجدل والتنديد والتحدي والانذار ، وفي المدنية منها مع

العنف والزجر والدعوة الى القمع والبراءة، مما يتسق مع طبيعة عهدي مكة والمدينة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون . . . الأنعام ١٣٦

٢ — أيشركون مالا يَخلق شيئاً وهم يُخلقون. ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون . . . الأعراف ١٩١–١٩٣

٣ — ويوم يقول نادوا شركائيَ الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً . ورأى المجرمون النار فظنوا[١] أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً الكهف ٥٢–٥٣

٤ — سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين. ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه . . . آل عمران ١٥١–١٥١

٥ — فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون . . . التوبة ٥–٦

٦ — يا ايها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . . التوبة ٢٨

—٢—

ومدلول الشرك هو «إشراك» مادون الله مع الله في الألوهية والربوبية والاتجاه والطقوس مع الاعتراف بالله كما يمكن أن يفهم من معنى الكلمة ومن الآيات المكية التي نقلناها آنفاً ومن آيات كثيرة اخرى منها هذه الآيات :

---

(١) هنا بمعنى « ايقنوا » وقد ورد بمعنى اليقين في بضع آيات قرآنية .

١ — سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ...
الأنعام ١٤٨

٢ — وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ...
النحل ٣٥

٣ — وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون..
الزخرف ٣٠

وهذا المدلول يسوغ القول ان كلمة «الشرك» لاتعني نوعاً محدداً من العقائد، وانما كلمة عامة يمكن ان ينطوي فيها عقائد متنوعة، قد تكون احياناً مختلطة ومتداخلاً بعضها في بعض، يجمع بينها ضابط عام وهو إشراك مادون الله مع الله سواء أكان هذا «الدون[1]» وثناً ام ملكاً ام شيطاناً ام قوة من قوى الطبيعة، وسواء أكان ذلك الاشراك في الالوهية ام الربوبية ام العبادة والطقوس ام بقصد الاستشفاع والزلفى.

فالذي يتمعن في الآيات يجد أن بعض الآيات عنت بالشرك إشراك مالا يعقل ولا يسمع ولا يملك شيئاً مع الله في العبادة والاتجاه والدعاء:

«والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون. وإن تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون. الاعراف ١٩٧–١٩٨

وأن بعضاً آخر عنى إشراك الملائكة والجان مع الله:

١ — وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ...
الأنعام ١٠٠

٢ — ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا

---

(١) هذا اللفظ بمعاني «غير» و «تحت» و «الأسفل» و «الأقرب» وقد ورد في الآيات القرآنية التي تحتوي الاشارة الى الشركاء والأولياء والآلهة وعني به «غير الله» و «من هم من دون الله» اقرأ تفاسير الطبري والرازي والخازن مثلاً في تفسير الآية (٢٣) من البقرة.

سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون... سبأ ٤٠-٤١

وأن بعضاً آخر يدل على أن الشرك كان يجمع بين الاعتراف بالله كآله اعظم وبين عبادة الملائكة كشفعاء، مع جعل الأوثان رموزاً مادية لهؤلاء وهو ماعنيناه بكلمتي الاختلاط والتدخل :

١ — ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... يونس ١٨

٢ — قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ... يونس ٣١

٣ — والذين اتخذوا من دونه اولياء[1] مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ... الزمر ٣

٤ — افرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى[2] ... النجم ١٩-٢٢

— ٣ —

وقد عبر عن الشركاء في الآيات تعبيراً متنوعاً او متعدداً . فذكروا في بعضها باسم « الشركاء » كما جاء في آيات الأنعام ١٣٦ والكهف ٥٢ والأنعام ١٠٠ التي نقلناها قبل قليل ، وذكروا في بعضها باسم « الأنداد » :

« وجعلوا لله انداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار... ابراهيم ٣٠

وذكروا في بعضها باسم الآلهة :

١ — قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً ... الاسراء ٤٢

٢ — أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ... الأنبياء ٢٤

---

(١) في الكلام جملة مضمرة تقديرها : ويقولون (٢) اللات والعزى ومناة اصنام وقد أنثوا اسماءها لأنها رموز الملائكة الذين كانوا يعتقدون انهم بنات الله .

وذكروا في بعضها باسم « الأرباب » :

« يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ... يوسف ٤٩

وذكروا باسم الشفعاء في آية يونس (١٨) التي نقلناها آنفاً .

وذكروا باسم الشهداء :

« وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ... البقرة ٢٣

وذكروا باسم « الأولياء » كما جاء في آية الزمر (٣) التي نقلناها آنفاً ايضاً .

— ٤ —

وتعابير « الأولياء » و« الشفعاء » و« الشهداء » تتضمن معنى التوسل والتوسط والاستنصار او الحاجة الى المساعدة والتقرب عند الله .

فالأولياء جمع ولي وهو الحليف او الموالي . وقد مرّ بك في فصل العصبية الاجتماعية عن هذه الكلمة واصل اشتقاقها وهو « الولاء » . ولم يكن العربي يتولى الآخر على هذه الطريقة إلا اذا كان يشعر بحاجة الى نصر او مساعدة ؛ فاطلاق هذا التعبير على الشركاء كأنما يعني ان المشرك كان يتخذ من الشركاء « الأولياء » وسيلة للاستنصار والامن والطمأنينة بسبب شعوره بالحاجة الى ذلك ولقد تضمنت إحدى آيات سورة الاسراء هذا المعنى :

« وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل ... ١١١

كما ان آية الزمر التي اشرنا اليها تضمنت المعنى المراد من اتخاذ الأولياء وهو تقريب المشركين عند الله .

والشهداء جمع « شهيد » وتعني الكلمة « الحاضر او الشاهد » كما قال المفسرون فكأنه اريد بهذا التعبير ان يكون للمشرك شهداء يحضرون معه او يعضدونه في تلبية مطالبه واستجابة دعائه لدى الله . ولقد تعددت اقوال المفسرين[1] في محمول كلمة « الشهداء » في الآيات التي وردت فيها. فما قيل إنها اريد بها ما اتخذه المشركون

---

(١) اقرأ الطبري ج ١ ص ١٢٨ والنيسابوري في هامشه ص ١٨٦ والرازي ج ١ ص ٢٢٧ والنسفي في هامشه ص ١٣٩ وقد رجح الرازي أنهم الرؤساء الاحياء

من الشركاء وقد اطلقت عليهم مجازاً ، وإن هذا ماعنته آية البقرة(٢٣)التي نقلناها قبل . ومما قيل إنه اريد بها الرؤساء الذين يستطيعون المساعدة والنصر والتأييد. وفي الأنعام آية تجعل صرف محمول هذه الكلمة الى الرؤساء الاحياء أقوى وارجح وهي:

« قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم...
الأنعام ١٥٠

فهذه الآية تفيد ان الشهداء الذين يطلبون دعوتهم للشهادة قد يحضرون وقد يشهدون . وطبيعي ان هذا لا يحتمل إلا من حي .غير انا نريد ان نضيف الى هذا القول الثاني رأياً نظن انه وجيه ، وان المراد يستقيم به اكثر وله مماثلة مافي القرآن وهو أن القصد من هؤلاء الرؤساء الشهداء هم رؤساء الدين الذين كانوا يلقنون الناس واجباتهم الدينية ، ويسنون لهم او يذكرونهم بتقاليدهم الدينية لا الرؤساء في الوجاهة والغنى والزعامة . ويمكن ان يكون في روح ومضمون آية الأنعام وسياقها تأييد لهذا التوجيه . لأن الآية جاءت تعقيباً على تنديد حجاجي في صدد تحريم الأنعام وتحليلها ، وتطلب دعوة الشهداء ليشهدوا بكون هذا التحريم والتحليل مشروعين ، ولا يحتمل هذا إلا من شهداء لهم سلطة او رأي ديني مسموع . وعلى هذا فان المشركين كانوا يستعينون بالدعاء والتوسل ايضاً بهؤلاء او اولئك او كليهما لانهم اقرب الى الله واحظى بسبب علمهم ورآستهم الدينية او انقطاعهم للخدمة الدينية ، ويسمونهم شهداء اي حاضرين موجودين عند الاصنام والاوثان أو في بيوتها ،أو منقطعين للامور الدينية ومرجعاً للناس في ما يرغبون معرفته من مراسيمها ومقاليدها وطقوسها ومشاكلها ؛ كما انه كان لهؤلاء سلطة رجال الدين في الفتيا والتشريع والأمر والنهي النافذين . واذا صح هذا التوجيه ففيه صورة من الصور الطريفة غير المعروفة عن ذلك العهد ، ومتسقة مع ذلك مع المنطق والمتعارف ، ومماثلة لما عند الامم الأخرى بل لما لا يزال موجوداً ومتعارفاً في مختلف البلاد على اختلاف درجاتها في الحضارة .

ولقد جاء في سورة التوبة آيات احتوت حملة على اليهود والنصارى لاتخاذهم احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله جاء فيها :

وطبيعي أن وصف الاحبار والرهبان بالربوبية هو بسبيل ما كان لهم على رعاياهم من تأثير شديد يجعل هؤلاء يتلقون أوامرهم كشرع واجب الخضوع والتنفيذ . فوجود رجال ذوو سلطات دينية وسدنة للاوثان والاصنام والكعبة لهم نفوذ وكلام مسموع وسنتهم مطاعة متبوعة متسق مع طبائع الأمور في حد ذاته ؛ ولا يبعد ان يكون العرب مع ذلك قد تأثروا في هذا او في تركيزه باليهود والنصارى .

— ٤ —

والشفعاء جمع « شفيع » وهو الذي يتقدم بالشفاعة بآخر محتاج لها لدى من يكون له حظوة عنده من الاقوياء وذوي الطول ، فكأنما كانوا إذ يتخذون شفعاء يعتبرون أن هؤلاء الشفعاء أقرب الى الله منهم واحظى . وفي القرآن ايات تدل على ان الملائكة كانوا ممن يتخذهم المشركون العرب شفعاء باعتبار انهم احظى عند الله منهم ، وكانوا أو كان منهم من يعتقد أنهم بنات الله ، وهذا ما كان يزيدهم في نظرهم حظوة عند الله وقربى :

١ — وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد (١) مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ... الانبياء ٢٦ — ٢٩

٢ — أفرأيتم اللاة والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للانسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ... النجم ٢٠ — ٢٧

على أن بعض الآيات تلهم أن الشفاعة لم تكن محصورة في الملائكة وان من

---

(١) يعني الملائكة

العرب من كان يعتبر معبوداتهم المادية شفعاء لهم أيضاً :

«أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ..

الزمر ٤٣

فالقرآن الذي مدح الملائكة بما مدحهم به في آيات الانبياء التي نقلناها وغيرها لا يمكن ان يصفهم بغير العقل ، وبالتالي فلا بد من ان يكون المعنيون غير عاقلين أي اوثاناً .

ويبدو من بعض الآيات أن المشركين كانوا يؤدون لشفعائهم نوعاً من العبادة حيث كانوا يعاتبون على ذلك فيعتذرون بانهم إنما هم شفعاؤهم عند الله على ما جاء في آية سورة يونس (١٨) التي نقلناها قبل .

وبهذه المناسبة يجدر ان ننبه على كثرة ما ورد في القرآن من الآيات التي تتضمن كلمة « الشفاعة » ومشتقاتها والتي تنفي نفع الشفاعة وتأثير الشفعاء الذين لا يرتضيهم الله ولا يأذن لهم . وصيغة الآيات قوية وحازمة ، مما يدل على ان فكرة الشفاعة والشفعاء مما كان راسخاً ، وان الاعتقاد بفائدتها مما كان قوياً وشائعاً في اذهان العرب حتى اقتضت الحكمة ان تكون الآيات بهذا الأسلوب لزعزعة هذا الاعتقاد وإضعافه أو إزالته بالمرة ، لأنه مؤد الى الشرك عن طريق الاعتقاد بنفع الشفعاء وتأثيرهم كما ترى في الأمثلة الآتية

١ — واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ...

البقرة ٤٨

٢ — من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ... البقرة ٢٥٤

٣ — يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ... الأعراف ٥٣

٤ — لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ... مريم ٨٧

٥ — يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون .... الأنبياء ٢٨

٦ — ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء

وكانوا بشركائهم كافرين ... الروم ١٣

٧ — مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ... السجدة ٤

٨ — أم أتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ... الزمر ٤٣

٩ — وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ... النجم ٢٦

١٠ — فما تنفعهم شفاعة الشافعين ... المدثر ٤٨

ويمكن أن يقال إن أذهان العرب او أذهان كثير منهم ما كانت لتسيغ ان دعائهم الى الله يستجاب اذا وجه منهم اليه مباشرة ، وانهم لابد لهم من وسطاء يختصونهم بالاتجاه المباشر ، ويتوسلون بهم الى الله ويشركونهم في الدعاء ويقومون نحوهم ببعض العبادات ، فتركزت في أذهانهم فكرة الشفاعة والشفعاء حتى كانت جزءاً من عقائدهم وعاداتهم ، وحتى انقلبت هذه العقيدة الى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر كما يفهم من فحوى الآيات التي اوردناها وامثالها التي لم نوردها.

على ان من الحق ان نستدرك ان عقيدة الشفاعة والشفعاء ليست خاصة بالعرب وانها كانت حتى على النحو الذي كانت عليه عند العرب وما تزال في كل عصر وبيئة وعند كل امة ونحله وسواء منهم الكتابيون وغير الكتابيين وخاصة بين العوام باشكال وصور ومظاهر متعددة ، وان فكرتها انتقلت الى المسلمين وظهرت عندهم كذلك بمظاهر متعددة ايضاً . وقد كان فى الآيات التي جاء فيها ان الشفاعة لا تنفع الا لمن أذن الله ورضي عامل على انتقال الفكرة واستمرارها . وفي الاحاديث و كتب السيرة والتراجم روايات عديدة تؤيد ذلك . وبطبيعة الحال يجب ان يفهم ان فكرة الشفاعة التي استمرت في الاسلام وعند عقلاء المسلمين هي في الجوهر والاساس فكرة مبرأة من نزعات الشرك التي حاربها القرآن .

— ٥ —

اما تعابير « الشركاء » و « الأرباب » و « الانداد » و « الآلهة » فانها تتضمن معنى المماثلة والاشتراك مع الله في الربوبية .

فالشريك قسيم لشريكه وله وعليه في الشركة نصيب مماثل. ومعنى هذا أن المشركين إذ سموا معبوداتهم شركاء كانوا يعتقدون انهم قسيمون لله في ملكه والتأثير فيه بضر أو نفع بشكل ما ، وهذا ما يمكن أن يفهم من الآيات التي ذكر فيها الشركاء بأسلوب فيه تحد وتهكم وتسفيه ، ونفي بات بان يكون لهم أي نصيب او شركة باي شكل كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي الى الحق أفمن يهدي إلى الحق أحق ان يتبع أم من لايهدّي إلا ان يُهدى فمالكم كيف تحكمون . يونس ٣٤ — ٣٥

٢ — الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون . الروم ٤٠

٣ — قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير . سبأ ٢٢

٤ — قل ارأيتم شركائكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من من الأرض أم لهم شرك في السموات . . . فاطر ٤٠

ومن معاني « الرب » المالك والسيد المطاع وصاحب الامر والشأن ، والمربي والمنشيء . وقد قال الزمخشري إن هذا التعبير لا يطلق أي لا يستعمل بدون اضافة إلا على الله وحده .

وفي سورة الناس استعملت الكلمة في ما استعملت فيه كلمة الاله :

«قل اعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس... ١ — ٣

وفي آية سورة يوسف (٣٩) التي نقلناها مقارنة بين الله والارباب ، وهذه المقارنة يمكن ان تحمل معنى استعمال الكلمة في مقام المماثلة لكلمة «الله » و «الاله»

وهذا المعنى يلمح كذلك في آيات قرآنية اخرى حيث تصف الله برب العالمين ورب السماوات والارض ورب العرش العظيم كما ترى :

١ — قل من رب السماوات والارض قل الله . الرعد ١٦

٢ — قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم... المؤمنون ٨٦

٣ — الحمد لله رب العالمين ... الفاتحة ١

كما ان هذه الكلمة استعملت في آيات كثيرة في التعبير عن « الله » كما ترى في الامثلة التالية :

ادعو ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ... الاعراف ٥٥

٢ — رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض . يوسف ١٠١

٣ — وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق .

الاسراء ٨٠

٤ — وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ... غافر ٦٠

فمن هذا يظهر ان تعبير « الرب » وإطلاقه على المعبودات والشركاء يحمل معنى المماثلة والربوبية والألوهية .

والأنداد جمع « ند » وهو العدل والكفوء والمماثل وقد ذكر بعض المفسرين(١) ان هذه الكلمة تتضمن معنى المخالفة او المضادة بالاضافة الى معنى المماثلة من « الندود »؛ فكانما اريد بهذا التعبير الاشارة الى ان المشركين كانوا يعتبرون الشركاء الذين يتخذونهم أنداداً لله واكفاءً مماثلين ومناظرين له . وفي الآيات الآتية تجد هذا المعنى واضحاً بل تجد في بعضها معنى المماثلة المعارضة او المخالفة التي اشار اليها المفسر النيسابوري .

١ — ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ... البقرة ١٦٥

٢ — وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيلة قل تمتعوا فان مصيركم الى النار .

ابراهيم ٣٠

---

(١) النيسابوري على هامش الطبري ج ١ ص ١٧٩

٣ـ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ... سبأ ٣٣

وقد ذكر الرازي من جملة الاقوال عن الانداد أنهم الرؤساء الذين كانوا يأمرون الناس فيطيعونهم كما يطيعون الله . غير ان اكثر الاقوال على ان المراد بالانداد المعبودات والشركاء ، والآيات الآنفة تجعل الرجحان لهذه الاقوال .

والاله هو اقوى التعابير في الدلالة على المعبود . ولذلك اطلق في القرآن على الله ونفى ان يكون اله غيره أو معه . واطلاق المشركين هذا التعبير على شركائهم قد يعني اعتبارهم اياهم معبودات رئيسية مساوية لله عز وجل . وقد حكي القرآن عجبهم من دعوة النبي (ص) الى الله وحده :

« أجعل الآلهة الها واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ... صاد ٥ — ٧

ورد عليهم القرآن ردوداً فيها افحام منطقي وفيها تأييد لما قلناه من انهم كانوا يعنون باطلاق تعبير الآلهة على شركائهم انهم آلهة رئيسية مساوية لله كما ترى في الآيات التالية :

١ ـ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا ... الأسراء ٤٢

٢ ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ... الانبياء ٢٢

٣ ـ ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا لايستطيعون نصر انفسهم ولاهم منا يصحبون الانبياء ٤٣

وعلى هذا فاننا نستطيع ان نقول إنه كان لمشركي العرب شركاء وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله وشركاء اصليون ومماثلون واكفاء له ، وإنه كان يطلق على الاولين اسماء « الاولياء والشفعاء والشهداء » وعلى الآخرين اسماء الشركاء والارباب والانداد والآلهة .

ولقد يخطر بالبال سؤال وهو ما إذا كان اهل النبي (ص) وبيئته المشركون قد اتخذوا شفعا ووسطاء وفي الوقت نفسه كان لهم شركاء رئيسيون مع الله ؟ واذا كان هذا واقعاً فكيف يوفق بينه وبين ما جاء في بعض الآيات من حكاية اقوال لهم فيها اعتذار عن اتخاذ الاصنام والشركاء بأنهم انما يتخذونهم شفعاء ويعبدونهم ليقربوهم الى الله زلفى كما جاء في آيتي يونس والزمر (١٨) و (٣) ثم كيف يوفق بينه وبين ما جاء في بعض الآيات من اعترافهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السماوات والارض كما جاء آيات عديدة منها :

١ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الزخرف ٩

٢ — ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون . . . ـــ ٨٧

ونظن اننا في غنى عن التنبيه على ان حكاية اقوالهم تتضمن تقرير فهمهم للمراد من لفظ الجلالة وتعبير العزيز ، وعلى ان هـذا الفهم يتسق مع المدلول الحقيقي والقرآني للتعبيرين ، وانه ليس من محل للقول إن العرب في قولهم « الله » يمكن ان يكونوا قصدوا غير الله الحقيقي المراد في القرآن ؛ ففي الآيتين اللتين نقلناهما وفي كثير من الآيات غيرهما صراحة لاتحمل ترددا ولا كلاما .

ومهما يكن امر فالآيات القرآنية تساعد على القول إن الذين حكيت فيها اقوالهم كانوا يعتقدون بالله كاله اعظم خالق الاكوان ومدبرها ، ويكتفون باتخاذ الشفعاء والاولياء لديه ويقومون نحوهم ببعض العبادات ، ويعتقدون بأن لهم اثراً في النفع والضر والخير والشر بسبب حظوتهم عند الله ؛ ومن هنا استحقوا وصف المشركين .

وما دام ان آيات قرآنية كثيرة قد تضمنت ذكر الشركاء والارباب والانداد والآلهة ، واحتوت حملات تقريعية على المشركين الذين يشركون مع الله شركاء وأنداداً وآلهة وأرباباً ، وفيها ما يلهم أن المشركين كانوا يعتقدون لهؤلاء مماثلة او مشاركة او ندية او قدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والاعطاء والمنع

فأن منطق البحث يؤدي بنا الى القول إنه كان بين مشركي العرب من اهل بيئة النبي (ص) وعصره أناس يعترفون لله بالألوهية أو الربوبية العظمى ويكتفون بالشفعاء والأولياء ، وأناس كان لهم معبودات او آلهة رئيسيون يشركونها مع الله؛ والبيئة تحمل ذلك فيما يتبادر لنا ؛ فقد كان سكانها متفاوتين في ظروف الحياة ووسائلها من حيث الحضارة والبداوة ومن حيث التنقل والاقامة ، ومن حيث الاحتكاك بالعالم والعزلة عنه كما فصلناذلك في بحوثنا السابقة ؛ ولا يعقل أن يكون التفكير الديني واحداً في هذه البيئة التي يتفاوت سكانها هذا التفاوت .

- ٧ -

فاذا صح استنتاجنا هذا ونعتقد انه صحيح فيكون الاكتفاء بالشفعاء والأولياء وبكلمة اخرى اعتبار الشركاء من أصنام ومخلوقات أخرى وسائل ووسائط الى الله إنما كان من قبل الطبقات النيرة التي تيسر لها ان تتصل بالعالم وبالكتابيين ، وأن ترتفع عن درجة اتخاذ الاصنام المادية والمخلوقات الاخرى آلهة رئيسية لها قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والايجاد والافناء وان تنزلها الى مرتبة الشفعاء والأولياء، لاسيما وقد كانت حوصلة الكتابيين الذين يؤمنون بالله تتسع لشيء مثل هذا حيث كانوا إلى جانب إيمانهم بأله واحد صراحة او تأويلا يتخذون من قديسيهم وانبيائهم ومن الملائكة شفعاء وأولياء يشركونهم في الدعاء ويتوسلون بهم إلى الله ، ولعل في الآية التالية اشارة ما إلى هذا :

«ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ...
آل عمران ٧٩ — ٨٠

اما طبقة العوام والبدو خاصة فانهم ظلوا في تلك الدرجة يعتقدون في معبوداتهم المادية وغير المادية قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والايجاد والافناء مع معنى غير واضح عن الله كاله أعظم ورب للارباب .

وهكذا تبدو لنا آثار خطوة تطورية في التفكير الديني قبل البعثة النبوية مما

سوف نشير اليه بتوسع أكثر في مناسبات آتية .

هذا ؛ واذا نحن سقنا الحديث الى البيئة الحجازية فاننا لا نرمي إلى إخراج البيئات العربية الاخرى مما يمكن أن تحمله البيئة الحجازية من التفاوت في التفكير او الذهنية الدينية ، ولا من احتمال أن يكون آثار خطوة مماثلة قد ظهرت فيها ايضاً .

— ٨ —

وورود كلمات الشركاء والأنداد والآلهة والشفعاء والأولياء والشهداء في الآيات القرآنية بصيغة الجمع يمكن ان يدل على ان المشركين كانوا يعددون شركاءهم ، سواء منهم من اتخذ شركاء رئيسيين ، او شركاء شفعاء ؛ اى إنه كان للجماعة الواحدة مثلاً شركاء عديدون في وقت واحد . وقد حكت آيات سورة صاد ٥ — ٧ التي نقلناها استغراب المشركين وغيظهم من دعوة النبي (ص) إلى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، وحكت كذلك آيات في سورتي الأنبياء والفرقان استخفافهم بالنبي (ص) لأنه يذكر آلهتهم بما يكرهون وتمدحهم لأنفسهم لصبرهم عليها وعدم تأثرهم بدعوة النبي (ص) مما يؤيد ما نقوله من تعدد المعبودات :

١ — وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ... الانبياء ٣٦

٢ — وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها ... الفرقان ٤ — ٤٢

وليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على شيء محدود في موضوع تعدد الآلهة او ايضاح المقصود منه ، وكيفية الجمع بين عبادة آلهة متعددة من قبل جماعة واحدة ، غير ان بعض الروايات قد ذكرت اشياء يمكن ان تكون صحيحة ومفسرة لهذا التعدد . ففي ابن هشام [١] في بحث أصنام العرب ما يفيد أنه كان لكل قبيلة او ناحية او مدينة صنم خاص باهلها . وقد اورد اسماء بعض القبائل والمدن وسمى لكل اسم صنمها او معبودها . فلخولان صنم « عم انس » ولبني ملكان صنم اسمه « سعد »

(١) ج ١ ص ٧٥ ج ١ ص ٨٠

وكانت العزى لقريش وكنانة ، و « اللات» لطائف و «مناة» ليثرب ، وكان لدوس وخشعم وبجيله صنم اسمه « ذو الخلصه »، ولقبائل طي ومن يليها صنم اسمه «الفلس» ولقبائل بكر بني وائل صنم اسمه « ذو الكعبات » في حين أن العرب جميعهم كانوا يشتركون في مناسك حج واحدة ، ويطوفون حول الكعبة ، ويقدسون حجرها ويسعون بين الصفا والمروة ،وكان على الصفا والمروة اصنام ، وفي فناء الكعبة وداخلها اصنام يقدمون لها العبادة والتعظيم ، وقد ذكر ابن هشام كذلك أن الهدى والذبائح كانت تذبح عند صنمي اساف ونائله قرب الكعبة ؛ وان العرب كانوا اذا ارادوا ان يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً او يدفنوا ميتاً ، أو اذا شكوا في نسب احدهم او ارادوا سفراً او تجارة او استخارة في نازلة أو خلاف أو مقصد ذهبوا إلى هبل وكان صنما في جوف الكعبة فاعطوا صاحب القداح مأة درهم وجزوراً وطلبوا منه ان يضرب بالقداح على الأمر الذي ارادوا او اختلفوا فيه [1]، وكان على القداح كلمات أمر ونهي ونعم ولا ، وانه كان لكل بيت صنم خصوصي [2] ، وقد جاء في تفسير البيضاوي أن مناة مشتقة من « النوء » وان العرب كانوا يستمطرون بها اي يدعون عندها من اجل نزول المطر اذا امسكت السماء ، ومهما كان من امر هذه الروايات والاقوال وامثالها فان فيها توجيهاً وجيهاً لهذا التعدد الذي كان موجوداً عند العرب بنص القرآن .

— ٩ —

وإذا أردنا أن نرسم صورة قائمة على الفرض المقارب الواقع على ما نظن فاننا لا نكون متجوزين اذا قلنا إن هذا التعدد لا يخلو من احد تفسيرين : فاما ان يكون هناك آلهة عموميون يشترك في عبادتها اهل المدينة او الناحية او الصقع في المناسبات العامة ، وآلهة خصوصيون للجماعات الصغيرة التي تجمع بينها الأرحام والسكنى والمحلة كالعشيرة والفخذ والحي بل والقبيلة ؛ وأما ان يكون لكل مطلب من

---

(١) ج ١ ص ١٤٢

(٢) ج ١ ص ٨٠ وفي كتاب الاصنام للكلبي كثير مما ذكره ابن هشام وزيادات عليه لم نر ضرورة الى ايرادها .

مطالب الحياة إلٓهاخاص ، فاذا أرادوا ان يستغيثوا جاؤا الى إلٓهه او دعوه ، واذا ارادوا ان يستشفوا من مرض جاؤا الى إلهه او دعوه ، واذا ارادوا أن يقربوا القرابين قربوها عند إلٓهها ، واذا ارادوا ان يستخيروا في عمل استخاروا عند إلٓهه وهلم جرا .

ولا يبعد أن يكونوا جمعوا الأمرين معاً ، او ان يكون منهم من جمعها بحيث كان هناك آلهة عموميون وآلهة خصوصيون ، وكان هناك في الوقت نفسه آلهة مخصوصون لكل مطلب من مطالبهم .

ولقد فعلت الأمم الأخرى مثل هذا في مصر والشام واليونان فمن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوا الفكرة اقتباساً ، او لعل هذا طور من اطوار الحياة الدينية حيث يتوهم الناس وجود آلهة عموميين وآلهة خصوصيين ، وانهم لا غنى لهم عن هذه وتلك ، وحيث يتوهمون كذلك ان تعدد مطالبهم وحاجاتهم او تعدد مظاهر الحياة والطبيعة يقتضي وجود إلٓه لكل حاجة ومطلب أو لكل مظهر من مظاهر الحياة والطبيعة وهذا هو الذي نميل اليه .

وهذا الذي قلناه ينسحب على المشركين الذين اعتبروا شركاءهم رئيسيين او مماثلين او أنداداً او الذين اعتبروهم وسطاء وشفعاء ؛ حيث يصح ان يقال بالنسبة للاخرين إنهم كان لهم شفعاء عموميون اي يشترك في الاستشفاع بهم مختلف الناس وشفعاء خصوصيون للمحلة او القبيلة او العشيرة ، او كان لهم شفعاء ووسطاء لكل مطلب ، أو إنهم جمعوا بين الأمرين ، لا سيما واعتبار الآلهة والشركاء شفعاء ووسطاء هو كما قلنا خطوة تطورية عن الأصل الذي ظل في نطاقه جمهور المشركين وبدوهم خاصة . واذا لاحظنا ان هذه الطبقة كانت من أهل مكة او ان منها من هم من أهل مكة امكن تقوية هذا برواية ابن هشام التي كانت تدور حول امور مكية ، فأساف ونائلة في مكة وهبل في مكة والكعبة في مكة ؛ هذا بالاضافة الى ان الآيات المكية كانت تحكي على الأغلب مواقف وحجاج اهل مكة كما هو المتبادر .

— ١٠ —

وقد مر في بحث الشفعاء أن المشركين العرب كانوا أو كان منهم من يعتقد

أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسلون بهم على هذا الأساس .

وقد رأينا من المفيد ان نتوسع قليلا في هذه النقطة لأنه قد اشير اليها في آيات قرآنية كثيرة ، كما انها تنطوي على صور طريفة من صور التفكير الديني في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة .

إن هذه الآيات متنوعة الاسلوب . فمنها ما ورد فيه لفظ البنين والبنات معاً :

« وجعلوا الله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ... الأنعام ١٠٠

ومنها ما ورد فيه نسبة اتخاذ « الولد » بصيغة المفرد :

١ — وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني ... يونس ٦٨

٢ — وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم ... الكهف ٤-٥

ومنها ما ورد فيه نسبة اتخاذ البنات فقط :

١ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ... النحل ٥٧

٢ — فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ... الصافات ١٤٩

والمتمعن في الآيات على انواعها الثلاث وسياقها يرى انها إنما تحكي اقوالا ومزاعم أوبالأحرى عقائد عربية ، وليست بسبيل العقيدة النصرانية وبنوة عيسى(ص)، وبكلمة ثانية ليست واردة فى صدد مجادلة النصارى أو حكاية عقائدهم ، وانما هي في صدد مجادلة مشركي العرب وتقريعهم .

وننبه اولا على ان تعبير «الولد» يشمل الذكر والأنثى بل والمفرد والجمع احياناً وبنص القرآن (١) وثانياً انه جاء في سورة الانبياء آيات تدل بصراحة على ان المقصود من نسبة الولد هم الملائكة :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . ٢٦ – ٢٧

(١) آيات الانبياء ٢٦ – ٢٧ بدءت بكلمة ولد وفسرتها بعباد

وثالثاً انه جاء في سورة الصافات عقب الآية (١٤٩) ما يدل بصراحة على ان البنات المنسوبة الى الله في عقيدة العرب هم الملائكة :

«أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون. ألا انهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكرون ١٥٠-١٥٥

وهكذا ترتبط حلقات السلسلة بحيث يمكن القول إن الآيات القرآنية بسبيل حكاية عقيدة عربية بان لله اولاداً وإن هؤلاء الأولاد بنات وانهم الملائكة .

وليس بعيداً أن تكون فكرة او عقيدة العرب في اتخاذ الله اولاداً قد تسربت اليهم من النصارى والعقيدة النصرانية . ولقد تحدتهم آيات في سورة الصافات التي احتوت تنديداً بهم على نسبتهم البنات لله بان يأتوا كتاباً يؤيد عقيدتهم :

« أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . »

١٥٦ — ١٥٧

حيث يمكن الاستئناس بهذا التحدي على هذا التسرب ، كأنما أريد القول لهم اذا كان للنصارى كتاب فيه نسبة المسيح ابناً لله ولو مجازاً فهل عندكم كتاب فيه برهان او ذكر يؤيد نسبة الملائكة بنات لله .

-١١-

على اننا نرجح اذا كانت هذه الفكرة قد تسربت للعرب من النصارى او العقيدة النصرانية ان يكون هذا وقع قبل البعثة بزمن غير قصير ؛ ثم تطورت او بعبارة أصح « تأقلمت » ، وارتدت ثوباً طريفاً فصارت بدل الابن الواحد بنات كثيرين ، وبدل الجسم الانساني أو الناسوتي المادي او المشاهد الذي مشي في الأسواق واكل الطعام ملائكة او بعبارة أخرى موجودات روحانية تصورية وغير مرئية .

والأطرف من هذا أن العرب جادلوا عن فكرتهم أو عقيدتهم التي طوروها وأقلموها ، واعتبروها معقولة ومنسجمة مع الفكرة الالهية اكثر من فكرة بنوة عيسى (ص) كما حكت ذلك بعض آيات سورة الزخرف :

« ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، وقالوا آ-لهتنا خير أم هو

ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون .
الزخرف ٥٧ — ٥٠

فهذه الآيات تشير الى جدل وقع بين النبي (ص) والعرب الذين اعتقدوا بأن الملائكة بنات الله واتخذوهم شفعاء لهم ، وتلهم انهم قالوا ان فكرة بنوة الملائكة لله معقولة اكثر من فكرة بنوة ابن مريم لان الملائكة موجودات روحانية غير مرئية وهم بذلك اكثر لصوقاً او انسجاماً مع ابيهم الله في حين ان ابن مريم انسان مادي كسائر الناس ، وتلهم انهم قالوا ايضاً ان عقيدتنا ببنوة الملائكة اكثر اصابة من اصابة النصارى في عقيدتهم ببنوة المسيح(ص) وأن آلهتهم والحالة هذه ويعنون بها الملائكة هي خير من عيسى (ص) الذي اتخذه النصارى الهاً.

وورود ذكر الملائكة في الآيات وما جاء فيها من ان الله لو شاء لجعل ملائكة في الارض لأنهم عبيده كما ان عيسى (ص) عبده يؤيد ان الجدل كان بين عقيدتهم ببنوة الملائكة والوهيتهم وعقيدة النصارى ببنوة عيسى (ص) والوهيته .

وقد رد القرآن عليهم بان القياس غلط والاحتجاج بعقيدة النصارى فيه مع النبي في غير محله فعيسى (ص) هو بشر وعبد أنعم الله عليه وأرسله رسولاً لبني اسرائيل أن اعبدوا الله ربي وربكم، إن ما كان من انحراف في شأنه انما جاء من الناس وللمنحرفين عذاب الله :

«ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم ».
الزخرف ٦٣ — ٦٥

الفصل الثاني

المعبودات المادية او الوثنية

المعبودات المادية عند العرب بوجه عام واستدلالات قرآنية — الفاظ المعبودات المادية في القرآن — لفظ الاوثان ودلالته — لفظ الاصنام ودلالته — لفظ التماثيل ودلالته — لفظ الانصاب ودلالته — اسماء الاصنام في القرآن — اللاة والعزى ومناة — صلة التسمية بين اللاتو البابلية واللاة الحجازية ولفظ الجلالة — ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر — بعل — الطاغوت والجبت — الطواغيت او بيوت الاصنام وكعباتها .

— ١ —

إن المعبودات المادية كانت اكثر مظاهر الشرك عند العرب ؛ وكانت تشغل حيزاً كبيراً في اديانهم وعقائدهم ، سواء في ذلك الذين اعتبروا معبوداتهم آلهة وشركاء رئيسيين مع الله او الذين اعتبروها شفعاء ووسطاء اليه كما تدل على ذلك آيات قرآنية عديدة .

فآية الزمر (٤٣) التي نقلناها في الفصل السابق والتي ذكر فيها الشفعاء وصفوا فيها بأنهم لايملكون شيئاً ولا يعقلون ، وهذه صفات المادة الجامدة . وآية يونس (١٨) التي نقلناها كذلك فيه ، تتضمن شيئاً من هذا ايضاً إذ جاء فيها انهم يعبدون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون إنهم شفعاؤهم عند الله ، وقد جاء في سورة الانبياء آية تذكر انهم اتخذوا آلهة من الارض ممايعنى المواد الجامدة كما هو المتبادر :

« أم اتخذوا آلهة من الارض هم يُنشرون . . . ٢١

وفي سورة الاعراف آيات اطلق فيها على الشركاء صفات المادة الجامدة التي لاتستطيع المشي ولا البطش ولا الابصار ولا السمع كما ترى فيها :

١ — إن الذين تدعون من دون الله عباد[1] امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم

(١) عباد هنا بمعنى مخلوقات حيث يدخل فيها الحي وغير الحي كما فسرها المفسرون وكما هو واضح من روح الآية .

إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بهاقل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلاتنظرون..
الأعراف ١٩٤-١٩٥

٢ -- والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون.وإن تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون ...
الأعراف ١٩٧-١٩٨

-٢-

وألفاظ المعبودات المادية الصريحة لم ترد فى القرآن بكثرة . غير ان الآيات التي ذكر فيها الشرك والشركاء والآلهة والشفعاء والأولياء او التي فيها اشارة الى عبادة او دعاء مادون الله قد تضمنت الاشارة اليهافي سياق التسفيه والتنديدبعبادةمالا يعقل ولايملك ولايخلق ولايرزق ولايحيي ولايميت ولا ينفع ولا يضر ولايسمع ولا يبصر .

على انه قد ورد في القرآن آيات ذكرت فيها ألفاظ « الأوثان » و« الأصنام » و« الأنصاب »و« التماثيل » اولاً وذكرت فيها كذلك اسماء بعض ما كانموجوداً منها في عصر النبي (ص) وبيئته ثانياً .

فأولاً ان لفظ « الأوثان » قــــد ورد في آية من سورة الحج وفي سياق الاشارة الى مناسك الحج وشعائره كما ترى :

«وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق ... الحج ٣٩-٣١

وقد ورد هذا اللفظ ايضاً في آيات قصص ابراهيم وحكاية خطابه لأبيه وقومه كما ترى :

١ — إنما تعبدون من دون اللهأوثاناً وتخلقون إفكاً إنالذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً ... العنكبوت ١٧

٢ — وقال إنمـا اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ...
العنكبوت ٢٥

وآيات الحج خاصـــة في حق أوثان العرب في الوقت الذي نزلت فيه ، تلهم بأن هذه الكلمة تطلق على المعبودات المادية عموماً ، وليست على نوع معين منها ؛ حيث امرت السامعين باجتنابها وبأن يكونوا حنفاء لله غـــير مشركين معه شيئاً ما مطلقاً ، وحيث نعتت الأوثان بالرجس وهو نعت يمكن ان ينعت به كل معبود مادي .

والمفهوم العام لهذه الكلمة ولا سيما كلمة « الوثنية » يؤيد تلك العمومية ، حيث تعني عبادة المعبودات المادية على اطلاقها ، وليس عبادة نوع معين منها .

وثانياً ان لفظ «الأصنام» لم يرد في الآيات التي وجه فيها الخطاب الى المشركين او العرب وإنما ورد في آيات قصص ابراهيم كذلك كما ترى في مايلي :

١ — رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ... ابراهيم ٣٥

٢ — وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . الأنبياء ٥٧

٣ — إذ قال لابيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد اصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . الشعراء ٧٠ — ٧٣

وورد هذا اللفظ ايضاً في سياق آيات قصص بني اسرائيل كما ترى :

«وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . الأعراف ١٣٨

وهذا اللفظ وان لم يرد كما قلنا موجهاً الى مشركي العرب فان آيات سورة ابراهيم قد وردت في سياق حكاية دعاء ابراهيم (ص) في الحرم وقصة إسكانه من ذريته فيه ، وللعرب وخاصة للحجازيين صلة وثيقة بهذه الصلة وذلك السياق كما لايخفى . كذلك فان موقف ابراهيم (ص) من قومه ومحاورته لهم مما لم يرد في التوراة ، ومما يصح ان يكون عربي الرواية والتداول كاكثر قصص ومواقف ابراهيم (ص) على ما اشرنا اليه من قبل . وعلى هذا فلا نجوز اذا قلنا استلهاماً من القرآن إن العرب الذين يسمعون القرآن كان لهم أصنام ، وإن الآيات استهدفت فيما استهدفته الاشارة الى مخالفة صريحة لدعاء ابيهم ابراهيم (ص) ، ولقدسية البلد الذي جعله الله امناً بدعوته ، والى انهم يدخلون

في متناول تنديد ابراهيم (ص) لقومه على اتخاذهم الاصنام . هذا الى بداهة وجود مسمى معروف المدى والعيان عند العرب لكلمة « الاصنام » التي وردت في القرآن والتي لابد من انها كانت موجودة مألوفة في اللغه العربية قبل نزوله .

وثالثاً ان لفظ التماثيل ورد مع لفظ الاصنام في سلسلة واحدة من آيات سورة الانبياء كما ترى:

« إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ... الانبياء ٥٢ - ٥٧

وورد كذلك في معرض ذكر ما كان يعمله الجن لسليمان (ص) من اعمال عظيمة كما ترى :

«ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ... سبأ ١٢ - ١٣

وورود ذكر التماثيل والاصنام في سلسلة واحدة يدل على أن الكلمتين مترادفتان او على الأقل ان الواحدة منها يمكن ان تعبر عن الأخرى او تطلق عليها احياناً . وآيات سبأ يمكن ان تدل على ان التماثيل تصنع صنعاً عدا ان اللفظ نفسه يفيد معنى المماثلة لصورة ما ، وهذا يكون بالصنعة في الأغلب . وقد ورد في بعض آيات قصص ابراهيم (ص) ايضاً ما يفيد ان قومه كانوا ينحتون اصنامهم او تماثيلهم كما ترى :

«فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لاتنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين. فاقبلوا أليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وماتعملون. . الصافات ٩١-٩٦

وهذا يعني ان التماثيل او الاصنام هي احجار او معادن كانت تنحت نحتاً وتصنع صناعة على اشكال وصور ؛ ويعني او يلهم كذلك ان العرب كانوا يطلقون اسم الاصنام والتماثيل على ما هو مخلق من الأوثان ، وانهم كانوا يعرفون مسميات اللفظين وكان لهم شيء منها .

وآيات الاعراف (١٩٤–١٩٥–١٩٧–١٩٨) التي نقلناها قبل قليل تؤيد هذا إذ تلهم ان الاصنام كانت تصنع على أشكال او صور المخلوقات الحية لها أيد وأرجل واعين وآذان .

ورابعاً ان لفظي « النصب » و « الانصاب » قد وردا في آيات ثلاث وجه الخطاب فيها للمسلمين ، ومثل في احداها حركة خروج الناس من القبور يوم الحشر بما اعتادوه من سرعة الجرى نحو الانصاب ، والكلام في صدد المشركين وانذارهم :

١ — حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبُع الا ماذكيتم وما ذُبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام ... المائدة ٣

٢ — ياايها الدين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ... المائدة ٩٠

٣ — يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كانهم الى نصب يوفضون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ... المعارج ٤٣–٤٤

والكلمة مشتقة من نصب ، وقد قال بعض المفسرين إن الانصاب هي الاحجار المنصوبة للعبادة كما قال بعضهم انها مرادفة للاصنام . وقد ذكر هذا الخازن في رواية معزوة إلى ابن عباس (رض) . ومن المحتمل ان لم نقل من المرجح انها تعني المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلقة او غير مخلقة . وفي الآيات قرائن على هذا ؛ فآية المائدة (٤) تشير إلى تحريم اكل الذبائح التي تذبح على النصب أي تذبح عند الاصنام ويذكر اسمها عليها كما فسرها بذلك بعض المفسرين . وقد ذكر ابن هشام [(١)] ان قريشاً كانت تقرب قرابنها عند صنمين قرب الكعبة اسماها « اساف ونائلة » وهما في تقاليد العرب ممسوخان عن رجل وامرأة مما يمكن ان يدل على انهما كانا مخلقين رجلاً وامرأة ؛ كذلك فانه ذكر [(٢)] ان بعض اصنام العرب كان

(١) ج ١ ص ٨٠

(٢) ١ ص ٧٩

صخرة وهي صنم بني ملكان الذي كان يسمي « سعداً » وهي غير مخلقة .

وعلى كل حال فالنصب والانصاب قد ورد ذكرهما في القرآن في صدد العرب مباشره ، وان من المحتمل جداً انهما كانا يطلقان على معبوداتهم المادية المخلقة وغير المخلقة كالاوثان ايضاً .

-٣-

اما الاسماء الواردة في القرآن كمعبودات أو أوثان أو اصنام معينة فهي اولاً اللاة والعزي ومناة . وهذه الاسماء وردت في آيات سورة النجم (١٩—٢٠) .

وقد ذكر ابن هشام (١) ان العزى كانت لقريش وكنانة ومناة للاوس والخزرج واللاة لثقيف الطائف . وقال الكلبي صاحب كتاب الاصنام (٢) ماملخصه ان مناة كانت اقدم الثلاثة وكانت نصباً منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، ومع ان العرب كانوا جميعهم يعظمونه ويذبحون له فقد كانت الاوس والخزرج اكثرهم له تعظيما وبه اختصاصاً ؛ وان اللاة احدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت في الطائف وسدنتها من ثقيف ، وكان العرب وقريش يعظمونها غير ان اهل الطائف اكثرهم تعظيما لها واختصاصاً بها ، وان العزى احدث الثلاثة وهي شجرة بواد نخلة على بعد تسعة اميال من مكة ، وكانت اعظم الاصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون إليها ويذبحون عندها ، وكان سدنتها بني شيبان ؛ وقد استفاضت الكتب بتسميات عربية بعبودية هذه الآلهة مثل عبد اللاة وعبد مناة وعبد العزى وزيد اللاة وتيم اللاة وعبد مناف لاشخاص كانوا في عصر النبي (ص) وبيئته . على ان هناك رواية (٣) ذكرت ان الآلهة الثلاثة كانت اصناماً مخلقة منصوبة في فناء الكعبة ، ومما قاله اكثر من مفسر إن الحجازيين كانوا يستمطرون بمناة وان اسمها مشتق من النوء وهي الريح الماطرة (٤) .

---

(١) ١ ص ٨٢ هامش وذكر هذا جملة من المفسرين منهم الزمخشري والخازن

(٢) ص ١٣ — ٢٧

(٣) الخازن والطبري والنسفي في تفسير آيات النجم .

(٤) ج ٣ ص ٤٠٨ وج ع ص ٢٤٤ .

واذا كان من المتعذر قول كلمة جازمة في هذه الروايات ونرى الافضل الوقوف منهـــا موقف المتحفظ فان ذكر المعبودات الثلاثة في القرآن خبر حاسم بوجودهـا اولاً ، وعدم شذوذ الروايات في صدد ماديتها يسوغ القول بشيء من الجزم انها معبودات مادية ثانياً ، وورود ذكرها في آيات مبكرة في النزول ، وفي وقت لم يكن قد اتصل النبي (ص) بخارج مكة اتصالاً واسعاً ، وباسلوب الخطاب الموجه الى قريبين او بالاحرى اول سامعي القرآن وهم اهل مكة يمكن ان يلهم ان هذه المعبودات من معبودات المكيين ثالثاً ؛ لاسيما وعدد من القرشيين المعاصرين للنبي (ص) كان يتسمى بها جميعها فاسم ابي طالب هو عبد مناف التي يغلب ان تكون مقلوبة عن مناة، واسم ابي لهب عم النبي (ص) هو عبد العزى ، وفي أسد الغابة ذكر لصحابيين اسماؤهم أو اسماء آبائهم عبـــد اللاة وزيد اللاة وتيم اللاة ؛ هذا بالاضـافة إلى ما استفاضت به الروايات من حلف قريش وغيرهم من العرب باسم « اللاة والعزى » خاصة . على انه يجوز ان تكون هذه المعبودات معبودات عمومية للعرب جميعهم وفي ذات الوقت اختصت ثقيف باحداها كمعبود خاص واختصت الاوس والخزرج باحداها واختص المكيون باحداها ايضاً .

وهذه الاسماء الثلاثة بصيغة التأنيث . وقد قال غير واحد من المفسرين (١) ان اللاة مؤنث « الله » والعزى مؤنث « الأعز » او « العزيز » ومناة مفعلة من النوء ومقصود به المعبودة الماطرة .

ومضمون آيات النجم (١٩-٢٧) التي نقلناها يدل بقوة على ان بين هذه المعبودات واسمائها وبين الملائكة صلة ما على اعتقاد العرب. فالآيات تستنكر نسبة البنات الى الله كما تستنكر تسمية الملائكة بالاسماء المؤنثة ، وتنبه على ان الشفاعة لن تكون الا من بعد اذن الله ورضائه ، مع الهامها ان مقر الملائكة هو السماوات ، وكل هذا يأتي في سلسلة منسجمة مع الآيتين الأوليين منها التي ذكرت فيها اسماء المعبودات الثلاثة، ولقد ذكرنا في بحث سابق عقيدة الملائكة بنات الله وبانهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى واوردنا الآيات القرآنية التي تتضمن ذلك ؛ فكل هذا يسوغ القول ان المشركين العرب او

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٧٦

فريقاً منهم قد اعتبر هذه المعبودات رموزاً ارضية للملائكة الذين هم في السماوات ، وسموها باسماء التأنيث تبعاً لعقيدتهم بان الملائكة بنات الله وعبدوها وعظموها واستشفعوا بها واتجهوا اليها على هذا الاعتبار ايضاً؛ ولقد رأينا البيضاوي في تفسيره يقول شيئاً من هذا في سياق تفسير آيات النجم حيث قال إن المعبودات الثلاثة ، « هياكل للملائكة ». وقد قال الطبري (١) ايضاً شيئاً مقارباً حيث قال انهم صوروا أصنامهم على صور الملائكة، وزعموا انها بنات الله وعبدوها من دون الله واشتقوا لها اسماء الله فقالوا « اللاة » من الله و العزى من « الأعز » او « المزيز » . هذا؛ ولقد اكتشف في آثار بابل اسم معبود قديم وهو « اللانو » ، ولا ندري ما اذا كان بين هذا الاسم وأسم « اللاة » صلة ما . ومها يكن من أمر فاننا نرجح ان لفظ الجلالة واطلاقه على رب العالمين متطوران عن هذا الاسم المعبود . وقول المفسرين إن اللاة مؤنث الله هو نوع من التعبير عما نقول كما هو المتبادر .

— ٤ —

وفي القرآن غير الاسماء المذكورة اسماء خمسة اصنام ذكرت في سورة نوح في سياق حكاية موقف قومه وجداله معهم كما ترى في هذه الآية :

« وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »

نوح ٢٣

والذي يتبادر لأول وهلة أن هذه الاصنام اجنبية عن العرب ، وانما وردت فى القرآن في سياق قصة نوح (ص) وقومه .غير أن روايات السيرة وكتب المفسرين ذكرت مايمكن ان يجعل بين العرب قبل البعثة وبين هذه الاصنام صلات وثيقة ايضاً من حيث التسمية بعبوديتها واتخاذ مسميات لها معبودات معاً . فقد ذكر ابن هشام(٢) ان قبائل هذيل كانت تسمي صنمها « سواعاً » وان قبائل همدان كانت تسمي صنمها « يعوق » وان قبائل مذحج كانت تسمي صنمها « يغوث » وان قبائل

(١) ج ٩ ص ١٧٦

(٢) ج ١ ص ٧٧ واقرأ ايضاً تفسير البيضاوي والطبرسي وغيرهما لسورة نوح . اقرأ ايضاً كتاب الاصنام للكلبي ص ٩ — ١٠

كلب كانت تسمي صنمها « وداً » وان قبائل ذي الكلاع كانت تسمي صنمها « نسراً ».
كذلك فقد ذكر هو [1] وذكر غيره اسماء اشخاص عديدين معاصرين للنبي (ص) وقبله بقليل كانوا يتسمون باسماء بعض هذه الاصنام وخاصة « عبد ود » و « عبد يغوث »، وطبعاً لا يمكن ان يكون هذا إلا اذا كانت الاصنام معروفة ومعبودة عند العرب .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هذه الاسماء تحمل طابع اللغة العربية بعض الشيء او في طور من اطوارها بعض الشيء . فيغوث مثلاً متناسب مع الغوث والغيث والاغاثة ، وكل امره انه مضارع ثلاثي غير فصيح ، ومثل هذا يقال عن يعوق الذي هو كذلك متناسب مع العاقة او الاعاقة والتعويق[2] ونسر هو اسم الطائر الجارح المعروف من الاسماء العربية الفصحى، واذا لم يمكنا عزو « ود » و « سواع » الى متناسبات فصيحة فان هذا لا يعني انها منقطعا الصلة بالفصحى بالمرة . ومهما يكن من امر ثم مهما يكن رأينا في التحفظ ازاء الروايات فان هذا التقارب اللفظي بين هذه الاسماء والعربية الفصيحة ثم هذه الروايات عن تسمية الاسماء العربية والاشخاص باسماء هذه الاصنام تسوغ الترجيح بان بعض قبائل العرب كانوا ينعتون اصنامهم واشخاصهم بهذه الاسماء في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة، وبأن هذه التسميات اقدم طوراً من طور اللغة الفصحى القرآنية، ولكن العرب احتفظوا بها كما هي لانها دخلت في نطاق القدسية الذي لا يسهل تجاوزه

— ٥ —

وفي سورة الصافات ذكر اسم « بعل » كصنم او إله في سياق حكاية خطاب الياس (ص) لقومه :

---

(١) ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٥٦ وأسد الغابة . ج ٤ ص ٨٧ و ٢٢٢ . وفي الاخير صحابي اسمه العوام بن جبل المسالى من همذان ذكر في ترجمته انه كان سادناً لصنم يغوث ج ٤ ص ١٥٣

(٢) بعض مشتقات هذين اللفظين ورد في القرآن ١ — هو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا . ٢ — عام فيه يغاث الناس. ٣ — قد يعلم الله المعوقين منكم.

« وإن الياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين . ١٢٣ - ١٢٥

والذي يتبادر كذلك لاول وهلة ان هذا الصنم او المعبود اجنبي ولا علاقة للعرب به . غير ان صلة هذا الاسم باللغة العربية القرآنية تستوقف النظر ، حيث ورد في القرآن كناية عن الزوج كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن احق بردهن في ذلك إن ارادوا إصلاحا .

البقرة ٢٢٨

٢ — وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب. قالت ياويلتي أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب .

هود ٧١ -- ٧٢

وفي التراكيب العربية يكنى الزوج بكنيتي « رب العائلة » و « رب البيت » وهذا متصل من جهة بدلالة « بعل » في العربية واطلاقه على الزوج ، ومن جهة اخرى بمعنى الربوبية التي كان يعتقدها قوم الياس (ص) في المعبود « بعل » كما هو المتبادر .

وبعل كما هو معروف من معبودات بلاد الشام الرئيسية قبل الاسلام بمدة طويلة وكان يمثل بصنم مخدّق ، ولا تزال الكلمة تطلق في هذه البلاد الى اليوم على الارض التي تسقى بماء المطر فقط ؛ فكأنما هذه التسمية موروثة عن تقليد قديم يراد به الاشارة الى الزرع الذي يرويه الله بماء السماء مباشرة .

فهل من التجوز ان يفترض ان الكلمة دخيلة على العربية من قبل البعثة بامد ما قد لا يكون قصيراً ، وان يفترض انها جاءت من بلاد الشام ، وانها لم تجيء وحدها وانما جاءت مع مسماها ؟ اي ان يكون المعبود الشامي « بعل » قد دخل كصنم الى بلاد العرب او الى بلاد الحجاز ، وانه كان من المعبودات العربية فاستعير اسمه لاطلاقه مجازاً على الزوج باعتباره سيد العائلة او رب العائلة ؟ اما نحن فانا لانرى في هذا تجوزاً بل ونرجح امكانه وحدوثه فعلاً . واذا كانت الكتب والروايات

العربية لم تذكر فيما اطلعنا عليه معبوداً أو صنماً للعرب اسمه « بعل » فاننا لا نرى في ذلك هدماً لهذا الفرض وصحته . فانه لن يجادل احد في ان أسماء كثير من أصنام العرب لم تنقلها الروايات ولم تدونها الكتب التي وصلت الينا .

ولقد جاء في ابن هشام (١) حكاية عن عمرو بن لحى وانه رأى اهل الشام يعبدون اصناماً ويستنصرون ويستسقون بها فحمل واحداً منها واتى بها الى مكة ووضعه في الكعبة ، وان هذا الصنم هو « هبل » وان هذا كان أصل دخول عبادة الأصنام الى بلاد العرب وأولها . وفي ما عدا القول بان عمرو بن لحى هو الذي كان أول من أدخل عبادة الأصنام الى بلاد العرب وان أول صنم فيها كان « هبل » ـ لانه من الصعب جداً أن لم نقل من المستحيل التأكد من هذا الاوليات او التسليم بها ـ فاننا نرى الفكرة في الرواية معقولة ، وانه من الممكن ان يكون بعض زعماء العرب قد أعجب في رحلة له في بلاد الشام باحد الأصنام أما لشكله وصورته ، واما بسب حادث خارق وقع له او روي له منسوباً الى كرامة هذا الصنم فحمل نسخة منه الى مكة ووضعه في الكعبة ودعا الناس الى عبادته .

ومن الروايات المتواترة انه كان لقريش صنم اسمه « هبل » وانه كان من الأصنام المهمة عندهم حتى انهم هتفوا باسمه في غزوة أحد لما رأوا انفسهم قد انتصروا على المسلمين فيها ؛ (٢) وان قريشاً كانت تستقسم عنده بالقداح في مشاكلها واستخارتها على ما ذكرناه في مناسبة سابقه . فاذا كان وقع ان احد زعماء العرب اتى بصنم من بلاد الشام ـ وهو ما لا نستبعده ـ وان هذا الصنم هو هبل هذا فلماذا لا يكون قد وقع تحريف ما في النقل او في التسمية الأولى . فالصنم الشامي المعروف هو « بعل » وليس « هبل » واللفظان متقاربان في الوزن ، وفيهما حرفان مشتركان ، والأعاجم يلفظون « العين » « هاء » او ما يقرب منها كما لا يخفى ، فيكون الحرف الثالث كذلك مشتركا او شبه مشترك ، والقلب والابدال سنة معروفة في اللغات وفي اللغة العربية ؛ وقد رأيت مدى معنى كلمة « بعل » في اللغة العربية الفصحى ، ولقد قال

---

(١) ج ١ ص ٧٦.

(٢) ج ٢ ص ٣٧٧ ابن هشام .

بعض المستشرقين (١) ان هبل محرفة من هابثل « و ها » هي أداة التعريف في العبرانية والكنعانية حيث كان يعبد بعل، وسقوط العين احتمال قريب وبعد سقوطها تصبح الكلمة « هابل » او « هبل » وهذا تخريج معقول لتطور انتقال كلمة بعل التي ربما كانت تلفظ بثل الى « هبل »

وقد يرد على هذا سؤال ؛ وهو كيف وجد لفظ « بعل » في اللغة الفصحى منقولا عن الاسم الشامي القديم بعينه ؟ والذي نرجحه أن لفظ بعل ليس هو نص الأسم واصله في بلاد الشام قبل البعثة وانما هو تعريب ، وان استفاضة اللفظ في الكتب والالسنة واطلاقه بنصه «بعل »على المعبود الشامي مما يمت الى التعريب اكثر مما يمت الى اصل لفظه الذي يرجح انه هابثل . ولا ينقض هذا ان يكون الصنم القرشي قد احتفظ باسم « هبل » فمن الممكن ان يكون انتقل من الشام «هابثل» واختصر على هبل وصار مقدساً لا يصح ان يغير ويبدل فيه ؛ وليس هذا شأن الفاظ اللغة بطبيعة الحال .

— ٦ —

وقد ورد في القرآن آيات عديدة ذكر فيها الطاغوت وعبادتها . منها ما هو مكي ومنها ما هو مدني . وفي احدى الآيات المدنية ذكر الطاغوت مع الجبت كما ترى في الآيات التالية :

١ — لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت

---

(٢) تاريخ الأسلام لكايتاني الترجمة التركية . ج ١ وقد ذكر الكلبي عن صفة هذا الصنم انه كان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ادركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب وخالف ابن هشام في امر أولية هذا الصنم حيث ذكر ان أول من نصبه هو خزيمة بن مدركة فكان يقال له هبل خزيمة (ص ٢٨)

يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ...

البقرة ٢٥٦ - ٢٥٧

٢ - ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . النساء ٥١

٣ - ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيداً . النساء ٦٠

٤ - الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ... النساء ٧٦

٥ - قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . المائدة ٦٠

٦ - ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ...

النحل ٣٦

٧ - والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى .

الزمر ١٧

فما هو هذا الجبت وللطاغوت الذين آمن بهما فريق اليهود والطاغوت الذي امر الله الناس ان تجتنب عبادته والذي يخرج من النور الى الظلمات ويقاتل الكفار في سبيله والذي عبده فريق من اليهود ؟

ولقد تعددت اقوال المفسرين ورواياتهم في ذلك ، فمنهم [1] من روى انهما اسما صنمين لقريش ، حيث طلب القرشيون من الوفد اليهودي الذي ذهب لعقد حلف ضد النبي ان يقسموا عندهما ويسجدوا لهما ؛ ومنهم [2] من قال إن الجبت فقط هو اسم صنم لقريش وان الطاغوت بمعنى شديد الطغيان على وزن فعلوت كملكوت وجبروت، وانه كان يطلق على الشيطان وعلى كل من كان شديد البغي من الكفار،

(١) الخازن والطبرسي والبيضاوي في تفسير آية النساء (٥١) مثلا

(٢) الطبري والكشاف في تفسير آية النساء (٦٠) مثلا .

وأن الكلمة في آية النساء (٦٠) قد عنت أحد زعماء اليهود البغاة كعب بن الأشرف، ومنهم (١) من قال إن الجبت والطاغوت هما كل ما يمت الى الشرك بسبب من أصنام وأوثان وانصاب ومن عبادة وولاء واستشفاع واستخارة ؛ وقد ذكر في سياق هذا القول حديثاً عن النبي (ص) فيه ذكر للجبت جاء فيه :

«العيافة والطيرة والطرق من الجبت» .

ويلفت النظر الى ان آية النساء (٧٦) قد ذكرت الشيطان والطاغوت معاً وجعلت الشيطان بدلا من الطاغوت كأنما اللفظان مترادفان. فهذا من جهة ومحصل اكثر الاقوال من جهة أخرى في جانب عمومية اللفظين اكثر منها في جانب كونها اسمين لصنمين لقريش وبتعبير ادق في جانب الرأي الاخير القائل إنهما كنايتان عن الشرك والوثنية والاتجاه لغير الله . وهذا ما ترتاح اليه النفس وتلهمه الآيات بصورة عامة وخاصة بالنسبة الى لفظ الطاغوت الذي تعدد وروده في صدد التنديد بعبادة غير الله . وآية النحل (٣٦) المكية تؤيد رأي عمومية معنى الطاغوت وبوضوح اكثر وتحمله معنى الشرك والعبادات الباطلة ، وكذلك آية الزمر (١٧) ايضاً . واليهود الذين ذكروا في آية المائدة (٦٠) بأنهم عبدوا الطاغوت في دور من ادوارهم انما عبدوا العجل وبعل والاصنام كما ذكرته اسفار التوراة ، وهذا يؤيد كذلك بقوة كون الطاغوت لفظاً عاماً يعني الشرك والوثنية والعبادات والعقائد الباطلة . ومما يمكن ان يضاف الى هذا ويؤيده ان روح الآيات جميعها تلهم ان الطاغوت والجبت ليسا اسمين وانما هما نعتان ونعتا تشنيع وذم . وهذا يبدو خاصة في لفظ الطاغوت الذي ذكر المفسرون انه مشتق من الطغيان .

— ٧ —

ولقد ذكر ابن هشام (٢) انه كان للعرب بيوت يعظمونها ويهدون اليها الهدى ويطوفون حولها ويضعون أصنامهم فيها ، وان هذه البيوت كانت تسمى طواغيت جمع طاغوت وانه كان لهذه البيوت سدنة وخدام ؛ وقد سمى بن هشام اسماء بعض

(١) الخازن في تفسير آيتي النساء (٦٠ و ٧٦) مثلا

(٢) ج ١ ص ٨١

البيوتات التي كانت سدانة بعض هذه الطواغيت فيها ، وانها ظلت الى أن تم الفتح الاكبر فارسل النبي (ص) من هدمها ، ومما قاله كذلك إن العرب كانوا الى ما كان لهم من هذه البيوت الخاصة في منازلهم يعترفون بفضل الكعبة ويعتبرونها البيت الأكبر الذي يجب حجه . وقد ذكر الكلبي في كتابه الأصنام (٢) شيئاً من هذا دون ان يذكر ان هذه البيوت كانت تسمى طواغيت بل ذكر اسم الكعبة لبعضها . ومعلوم من الروايات المتواترة انه كان يوضع في داخل الكعبة وفي فنائها اصنام عديدة يعظمها اهل مكة وسائر العرب معاً . فهذه الروايات تساعد على الاستئناس والقول إنه كان للعرب كعبات محليه وكعبة عمومية كما كان لهم آلهة او اصنام محلية واخرى عمومية . غير اننا نرجح ان تسمية تلك الكعبات بالطواغيت التى انفرد بذكرها ابن هشام لم تكن التسمية التي يطلقها أصحابها عليها لأن في الكلمة كما قلنا نعتاً ذمياً لا يعقل ان تطلق من قبل أصحاب الكعبات على كعباتهم وانما هي تسمية أسلامية ، وان التسمية الشائعة كانت الكعبة كما ذكر ذلك صاحب كتاب الأصنام ولو انه ذكر التسمية مضافة الى بعض البيوت دون بعض .

---

(١) ص ١١ و ١٩ و ٢٠ و ٤٤ و ٤٥ ومما ذكره انه كان لحمير بصنعاء بيت يقال له رئام وانه كان لبني ربيعة بيت يقال له رضي وكان لبني الحارث كعبة بنجران ولأياد كعبة بسنداد بين الكوفة والبصرة .

الفصل الثالث

في الملائكة وعقائد العرب فيهم

حفاوة القرآن بالملائكة — تصنيف الآيات حسب المواضيع — اشتقاق كلمة الملائكة — ماهية الملائكة في ذهن العرب — الآيات المتصلة بعقائد العرب في الملائكة ودلالاتها — عقيدة الملائكة بنات الله — عبادتهم والاستشفاع بهم — قدم العقيدة العربية فيهم — اللات والعزى ومناة رموز لهم — العرب والتجريد في العقيدة — عقيدة العرب بالملائكة خطوة دينية تطورية — صلة العقيدة بالكتابيين — الآيات في تحدي العرب بالملائكة ومداها ودلالتها — الآيات عن مكانة الملائكة — دلالتها أسلوباً ومضموناً وكثرة — قصة سجود الملائكة لآدم وهدفها — استدلال على معرفة العرب للقصة قبل البعثة — الآيات الايمانية عن الملائكة — مايمكن أن يستدل عليه من الآيات واسلوبها .

— ١ —

أشرنا في الفصلين السابقين إشارات مقتضبة إلى الملائكة وعقائد العرب فيهم . ولهذا الموضوع خطورة تقتضي ان يمعن النظر فيه ، وينظر في الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الملائكة بانعام ، فقد ذكرت الملائكة في عدد كبير من الآيات ، وبحفاوة واهتمام وأساليب ومواضيع متنوعة ، وهذا مما يزيد في خطورة موضوعهم ايضاً .

ومن الممكن تقسيم المواضيع التي ذكر فيها الملائكة أو بالأحرى تصنيف آياتها إلى أربع مجموعات :

الأولى ماله صلة بأديان العرب وعقائدهم .

الثانية ماحكي فيه عن تحدياتهم في صدد الملائكة .

الثالثة ما احتوى بيان فخامة مركز الملائكة عند الله من جهة وتوكيد عبوديتهم له من جهة اخرى .

الرابعة مافيه تقرير لعقيدة الايمان بالملائكة وما يقومون به من أعمال وخدمات لله.

والموضوعان الثاني والثالث لهما علاقة بالموضوع الأول ، او فيهما ترديد لصداه ، ودلالة على ما كان في أذهان العرب عن الملائكة ، ورد على ما كانوا يعتقدونه فيهم .

والموضوع الرابع وإن كان موضوعاً إيمانياً فانه هو الآخر لا يخلو من صلة ما بالموضوع الأول ؛ إذ فيه إقرار لوجود ومركز الملائكة مع تصحيح لما في الأذهان عنهم من عقائد ومفهومات ناقصة او مغلوطة .

—٢—

وقبل أن نبدأ باستعراض الآيات نود ان نقول كلمة فيما يعنيه لفظ « الملائكة » وما يمكن أن يكون العرب قد فهموه من هذه التسمية ومن ماهية الملائكة .

لقد قال جمهرة من المفسرين(١) في صدد الآية (٣٠) من سورة البقرة أن الكلمة مشتقة من الألوكة » أي « الرسالة » . وقال بعضهم(٢) إنها مشتقة من « المَلْك » وان الميم فيها أصلية . ويرى بعض الباحثين أنها مشتقة أو متطورة من جذر « مَلَك » الموجود في اللغات السامية على اختلاف في نطقه .

وفي القرآن آيات تشير إلى مهمة الرسالة التي كان يحملها الملائكة عن الله مما يمكن أن يستأنس به في تصويب اشتقاق الكلمة من الألوكة كما ترى في الامثلة الآتية:

١ — ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ... النحل ٢

٢ — الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ... الحج ٧٥

٣ — الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة ... فاطر ١

ومع أن من الأصوب ان يقبل ماعليه الجمهور من اشتقاق الكلمة من الألوكة لاسيما ويعضد ذلك او يستأنس عليه بالآيات التي نقلناها ، وكثير من آيات القرآن وألفاظه يفسر بعضها بعضاً وهو الحجة اللغوية الصادقة في العربية، فاننا لا نرى كبير

(١) الطبري والرازي والخازن والنسفي وابو السعود والبيضاوي مثلاً

(٢) الطبري مع روايته اشتقاق الكلمة من الألوكة ايضاً .

أهمية في إرجاع اشتقاقها الى جذر « الملك » السامي ، لأنه لايبعد أن يكون هـذا الجذر يحمل نفس المعنى الذي أشار اليه المفسرون اولاً ، ولأن ورودها في القرآن قد جعلها تدخل في معجم اللغة العربية ومفرداتها قبل البعثـة كعلم على صنف من عباد الله وهم « الملائكة » ثانياً .

ومهما يكن من أمر فان مما لاشك فيه أن العرب كانوا يعتقدون بوجود الملائكة الذين اطلقوا عليهم هذه التسمية علماً ، وباتصالهم مع الله ، وبأن الله هو الذي يرسلهم إلى الناس ، واعتقاد العرب بوجودهم مؤيد بالدرجة الأولى بوجود هـذه التسمية في لغتهم،عدا مافي القرآن من آيات كثيرة تحكي عقائدهم فيها ومنها وجودهم. واعتقاد العرب باتصالهم بالله مؤيد بآيات قرآنية عديدة حكت تحديهم النبي (ص) باستنزال الملائكة لتأييد نبوته إن كانت من الله حقاً كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... الأنعام ٨

٢ ــ فلعلك تارك بعض مايوحي إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ... هود ١٢

٣ ــ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين... الحجر ٦-٧

٤ ــ وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعـام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً .. الفرقان ٧

هذا فضلاً عن ماينطوي في عقيدتهم بأن الملائكة بنات الله من تأييد ذلك أيضاً.

— ٣ —

هذا عن التسمية ودلالتها . أما عن الخلقة والمنشأ ففي القرآن آيات تحكي اعتقاد العرب بأن الملائكة بنات الله مثل آيات الصافات ١٤٩ ــ ١٥٥ التي نقلناها في فصل سابق ،عدا ما هناك من آيات عديدة في نفس الصدد سنستعرضها في ما بعد .

وقد جاء في القرآن آية حكت جعل العرب بين الله والجن نسباً وهي هذه :

«وَجعلوا بينه وبين الجنة نسباًولقد علمتِ الجنةإنهم لمحضرون... الصافات ١٥٨

وقد قال المفسرون(١) في تفسيرها إن العرب كانوا يعتقدون أن الله سبحانه قد

(١) الطبري والخازن وغيرهما .

أصهر إلى الجن وأن الملائكة هم بناته منهم ؛ ومما يمكن أن يوجه هذا القول أن الآية جاءت عقب السلسلة التي حكت عقيدة العرب بأن الملائكة بنات الله وندّدت بهم من اجل ذلك وهي الآيات (١٤٩ — ١٥٥) التي أشرنا اليها وثلاث آيات اخرى فيها استمرار في التنديد والافحام أي انها من نفس السلسلة كما ترى :

« أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ... الصافات ١٥٣-١٥٧

أما عن الماهية فليس في القرآن مايمكن الاستدلال به على عقيدة العرب فيها . غير أن بعض المفسرين روى في صدد آية البقرة (٣٠) حديثاً نبوياً مفاده ان الملائكة خلقوا من النور . ومع التنبيه على عدم إمكان القول بجزم بأن العرب او فريقاً منهم كانوا يعتقدون ذلك قبل البعثة استناداً الى هـذا الحديث فان اعتقاد العرب بصلة الملائكة بالله وبولادتهم منه يحمل على الترجيح بأنهم او بأن فريقاً منهم كان يعتقـد بنورانية الملائكة او بأنهم غير ماديين . ولعل في عقيدتهم بولادتهم من الصهارة بين الله سبحانه وبين الجن مايستأنس به على عقيدة النورانية . فالقرآن قد ذكر أن الجن خلقوا من النار ولا نستبعد إن لم نقل نرجح ان العرب كانوا يعتقدون بذلك قبل البعثة فتكون مصاهرة الله سبحانه للجن على زعمهم قد صفت النار حتى صارت نوراً فكان هذا النور الآلهي هو الملائكة . ومع ذلك فان طلبهم الاتيان بهم واستنزالهم عليهم مما حكته آية في سورة الاسراء :

« او تأتي بالله والملائكة قبيلاً ... ٩٢

وآية في سورة الفرقان :

« وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... » ٢١

لما يمكن ان يلهم أنهم كانوا يتخيلونهم اجساماً يمكن ان يراها الناس ماثلة أمامهم ايضاً .

— ٤ —

واليك الآن آيات الصنف الأول المتصل بأديان العرب وعقائدهم بالملائكة :

١ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل

وجه مسوداً وهو كظيم ... النحل ٥٧–٥٨

٢ — أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً الاسراء ٤٠

٣ — آيات سورة الأنبياء ٢٦ – ٢٩ التي نقلناها في فصل سابق .

٤ — ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ... سبأ ٤٠–٤١

٥ — آيات الصافات (١٤٩–١٥٩) التي نقلنا بعضها في الفصل السابق وبعضها قبل قليل .

٦ — وجعلوا له من عباده جزءاً إن الانسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ... الزخرف ١٥–٢٢

٧ — آيات سورة النجم ١٩–٢٧ التي نقلناها في فصل سابق .

فهذه الآيات تدل :

اولاً على أن العرب او فريقاً منهم كان يعتقد بأن الملائكة بنات الله . وفي آيات سورة الاسراء والنحل والزخرف والصافات والنجم مساجلة استنكارية لزعمهم هذا حيث تقول للعرب على سبيل المساجلة والتبكيت كيف تجوزون على الله ان يكون اولاده بنات بينما تعتبرون البنات أدنى من البنين وتكرهونهن هذا الكره الشديد في حين انه إذا جاز أن يكون له أولاد فالمعقول ان يتخذهم من المرتبة العليا .

وثانياً على ان العرب كانوا يعبدون الملائكة ، ويتقربون الى الله بهم استشفاعاً بهم لأنهم بنات الله ولهم حظوة لديه . على أن الآيات في هذا الصدد متنوعة المضمون ،

فمنها مافيه الدلالة على اتخاذ الملائكة شفعاء ،ومنها ماذكرفيها عبادة العرب لهم دون إشارة الى ماهية العبادة وصفة هدفها ؛ أي ما اذا كانت عبادة أصلية او عبادة استشفاع . وهذا التنوع يجعلنا نقول إن من المحتمل ان يكون هناك من كان يعبد الملائكة عبادة أصلية اشراكاً مع الله ومنهم من كان يعبدهم عبادة استشفاع . واذا صح هذا فالمرجح ان تكون عبادة الاستشفاع قد جاءت متأخرة وكخطوة تطورية الى الاعتراف بكون الله هو الاله الأعظم وبكون الملائكة إنما هم وسائل وشفعاء؛ وطبيعي ان يكون المستشفعون من الطبقة الأكثر استنارة واحتكاكاً بالعالم وخاصة بالكتابيين ، كما ان وجود هذا التنوع سائغ كنتيجة للتفاوت الذهني بين بيئة النبي (ص) وعصره على ما نبهنا على هذا وذاك في مناسبة سابقة .

وثالثاً على ان عقائد العرب في الملائكة موروثة عن الآباء او بكلمة اخرى ليست حديثة عهد ، حيث تنص على استمساكهم بها لأنهم وجدوا آباءهم عليها من قبل وهم مهتدون بهديهم (آية الزخرف ٢٢)

ورابعاً على ان الذين كانوا يؤلهون الملائكة ويعبدونهم اوأن فريقاً منهم كانوا يعتبرون اللاة والعزى ومناة رموزاً وهياكل مادية في الأرض للملائكة الذين هم في السماء،ويعظمونها ويقومون بواجبات العبادة نحوها ويذبحون لها على هذا الاعتبار. وننبه على ان آيات النجم التي تلهم هذا هي التي تلهم في الوقت نفسه ان الذين يعتقدون بصلة هذه المعبودات بالملائكة كانوا من الطبقة التي اتخذت الملائكة شفعاء.

وخامساً على ان اتخاذ رموز مادية للملائكة من قبل العرب يمكن ان يدل ايضاً على عقيدتهم بان الملائكة غير ماديين وغير مرئيين ، وان ايمانهم بهم غيبي وتجريدي ، كايمانهم بالله الذي هو ابوهم على زعمهم سبحانه . إذ ان التطور الديني لم يكن بعد قد بلغ فيهم مبلغاً يجعلهم يكتفون بهذه العقيدة الغيبية التجريدية فاتخذوا هذه الرموز المرئية كحلقة متوسطة بين العقيدة الغيبية التجريدية والعقيدة المادية. والذي نرجحه أن الذين كان لهم معبودات مادية غير المعبودات الثلاثة خصوصية وعمومية وكانوا يعترفون بالله كاله أعظم في نفس الوقت إنما كانوا يفعلون ذلك لذات السبب أيضاً .

وسادساً على ان عقائد العرب وتفكيرهم الديني لم يكن قاصراً على الجمادات

والأحجار ؛ ولم يبقوا على ذلك على الأقل كما حاول ان يوهمه الرواة والكتاب القدمون وجاراهم بعد ذلك بعض الكتاب الحديثين من المسلمين ايضاً [1] .

(١) نذكر اننا قرأنا لأحد علماء العرب مقالاً في مجلة الثقافة المصرية حاول الكاتب ان يؤكد ان العرب في جاهليتهم كانوا وضيعين في تفكيرهم الديني وأن الاحجار هي التي كانت مظهر عبادتهم وتفكيرهم الديني، وقايس بين هذا وبين ما كان عليه تفكير اليونانيين الديني من الارتفاع الى السماء وتخيل معبوداتهم فيها وكونها رموزاً او آلهة للقوى الطبيعية . وكان في هذا المقال حط مقصود كما خيل لنا لأفكار العرب وقصور خيالهم ، وانحصاره في المادة والأحجار على عكس ما كان عليه اليونانيون . والآيات الواردة في القرآن عن عبادة العرب للملائكة وجعل معبوداتهم المادية رموزاً وتخيل الملائكة بنات لله ، ينقض ذلك؛ فكما ان اليونانيين تخيلوا آلهتهم في السماء وتخيلوا ان بعضها جاء نتيجة اتصال زواجي بين بعض الآلهة الأبطال وبين بعض النساء الآدميات او الآلاهات تخيل العرب ؛ وكما ان اليونانيين اتخذوا لآلهتهم رموزاً من الأصنام او هياكل لها فعل العرب ذلك . ولعله لو وصل الينا شيء مكتوب في ذلك العصر غير القرآن وقبله لرأينا أشياء كثيرة عن تخيلاتهم الدينية كما روي عن اليونانيين في الكتب التي وصلت الينا من عهدهم وكتبت في عصورهم او في عصور مقاربة لعصورهم ووصفت فيها هياكلهم وآثارها وكتاباتها . ومع أن ما في القرآن عن الملائكة وعقائد العرب فيهم من الأشياء الكثيرة وكذلك عن الجن كما سيأتي في الفصل الثاني انما جاء بسبيل التنديد ومحاربة الشرك والوثنية والعقائد الباطلة وتنكيس أعلامها وطمس معالمها ، وهو بعد ليس كتاب تاريخ وفن واحصاء ووصف فلم تقتض الحكمة ان يكون فيه معلومات واوصاف واسعة عن عقائد العرب وتخيلاتهم ، فان من الممكن القياس على مافيه وتكبيره ، وحينئذ يمكن ان يرى المرء كما قلنا صوراً طريفة حقاً تجعل من السائغ ان يسلك العرب بها في سلك غيرهم في التفكير الديني وتطوره ، وتجعل من غير السائغ ان يعدوا من هذه الناحية في طور بدائي مما يحكى عن الامم المتوحشة في افريقية وغيرها .

-٥-

ويتبادر لنا أن عقيدة العرب بالملائكة من حيث اصلها اشراكاً او استشفاعاً او اعتقاداً بوجودهم وصلتهم بالله هي خطوة تطورية ، ولعلها خطوات أولاها اعتقادهم بوجودهم ثم بألوهيتهم ثم ببنوتهم لله وعبادتهم شركاء ثم شفعاء . ولعل من الصحيح أن يفرض أن العقيدة العربية كانت في بادىء امرها وثنية او عبادة قوى طبيعية غير محددة او الاثنتين معاً وحيث تكون الأولى رموزاً للثانية ؛ ثم تطورت الى الشعور بقوى الأذى والشر الخفية التي عبر عنها بالجن وبقوى البر والخير والرحمة التي عبر عنها بالملائكة ثم انبثق معنى الله او وصل اليهم هذا من اخبار الامم العربية البائدة وانبيائها واهل الكتاب ، غير انه لم يكن واضح المدى ، فتطورت عقيدة الوهية الملائكة وعبادتها فصاروا حلقة متوسطة بين الله شركاً واستشفاعاً. وواضح انه ينطوي في هذا التطور إنتقال الى العقيدة التجريدية بعد العقيدة المادية مع الاحتفاظ بمظاهر هذه العقيدة في المعبودات المادية التي كانت منتشرة سائدة تعظم وتشرك في الدعاء والاتجاه والعبادة ويذبح لها ، اصلاً أو استشفاعاً الى جانب عقيدة وجود الله كالاله الاعظم ووجود الملائكة كبنات الله لهم عنده الحظوة ، ولهم التأثير في النفع والضرر والمنع والاعطاء . وقد جاء الاسلام واكثرية العرب الساحقة في هذا الطور مع التفاوت الذي كان طبيعياً في بيئتهم من حيث الحضارة والبداوة والاتصال والعزلة .

-٦-

وفي آيات الصافات والزخرف سئل العرب عما إذا كان لديهم سند من كتاب لعقيدتهم بكون الملائكة اناثاً وبنات لله . وهذا السؤال جعلنا نتساءل عما اذا كان من قبيل التحدي والتهكم والافحام فقط أو أن المعتقدين كانوا يزعمون انهم على حق في عقائدهم وان الكتب السماوية قد أيدتها ؟ واذا كان فرض هذا الزعم صحيحاً فهل سمعوا شيئاً من الكتابيين عن شفاعة الملائكة وحظوتهم عند الله فاقتبسوه وكيفوه في اذهانهم الى ان انتهى الى عقائدهم التي اشارت اليها الآيات ؟ والذي نرجحه ان الكتابيين كانوا مصدراً رئيسياً لمعلومات العرب وتخيلاتهم وعقائدهم في الملائكة ،

ولعل من الجائز ان يقال ان تسمية قوى الخير والبر والرحمة الخفية التي كان العرب يعتقدون بها ويرجون عطفها وعونها بالملائكة قد كان أثراً من آثار هذا المصدر. فقد كان علم الكتابيين بالملائكة وصلتهم بالله ورسالاته وخدماته قديماً جداً لأن ذلك مما ذكر في أسفار التوراة والانجيل ؛ وقد كانوا يتخذونهم شفعاء كما تلهم بعض آيات سورة آل عمران :

«ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون..

آل عمران ٧٩ – ٨٠

حيث تلهم انها في صدد جدل بين النبي (ص) وبين بعض الكتابيين حول تعظيم الانبياء والملائكة تعظيما يقرب من العبادة ، ويجعلهم كانهم أرباب أو أدنى الى الربوبية والاستشفاع بهم استشفاع المعتقد بتأثيرهم .

فمن الجائز والحالة هذه ان يكون العرب قد قالوا إن الكتب السماوية تؤيد عقائدهم على اعتبار ان الكتابيين على شيء منها فتحداهم القرآن بأثبات ذلك على ما المعنا اليه .

— ٧ —

ونأتي الآن الى الآيات المتعلقة بالموضوع الثاني :

١ — من هذه الآيات ما نقلناه سابقاً وهو آيات الأنعام (٧) وهود (١٢) والحجر (٦ – ٧) والفرقان (٧) .

٢ — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً او تأتي بالله والملائكة قبيلا ..

الأسراء ٩٢

٣ — وقال الذين لا يرجون لقاءنا لو لا أنزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيراً ... الفرقان ٢١

فهذه ايات وان كانت تحكي أقوال العرب التعجيزية والتهكمية فانها تدل على انه كان الملائكة في اذهانهم او اذهان فريق منهم على الاقل في عصر النبي (ص)

وبيئته مكانة او صورة عظيمة خارقة ، عدا دلالتها على اعتقادهم بوجود الملائكة وصلتهم بالله ، فكانوا يطلبون من النبي (ص) تأييد دعواه بالنبوة ودعوته التي بلغها عن الله بملائكة ينزلهم الله اليه او ينزلهم عليهم ليروهم ما ثلين أمامهم . والمعنى الاول واضح بنوع خاص في آيات الحجر ، حيث تلهم ان المشركين قالوا للنبي (ص) إنك تدعي ان الذكر – اى القرآن – ينزل عليك من الله فان كنت صادقاً فأتنا بالملائكة الذين هم ذووا اتصال بالله ، المبلغون عنه . اما المعنى الثاني فهو واضح في آيات الأسراء ١٢ والفرقان ٢١ .

– ٨ –

وهذه هي آيات الموضوع الثالث :

١ – قل من كان عدواً لجبريل فأنه نزله على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين ... البقرة ٩٧ ٩٨

٢ – إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ... البقرة ١٦١

٣ – هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر والى الله ترجع الامور ... البقرة ٢١٠

٤ – شهد الله أنه لا إلٓه إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ...

آل عمران ١٨

٥ – إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ... آل عمران ١٢٤ – ١٢٥

٦ – لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ...

النساء ١٦٦

٧ – لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون.

النساء ١٧٢

٨ — إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... النساء ٩٧

٩ — قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ... الأنعام ٥٠

١٠ — ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا ان يشاء الله ... الأنعام ١١١

١١ — أذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ...

الانفال ١٢

١٢ — ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ... الأنفال ٥٠

١٣ — الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فالقوا السلم ما كنا نعمل من سوء.

النحل ٢٨

١٤ — الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون . هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ...

النحل ٣٢ — ٣٣

١٥ — ولله يسجد ما في السماوات والارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ... النحل ٤٩ — ٥٠

١٦ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ... الاسراء ٩٤ — ٩٥

١٧ — وما نتنزل [1] إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ... مريم ٦٤

---

(١) الجمهور على أن هذا من كلام الملائكة

١٨ — إن الله وملائكته يصلون على النبي ياايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ...
الاحزاب ٥٦

١٩ — هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ..
الاحزاب ٤٣

٢٠ — وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ...
الزمر ٧٥

٢١ — الذين يحملون (٢) العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين امنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ...
غافر ٧

٢٢ — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ...
فصلت ٣٠ - ٣١

٢٣ — تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ...
الشورى ٥

٢٤ — ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون ... الزخرف ٦٠

٢٥ — يأيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ...
التحريم ٦

٢٦ — والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ...
الحاقة ١٧

٢٧ — تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة .
المعارج ٤

٢٨ — يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ...
النبأ ٣٨

---

(٢) الجمهور على ان المقصودين هم الملائكة

ففي هذه الآيات وقد اكثرنا منها بقصد لفت النظر الى ما أسبغ على الملائكة من خطورة ، تنويه بالملائكة ومنزلتهم عند الله من ناحية ، وتوكيد لعبوديتهم من ناحية ثانية ؛ وفيها ردّ على اقوال العرب وتحديهم وتهكمهم وتصحيح لما في أذهانهم من انحراف في اتخاذهم آلهة او شفعاء من ناحية ثالثة ؛ كما ان فيها من ناحية رابعة وعلى مايتبادر لنا تثبيت لما في أذهانهم عنهم من عظمة وفخامة وعلوّ قدر واتصال بالله ايضاً .

فالله عدو لأعداء الملائكة ، وهم عنده يحملون عرشه ، ويحفّون حوله ويسبحون بحمده ، ولا ينزلون إلا في ماعظم من الأمور ، ويشهدون مع الله على صحة ماأنزل على النبي (ص) من قرآن وحمل من رسالة ؛ وهم يثبتون المؤمنين في جهادهم ويصلون عليهم مع الله ، ويتلقونهم حين الوفاة بالبشرى والتحية والتكريم ويستغفرون لهم في حين أنهم يعاملون الكفار عند وفاتهم بالغلظة والقسوة والشدة ويتلقونهم في الآخرة بمثل ذلك ويلعنونهم مع الله ؛ ومع كل ذلك فهم بصورة عامة والمقربون منهم في المقدمة لايستنكفون عن عبادة الله والخضوع له ، ويعرفون حدودهم فلا يتكلمون إلا بأذنه ورضائه ...

فهذه التقريرات عن الملائكة تلهم كما قلنا أن لهم في اذهان العرب صورة قوية مستقرة من علو المنزلة وعظمة الشأن، وتثبت شيئاً مفهوماً مستقراً عند العرب الذين كانوا أول المخاطبين بالقرآن سواء منهم المسلمون والكفار ؛ وقد أريد كما يتبادر لنا ايضاً تقرير عدم إمكان شفاعة الملائكة للمشركين وإن عبدوهم واستشفعوا بهم ، وإنما سيكونون نقمة وشراً عليهم ، وإنهم مهما علت منزلتهم وعظمت اقدارهم لايخرجون عن كونهم عبيداً خاضعين لله لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون(١) ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون . وهذه التقريرات إنما تكون أقوى تأثيراً حينما تقرر لأناس قد شغلت الملائكة حيزاً كبيراً في اذهانهم بطبيعة الحال .

---

(١) آيات سورة الانبياء ٢٦-٢٩

ومما هو جدير بالتنبيه استطراداً وبصورة خاصة تكرر ذكر قصة آدم وسجود الملائكة له ، وفي السور المكية بنوع خاص كما ترى في مايلي :

١ — ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ... الأعراف ١١

٢ — وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون... الحجر ٢٨—٣٠

٣ — وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ... الاسراء ٦١ والكهف ٥٠

٤ — وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ... ص ٧١— ٧٣

في هذا التكرار معنى توكيد عبودية الملائكة لله ، وكونهم لم يستنكفوا عن السجود لآدم الذي خلق من تراب تنفيذاً لأمر الله . ونرجح انه توخى في هذا ايضاً رد على ما كان المشركون يعتقدونه من صفات الألوهية والربوبية في الملائكة.

ولقد وردت هذه القصة في سورة البقرة بأسلوب آخر كما ترى في مايلي :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ... البقرة ٣٠—٣٤

فهذه الآيات وما فيها من حوار يدل من جهة على مكانة الملائكة من الله وتبتها من جهة ، كما تستهدف تقرير عبوديتهم له ومعرفتهم حدودهم إزائه من جهة أخرى؛ مما استهدف في الآيات الأخرى على ماذكرناه قبل قليل .

ومما يحسن اضافته انه ليس في آيات البقرة والسور الاخرى ولا في أسلوبها مايفيد أن العرب يسمعون هذه القصة لأول مرة مما يمكن ان يلهم انها تقرر شيئاً معلوماً عندهم ،وانها إنما تورد وتتكرر للعبرة والموعظة وضرب المثل ؛ وهو مالا نرتاب فيه . فالقصة موجودة في التوراة ولو لم تكن متطابقة مع ماجاء في القرآن ، وأخبار التوراة وقصصها لم تكن مجهولة في الاوساط العربية ، وخاصة في بيئةالنبي (ص) على ماذكرناه في اكثر من مناسبة .

-١١-

بقي علينا ان نستعرض الآيات المتعلقة بالموضوع الرابع . واليك هي :

١ — ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... البقرة ١٧٧

٢ — آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ... البقرة ٢٨٥

٣ — وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ... آل عمران ٤٢

٤ — فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ... آل عمران ٣٩

٥ — إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ... آل عمران ٤٥

٦ — ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ... النساء ١٣٦

٧ — ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته .. الرعد ١٣

٨ — ماننزل الملائكة إلا بالحق ... الحجر ٨

٩ — فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ... مريم ١٧-١٩

١٠ — ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنامهلكوا أهل هذه القرية إن

أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على اهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون... العنكبوت ٣١-٣٤

١١ - وسيق الذين كفروا الى جهنم زُمراً حتى إذا جاؤوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم ... الزمر ٧١

١٢ - وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ... الزمر ٧٣

١٣ - وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه مايشاء... الشورى ٥١

١٤ - أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ... الزخرف ٨٠

١٥ - مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ... قاف ١٨

١٦ - وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ... 〃 ٢١

١٧ - علمه شديد القوى . ذو مِرّة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين او أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذَبَ الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى . ولقد رآه نزلة اخرى . عند سدرة المنتهى ... النجم ٥-١٤

١٨ - وما جعلنا اصحاب النار إلا ملائكة ... المدثر ٣١

١٩ - كلا بل تكذبون بالدين . وإنَّ عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ماتفعلون ... الانفطار ٩-١٢

٢٠ - إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاعٍ ثَمَّ أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ... التكوير ١٩-٢٣

٢١ - تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ... القدر ٤

ويسلك في سلك آيات هذا الموضوع كثير من الآيات التي نقلناها لاشتراكها

معها فيه وخاصة آيات البقرة ٩٧-٩٨ وآل عمران ١٨ و١٢٤ - ١٢٥ والنساء ١٦٦ و١٧٢ والأنعام ١٥٨ والأنفال ١٢ و٥٠ والنحل ٢٨ و ٣٢ - ٣٣ و ٤٩ - ٥٠ ومريم ٦٤ والأحزاب ٥٦ و٤٣ والزمر ٧٥ وغافر ٦ وفصلت ٣٠-٣١ والتحريم ٦ والحاقة ١٧ والأنبياء ٢٦-٢٩

ومع ان آيات هذا الموضوع ومشاركاتها مع آيات المواضيع السابقة هي بسبيل تقرير عقيدة الايمان بالملائكة وتكفير منكريهم ؛ والاخبار بما يقومون به من خدمات لله سبحانه سواء في تبليغ الأنبياء رسالات الله وبشائره او تنفيذ أوامره في ملكوت السماوات والأرض ، او في حراسة الجنة والنار ، وإنزال الناس منازلهم فيها ، او في مراقبة أعمال الناس وتسجيلها الخ . فانها يمكن من جهة اخرى ان تكون مثل آيات الموضوع السابق بسبيل تثبيت مافي أذهان العرب قبل البعثة عن الملائكة من معلومات وصور مع تصحيح مافيها من خطأ او وهم . فالعرب كانوا كما أشرنا في الابحاث السابقة يؤمنون بوجود الملائكة وصلتهم بالله ومنزلتهم عنده وقيامهم بتدبير أمر الكون بأمره ؛ مع الانحراف الى الاعتقاد بأنهم بنات الله واشراكهم معه بالعبادة واعتقادهم بنفعهم وضرهم .

الفصل الرابع

في الجن وعقائد العرب فيهم

خطورة موضوع الجن — تصنيف ابحاث الفصل حسب الآيات — كلمة الجن ومداها في اذهان العرب — ترادف كلمتي الجن والجنة ودلالته — الآيات المتعلقة بعقائد العرب في الجن — دلالتها وما تحتويه من صور — اشراك العرب الجن كان بدافع الخوف وتفادي الأذى — ظروف انبثاق فكرة العنصر الخفي الشرير في اذهان العرب — توهم العرب وجود جن في أجواف اصنامهم — الآيات التي يستأنس بها على ماعند العرب من افكار ومعارف عن الجن — مافي الآيات من دلالات وصور — ماهية الجن عند العرب — استدراك على نعت العرب النبي(ص) بالجنون. الآيات الايمانية في الجن — مافيها من دلالات وصور — إبليس والشيطان وصلتها بموضوع الفصل — اشتقاق كلمة إبليس ومعناها — ماهية إبليس — ذرية إبليس. ابليس وذريته فريق من الجن — مدى تسمية ابليس ومهمته — احتمال اقتباس العرب معرفتهم بابليس من الكتابيين — قصة آدم وابليس في القرآن — دلالة القصة وحكمة تكررها — كلمة الشيطان — دلالاتها من الآيات — مرادفتها لابليس على الغالب — الشيطان في اذهان العرب — هل كان العرب يعبدون ابليس والشيطان فعلاً .

— ١ —

وموضوع الجن هو الآخر له خطورته في عقائد العرب وافكارهم في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة . وقد ورد ذكرهم كثيراً في القرآن في مناسبات متنوعة . وتقيدمع ذلك ان الآيات الواردة عنهم أقل من الآيات الواردة عن الملائكة عدداً ، وليس فيها ذلك الوضوح الذي يمكن الاستناد اليه في شرح عقائد العرب وأفكارهم فيهم بقوة وتوكيد كما استطعنا ذلك في موضوع الملائكة. ولكنا سنحاول رسم صورة قرآنية عنهم نرجو ان يكون فيها بعض الغناء والوضوح . وكما فعلنا

في آيات الملائكة سنفعل في آيات الجن حيث نستعرضها مصنفة في مجموعات تتناول المواضيع التالية :

الاولى : ما يتعلق بعقائد العرب وأديانهم .

الثاني : ما يمكن الاستئناس به على ما عند العرب من افكار ومعارف عن الجن.

الثالث : ما فيه تقريرات ايمانية عن الجن وماهيتهم .

والموضوع الثالث وان كان ايمانياً وغيباً فانه غير منقطع بالموضوع الثاني فيما نعتقد.

— ٢ —

وقبل البدء باستعراض الآيات نرى ان نذكر شيئاً عن كلمة « الجن » وما يمكن ان يكون في ذهن العرب عنها .

فاولا ان كلمة الجن وبعض متشابهاتها اوتفرعاتها اللفظية مثل جن وجنة وجنين تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية ، وهذا يسوغ القول ان الشيء الخفي او المستور بالنسبة الى الجن مما كان مستقراً ومفهوماً في اذهان العرب .ولعل مما يصح قوله إن اطلاق التسمية انما هو مقتبس من المعنى ، وبعد ان وجد في ذهن العرب معنى او عقيدة وجود هذا النوع الخفي من مخلوقات الله .

ولقد ذكر بعض المفسرين قولا بشمول تسمية الجن للملائكة لاتحادهم في معنى الاختفاء في سياق تفسير آيات الانعام (١٠٠) والكهف (٥١) ؛ ولا نرى هذا مستقيما ؛ لا سيما وقد سمي القرآن كل نوع من النوعين باسم خاص مما يسوغ القول بأن التسميتين كانتا قبل نزوله علمين عليهما في اللسان العربي . ولقد جاءت تسمية الملائكة في التعبير عن نوع وتسمية الجن في التعبير عن النوع الآخر في مقطع قرآني واحد مما يصح ان يعتبر دليلا قاطعاً :

« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ...
سبأ ٤٠ ـ ٤١

على ان هذا لا يفقد ذلك القول وجاهته بالمرة وخاصة بالنسبة لمدة طويلة نوعاً قبل البعثة ، ولتطور نشوء التسميتين ومدلولها . فمع قطعية علمية التسميتين في

اذهان العرب عندنزول القرآن فليس يبعد عن الاحتمال ان يكون العرب قداطلقوا اسم الجن قبل ذلك بمدة طويلة ما على المنصرين الخفيين الرحيم والشرير والمأمول والمخوف ، ثم اطلقوا على الاول اسم الملائكة وبقي الثاني علماً على النوع الثاني .

— ٣ —

وثانياً ان لفظ الجنة قد استعمل في القرآن مرادفاً للفظ الجن كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين   هود ١١٩

٢ — الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس .   الناس ٥ — ٦

وان لفظ الجنة استعمل في الدلالة على المعنى الذي يدل عليه لفظ الجنون كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو الا نذير مبين ...

الاعراف ٢٢ — ٢٣

٢ — أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق ...   المؤمنون ٧٠

٣ — وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ...   الانفطار ١٨٤

وان في هذا الاشتراك بين الجنة والجن وبين الجنة والجنون ما يمكن ان يدل على ان العرب كانوا يعتقدون ان بين الجن والجنون صله ، وان الجنون هو أثر من آثار الجن في الانسان.وفي القرآن آية فيها صراحة ما في ذلك وهي :

«الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس..

البقرة ٢٧٥

ولفظ الشيطان استعمل في القرآن مرادفاً للجن واحياناً لوصف العتاة البغاة منهم كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ...

الانبياء ٨٢

٢ — ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ...   سبأ ١٢

٣ — وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون ألى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب ... الصافات ٧-٨

هذا مع القيد ان هذه العقيدة ليست عقيدة عربية خاصة ، بل اشترك فيها وما زال جل الامم إن لم نقل كلها .

— ٤ —

واليك الآن آيات الموضوع الاول :

١ — وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه. الأنعام ١٠٠

٢ — ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي أجلت لنا.. الأنعام ١٢٨

٣ — آيات سبأ ٤١ — ٤٢ التي نقلناها قبل قليل .

٤ — وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون ...

٥ — وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ... فصلت ٢٩

٦ — وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً .. الجن ٦

ومن الممكن ان يستدل من هذه الآيات على ما يلي

اولا ان العرب او فريقاً منهم اتخذوا من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم [1] . وآيات الأنعام وسبأ تساعد على الترجيح بان الفريق الذي عنته قد اتخذ الجن شركاء اصليين كما فعل فريق آخر بالنسبة الى الملائكة كما سبق القول . وآيات سبأ خاصة تلهم ان عقيدة الايمان بالجن كانت واسعة النطاق .

وثانياً ان العرب او فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان بين الله سبحانه وبين الجن نسباً . وقد أشرنا الى هذا في الفصل السابق فلا نرى ضرورة للاعادة .

---

(١) ذكر الكلبي في كتاب الاصنام ان بني ملح من خزاعة كانوا يعبدون الجن (ص ٣٤)

وثالثاً ان العرب او فريقاً منهم كانوا يتوهمون التحالف مع الجن ويتولونهم ويستعيذون بهم . وقد روى المفسرون (١) في صدر تفسير آيتي الأنعام والجن (١٢٨ و ٥) اللتين يستأنس بهما على هذا ان الرجل من العرب كان إذا سافر وخاف الجن في الطريق أو في أحد الوديان وخاصة في اسفار الليل التي هي جل اسفار العرب قال أعوذ بسيد هذا الوادي ، وكانوا يرون ذلك استجارة تقابل من الجن بالاستجابة . على ان آية الأنعام تحمل مفهوما واسعا في صدد ما كان يتوهم العرب من كثرة الصلات والمناسبات بين الجن والانس مما يمكن ان يلهم ان استجارة العرب بالجن وعياذهم بهم ليس محصوراً في الأسفار وحين عبور الوديان الموحشة، بل كانوا يعوذون او بالاحرى يتعوذون منهم في كل مناسبة (٢) سواء كانوا مقيمين أو ظاعنين وخاصة في ظلمات الليل .

وفي سورة الفلق تعليم بالاستعاذة من ظلمة الليل كما ترى :

« قل اعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق اذا وقب (٣) . . »

٣ — ١

مما يمكن ان يلهم أنها بسبيل تلقين المسلمين — وكانوا عرباً حين نزولها — الاستعاذة بالله من شر ظلمة الليل بدلاً مما اعتادوه من الاستعاذة بالجن .

فليس من التجوز ان يقال إن العرب كانوا يخشون ظلمات الليل ، وكان من بواعث خشيتهم هذه عقيدة الجن ووهم مسهم واذاهم :

— ٥ —

وعلى هذا فما يصح ان يقال إن اشراك العرب للجن في العبادة والدعاء واستجارتهم وعياذهم بهم انما كان لداعي الرهبة والفزع منهم اكثر منه لداعي الرغبة والرضاء وبغية الخير والبر . ومن الجدير بالتنبيه عليه وفيه تأييد لهذا انه ليس

---

(١) الطبري مثلا في صدد تفسير الآيتين .

(٢) في أسد الغابة ج ٤ ص ٢٣٤ قصة استجارة صاحب غنم بعامر الوادي من الجن على ذئب خطف له حملاً .

(٣) غاسق : ظلمة الليل . وقب : خيم او انتشر .

في آيات الجن معنى الاستشفاع الذي كان يرجوه العرب من الملائكة ، والذي كان يبعثهم عليه الامل في خير الله وبره عن طريق الملائكة وحظوتهم ؛ وانما فيها الاستجارة والاستعاذة اللتين يبعث عليهما الخوف والفزع ؛ وبعبارة اخرى ان العرب بينما كانوا يرون في الملائكة عناصر بر وخير ونفع وعون كانوا يرون في الجن عناصر شر واذى وضرر ؛ فكانوا يرجون من عبادة أولئك والاستشفاع بهم البر والخير والنفع بينما كانوا يتقون بعبادة هؤلاء والاستعاذة بهم الشر والضرر والأذى.

ومهما يكن من امر فاننا نقول هنا كما قلنا في صدد الملائكة إن فكرة وجود عنصر شر خفي يجب تفادي أذاه بالعبادة والتزلف هي طور تفكير بشري مشترك يصح ان تكون انبثقت في نفس العرب كما انبثقت في غيرهم لان الباعث فيها عام مشترك ثم تطورت بعض التطور . ولعل من الجائز ان يزاد على هذا ان فكرة إصهار الله سبحانه للجن ونسل الملائكة من هذه المصاهرة قد تدل على ان فكرة العنصر الشرير الخفي والخوف منه والتزلف اليه بالعبادة والاستعاذة عند العرب كانت اسبق في الانبثاق من فكرة العنصر الرحيم الخفي . وقد يكون هذا هو المتسق مع الغريزة او الطبيعه البشرية .

هذا وليس فى الآيات ما يمكن الاستدلال به على ان العرب قد اتخذوا من اصنامهم او معبوداتهم رموزاً ومسميات للجن كما امكن الاستدلال على انهم فعلوا ذلك بالنسبة للملائكة . غير ان هناك بعض الروايات (١) ذكرت اخباراً تتصل بهذا المعنى بعض الشيء من سماع سدنة بعض المعبودات هتافات الجن من اجوافها ، ومن رؤية جنية تخرج من العُزّى نافشة شعرها مولولة نادبة . . .

واذا كنا نرى التوقف في مثل هذه الروايات هو الأولى فاننا لا نستبعد من حيث الفكرة ان يكون العرب اعتقدوا انه كان لمعبوداتهم قرناء من الجن ، وانهم

---

(١) في طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ وتفسير الخازن ج ٤ ص ١٩٥ واسد الغابة ج ٤ ص ١٥٣ وكتاب الاصنام للكلبي ص ١٢ و ٢٥ روايات في هذا الصدد .

حينما كانوا يقومون بواجب العبادة لها كانوا يتصورون ان في اجوافها جناً ينظرون اليهم ويسمعون دعاءهم .

— ٦ —

واليك آيات الموضوع الثاني :

١ — واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... البقرة ١٠٢

٢ — قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى أئتنا ... الانعام ٧١

٣ — وقالوا يا أيها الذي نُزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ... الحجر ٦—٧

٤ — قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ... الأسراء ٨٨

٥ — وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ... الشعراء ٢١٠—٢١٢

٦ — هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل افاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ... الشعراء ٢٢١ - ٢٢٦

٧ — وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ... النمل ١٧

٨ — قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ... النمل ٣٩

٩ — ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات ... سبأ ١٢—١٣

١٠ — فلماقضيناعليه الموت مادلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين ...
سبأ ١٤

١١ — فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب . والشياطين كلّ بنّاء وغواص . وآخرين مُقرّنين في الأصفاد ... صاد ٣٦—٣٨

ويسلك في سلك هذه المجموعة آيات البقرة ٢٧٥ والأعراف١٨٤والمؤمنون ٧٠ والناس ٤ — ٧ التي نقلناها قبل قليل .

— ٧ —

وقد لا تكون هذه الآيات تحكي اقوالا ومعارف وافكاراً عربية صريحة ومباشرة كما ان فيها مقاطع من قصص سليمان . غير ان القصص القرآنية كانت مما يعرفه السامعون العرب او بعضهم اجمالاً او تفصيلا كما دللنا على ذلك في فصل سابق. وهذا ينسحب على المقاطع التي نقلناها كما هو المتبادر . وفي اسلوب ومضمون وسياق الآيات الاخرى قرائن تدل على ان ما فيها في صدد الجن وشياطينهم ليس غريباً عن افكار وتقاليد ومعارف العرب السامعين حينما يمعن النظر فيها . لذلك فلسنا متجوزين إذا ما استئنسا بها في الاستدلال على ما عندهم قبل البعثة عن الجن من افكار ومعارف .

وهذا ما يمكن الاستدلال عليه .

١ — إن العرب كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن تسمع إلى السماء ، وتلقن القول او تتنزل به على الشعراء والكهان فيصدر عنهم مايصدر من بليغ الشعر وسجع الكلام الموزى ؛ وهذا مستلهم من آيات الشعراء (٢١٠ و ٢١٢ و ٢٢١ و ٢٢٧) وقد احتوت آيات اخرى تقريرات ايمانية عن استراق الشياطين للسمع وعن رميهم بالشهب سنوردها في عداد آيات الموضوع الثالث ؛ وبين هذه التقريرات وذهاب العرب من الصلة ما هو واضح . ولقد كانوا يعتقدون على ما ذكرته الروايات ان لكل شاعر شيطاناً من الجن ، يلقنه ما يقوله من الشعر ، وكانوا يسمونه رئيّا ، بل وبعض

هذه الروايات سمت اسماء شياطين بعض فحول الشعراء ؛ وإذا كان من الاولى التوقف في امر الروايات من حيث التفصيل فان الفكرة فيها صحيحة ومتسقة مع ما تلهمه آيات سورة الشعراء المذكورة . كذلك فانهم كانوا يعتقدون ان بين الجن والكهان صلة وان الجن يسترقون السمع من السماء وينقلونه إلى الكهان فيضمنون سجعهم التوريات الغيبية التي ترد فيه ؛ والفكرة صحيحة ومتسقة مع ما تلهم الآيات المذكورة ايضاً .

٢ — انهم كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر ويتصلون بالسحرة ويساعدونهم في أعمالهم . وهذا مستلهم من آية البقرة (١٠٢) ، ونقيد أن هذه الآية هي في صدد النعي على اليهود اتباعهم الشياطين الذين يعلمون الناس السحر .غير اننا نرجح أن هذ كان بالنسبة لليهود تقريراً للواقع أمرهم من جهة وأن فكرة صلة السحرة واعمالهم بشياطين الجن مما لم يكن غريباً عن العرب المحتكين باليهود احتكاكاً وثيقاً من جهة اخرى .

٣ — انهم لم يكونوا خالي الذهن من ما كان يروى عن تسخير الجن لسليمان (ص) وما كانوايقومون بهلهمن أعمال عظيمة ، وما كان لهم من قدرة خارقة . ومن المعقول أن يكون ذلك من جملة ما كانوا يتناقلونه اولاً ،وأن يكون قد استقر في اذهانهم على أنه حقيقة ثانياً . ولقد رويت أشعار جاهلية تضمنت أن جن سليمان (ص) هم الذين بنوا بنايات تدمر العظيمة ، وبقطع النظر عن صحة الشعر ونسبته فالمرجح أنه ترديد لما كان في اذهان العرب عن هذه البنايات وامثالها ، وعن قدرة الجن الخارقة .

٤ — انهم كانوا يذهبون إلى ان الجن هم الذين يوسوسون في صدور الناس ؛ وهذا مستلهم من تعليم النبي (ص) والمسلمين الاستعاذة بالله من هذه الوسوسة في سورة الناس .

٥ — انهم كانوا يذهبون إلى ان التخبط بالصرعةهو من مس الشياطين؛ لان التمثيل الوارد في آية البقرة لابد من ان يكون ناشئاً عن مفهوم واقعي ؛ كما كانوا يذهبون إلى ان الجن يخالطون الناس في عقولهم وان الجنون هو اثر من هذه

المخالطة (آيات البقرة ٢٧٥ والاعراف ١٨١ والحجر ٦ — ٧ والمؤمنون ٧٠).

٦ — انهم كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن قد يستهوون الانسان إذا ماخلوا به في ارض فيذهبون بلبه ، ويذهلونه عن نفسه، فيضرب في الأرض على غير هدى حائراً ذاهب اللب لا يسمع نداءً ولا يهتدي إلى طريق نجاة .

٧ — انه كان للجن في اذهان العرب حيز كبير من حيث قوتهم في الظلم وقدرتهم على الخوارق ؛ وهذا مستلهم من الآيات جميعها ،وما ذكرنا ه في الفقرات السابقة، ثم من آيات الاسراء ٨٨ والصافات ٦ — ١١ بنوع خاص ؛ فقد ذكر الجن في معرض التحدي وتقرير عجز الانس عن الاتيان بمثل القرآن ولو ظاهرهم الجن في آية الاسراء . وهذا إنما كان بسبب ذلك الحيز الكبير الذي اشرنا اليه كما هو المتبادر . وقد ذكر الكون في آيات الصافات ثم ذكر الشياطين وقوتهم وتمردهم واشير إلى انهم لم يفلتوا من قدرة الله عذابه ، ثم امر النبي باستفتاء العرب باسلوب تهكمي عما إذا كانوا يرون انفسهم اشد خلقاً حتى يظنوا انهم قادرون على التفلت من عذاب الله،وهذا يعني ان للجن في اذهان العرب قوة وشدة وقدرة فاستحكمت الحجة القرآنية فيهم كما هو واضح ايضاً .

— ٨ —

وليس في القرآن ما يدل بصراحة على ان العرب كانوا يعرفون ماهية الجان ونشأتهم ؛ غير ان ما جاء في هذه الفقرات يمكن ان يدل على انهم كانوا يعتقدون انهم مخلوقات لطيفة او هوائية مع قدرة خارقة على الاعمال وقوة على التشكل ؛ وبهذا يفسر ذهابهم إلى قدرتهم على مخالطة الناس في عقولهم ورؤيتهم الناس دون ان يروهم ، ووسوستهم في صدور الناس وصعودهم الى السماوات ، وإتصالهم بالشعراء والكهان والسحرة اتصال تعليم وتلقين من حيث لا يرون ولا يشعر بمادتهم . على ان هناك آيات سنوردها في عداد آيات الموضوع الثالث تذكر ان الجن خلقوا من مارج من نار اى من لهيب من نار ، وفي هذه النشأة اتساق ما مع تلك الحالات مما يجعلنا لا نستبعد ان يكون العرب كانوا يعتقدون بذلك قبل نزول القرآن ؛

ولعل عقيدتهم باصهار الله سبحانه اليهم او جعلهم نسباً بينه سبحانه وبين الجن من القرائن القرآنية التي تدعم هذا الاتساق .

— ٩ —

ونريد ان ننبه على امر مهم بصدد الفقرة الخامسة ؛ فنحن إنما استدللنا بآيات الاعراف والحجر والمؤمنون على ان العرب كانوا يذهبون الى ان الجنون اثر من مخالطة الجن لعقول الناس من جهة اشتراك اللفظ بين الجن والجنة والجنون والجنة فحسب ، اذ نحن نعتقد انهم لم يكونوا يقصدون نعت النبي (ص) بالمجنون او بأن به جنة انه مريض فاقد الوعي مخبول العقل ؛ فانه لايعقل ان يظنوا هذا فيه وهم يسمعونه يتلو عليهم الروائع والحكم البالغة التي كانت تذهلهم وتبهتهم ، ويتكلم عن الله بذلك الاسلوب القوى الأخاذ ، والبرهان الناصع الدامغ ، وقد كان قبل نبوته معروفاً عندهم بالعقل الراجح والخلق الكريم وعدم الفضول كما تلهم هذه الآيات :

١ — قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . . .
يونس ١٦

٢ — أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون . . .
٦٨—٧٠ المؤمنون

وانما كان هذا منهم من قبيل ماجرت به العادة في اطلاق كلمة المجنون على من يقدم على دعوة حديثة ومثيرة او يبدى آراء غريبة او يقف موقفاً خطراً .

على ان من الممكن ان يكونوا قصدوا ايضاً ان يقولوا ان الجن هم المتصلون بالنبي (ص) لا الملائكة ، وانهم هم الذين يلقنونه مايقول ، وان مايبدو منه هو اثر من تخليط الجن او مخالطتهم له . وسياق آيات الشعراء يلهم شيئاً من هذا ويلهم ما استدللنا عليه من عقيدة العرب باتصال شياطين الجن بالشعراء والكهان وتلقينهم لهم ايضاً ، حيث يلهم انهم قالوا عن النبي (ص) ذلك فرد عليهم القرآن في تلك الآيات بثلاثة ردود ؛ اكد في اولها ان القرآن انما نزل به الروح الامين على قلب النبي (ص) من رب العالمين :

« وانه لتنزيل رب العالمين . نزل بـه الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ... ١٩٢ — ١٩٥ الشعراء

ونفى في ثانيها تنزل الشياطين بالقرآن وتلقينهم اياه للنبي (ص) وذلك في الآيات ٢١٠-٢١٢ وقرر في ثالثها ان الشياطين الذين كان العرب يذهبون الى اتصالهم بالناس وتلقينهم لهم انمـا يتصلون ويتنزلون على الـكاذبين المفترين والشعراء الذين في كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون ويتبعهم الغاوون ، في حين ان النبي لم يكن كاذباً ولا مفترياً ، ولم يتبعه إلا العقلاء الراشدون ، ولم تكن دعوته ضلالاً وإفـكاً وإنما هي دعوة الى الله ومكارم الاخلاق . (آيات الشعراء ٢٢١- ٢٢٧) .

وفي آيات في سورة التكوير توكيـد لكون الذي اتصل بالنبي ملك وليس شيطاناً كما ترى :

« والليل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عنـد ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . ومـا هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . إن هو الا ذكر للعالمين ... ١٧-٢٧

وفي هذا التوكيد توكيد لما كان يذهب اليه العرب من اتصال الشياطين بالنابغين اتصال تعليم وتلقين، ومن تفسير امر النبي(ص) حسب ذهابهم هذا كما هو المتبادر .

— ١٠ —

واليك الآن آيات الموضوع الثالث :

١ — « وكذلك جعلنا لـكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ... الانعام ١١٢

٢ — يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ... الانعام ١٣٠

٣ — قال ادخلوا في أمم قـد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها ... الاعراف ٣٨

٤ — ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم

أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل ...
الاعراف ١٧٩

٥ — وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ... هود ١١٩

٦ — ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ... الحجر ١٦-١٨

٧ — ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ... الحجر ٢٦-٢٧

٨ — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لايسّمّعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب . فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ... الصافات ٦—١١

٩ — وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين ايديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين ... فصلت ٢٥

١٠ — وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم. ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لايجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه اولياء اولئك في ضلال مبين ...
الاحقاف ٢٩--٣٢

١١ — خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار ... الرحمن ١٤-١٥

١٢ — يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان ... الرحمن ٣٤

١٣ — فيهن خيرات حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات في الخيام فبأي آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ... الرحمن ٧١-٧٤

١٤ ـ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ... الملك ٥

١٥ ـ قل اوحى الي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي الى الرشد نآمنابه ولن نشرك بربنا احداً . وأنه تعالى جد ربنا مااتخذ صاحبة ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً . وأنا ظننـا أن لن تقول الانس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناهـا ملئت حرساً شديداً وشهباً . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لاندري أشر اريد بمن في الارض أم اراد بهم ربهم رشداً. وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً. وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ... الجن ١-١٥

ويسلك في سلك هذه المجموعة اكثر آيات الموضوع الثاني لانها آيات اخبارية عن الله في صدد الجن وشياطينهم مما يدخلها في عداد الآيات الايمانية كما هو المتبادر .

— ١١ —

فهذه المجموعة وما يسلك معها وان كانت في الحقيقة احتوت تقريرات ايمانيـة وغيبية من الجن فلا تخلو هي الاخرى من قرائن تلهم ان مافيهـا متسق مع مافي اذهان العرب وافكارهم وعقائدهم عن الجن قبل البعثة؛ سواء في اسلوبها ومضمونها، وسواء في كونها انما تهدف للعظة والذكرى وتدعيم الرسالة النبوية، وفي كون هذا الهدف يكون اكثر مكاناً وتحققـاً اذا كان مااحتوته الآيات التي تهدف اليه غير غريب عن اذهان وافكار من تعظهم وتذكرهم ، وأول هؤلاء المخـاطبين مباشرة بالآيات هم العرب من اهل بيئة النبي (ص) . واليك بعض البيان :

١ — ان آيات الحجر ١٦-١٨ والصافات ٦-١١ والملك ٥ تخبر ان الشياطين الذين يحاولون استراق السمع يرمون بالرجوم والشهب ، وآيات سورة الجن تحكى

في ماتحكيه قول الجن انهم كانوا يقعدون مقاعد للسمع في السماء ثم فوجئوا بوجود الحرس الشديد والشهب ، وآيات الشعراء ٢١٠—٢١٢ تذكر ان الشياطين معزولون عن السمع ، فاذا جمعنا هذه الحلقات الى بعضها ، ولاحظنا ان ماحكي عن لسان الجن من مفاجئة الحرس والشهب الشديدين هو حادث كوني وليس شيئاً مغيباً امكننا القول ان العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون ان شياطين الجن يصعدون الى السماء ويسترقون السمع ويلقونه الى بعض طبقات من الناس ، وانه حدث قبيل البعثة النبوية ان شاهدوا كثرة الرجوم السماوية ادهشتهم وجعلتهم يتوقعون حدثاً خطيراً ، ولعل هذا ادهش كهانهم في الدرجة الاولى واجرى على السنتهم توريات في توقع مثل ذلك الحادث الخطير .

وفي آيات الصافات قرينة قوية تؤيد ذلك ، حيث تأمر النبي (ص) بعد ذكر الشياطين ورجمهم بالشهب الثاقبة ان يسأل الكفار عما إذا كانوا هم أشد خلقاً من ما خلق الله من الخلق القوي العظيم الذي يحيط به عذاب الله ؛ وطبيعي أن لايوجه هذا السؤال إلا لمن يعرف ذلك ،لأن بهذه المعرفة تستحكم الحجة ويقوم الافحام كما هو المتبادر .

٢ — ان آيات الاعراف ١٢٩ و ١٧٩ وهود ٩١١ وفصلت ٢٥ والجن ١ — ١٠ تقرر فيما تقرره ما يفيد ان الجن طوائف متنوعة ومتفاوته كالانس ؛ وليس فيها ما يفيد ان هذا التقرير تشريع اسلامي، ولما كان العرب يعتقدون بوجود الجن فليس من التجوز ولا في الآيات ما يمنع ان يقال انهم كانوا كذلك يعتقدون بانهم طوائف متنوعة ومتفاوتة . واسلوب الآيات يلهم انها بسبيل ذكر شيء مقرر في اذهان السامعين إذا ما امعن فيها .

وهذا القول ينسحب بتمامه بالنسبة لما تقرره هذه الآيات من معنى كون الجن مخلوقات عاقلة ، واهل للتكليف والخطاب ، والثواب والعقاب كالانس وان فيهم الصالح والطالح والمؤمن والكافر مثل الانس بل وان منهم من كان يؤمن بالتوراة كما تلهم آيات الاحقاف ومنهم من كان نصرانياً كما تلهمه آيات سورة الجن .

وتلفت النظر إلى ان القرآن لا يسلك الملائكة في سلك الانس والجن من حيث

التنوع والتفاوت والصلاح والطلاح والايمان والكفر، والتكليف والثواب والعقاب وليس فيه ما يدل على أن شيئاً من هذا كان موجوداً في أذهان العرب .

٣ ـــ ان آية الانعام (١١٢) تقرر وجود اتصال وحي وتلقين بين شياطين الانس وشياطين الجن ، وتصف هذا الوحي بالزخرف والغرور ؛ وهذا متسق مع ما استلهمناه سابقاً من آيات الشعراء وغيرها انه من جملة ما كان العرب يذهبون اليه .

٤ ـــ ان آيات الاحقاف ٢٩ ـ ٣٢ وآيات سورة الجن تحتوى قرينة قوية إن لم نقل دليلاً حاسماً على أن النبي (ص) لم ير الجن الذين استمعوا القرآن في المرتين لأنها تخبره بالامر إخباراً ، وآيات الجن اقوى دلالة حيث تأمره بان يقول انه أوحى اليه أن نفراً من الجن قد استمع القرآن وحيث يلهم هذا ان القرآن يقرر أن الجن أجسام لطيفة يرون ولا يرون [1] . وهذا متسق مع ما استلهمناه سابقاً من أن ذلك من جملة ما كان العرب يذهبون اليه .

٥ ـــ ليس في الآيات التي تذكر خلق الجن من النار او لهيبها وخلقهم قبل الانس ما يدل على أن هذه التقريرات جديدة على أسماع العرب ، وبكلمة اخرى ليس فيها ما يمنع القول أنها مما كان مستقراً في أذهانهم ايضاً . ولقد رأينا في المجموعة الاولى زعمهم أن بين الله سبحانه وبين الجن نسباً، وهذا الزعم يبعد أن يكون لو لم يكن معه عقيدة بشيء من التناسب بشكل ما ؛ وخلق الجن من لهيب النار ، وكونهم أجساماً لطيفة يصحان أن يكونا هذا التناسب في أذهان العرب الذي كانوا يبررون به لانفسهم ذلك الزعم كما هو المتبادر .

ـ ١٢ ـ

وفي القرآن آيات عديدة ذكر فيها ابليس وجنوده وذريته والشياطين والشرك بهم وتوليهم ووسوستهم باساليب ومناسبات متنوعة . وقد قررت أحدى الآيات بصراحة ان أبليس من الجن كما أن الشيطان جاء مرادفاً لأبليس في آيات

---

(١) في سورة الاعراف آية بصدد ابليس وذريته تذكر بصراحة انه يرى الناس هو وقبيله من حيث لا يرونهم . وابليس هو من الجن كما يقرر ذلك القرآن وسيأتي بعد قليل بحث واف عنه .

وجاء ذكره على اعتبار انه من الجن في آيات اخرى . وهكذا اتصلت المناسبة بين هذين العلمين والجن وصار من المفيد الحاق بحث فيهما بهذا الفصل .

-١٣-

ونقول في صدد ابليس :

اولاً ان المفسرين قرروا ان الكلمة مشتقة من أبلس بمعنى يئس من الرحمة ، وفي القرآن بضع آيات وردفيها هذا الفعل بهذا المعنى كما ترى في الامثلة التالية :

١ ـ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ... الانعام ٤٤

٢ ـ فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوامن قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ... الروم ٤٩

ونحن نأخذ بما قرره المفسرون لأنه وجيه كل الوجاهة . ونقول زيادة على هذا ان الكلمة علم ذم ، وانها كانت مفهومة بهذا المعنى قبل نزول القرآن ، استناداً إلى التقرير القرآني بان القرآن قد نزل بلسان العرب .

ولقد قال بعضهم بأحتمال كون الكلمة دخيلة . ولا نرى الاخذ بهذا القول ، بعد ان احتوى القرآن فعل « ابلس » واشتقاقاته في معنى اليأس من الرحمة . ولعل فيما وصف القرآن به ابليس قرينة او دلالة اخرى حيث وصف بانه رجيم وان عليه اللعنة إلى يوم الدين وانه اخرج مذموماً مدحوراً الخ مما جاء في قصته القرآنية على ما سوف نذكره قليل . على اننا لو سلمنا جدلاً ان جذر « أبلس » دخيل فانه قد صار عربياً بالتعريب والاستعمال قبل البعثة ، ولا ينقض هذا حقيقة كون العرب قد اشتقوا منه لفظ ابليس واستعملوه ،والصيغة صيغة عربية ، وليس من الضروري فوق هذا كله ان يكون دخيلاً إذا كان الجذر سامياً لان العربية هي الأخرى سامية .

-١٤-

ثانياً أن القرآن يذكر بصراحة أن ابليس من الجن كما ترى فى الآية التالية :

«واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ألا ابليس كان من الجن ففسق عن

أمر ربه أفتتخذونه وذريته اوليا، من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ...
الكهف ٥٠

ولقد عزا بعض المفسرين قولاً إلى ابن عباس (رض) بان الجن في هذه الآية قبيل من الملائكة لازالة مايتوهم من التناقض بين اختصاص الله الملائكة بالخطاب واستثناء ابليس الذي لم يكن موضوع خطاب لو كان من الجن ، كما جاء في الآية نفسها وفي آيات قصة آدم وابليس الاخرى . على ان بعض المفسرين لم يروا هذا مستقيما وخرجوا عبارة الآيات تخريجاً سليما ، وهو الاوجه ولا سيما أن تسمية القرآن « الجن » لنوع من الخلق وتسميته «الملائكة » لنوع آخر قطعية وقد جاءت التسميتات في آية واحدة هي آية سبأ ٤٠ ـ ٤١ كما سبق ذكره في مناسبة سابقة ؛ ولقد ذكر القرآن أن الجان خلقوا من نار (آيات الحجر ٢٧ والرحمن ١٥) وذكر ان ابليس قد خلق من النار كما جاء في آيات قصته التي سنورد بعضها بعد [1] وفي هذا دلالة قطعية اخرى .

وهذا وذاك وان كانا تقريرين قرآنيين فان الاسلوب يلهم انهما غير غريبين على اسماع السامعين الذين كانوا عرب بيئة النبي (ص) حين نزول القرآن . ولذلك يصح أن يقال انهم كانوا قبل الاسلام يقولون بأن ابليس من الجن وانه مخلوق من النار . ولعل تسمية الموسوسين في صدور الناس « جنة » في سورة الناس وهذه هي مهمة ابليس وذريته قرينة حاسمة في هذا الصدر .

-١٥-

ثالثاً ان في آية الكهف (٥٠) اشارة إلى ذرية ابليس ، وفي آية من سورة الشعراء ذكر لجنود ابليس :« فكبكبوا فيهاهم والغاوون . وجنود ابليس اجمعون. الشعراء ٩٤ ـ ٩٥ » وفي آية من سورة الاعراف ذكر لقبيل الشيطان ورد بعد قصة ابليس وآدم مما فيه دلالة قطعية على ان ابليس هو المعنى :
«يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما

(١) في آيات القصة الواردة في سورة الأعراف وصاد .

سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ... الأعراف ٢٧

واسلوب الآية وسياقها هو الأخر اسلوب تقريري يلهم ان مضمونها ليس غريباً على اسماع السامعين ،ولذلك يصح أن يقال ان أهل بيئة النبي (ص)وعصره كانوا يقولون بان لابليس ذرية أو قبيلاً أو جنوداً ، او هذا حيناًوهذا حيناً وهذا حيناً آخر .

-١٦-

رابعاً ان الآيات القرآنية صريحة بان الجن الذين يوسوسون في صدور النـاس ليسوا هم جميع الجن ، حيث يقرر بعضها ان من الجن من هو صالح مهتد كما ان كلمات قبيل وجنود وذرية هي مضافة إلى ابليس فحسب ؛ وما دمنا رجحنا ان التقريرات القرآنية ليست غريبة على الاسماع فنقول هنـا ايضاً ان العرب كانوا يقولون ان ابليس وذريته او قبيله او جنوده ليسوا كل الجن وانما هم فريق منهم .

خامساً ان تسمية ابليس تتضمن كما قلنا معنى الذم ، وتدل على ان هذا المعنى مما كان يعنيه العرب بالنسبة إلى ابليس ؛ والآيات التي اوردناها تتضمن صراحة كون ابليس علماً على شخصية الوسوسة والأغراء . وهذا المعنى ورد في آية اخرى من سورة سبأ لم ننقلهـا وهي : « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقـاً من المؤمنين ... ٢٠ »واسلوب الآية هو الاخرتقريري يلهم ان ما تضمنته ليس غريباً، وهذا المعنى قد تكرر بصراحة في قصة ابليس وآدم المتـكررة ايضاً . ولهذا فانه يصح ان يقرر ان كون ابليس وقبيله هم الذين يضطلعون باغراء الناس والوسوسة في صدورهم في صدد تزيين الآثام والشهوات مما كان يقول به العرب في بيئـة النبي (ص) وعصره قبل البعثة ايضاً .

هذا ؛ ولمـا كانت شخصية ابليس او الشيطان وكونها علماً على الأغراء والوسوسة مما ورد في الكتب السماوية السابقة للقرآن على اختلاف في التسمية والاسلوب ، وكان مما تداوله الكتابيون فليس من المستبعد ان يكون هذا ممـا اقتبسه العرب من هؤلاء ، وان كنا نرجح انه تطور في اذهانهم فاختلف بعض

الاختلاف ؛ واذا صح هذا الاقتباس عن الكتابيين فانه انما كان للشخصية ومداها، فكان من العرب ان وضعوا لها التسمية (ابليس) علم ذم مستمداً من حادث طرده ورجمه الذي لا بد من انهم قد عرفوه كذلك من الكتابيين .

— ١٧ —

سادساً ان القرآن قد اورد قصة آدم وابليس سبع مرات ؛ ستاً منها في سور مكية وهي الأعراف والحجر والأسراء (٦١ – ٦٥) والكهف (٥٠) وطاهـ (١١٦ – ١٢٣) وصاد (٧١ – ٨٥) وواحدة في سورة البقرة المدنية . والقصة كما يفهم من سياقها في كل مرة قد استهدفت العظة والتمثيل والتنبيه كما انها تنوعت في اسلوبها ومحتوياتها بعض الشيء ، وهو شأن القصص القرآنية المتكررة بصورة عامة كما لا يخفى . وهذه ثلاثة أمثلة مما ورد في المرات السبع :

١ — واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا ياآدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ...

البقرة ٣٦

٢ — ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ امرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين .قال أنظرني الى يوم يبعثون . قل انك من المنظرين . قال فبما اغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين . ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين

فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون. يابني ادم لايفتننكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ...

الأعراف ١١ – ٢٧

٣ – ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأٍ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأٍ مسنون. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم اجمعون. الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال ياابليس مالك ألا تكون مع الساجدين. قال لم اكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأٍ مسنون. قال فاخرج منها فأنك رجيم . وإن عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فانظرني الى يوم يبعثون. قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين . ألا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم اجمعين ...

الحجر ٢٦ – ٢٣

– ١٨ –

وشخصية أبليس الأغوائية واضحة في هذه الآيات كما ان الأسلوب هو اسلوب تقريري يلهم ان القصة ليست مجهولة من السامعين شأن القصص القرآنية. لان ما اريد بها هو التذكير والتنبيه والموعظة ، ولعل هذا مما يساعد على فهم الحكمة التي استهدفت في تكرار القصة . فالعرب يعرفون أن الملائكة خلق الله الصالحون المتصلون به المرجون للخير ، وان ابليس وذريته هم شرار ضالون مضلون ، وان ابليس

قد تمرد على الله منذ الاصل ؛ وبعبارة اخرى ان هذه المعاني لم تكن غريبة عليهم فاقتضت ايراد القصة مكررة للنفوذ الى قلوبهم ، فمن استجاب الى امر الله ودعوته كان من اولياء الملائكة ، ومن تمرد وعصى كان من اولياء ابليس وذريته .

وكما ان شخصية ابليس الأغوائية مما كان متداولا بين الكتابيين وواردًا في ما كان بين أيديهم من كتب فأن قصة خروج آدم بالاغواء مما ورد في التوراة ايضاً وان ذكرت الحية مكان ابليس ؛ والمتداول بين الكتابيين ان الحية رمز الشيطان او ابليس . ولعل هـــذا مما كان متداولا عندهم قبل البعثة ، ولا نستبعد والحالة هذه ان تكون القصة مما عرفه العرب عن طريقهم مثل ما عرفوا شخصية ابليس الأغوائية ثم تطورت عندهم بعض الشيء .

- ١٩ -

ونقول في صدد الشيطان :

اولا ان المفسرين قالوا إن الكلمة مشتقة اما من شطن بمعنى بعد واما من شـاط بمعنى بطل ـ من الباطل ـ ، وان معناها الموغل في الباطل او الموغل في في البعد عن الحق ، وانها تطلق على العاتي الباغي والخبيث الداهية .

وكما قال بعض الباحثين ان كلمة ابليس دخيلة قالوا هذا عن كلمة الشيطان . ولم يرد في القرآن جذرا شاط وشطن حتى نسوغ لأنفسنا الاصرار على أصلية الاشتقاق العربي للكلمة كما فعلنا في كلمة ابليس . على أنه سواء أكانت أصلية ام دخيلة فإن مما لا محل للريب فيه انها كانت مستعملة في اللسان العربي قبل نزول القرآن ، وانها بذلك يجب ان تسلك في عداد مفردات اللغة العربية ؛ ومن جهة أخرى فانها اذا كانت دخيلة من احدى اللغات السامية فليس من الضروري ان لا يكون جذرها واحداً في هذه اللغة وفي اللغة العربية كما هو المتبادر .

وثانياً ان الكلمة قد وردت في القرآن في مناسبات ومعان متنوعة :

فقد اطلقت على اليهود او زعماء اليهود الذين كانوا يوسوسون للمنافقين كما جاء في آية البقرة ١٤ التي نقلناها سابقـاً . واطلقت على مناوئي الانبياء (ص) والدعوة الالهية من الجن والانس كما جاء في آية الانعام ١١٢ التي نقلناها سابقاً كذلك .

وأطلقت على الذين يأتون بالعظائم من الجن من غير طبقـة ابليس كما يستلهم من آيات البقرة ١٠٢ وصاد ٣٥-٣٧ التي نقلناها سابقاً ايضاً. وذكر تسخير الجن في خدمة سليمان (ص) في آيات اخرى والاشارة الى انهم كانوا يعملون ماذكرته آيات صاد عن عمل الشياطين له دليلان حاسمان على ان المقصودين بالذكر هم من الجن من غير طبقة ابليس . واطلقت على الجن الذين يسترقون السمع من السماء ويتنزلون بالكلام على بعض البشر كما جاء في آيات الحجر ١٦-١٨ والصافات ٦-١١ والملك ٥ والشعراء ٢١٠-٢١٢ و ٢٢١-٢٢٧ والتكوير ١٧-٢٧ التي نقلناها سابقاً كذلك . وآيات سورة الجن التي نقلناها سابقاً ايضاً قرينة حاسمة على ان المقصود منهم هم جن من غير طبقة ابليس وذريته ايضاً . وقد اطلقت للدلالة على ابليس وجنوده وذريته او بكلمة اخرى مرادفة لهم حيث جاءت مفردة وجمعاً وحيث جاءت في جميع اشارات الوسوسة والاغراء وتزيين الفواحش والمنكرات، واثارة العداوة والبغضاء ومناوأة النبي (ص)، وفي الجملة في كل ما يمثل مهمة ابليس الاغوائية، كما انها وردت بأبليس في سياق واحد كما جاء في آيات الاعراف ١١ - ٢٧ التي حكت قصـة آدم وابليس وكما ترى في الامثلة الآتيـة ؛ مع التنبيه على ان ذكر الكلمة في هـذه الدلالة هو الغالب في ماوردت فيه من آيات :

١ — ولا تتبعوا خُطوات الشيطان إنه لـكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ... البقرة ١٦٨-١٦٩

٢ ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ... البقرة ٢٦٨

٣ ـ إنما ذلـكم الشيطان يخوف اولياءه فـلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ... آل عمران ١٧٥

٤ ـ انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ... المائدة ٩١

٥ — وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجـادلوكم وإن أطعتموهم إنـكم لمشركون ... الانعام ١٢١

٦ —آيات الاعراف ١١ - ٢٧

٧ — ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . الاسراء ٢٧

٨ — فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. النحل ٩٨—١٠٠

٩ — ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ... مريم ٤٤

١٠ — إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير[1] ... فاطر ٦

١١ — استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ... المجادله ١٩

— ٢٠ —

واستلهاماً من كثرة ورود الكلمة واسلوب الآيات التقريري والتنديدي الذي يلهم ان السامعين لا يجهلون معناها ومداها ، واستناداً الى الحقيقة في كون ماجاء في القرآن من كلمات هي مما كان العرب يفهمونه ويستعملونه نقول :

١ — ان العرب كانوا يعنون بالكلمة معنى ذم وهجاء ، وتنويه بالقوى العتي الباغي.

٢ — انها كان لها عندهم مفهوم علمي على الوسوسة والاغراء كما كان لابليس، إلا انها استعملت في نطاق اوسع مما ظلت فيه كلمة ابليس ؛ حيث اطلقت على البغاة العتاة الاقوياء من الانس والجن وعلى القادرين على العظائم من الجن من غير طبقة الموسوسين ؛ كما استعملت مرادفة لكلمة ابليس وشخصيته ايضاً . ولعل مما يصح ان يقال ان اطلاقها على ابليس او اقامتها مقامه هي بسبيل تشديد ذم ابليس وبيان شدة بغيه وعتوه ، وان الكلمة كانت تستعمل قبل نزول القرآن كصفة ذم لكل باغ عات متمرد وانها صارت مرادفة لا بليس او صفة له من هذه الناحية .

— ٢١ —

بقيت نقطة جديرة بالبحث في صدد ابليس والشيطان ، بل هي رئيسية بالنسبة

---

(١) الشيطان في هذه الآيات موصوف بما حكي ابليس عن نفسه وبما قرره الله عنه في آيات قصته . اقرأ آيات الحجر ٣٩ — ٤٢ الاسرار ٦١ — ٦٥ مثلاً .

للعقائد والاديان قبل البعثة ، ونعني مدى ما جاء من تعابير الولاء والعبادة والدعاء لأبليس والشيطان والاشراك بهما مما تكرر وروده في آيات كثيرة مما نقلناه ومالم ننقله .

فهل كان العرب قبل البعثة يعتقدون فعلا بصفة إلٰهية ما في ابليس والشيطان او يتخذونهما معبودات واولياء على نمط ما فعلوا بالنسبة إلى الملائكة والجن الآخرين؟

إن ظاهر نصوص الآيات يسوغ الاجابة بالايجاب على السؤال من دون ريب. غير أننا نلاحظ أن تعبيري ابليس والشيطان يتضمنان معنى الهجاء والذم ، وأن هذا المعنى كان مفهوماً عند العرب . وهذا يجعلنا نحار في التوفيق بين ظاهر النص وبين هذا المفهوم الذي يسوغ استبعاد كون العرب قد عبدوهما أو اشركوهما مع الله كعقيدة دينية . فاذا كان يجب اخذ الآيات على ظاهر نصوصها فلا سبيل الى التوفيق إلا بالقول انهم عبدوهما وتولوهما ـ بلفظهما ـ تزلفاً اليهما وتفادياً من اغوائهما واضلالهما، فالانسان مهما يكن عليه من عقيدة فانه لايعترف بانه على ضلال ولو كان الأمر كذلك كما لا يخفى .

على أن مما يتبادر ايضاً ويستلهم من روح الآيات بل ونصوصها أن تعابير العبادة والتولي قد جاءت مجازاً وفي معرض التنديد بالمشركين والكفار ، وتوبيخهم من جهة ، وتصوير ما كان يقوم به ابليس والشيطان من أدوار الوسوسة والاغراء لهم ، وما كان هذا الدور يلقاه من نجاح فيهم واستجابة منهم من جهة أخرى .



الفصل الخامس

في عقيدة العرب بالله وتنبههم بعثة نبي فيهم

خطورة هذه العقيدة — جملة من الآيات التي تحكي اعترافهم بالله — ما في الآيات من دلالات وصور — الخطوة التطورية في هذه العقيدة — قدم وضوح فكرة «الله» نوعاً ما عن البعثة في اذهان العرب — قدم لفظ الجلالة واشتقاقه — أثر الكتابيين في هذه الخطوة — سعة نطاق انتشار العقيدة بالله — تمني العرب بعثة نبي فيهم وما فيه من حركة ذهنية جديدة — خطورة الحركة وبواعثها — تناقض موقف العرب من الدعوة النبوية مع هذه الحركة وعوامله: الحسد والاستكبار — الخوف على المركز والمنافع — عصبية التقاليد — صورة النبي في أذهانهم واصطدامها مع حقيقة السيد الرسول (ص) — أثر عقيدة البعث في الموقف — هدف تدين العرب قبل البعثة — استدراك .

— ١ —

من الواضح أن مدى عقيدة الشرك هو اشراك غير الله مع الله في العبادة والاتجاه والرجاء والخوف ، وهذا كان شأن عقيدة الشرك العربية قبل الاسلام التي كانت العقيدة العامة كما اشرنا الى ذلك من قبل ؛ حيث كان مشركو العرب يعترفون بوجود الله ، ويعتقدون بألوهيته العليا وقدرته العظمى، سواء في اشراكهم شركاء رئيسيين واعتبارهم إياهم أنداداً له ، او شركاء وسطاء وشفعاء واعتبارهم وسائل قربى اليه .

ولاعتراف العرب بالله الى جانب شركائهم ماديين وغير ماديين ، ورئيسيين وشفعاء خطورة لاتخفى في تصوير تطور الفكرة الدينية عندهم . وهذه الخطورة تزداد وضوحاً اذا لوحظ ان في القرآن آيات كثيرة جداً في صدد ملاحظة العرب لله واعترافهم بوجوده وألوهيته العليا وقدرته العظمى في صور ومناسبات عديدة ومتنوعة،

- ٢ -

نورد فيما يلي جملة من هذه الآيات :

١ — وقالوا لولا نزل عليه آيةٌ من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لايعلمون ... الأنعام ٣٧

٢ — وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... الأنعام ٨

٣ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنُن بها... الأنعام١٠٩

٤ — وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ... الأنعام ١٢٤

٥ — وجعلوا لله مما ذرأمن الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون ... الأنعام ١٣٦

٦ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ... الأنعام ١٤٨

٧ — وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها...الاعراف٢٨

٨ — ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... يونس ١٨

٩ — هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرَين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين(١) لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين ... يونس ٢٢

١٠ — قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبرُ الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ... يونس ٣١

١١ — وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم إذا

---

(١) أي لم يذكروا معهم شركاءهم

كشف الضرّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ... النحل ٥٣-٥٤

١٢ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون ... النحل ٥٧

١٣ — وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه(١) فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً ... الاسراء ٦٧

١٤ — قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ... المؤمنون ٨٤-٩١

١٥ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فاني يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيءعليم .ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لايعقلون ... العنكبوت ٦١-٦٣

١٦ — فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون ... العنكبوت ٦٥

١٧ — وإذا مسّ الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ... الروم ٣٣-٣٥

١٨ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم ... فاطر ٤٢

٢٠ — وإن كانوا ليقولون . لو ان عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين ... الصافات ١٦٧-١٦٩

٢١ —ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء مانعبدهم إلا

---

(٢) أي نسوا ما كانوا يدعون معه من شركاء .

ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ... الزمر ٣

٢٢ — وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل له أنداداً ليضل عن سبيله ... الزمر ٨

٢٣ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ... الزمر ٣٨

٢٤ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ... الزخرف ٩

٢٦ — ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ... الزخرف ٨٧

٢٥ — وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ... الزخرف ١٩ — ٢٠

وهذه الآيات على مايبدو من كثرتها التي تعمدناها لتجلية الموضوع في الذهن ليست كل الآيات التي تحكي اعتراف العرب بالله . ففي الآيات التي استعرضناها في فصل المشاقة من الباب الثالث جملة اخرى تحكي اعترافهم بالله وكون مشاقتهم للنبي (ص) إنما كانت من قبيل انكار نبوته ورسالته واتصالها بالله؛ كذلك في الآيات التي استعرضناها في فصل الملائكة صراحة باعترافهم بالله وألوهيته العظمى وكون الملائكة بناته سبحانه والمختصين بخدمته وتنفيذ اوامره في كونه ؛ هذا عدا ما في القرآن من آيات تمت الى هذا لم ننقلها اكتفاء بما أوردناه هنا وفي الفصول السابقة.

— ٣ —

والذي يمكن الاستدلال عليه من هذه الآيات وما في بابها هو :

اولاً إن اهل بيئة النبي (ص) او فريقاً منهم كانوا يعترفون بوجود الله كاله أعظم ، خالق السماوات والأرض وما فيها ، وانه مدبر الكون وربه ، بما في ذلك الملائكة والجان ، وانه بيده ملكوت كل شيء ، وانه هو الذي يسيطر على قوى

الطبيعة ويصرفها من شمس وقمر وكواكب وبحار ورياح ويسخرها لصالح المخلوقات، وانه هو الذي يحيي ويميت ويمنع ويرزق الناس .

ثانياً انهم او ان فريقاً منهم كانوا يعتبرون الله الملجأ الأعلى في عظائم الأمور وجسيم الأخطار والأهوال ، وانه لا يكشف الضر ولا يدفع الشر ولا يعطي الخير غيره . وكانوا حينما يواجهون الأخطار والأهوال ، ويصابون بالبلاء والكوارث يجأرون اليه ، ويدعونه وحده . على اعتبار انه هو القادر على انقاذهم ، ودفع الشر والكوارث والأخطار عنهم لا شركاؤهم ولا آلهتهم ولا شفعاؤهم .

ثالثاً انهم او إن فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان الله هو الذي يرسل الأنبياء والنذر ويؤيدهم بآياته وينزل عليهم ملائكته ، ويوحي اليهم بكتبه التي تحتوي تعليماته وأوامره وحلاله وحرامه .

رابعاً انهم او إن فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان ما هم عليه من عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه ، وانه راض عنهم فيها وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء ويقولون انه لو لم يكن راضياً عن ذلك لما كانوا فعلوه .

ويتبادر لنا ان ما جاء في الفقرة الرابعة كان كالحلقة المتوسطة بين تفكير ديني قديم وتفكير ديني جديد ، وانه يمكن أن يكون المفسر لاعترافهم بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء واشراكهم معه بالعبادة والدعاء والاتجاه . فالمفروض أن العرب في اطوارهم الأولى كانوا وثنيين يعبدون المادة والقوى الطبيعية، وما انبثق في اذهانهم من عقيدة وجود الأرواح الخفية الخيرة والشريرة ، وانهم لم يكونوا قد تصوروا وجود الإله الأعظم بالصفات الواجبة له او ما يقرب منها ؛ ثم اخذوا يسمعون ذكره وصفاته ، واخذت معانيه تدخل في اذهانهم شيئاً فشيئاً حتى دخلوا في طورهم الأخير الذي كانوا عليه عند نزول القرآن ، وهو التسليم بوجود إله أعظم له ملك السموات والأرض ، وبيده تدبير الأكوان، وتسخير القوى الطبيعية، وهو الملجأ الأعلى للناس في كل ما يمكن أن يصيبهم من بلاء، والقادر وحده على دفعه عنهم، والمصدر الأكبر لكل ما يرجونه من خير ؛ غير انهم لم يكونوا بعد قد وصلوا الى

اساغة فهم إله واحد غير مادي وغير مرئي فهماً تصورياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء اساغة تامة ، فكانوا مع اعترافهم بالله على النحو الذي جاء في الفقرات الثلاث الاولى لم يروا لهم غنى عن معبوداتهم الأولى التي كانوا بها وبرموزها اكثر اتصالاً ومشاهدة في العبادة والاتجاه وطلب العون، والاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى والمصائب والأخطار ؛ وكانوا يعتقدون أنهم على حق في ذلك لأنهم كانوا يذهبون الى ان الله المتصف بصفات القدرة والعظمة والجبروت والخلق والبسط والقبض والأعطـــاء والمنع وتصريف مخلوقاته فيما يشاء وكيفما يشاء ما كان يقيهم في الاستمرار في العبادة والاتجاه وطلب العون والاستشفاع بمعبوداتهم المادية والروحية او الطبيعية لو لم يكن راضياً عن ذلك مرددين في هذا الذهاب في الحقيقة ونفس الأمر صدى ما كان راسخاً في نفوسهم من عقائد موروثة ، وعدم استساغة استغنائهم عن معبودات اورموز مادية مشاهدة .

على ان مما يحسن التنبيه اليه أن العرب في هذا لم يكونوا بدعاً ولم تكن الصورة خاصة بهم بل لم تكن خاصة ببيئتهم وعصرهم ؛ فأصل الصورة ومداها غير منقطعي المثول للعين في مختلف الأدوار التي جاءت بعد ذلك وفي مختلف البيئات والأديان ايضاً .

— ٤ —

وهكذا نرى من خلال هذه الصورة خطوة تطورية تدل على أنهم قد ارتقوا في تفكيرهم الديني من عبادة المعبودات المادية والروحية والطبيعية وحدها الى فهم معنى الله وتصوره والاعتراف به؛ غير ان هذه الخطوة لم تكن تامة لانهم لم يكونوا قد وصلوا بعد الى اساغة الاكتفاء بالله وحده ايماناً تصورياً وغيبياً وتجريدياً كما اشرنا انفاً فكانوا كما عبرت عنهم آية يوسف : « وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون ... ١٠٦

وفي هـــذا التقرير المستلهم من نصوص الآيات نقض آخر لقول من قـال ان العرب ظلوا في تفكيرهم الديني في نطاق المادية والحجرية الغليظة الجـافية كما هو واضح .

- ٥ -

اما الزمن الذي وضحت فيه فكرة الله في أذهانهم فليس من سبيل الى تحديد مبدأه بالاستناد الى القرآن . ولكنا نرجح انه قبل البعثة بأمد غير قصير حيث أخذت اتصالاتهم بالعالم ورحلاتهم اليه تكثر ، وحيث اخذت معارفهم ومقتبساتهم تنموا وتتسع . وفي بعض الآيات دلالات على بعد عهد ذلك نوعاً ماعن حقبة البعثة؛ حيث تحكى قولهم انا وجـــدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون ، وتواصيهم بعدم اتباع النبي (ص) الذي يحاول ان يصدهم عما كان عليه آباؤهم كما ترى في هذه الأمثلة :

١ ــ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ...

الأنعام ١٤٨

٢ ــ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ... النحل ٣٥

٣ ــ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ... سبأ ٤٣

٤ ــ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا إختلاق . أءُنزل عليه الذكر من بيننا..

صاد ٦ ــ ٨

٥ ــ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ...

الزخرف ٢٢

- ٦ -

ويتبع عدم حداثة وضوح فكرة الله في اذهان العرب ، ورجوع ذلك الى مدة غير قصيرة من قبل البعثة عدم حداثة لفظ الجلالة في اللسان العربي بطبيعة الحال . ولقد قال المفسرون ان اللفظ مضعف او معدل من الالٓة ، وان هذه الكلمة مشتقة من أله بمعنى عبد او وله بمعنى حار او لاه بمعنى سكن الى الشيء كما قالوا ان اللاة مؤنثه . ومع ان الاشتقاقات الاولى لاتخلو من وجاهة فان القول الثاني اكثر

وجاهة في ما هو المتبادر؛ حيث نرى من السائغ كثيراً ان يكون العرب قد عدلوا من « اللاة » لفظ الجلالة وجعلوه مذكراً لها حينما انبثق في اذهانهم معنى وجود الله كاله أعظم . وهذا بقطع النظر عن احتمال صلة تسمية اللاة بالمعبود البابلي القديم « اللاتو » على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، وما يمكن ان تدل عليه هذه التسمية او الصلة من كون اللاة هي لفظ عربي قديم الدلالة على المعبود. ولقد قدم ذكر اللاة في القرآن على العزى ومناة كما ان الروايات تقدمها في الذكر وخاصة في الحلف ؛ ولعل في هذا ما يمكن ان يلهم ان اللاة كانت صاحبة الاعتبار الاول او المعبودة الكبرى عند العرب ان لم يكن في عهد النبي (ص) ففي قبله بمدة ما . واذا صح هذا ففيه توجيه لرجحان الصلة الاشتقاقية او التعديلية بين « اللاة » ولفظ الجلالة .

على أننا نريد أن نستدرك شيئاً في صدد وضوح فكرة الله في أذهان العرب الذين كانوا يعترفون به . ففي سورة الاسراء وردت هذه الآية :

« او تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً ... ٩٢

وفي سورة الفرقان وردت هذه الآية :

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... ٢١ »

فهذه الآيات وإن كانت تحكى عنهم تعجيزاً وتحدياً فانها لتلهم أنهم كانوا يتخيلون الله شيئاً يمكن ان يروه ماثلاً أمامهم . ومع ذلك فاننا ننبه على ان العرب لم يكونوا في هذا بدعاً ، ولم تكن الفكرة خاصة بهم فقد كانت شاملة غيرهم ايضاً؛ وفي علم الكلام الاسلامي بحوث متصلة بامكانية رؤية الله ماثلاً للعيان الانساني في الدنيا او الآخرة كما لا يخفى ، وهذا مما يوجد عند أهل الأديان السماوية ايضاً.

— ٧ —

والذي يتبادر لنا ان للكتابيين اثراً كبيراً او الاثر الاكبر في تلك الخطوة التطورية التي نبهنا عليها في انبثاق فكرة الله في اذهان العرب بوضوح ما ، فقد كانت النصرانية سائدة في اكثر الاقطار التي كان العرب يصلون اليها في اسفارهم ورحلاتهم ، وكان يدين بها كثير من العرب في اطراف الجزيرة كما كان يدين بها

عرب في قلب الجزيرة ، وقد كانت الجوالي اليهودية في الحجاز قوية بارزة لها اتصالات بالعرب ؛ وطبيعي جداً ان يكون بين اهل الكتاب والعرب تفاعل أدى بالعرب الى هذا الطور الجديد في التفكير الديني ، فاخذوا عنهم فكرة الاله الاعظم او وضحت هذه الفكرة التي قد تكون طبيعية الانبثاق في الذهن البشري مع شيء من الغموض ، ولكنها لم تستطع ان تتغلب على ما كان راسخاً فيهم من عقائد موروثة فسلموا من جهة بالله واعترفوا به ، واحتفظوا من جهة بمعبوداتهم وعقائدهم وتقاليدهم ثم استمر التطور حسب تفاوت المدارك والبيئات الى ان اخذ يظهر فيهم من يسيغ فيهم الله والتوجه اليه وعبادته وحده فيا غيبياً مجرداً ، ويرى مافي عبادة المعبودات المادية والروحية ورموزها مع الله من سخف فيأنف من الاستمرار عليها ، وينبذها وهم طبقة الحنفاء والصابئون والباحثون عن ملة ابراهيم الحنيفية الذي سيأتي الكلام عنهم بعد . وفي الآيات القرآنية الكثيرة التي وردت عن أهل الكتاب او في صدد محاجة العرب فيهم شواهد على ما نقوله . وقد نقلنا اكثرها في فصول الباب الاول ومنها ما سوف نورده بعد ؛ كما اننا سنعود الى هذا الموضوع في فصل اليهودية والنصرانية واثرها في العقائد العربية ايضا .

— ٨ —

هذا ؛ ونحب ان نلفت النظر الى كثرة الآيات التي تقرر او تدل او تلهم اعتراف العرب بالله كاله أعظم واسلوبها ومضمونها لنقول ان فكرة وجود الله والاعتقاد به على هذا الوجه كانت واسعة النطاق في عهد النبي (ص) بحيث يسوغ ان يقال انها كانت تشتمل اهل المدن وسكان البادية بوجه الاجمال ، وعقيدة الشرك التي هي عقيدة العرب عامة دليل على ذلك . فاشراك غير الله مع الله سواء كان اشراكا رئيسياً او ثانوياً ، يطوي فيه ذلك الاعتراف كما هو المتبادر . وهذا كان ينتظم اهل عصر النبي (ص) من العرب عامة باستثناء الاقلية الكتابية منهم ، سواء منهم الحضر والبدو . والآيات القرآنية في الأعم الاغلب حتى التي فيها حملات على المعبودات المادية والطبيعية والروحية انما كانت في صدد إشراك العرب اياها مع الله في العبادة والاتجاه والتنديد بسخف ذلك وتناقضه مع فكرة الاعتقاد بالله على ما يتضح عند امعان النظر فيها.

ومن الممكن ان يشار كمظهر من مظاهر الاتجاه العربي العام في هذا الى اشتراك العرب حضرهم وبدوهم على اختلاف منازلهم في الجزيرة واطرافها في مناسك الحج وشهود موسمه بقطع النظر عن اختلاف الافكار والطبقات والاصنام والآلهة على ما ذكرناه فى فصل الحج ، وقدومهم في موسم معين لأداء هذه المناسك والطواف حول بيت الله العتيق في ظل هدنة مقدسة عامة .

ومن المفيد ان نشير الى ان العرب قد اعتادوا فيما اعتادوه من مظاهر اعترافهم بالله استعمال كلمة « الله » في أيمانهم ، وقد مر في الآيات التي نقلناها شيء من ذلك كما انهم اعتادوا ان يستعملوا كلمة « اللهم » في دعائهم كما جاء في آية سورة الأنفال ٣٢ :

«واذقالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء..»

وقد ذكرت الروايات انهم كانوا يستعملونها في عقودهم وكتاباتهم ، وان تسمية عبد الله كانت كثيرة الشيوع ؛ ففي كل هـــذا قرائن مؤيدة لسعة شمول الفكرة كما هو واضح .

- ٩ -

وفي بعض الآيات التي استعرضناها قبل قليل ما يمكن ان يرى فيه حركة ذهنية جديدة في الطور الديني الجديد الذي دخل فيه العرب ؛ حيث حكت آية سورة فاطر (٤٢) ما كان يصدر من العرب قبل البعثة من أيمان مغلظة على انهم إذا جاءهم نذير من قبل الله ليكونن اهدى من احدى الامم ؛ وحيث حكت آيات سورة الصافات (١٦٥ - ١٦٩) قولهم قبل البعثة ايضاً انهم لو اتاهم كتاب كما جاء غيرهم من الامم السابقة لاتبعوه وكانوا عباداً مخلصين لله .

وليس من محل للشك في ان القائلين من العرب قد قصدوا باحدى الامم اليهود والنصارى لأنهم هم الذين كان عندهم كتب من الله ، وهم الذين كانوا يعتبرون انفسهم ويعتبرهم غيرهم انهم مؤمنون بما جاء به رسل الله وانذروه عن الله . وقد اشير إلى هذا المعنى بشيء من الصراحة فى آيات من سورة الأنعام :

«وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . ان تقولوا إنما انزل

الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين [1] . او تقولوا لو أنا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن اظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ... ١٥٥ — ١٥٧

ولهذه الحركة الجديدة دلالة خطيرة ولا ريب على استمرار التطور في تفكير العرب الديني واتجاههم نحو الله ، وعلى ما كان عندهم من معلومات والمام باحوال النصارى واليهود واثر النصرانية واليهودية في هذا التطور .

— ١٠ —

ويمكن تفسيرها اولاً بان فريقاً من الذين كانوا يعترفون بوجود الله ، ويعتقدون انه الملجأ الاعلى والاله الاعظم ، اخذوا يرون انفسهم في عماية عن الطريق المستقيم البين من الوجهة الدينية ، وانهم يخبطون خبط عشواء في اتخاذ الشركاء والاولياء والشفعاء وعبادتهم واشراكهم مع الله في الدعاء والخضوع والاتجاه ، فصاروا يتمنون ان يبعث فيهم نبي بالبيان الواضح والصراط القويم حتى يتبعوه ويهتدوا به . وثانياً بان العرب كانوا يسمعون اخبار الكتب السماوية التي بين يدى اليهود والنصارى وأخبار الانبياء الذين أنزل الله كتبه عليهم وما في هذه الكتب من شرائع وبينات جعلت اتباعها يرون أنفسهم أنهم على هدى من الله وعلم بصفاته وواجباتهم نحوه وبما أحله وبما حرمه . الخ الخ ، وكانوا يسمعون من اليهود من الزهو والتبجح والاستعلاء بسبب كون الانبياء والرسل منهم ، وكونهم الشعب الذي اختاره الله لرسالاته وكتبه ، فاثار هذا غيرة ذلك الفريق العربي وانانيته ، وجعله وقد آمن بوجود الله الذي يؤمن به اليهود صراحة والنصارى مؤولاً والذي هو الذي يرسل الانبياء إلى الامم بالكتب والبينات ، يتمنى ويتطلع إلى نبي يبعثه الله في العرب ليهديهم في أمور دينهم ودنياهم ، ويكون لهم من الاعتزاز والفخر في ذوه عربية ، وكتاب سماوي

---

(١) أي انزلنا هذا الكتاب المبارك اتبعوه ولئلا تقولوا أن كتب الله إنما جاءت لطائفتين من قبلنا وبلسانها ولم نطلع عليها وانه لو أنزل علينا كتاب مثلهم باساننا لكنا أهدي منهم .

عربي ما كان لليهود والنصارى الذين يزهون عليهم فلا يغالون دونهم مقاماً وفخراً وهداية . وقد احتوت آيات كثيرة حكاية ما كان يبدو من اليهود والنصاري وخاصة اليهود من زهو واستعلاء وتبجح ودعوى عريضة، نقلنا اكثرها في فصول سابقة[1]. ونرجح أن مثل ذاك بل واكثر منه كان يصدر عنهم قبـل البعثة وخاصة بسبيل تقرير ميزتهم على الناس ، ومركزهم المـادى والادبي في الحجاز ، فيثير في نفوس العرب ما يثير من غضاضة وغيرة ورغبة . وثالثاً بان هذا الفريق العربي الذي كان يتمنى بعثة نبي وينذر باتباعه والاهتداء بهديه كان يرى خلافاً ونزاعاً وتنافراً وتناظراً بل وقتالاً وكيداً بسبب الامور الدينية بين اليهود والنصارى ؛ كل ملة في داخلها اولاً ، والملتان كل منهما إزاء الاخرى ثانياً، وأن هذا كان موضوع احاديثه واستغرابه وهدف انتقاده وسخريته ، فكان يقول ما حكته آية فاطر . ولعـل منهم من كان يريد أن يتنصر أو يتهود رغبة في أن يكون صاحب كتاب ورسول كما فعل بعض العرب ثم يتوقف ويتردد بسبب ما يسمعه أو يراه من ذلك الخلاف والنزاع .

ولقد أشار القرآن إلى هذه الاختلافات الدينية ، في آيات كثيرة مكية ومدنية منها ما نقلناه في فصول سابقة[2] ، ومنها ما ننقل بعضه في ما يلي :

١ ــ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ... البقرة ١١٣

٢ ــ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ... البقرة ٢١٣

٣ ــ إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ... آل عمران ١٩

---

(١) اقرأ بحث اليهود في الفصل الثـالث من الباب الاول واقرأ آيات البقره ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١٣٥ والنساء ٤٦ - ٥٠ والمائدة ١٩ مثلا .

(٢) اقرأ فصل الجاليات الاجنبية في البـاب الاول واقرأ آيات البقرة ٢٥٣ ومريم ٣٥ــ٣٧ والنحل ٧٦ــ٧٨ وفصلت ٤٥ والجاثية ١٦ــ١٧ مثلا .

٤ — ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به . فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ... المائدة ١٤

واسلوب الآيات مانقلناه هنا ونقلناه سابقاً وفحواها وما فيها من دفاع عن اصل الدين وصحة الكتب السماوية وقدسيتها وصفائها ، ومن عزو الاختلافات والعداوة والبغضاء الى الانحراف والبغي والأهواء يحمل على الترجيح بل على اليقين بان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة وخاصة في مكة ويثرب كانوا على اطلاع غير قليل على احوال اليهود والنصارى وخلافاتهم ومذاهبهم ومشاقاتهم ومجادلاتهم ومقاتلاتهم بسبب الامور الدينية والخلافات المذهبية، وان هذا مما كان يثير في العرب الحيرة والسخرية ويجعل لهم مجالاً للاحتجاج والانتقاد ، ويحملهم على تمني ماتمنوه والقول بأنهم سيكونون اهدى منهم إذا جاءهم نذير وأنزل عليهم كتاب .

— ١١ —

ورابعاً بان يكون فريق من العرب سمع من بعض الأحبار والرهبان بشرى اقتراب بعثة نبي عربي وبصفات هذا النبي، فكان مرتقباً مؤكداً انه اذا جاء ليكون العرب به اهدى من الامم الاخرى ولا ينقسمون كما انقسمت احزاباً وشيعاً متنازعة متباغضة متشادة .

وفي القرآن بعض الملهمات المؤيدة لذلك . ففي سورة الاعراف وردت هذه الفقرة :

« الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ... ١٥٧

ولايمكن ان يكون محل للريب ان تحتوي آية قرآنية هذا وهي تتلى جهرة يسمعها اليهود والنصارى بل وتوجه اليهم بنوع خاص مالم يكن هؤلاء يجدون في كتبهم الدينية صفات هذا النبي الامي باسلوب ما ويبشرون بقرب ظهوره . ومن المحتمل جداً ان لم نقل من المحتق ان علم هذا لم يفت العرب او فريقاً منهم في بيئة النبي (ص) . وفي سورة الصف هذه الآية :

« واذ قال عيسى ابن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين

يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ... ٦

والآية مدنية ؛ وبالاضافة الى انها احتوت تقريراً ايمانياً عن حادث هو عند المسلم صادق كل الصدق في حكايتها خطاب عيسى (ص) لبني اسرائيل، فانه ليس من محل المريب ايضاً ان تحتوي آية قرآنية هذا وهي تتلى جهرة ويسمعها اليهود والنصارى مالم تكن بشارة عيسى (ص) هذه مما يؤيدها النصارى على الاقل ويذكرونها، ومن المحتمل جداً ان لم نقل من المحقق ان هذا لم يفت العرب او فريقاً منهم في بيئة النبي (ص) .

وفي سورة البقرة هذه الآية :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ... ٨٩

وقد قال المفسرون في سياق تفسيرها استناداً الى الروايات ان اليهود كانوا يخبرون العرب بقرب بعثة نبي منهم ، ويقولون لهم انه سيكون من حزبهم وانهم يتضامون معه ضدهم زهواً وتبجحاً . وروح الآية ومضمونها وخاصة جملة « فلما جاءهم ماعرفوا » تجعل هذا التفسير وجيها كل الوجاهة .

وفي سورة البقرة ايضاً هذه الآية في سياق سلسلة آيات عن ابراهيم واسماعيل (ص) ورفعهما قواعد البيت المحرم وتهيئته للعاكفين والطائفين وللركع السجود :

« ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك انت العزيز الحكيم ... ١٢٩

وروح آيات السلسلة ومضمونها يدلان على ان ضمير الغائب في الآية هو عائد للعرب ذرية ابراهيم واسماعيل (ص) . ومع ان الآية تحتوي تقريراً ايمانياً هو عند المسلم صادق كل الصدق في حكايتها دعاء ابراهيم واسماعيل (ص) فاننا لانستبعد ان لم نقل اننا نرجح استناداً الى ماقررناه في مناسبة سابقة من قوة احتمال تداول قصص ابراهيم (ص) التي لم تذكر في التوراة بين العرب قبل البعثة واعتقادهم بصلتهم الابوية والدينية به ان تكون دعوة ابراهيم واسماعيل (ص) مما كان يتناقله العرب قبل البعثة ويستندون اليه في ارتقابهم بعثة نبي منهم فيهم وتمنيهم قرب هذه البعثة .

- ١٢ -

وقد يكون من الطبيعي بعد هذا ان يرد سؤال عن العوامل التي دفعت العرب الذين كانت هذه افكارهم وامنيتهم ، وهذا مبلغ تطورهم الديني الجديد الى ذلك الموقف العجيب الذي وقفوه من النبي (ص) في المرحلة الأولى من تاريخ دعوته ، وخاصة في عهد مكة ، والمتناقض كل التناقض مع تلك الأفكار والأمنية والتطور.

وننبه اولاً على أمر مهم وهو ان موقف جمهرة العرب من الدعوة النبوية وخاصة في العهد المكي وفي مكة قد كان بتأثير زعماء مكة وكبرائها ونبهائها وسادتها واغنيائها كما تقرره الآيات القرآنية العديدة التي نقلنا بعضها في فصل نظام الحكم والطبقات من الباب الثاني (١) من جهة وأن أولئك الزعماء والكبراء والسادة الذين حملوا لواء الجدل والحجاج والمعارضة والصد عن الدعوة النبوية هم في الأغلب الذين حكت آيات القرآن اقوالهم التي كانت تبدر منهم قبل البعثة مثل آيات فاطر ٤٢ والصافات ١٦٥ — ١٦٩ .

وبعد هذا التنبيه نقول جواباً على السؤال ان في القرآن آيات كثيرة يمكن الاستدلال بها على انه كان هناك عوامل عديدة هي التي غلبت زعماء مكة وكبراءها على امرهم واوقعتهم في هذا التناقض العجيب .

- ١٣ -

منها الحسد والاستكبار والترفع عن اتباع النبي (ص) بالذات، واستخفافهم لشأنه ، وغيظهم من اختصاصه بالرسالة الالهية من دونهم وهم يرون انفسهم اعظم مركزاً وأضخم ثروة واعرض جاهاً وابعد نفوذاً واسمع كلمة منه كما جاء في آيات عديدة ننقل منها ما يلي :

١ — واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ... فاطر ٤٢ - ٤٣

٢ — ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا لولا نزل هذا

---

(١) آيات سبأ ٣١ — ٣٣ والبقرة ١٦٦ وابراهيم ٢١ والاحزاب ٦٧ مثلاً

القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون ... الزخرف ٣٠ - ٣٢

٣ — أءُنزل عليه الذكر من بيننا ... صاد ٨

ومنها الخشية من فقد ما كان لهم ولمكة من امتيازات على العرب ، وما كان يعود عليهم من منافع عظيمة من هذه الامتيازات التي كانت لهم بسبب وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة ، وبسبب أمن منطقة البيت المحرم كما جاء ذلك حكاية صريحة عنهم في احدى آيات سورة القصص :

«وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا ... القصص ٥٧

حيث تفيد ان زعماء مكة تصوروا ان متابعة النبي (ص) ستؤدي الى الغاء كل ما كان لهم ولبلدهم من الامتيازات ، وكل ما كانوا عليه من تقاليد ، ورأوا في ذلك فقد اسباب معاشهم ومظاهر عزتهم وحرماتهم ، وتعريضهم للخطر وجعلهم مأكلة سائغة للآكلين ، ونهباً سهلاً للناهبين . ولعل هذا من اهم ما استغلوه في تخويف سواد مكة من متابعة النبى (ص) لانه يمت الى وسائل حياتهم مادية كانت او أدبية .

ومنها عصبية التقاليد التي كانت شديدة الرسوخ فيهم ولم يكن من السهل التغلب عليها ، والتي تتضاءل معها النظريات وقوة المنطق ، وتعمى فيها البصائر . وقد شرحنا هذه العصبية وآثارها استلهاماً من آيات أوردناها في الفصل الثاني فلا نرى ضرورة للاعادة هنا .

— ١٤ —

ومنها الصورة التي تصوروها « للنبي » ومظهر « النبوة » والتي تصور ناحية من تفكير العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ ثم مارأوه من تناقض لها في شخص النبي (ص) ومظهره وقدرته . فقد تصوروا أن النبوة تخرج « النبي » من الطبيعة البشرية إلى ما فوقها ، ويصبح قادراً على خرق نواميس الكون والسنن الاعتيادية . وقد كان لما عرفوه من قصص الامم والانبياء (ص) اثر مافي هذه الصورة ولاريب ،

حيث لابد من انهم قد عرفوا من هذه القصص التي لم تكن مجهولة في الاوساط العربية قبل البعثة على ما قررناه ودللنا عليه في مناسبة سابقة أن الله قد كلم موسى (ص) تكليما ، وأنه ترآى له في شجرة الطور ، وأنه تجلى على الجبل وأنزل عليه الالواح مكتوبة من السماء وقد شاهدها بنو اسرائيل ولمسوها ، وأن عصاه كانت تحول إلى ثعبان هائل يلقف كل شيء ، وانه جلب على مصر من آيات البلاء ما فيه الفزع الاكبر من الطوفان إلى الجراد إلى القمل إلى الضفادع إلى الدم ، وأنه ضرب بعصاه البحر فانفلق عن طريق يابسة مشى فيها بنو اسرائيل ونجوا من فرعون وجنوده ، وأنه ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً على عدد اسباط بني اسرائيل وأن الله ظللهم بالغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وأنه أمات فريقاً منهم بالصعقة تأديباً ثم احياهم ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا من هذه القصص أن يحيى (ص) ومن قبله اسحق (ص) قد ولدا من اب طاعن وام عاقر بمعجزة ربانية ، وأن عيسى (ص) قد ولد بدون اب وبمعجزة خارقة جعلت المسيحيين يعتقدون ببنوته لله ، وانه تكلم في المهد بكلام الانبياء ، وأنه ابرأ الاكمه والابرص واحيا الموتى ، ونفخ في الطين فصار طيراً ، وأن الله قد أنزل عليه مائدة من السماء شاهدها الحواريون واكلوا منها ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا أن الله قد سخر الجبال والطير لداود (ص) والريح والجان لسليمان (ص) ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا بمعجزة طوفان نوح (ص) وفلكه ، وبقصة الملائكة الذين نزلوا على ابراهيم (ص) ثم على لوط (ص) وكلموهم ، وخسفوا بلاد قوم لوط بسبب ما ارتكبوه من الآثام ؛ ولا بد من انهم كانوا يعرفون من القصص العربية المتداولة بينهم عن غير طريق اهل الكتاب ما كان امر رسالة هود وصالح وشعيب (ص) وما كان من معجزة خروج ناقة صالح (ص) من الصخرة وتدمير قومه ، وما كان من الريح الصرصر الذي هلكت به عاد ويوم الظلة الذي هلك به قوم شعيب إلى آخر هذه القصص النبوية الخارقة ، فتصوروا «النبي» تلك الصورة التي ساعد على قيامها في أذهانهم ما سمعوه وعرفوه عن الانبياء السابقين (ص) ، ثم رأوا سيدنا محمداً (ص) يخبر أن الله قد اوحى اليه بالنبوة وارسله لهداية الناس إلى الهدى ودين الحق ، ويتلو عليهم آيات الكتاب التي يخبر أن الله ينزلها عليه

بواسطة ملائكته، بينما هو منهم وبشر مثلهم، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويمشي في الاسواق كما يمشون، ويعتريه ما يعتريهم من أعراض، ويحتاج إلى ما يحتاجون اليه من شؤون، ويتمتع بما يتمتعون به من متع؛ ولم يروا فيه صفة خاصة ولا علامة بينة ولا قوة خارقة، ولم يروا الملائكة التي تنزل عليه، فاندهشوا من هذا وطالبوه بالآيات والمعجزات كما كان الانبياء الاولون يأتون بها، واقترحوا عليه إنزال الملائكة من السماء لتأييده، وتنزيل كتاب مكتوب من السماء يلمسونه ويقرأونه، وتفجير الانهار واظهار كنوز الارض واحياء آبائهم الاولين الى اخر تلك المقترحات التي حكتها الآيات القرآنية والتي اوردنا كثيراً منها في فصول المشاقة وابحاث السحر والسحرة والكهانه والكهان والشعر والشعراء والملائكة والجن؛ فكان جوابه بلسان القرآن سلبياً مكتفياً بالاشارة الى القرآن الذى يوحي اليه به كما ترى في الآيات التالية :

١ — قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون ...
الانعام ٥٠

٢ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله ... الانعام ١٠٩

٣ — قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ...
الاعراف ١٨٨

٤ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقائنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايوحى الي إني اخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ... يونس ١٥

٥ — ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر ولكل قوم هاد ... الرعد ٧

٦ — وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً . او تكون لك

جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترق في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ... الاسراء ٩٠ — ٩٣

٧ — وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ... العنكبوت ٥٠ — ٥١

غير ان هذه الاجوبة والردود القرآنية التي تجلى فيها الصميمية والصدق لم تكن لتقنعهم وتصرفهم عن الصورة التي تصوروها « للنبي » وتثنيهم عن المطالبة بالآيات والخوارق ؛ ثم اشتدت المشاقة واختلطت فيها عواطف الحقد والحسد والغيظ فاعمتهم عن رؤية الحق الواضح ، والسناء اللامع ، والعقل الراجح والصدق والصميمية والاخلاص في القول والعمل والدعوة الى الله ومكارم الاخلاق ، وجعلتهم يعللون دعوى النبي (ص) بما كان قائماً في اذهانهم من معارف وعقائد ، ويقولون انه شاعر حيناً وكاهن حيناً وساحر حيناً ومسحور حيناً ومجنون حيناً ، وان الشيطان هو الذى يلقنه مايقوله حيناً ، وان بعض الناس يعلمونه حينا ، وان ما يقوله هو اساطير الأولين حيناً على ما ذكرته الآيات التي اوردنا شيئاً كثيراً منها ، ولم يتبدل موقفهم الا بعد ان اشتد امره سياسيا وحربيا ، وهلك اكثر الزعماء والمعنتين والمجادلين اللجوجين والخصوم العنيدين المستكبرين والمغيظين .

— ١٥ —

ومنها عقيدة البعث بعد الموت التي كانت ركنا من اركان الدعوة النبوية ؛ ولعلها كانت من اشد العقبات في سبيل هذه الدعوة في العهد المكي ، كما كانت اكثر مواضيع القرآن المكي تكراراً وحفاوة ؛ وقد حكت الآيات الانكار والتحدي والأعراض والسخرية التي كان العرب يقابلون بها تقريرات القرآن وانذاره وتبشيره عن اليوم الآخر وبعث الناس بعد موتهم لمحاسبتهم عما فعلوه في حياتهم الدنيا وتوفية كل نفس ما عملت من خير وشر ، ومجازاة المحسنين المؤمنين بالجنة

والمغفرة والرضوان ، والمسيئين الكافرين بالنار والخزي والخسران كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ... الأنعام ٢٩

٢ — ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ... هود ٧

٣ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت ... النحل٣٨

٤ — وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة او حديداً . او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً ... الاسراء ٤٩-٥١

٥ — قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ... المؤمنون ٨٢-٨٣

٦ — وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لايؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ... سبأ ٧-٨

٧ — وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر إلا في كتاب مبين . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم ... سبأ ٣-٥

٨ — وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ... الجاثية ٢٤-٢٥

وكثرة الآيات المنذرة المبشرة باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه قد تدل بالاضافة الى ماينطوي فيها من حكمة ربانية وحقيقة ايمانية على أن المشكلة لم تكن

قائمة في أذهان بعض الطبقات دون بعض ، وإنما كانت مشكلة الجميع ؛ الوثنيون والمشركون مع الله والمتقربون اليه بالشفعاء والوسطاء ، حيث يصح أن يقرر انهم لم يهضموا أن الناس بعد ان يصبحوا ترابا أو يمزقوا كل ممزق ان يبعثوا ثانية ليحاسبوا على ما كان منهم في الحياة الدنيا من خير وشر وصلاح وآثام ونفع وضر وايمان وكفر.

والذي نرجحه ان عدم وجود بيان صريح ووصف واضح في الديانتين اليهودية والنصرانية عن البعث واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب كان من اسباب تعقد المشكلة في أذهان العرب ، ومقابلة الوعد والوعيد بالاعراض والاستخفاف ؛ من حيث كونهم لم يسبق لهم إعداد لاساغة هذه الحقيقة الايمانية الغيبية ؛ كما كان امرهم في إساغة فكرة الله المجردة ، وفكرة الملائكة وبعثة الأنبياء ووحي الله اليهم بالآيات والكتب وتأييدهم بالمعجزات .

-١٦-

ولسائل يسأل عن الهدف الذي كان العرب يستهدفونه والحالة هذه في التدين بدين ما ، والاعتراف بالله والقيام بواجبات العبادة له او اشركائهم وشفعائهم وتمنيهم بعثة نبي فيهم ونزول كتاب رباني اليهم يتبعونه ويهتدون بهديه .

وجواباً على هذا نقول ان المتبادر ـ بقطع النظر عن كون الدين يكاد يكون غريزة في البشر ، وعن كون العقائد حينما تتأصل ويتقادم عليها العهد تصبح لاشعورية ولا تتوقف على تفكير وتصويب ـ انهم كانوا يستهدفون ما يستهدفه الناس الآخرون الذين يتدينون بدين ما ولا يقوم في أذهانهم معنى للحياة الأخروية وخاصة على الصورة التي جاءت مفصلة في القرآن ، وهو الحصول على رضاء الله وعطفه وبره ومعونتـه وحمايته ، ومعرفة ما يرضيه ويسخطه ، وضمانة نيل الخير ودفع الضر ؛ فلهم مطالب وآمال ، ومخاوف وهواجس في حياتهم الدنيا : يحبس عنهم المطر ويصيبهم القحط ويتعرضون للمصائب والأمراض ، ويركبون البحر ويواجهون الاخطار ، ويقومون بالأسفار ، وتنشب بينهم الحروب ، ويعوزهم الرزق والذرية ، وتخيفهم اشباح الظلام والأحلام والأرواح الخفية المؤذية ، وتفزعهم مظاهر الطبيعة من عواصف وزلازل وكسوف وخسوف وبروق وصواعق ورعود ، وكل ذلك من شأنه ان يحملهم

على التدين والدعاء لله او الآلهة والشفعاء معه وعبادتها والتزلف اليها والرغبة في معرفة مايرضيها ويسخطها ؛ أي أن تدينهم إنما كان للدنيا وأحداثها ؛ اما خوفاً من بلاء حاق او قد يحيق بهم ، ودفعاً لشر وقع او قد يقع عليهم ،واما جلباً لنعمة او رزق او خير او ربح او نصر يرجون ان يصيبوه .

وفي القرآن آيات عديدة تمثل هذا التفكير الدنيوي البحت ، وفيه كذلك مساجلة للعرب في تفكيرهم هذا وهو يرد عليهم بان شركاءهم الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً ، ولا عوناً ولا نصراً ، كما ان ما فيه من ضروب الأمثال على ما في الدنيا من متاع زائل ، وعلى مافي التمسك او الاكتفاء بها من خطأ وباطل انما هو بسبيل الرد على هذا التفكير الدنيوي الذي كان كل همهم وهدفهم في التدين والعبادة .

ولقد اوردنا في فصل الشرك آيات عديدة من هذا الباب ، وفي ما يلي امثلة اخرى منه ايضاً :

١ -- فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو اشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ... البقرة ٢٠٠

٢ — وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ... الأنعام ٣٢

٣ — إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ... يونس ٧ — ٨

٤ — من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ... هود ١٥ — ١٦

٥ — من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ... الاسراء ١٨

٦ — كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ... القيامة ٢٠ — ٢١

٧ — إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ... الانسان ٢٧

ولقد كانوا كل ما توعدهم الله بالآيات القرآنية بالعذاب تبادر الى اذهانهم انها انما تتوعدهم بعذاب قريب في الدنيا يوشك ان يأخذهم قياساً على ما سمعوا من التدمير العاجل الذي حل بعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فينتظرون وينظرون ، ولما لم يقع تساءلوا تساءل المستغرب المنكر عن موعده ، واخذوا يستعجلونه تحدياً واستهتاراً من جهة ، ولانهم لم يكونوا ليصدقوا بالعذاب الاخروي ويسيغوا احتمال بعثهم بعد الموت ليذوقوه من جهة اخرى كما ترى في الآيات التالية :

٣ — ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ... هود ٨

٤ — ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ... يونس ١١

٥ — خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ... الانبياء ٣٧ — ٤٠

٦ — وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ... الكهف ٥٨

٧ — ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ...
العنكبوت ٥٣ — ٥٤

٨ — أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد ... قاف ١٥

ونحب ان نستدرك أمراً ؛ فمع ما قررناه عن عدم اساغة العرب امر البعث والحساب والثواب والعقاب على النحو الذي انذر وبشر به القرآن ، وكون هذه العقيدة من اكبر المشاكل التي عرضت لهم في الدعوة النبوية وانكروها فأنهم كانو يعتقدون بخلود الروح بشكل مابعد الموت على ما سوف نذكره في فصل آخر.

الفصل السّادس

في الحنفاء او الصابئين واتباع ملة ابراهيم (ص)

خطورة الموضوع في التطور الديني قبل البعثة ـ الصابئون في القرآن وحقيقة امرهم ـ ترجيح كون التسمية لموحدي العرب قبل البعثة ـ تفنيد صلة صبة العراق بهم ـ احاديث وروايات عن اسماء موحدي العرب واتباع ملة ابراهيم ـ الحنفاء والحنيف في الآيات القرآنية ـ إشتقاق الكلمة ومفهومها ـ الحنفاء والصابئون شيء واحد ـ استدلالات قرآنية بشأن النبي (ص) قبل بعثته ـ حفاوة القرآن بذكر ملة ابراهيم ودلالتها ـ الحجاج مع اليهود ودلالته ـ تكرار حكاية مواقف ابراهيم مع قومه في القرآن ودلالته ـ ترجيح كثرة عدد الصابئين والحنفاء ـ صورة شاملة لتطور الحركة الدينية عند العرب قبل البعثة ـ تحمل بيئة النبي (ص) التفاوت الذي احتوته الصور ـ وحدة الاتجاه بين اجزاء الصورة .

— ١ —

اشرنا في الفصل السابق اشارة مقتضبة الى طبقة الحنفاء او الصابئين او اتباع ملة ابراهيم (ص) ومركزها من الحركة التطورية الدينية الجديدة التي ظهرت في بيئة النبي (ص) قبيل البعثة .

وهذا الموضوع ذو خطورة خاصة في صدد تصوير هذه الحركة ونضوجها او بالأحرى قربها من النضوج ، وذلك ما جعلنا نفرد فصلا خاصاً به نتعرف فيه الى هذه الطبقة وظروف ظهورها ودلالته .

— ٢ —

في القرآن ثلاث آيات ذكر فيها الصابئون في اثنتين منها هم والمؤمنون واليهود والنصارى فقط ، وفي الثالثة ذكروا مع هؤلاء مضافاً اليهم المشركون والمجوس . وهذه هي الآيات :

١ — إن الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ...
البقرة ٦٢

٢ — إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... المائدة ٦٩

٣ — إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ... الحج ١٧

ولقد قال المفسرون (١) عن هؤلاء الصابئين (١) انهم طائفة من المجوس (٢) عبدة الملائكة (٣) عبدة الكواكب (٤) يعبدون الشمس ويصلون اليها خمس مرات في اليوم (٥) بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرأون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون الى الكعبة قد اخذوا من كل دين شيئاً (٦) ان اصل دينهم هو دين نوح (٧) انهم الذين لا دين لهم ؛

وقد غاب عن المفسرين اذ ذكر المجوس والمشركين في آية الحج مع الصابئين ينبغي ان يبعدهم من المجوسية والشرك الذي منه عبادة الكواكب والملائكة مع الله ؛ وإن ذكرهم في آيتي البقرة والمائدة مع المؤمنين واليهود والنصارى اي مع الموحدين توحيداً صريحاً او مؤولاً يسوغ القول انهم هم الآخرون موحدون بشكل من الاشكال .

ولقد استقر في الاذهان ان هذه التسمية هي للنحلة الموجودة الآن في العراق والتي يطلق عليها اسم « الصُبّة » الذي يظن انه تحريف « الُصبّاً او الصابئة » بل ان بعض المفسرين قالوا هذا في ماقالوه . ومعروف ان بين رجالات الادب العربي القديم أفراد مشهورون من هـذه النحلة احتفظوا بنسبتهم اليها منهم « ابو اسحاق الصابي » . ولقد اورد بعض المفسرين قصة حول هـذه النحلة وهي ان المأمون مر بقرية فيها طائفة تعبد الكواكب ، فاراد ان يعتبرهم من المشركين وان لايقبل

(١) اقرأ تفسير آية البقرة ٦٢ في الطبري والنسفي والرازي وابي السعود والخازن والبيضاوي والطبرسي .

منهم الجزية ، فقيل لهم انهم « الصابئون » الذين ورد ذكرهم في القرآن مع اليهود والنصارى وينسحب عليهم ماينسحب على هؤلاء فأبقاهم على الذمة واخذ منهم الجزية .

الى جانب هذا نذكر ان الكلمة اشتقاق عربي أصيل من صبأ أو صبا بمعنى مال وانحرف [1] ، وقد وردت صيغة من هذا الاصل بهذا المعنى في سورة يوسف :

« :إلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ... » ٣٣

ونذكر ان العرب في عهد النبي (ص) كانوا يقولون للذي يفارق دين آبائه ويدخل في دين جديد « صابىء » وانهم سموا النبي (ص) بهذا الاسم وسموا به المسلمين الاولين لاول عهد الاسلام ، وكانوا يقولون عنهم « الصبأة والصابئين » ؛ في قصة اسلام عمر (رضي) التي رواها ابن هشام [2] ان عمر (رضي) كان يقول عن النبي (ص) انه صابىء ، وأنه لما أسلم وجاء لاول مرة بعد اسلامه الى فناء الكعبة شامخ الأنف قال المجتمعون ان ابن الخطاب قد أقبل عليكم بوجه صابىء . وفي صحيح البخاري [3] ان امرأة بدوية عبرت عن النبي (ص) بقولها « ذلك الذي يقولون عنه الصابىء » . وفي أسد الغابة حديث عن الحارث الغامدي أنه رأى جماعة من قريش قد تجمعوا على رجل من مكة فقال لأبيه ماهذه الجماعة فقال هؤلاء قوم اجتمعوا على صابىء لهم فأشرفنا فاذا رسول الله (ص) يدعوا الناس الى عبادة الله وحده .

فاطلاق التسمية على النبي (ص) والذين آمنوا به في اول عهد الاسلام قد يزيد في قوة استدلال كون الكلمة القرآنية عنت الموحدين بشكل ما لأن القرآن سلك أصحابها في سلكهم في آيتي البقرة والمائدة ، او على الاقل عنت الذين انحرفوا عن دين العرب وتقاليدهم الشركية . وورودها في القرآن دليل على انها من تعابير قبل البعثة ؛ ونعتقد بناء على ذلك انها لم تطلق على النبي (ص) وأصحابه لاول مرة ؛ لانها لو كانت كذلك لما كان من حكمة لذكر « الصابئين » للتعبير عن المسلمين في الآيات اولاً وقد عبر فيها عنهم تعبير « الذين آمنوا » ثانياً : اي انهم غير النبي (ص)

---

(١) لسان العرب مادة صبأ .

(٢) ج ١ ص ٣١١ .

(٣) التجريد ج ١ ص ٤٧ .

والمسلمين في التسمية القرآنية ولو كان العرب قد سموهم بها ، ولأن مما يكاد يكون يقيناً انه وجد من ترك عقائد وتقاليد العرب الشركية قبل البعثة ثالثاً .

-٣-

لهذا كله نرى من المعقول ان يكون الاسم قد استعمل في الآيات القرآنية للتعبير او الاشارة الى جماعة ما في بيئة النبي(ص) كانوا قبل البعثة يدينون بالتوحيد بشكل ما ، ويطلق عليهم هذا الاسم من حيث معناه اللغوي على اعتبار انهم صبأوا عن دين آبائهم واعتنقوا او اتبعوا ديناً أو عقيدة جديدة توحيدية ، ليست هي اليهودية ولا النصرانية ، وانه اطلق على النبي (ص) والمؤمنين به لأول عهدهم لأنه استعمال مألوف . وذكرهم في آيات مدنية في عداد اصحاب الأديان الاخرى يحمل على القول انه ظل منهم افراد على ما كانوا عليه ، ولم يتبعوا النبي (ص) . وقد ايدت الروايات ذلك بذكرها امية بن الصلت وكونه نفس على النبي (ص) النبوة وكان يرشح نفسه لها .

اما اقوال المفسرين عنهم فاننا لا نراها تخرج عن حد التخمينات ، وتعددها وتموجها مؤيدان لذلك ؛ كذلك فاننا نرى ان الربط بين الصبة العراقيين اليوم والصابئين من عهد المأمون وبعده ، وبين التسمية القرآنية وهم وتجوزاو بالأحرى تلفيق مرتجل ومتأخر عن الاسلام بقرنين أو أكثر ؛ لان هذه الكلمة عربية الاصل والاشتقاق اولاً ، وكانت تستعمل في بيئة النبي (ص) وتطلق على الذين كانوا يخرفون عن دين آبائهم من العرب ثانياً ،وانها اطلقت على النبي(ص)والمسلمين الأولين استمراراً لذلك ثالثاً ، وانه ليس في الكتب القديمة العربية ذكر طائفة معينة كان يطلق عليها هذا الاسم في عهد النبي (ص) لا في الجزيرة ولا في اطرافها رابعاً ، ولأن عبدة الكواكب في العراق لم يعرفوا في لغتهم بهذا الاسم او بما يقرب منه اشتقاقاً حتى يقال ان الكلمة محرفة او معربة كما هو شأن اليهودية والنصرانية خامساً ، ولان جواز اخذ الجزية من المجوس وعبدة الكواكب كان سنة نبوية وراشدية وكانت معروفة مألونة ما دونة في الكتب[1] قبل عهد المأمون

---

(١) اقرأ كتاب الاموال لابن سلام وكتاب الخراج لابي يوسف .

وذلك مما يضعف الرواية المسبوكة حول اسم الصابئين وتجويز اخذ الجزية منهم في زمن المأمون سادساً .

- ٤ -

فمن هم هؤلاء وما هي العقيدة الجديدة التي اعتنقوها بدلاً من العقائد والتقاليد التي كان عليها آباؤهم ؟

لقد ورد في كتب السيرة والتفسير[١] ذكر أفراد من عرب الحجاز كانوا ألموا بالكتب السماوية واستنارت عقولهم فأنفوا ان يظلوا يعبدون مايعبد آباؤهم، ويشركون مع الله آلهة اخرى او يتخذون معبوداتهم شفعاء وأولياء ، ففارقوا ذلك كله، ومنهم من اعتزم التطويف في الأرض للبحث عن الحنيفية ملة ابراهيم (ص) ومنهم من تنصر ومنهم من أخذ يتعبد على ملة ابراهيم (ص) او ماظنه كذلك ، ومنهم من كان في مكة ومنهم من كان في يثرب ؛ وقد سمت هذه الكتب أسماء عدد غير قليل من هؤلاء مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وأمية بن الصلت ، وأبي قيس النجاري اليثربي ، وأبي الهيثم ابن التيهان اليثربي ، وأبي عامر الأوسي ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري .

وفي صحيح البخاري[٢] حديث مفاده أن السيدة خديجة (رض) جمعت بين النبي (ص) وبين ورقة ابن عمها وكان شيخاً طاعناً قد قرأ الكتب السماوية وتضلع باللغة العبرانية ، وطلبت منه ان يخبره بأمره، وانه لما استوعبه بشره بأن هذا الذي أتاه هو الناموس الذي كان ينزل على النبي موسى(ص) وشجعه وثبته ووعده بالتأييد إن هو ظهر بدينه ونادى بدعوته .

وفي ابن هشام[٣] حديث طويل عن الأربعة الأولين ولاسيما عن زيد، كيف كان يعيب قومه ويفخر بأنه على دين ابراهيم (ص) ، وكيف انه أزمع الخروج في

---

(١) ابن هشام ج١ ص ٢١٥-٢٢٣ وج٢ ص ١٠٣ وص ١٧٧ - ١٧٨ وابن سعد ج١ ص٢٠٢ والرازي ج١ ص٣٦٩-٣٧٠ مثلاً .

(٢) التجريد ج ١ ص ٧

(٣) ج١ ص٢١٥-٢٢٣ .

طلب الحنيفية ملة ابراهيم وكيف كان عمه يؤذيه ويحاول أن يفتنه .

وفي أسد الغابة[1] صيغة دعاء وتوسل معزوة الى زيد هذا كان يناجي ربه بها فيقول : « لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به ابراهيم ، أنفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فاني جاشم » وانه كان يسجد على راحته ، وأن النبي (ص) اجتمع اليه قبل البعثة وقال عنه انه يبعث أمة واحدة ، وهو والد سعيد بن زيد (رض) أحد العشرة المبشرين والسابقين الاولين وزوج فاطمة بنت الخطاب (رض) التي أسلمت مع زوجها قبل اخيها .

وكذلك ذكر ابن هشام[2] في سياق ذكر أبي عامر الاوسي أنه كان يدعي انه على الحنيفية دين ابراهيم في مقابلة بينه وبين النبي (ص) في المدينة بعد الهجرة .

— ٥ —

وفي القرآن آيات عديدة وردت فيها كلمتا حنيف وحنفاء ؛ ومن هذه الآيات ماهو مكي ومنها ماهو مدني ، ومنها ماجاء مع ذكر ابراهيم (ص) وملته ، ومنها ماجاء في وصف الدين الذي يدعو إليه النبي (ص) ، ومنها ماجاء مطلقاً ، وجميعها تحمل معنى التوحيد والموحدين كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... البقرة ١٣٥

٢ — ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ... آل عمران ٦٧-٦٨

٣ — قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... الانعام ١٦١

٤ — قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن اكون من المؤمنين . وأن أقم

---

(١) ج ٢ ص ٢٢٧-٢٣٩ .

(٢) ج ٢ ص ١٧٨ .

وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ... يونس ١٠٤-١٠٥

٥ – ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ...
النحل ١٢٣

٦ – فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق ... الحج ٣٠-٣١

٧ – فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون . منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ... الروم ٣٠-٣١

ولقد قال المفسرون ان كلمة « حنيف » مشتقة من حنَف وانها في معنى المستقيم كما قالوا وهو الأرجح انها مشتقة من حنف بمعنى مال وانحرف بدليل تسمية الأحنف لمن في رجله ميل ، وقالوا انها وجمعها حنفاء كانتا تطلقان على الذين كانوا يميلون عن دين الشرك ويوحدون الله قبل البعثة من العرب. وواضح أن هذا المعنى يتحد مع معنى صبأ والصابئين ؛ وكل مافي الأمر ان كلتي حنيف وحنفاء وردتا في القرآن اكثر وفي جمل أشد ابرازاً لمعنى التوحيد وصفة الموحدين ، وإن لم تردا في معرض التعبير عن أصحاب نحلة دينية كما وردت كلمة الصابئين .

ونحن نعرف ان لبعض الباحثين أقوالاً حول كلتي حنيف وحنفاء ؛ منها مايرمي الى التدليل على وجود طائفة او نحلة كانت تسمى بهذا الاسم قبل البعثة ، ومنها مايشكك في عروبة الكلمة بسبيل تقرير كون هذه النحلة ليست عربية وإنما هي دخيلة ايضاً ؛ وبعضهم حاول ان يجد بينها وبين بني حنيفة ومسيلمتهم الكذاب صلة، وبعضهم تجاوز الحد فزعم ان معناها كان غامضاً في ذهن النبي (ص). والوجه الذي نعتقد صوابه هو ماقررناه آنفاً ، وان الكلمة عربية الاشتقاق ، وانها كانت مفهومة قبل البعثة على الوجه الذي ذكرناه ؛ وعلى كل حال فانها بورودها في القرآن اصبح لامحل للمماراة في انها كانت مستعملة في اللسان العربي قبل نزوله للدلالة على ماجاءت

تدل عليه في القرآن أي التوحيد وعدم الشرك مع الله . أما الأقوال الأخرى فهي أهون من ان تحمل التفنيد فيما نرى .

ومهما يكن من أمر فاننا نميل الى الظن بل الى الترجيح أن الصابئين والحنفاء شيء واحد او طبقة واحدة ، وانهم اولئك الذين تخلوا عن دين الآباء الشركي او الوثني من مستنيري عرب الحجاز ، ووحدوا الله ولم يستريحوا الى اليهودية والنصرانية أو لم يسترح بعضهم اليها لما رأوه فيها من مشاكل وانقسامات،وفي اهلها من انحراف ومتناقضات ؛ ومنهم من عبد الله على ملة ابراهيم او ماظنه كذلك ، ومنهم من كان يبحث عنها ليتعبد عليها .

- ٦ -

هذا ونلفت النظر الى آية الانعام (١٦٢) لنقول ان الآية توحي بأنه كان في نفس النبي (ص) قبل البعثة شيء من الحيرة في الملة او في ملة ابراهيم فهداه الله اليها. ولعل هذا ما أريد الاشارة اليه في آية سورة الضحى (٨) التي هي من أقدم السور نزولاً :

«ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى ... ٧-٨

وتوحي ايضاً هي وآية الضحى ان النبي (ص) كان أنف كذلك من السير على ماعليه الآباء من شرك ووثنية ولو انها تطورا بعض التطور ؛ ولذلك لايكون من التجوز ان يقال ان النبي (ص) قبل بعثته كان من اولئك الافراد الذين تخلوا عن عقائد آبائهم ولم تسترح نفوسهم الى النصرانية واليهودية ، ورأوا ان الحق القويم في توحيد الله توحيداً لاشائبة فيه ولا تأويل وفي عبادته على ملة ابراهيم الحنيفية ، ولم يخلصوا مع ذلك من حيرة ما في أمر هذه الملة ، والذين كان يطلق عليهم تسمية الصابئين وصفة الحنفاء ؛ إلى أن اختاره الله من بينهم لما تحلى به من الميزات التي أهلته للاصطفاء والله اعلم حيث يجعل رسالته ؛ وأمره ان يهتف : قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . الانعام ١٦١

- ٧ -

كذلك نلفت النظر الى ورود ذكر ابراهيم (ص) وملته والاشادة بها بهذه

الحفاوة في القرآن ، وكونها ضد الشرك ، والأصل الذي يرجع اليه ويدار عليه ، وإن ماجاء بعدهـا من يهودية ونصرانية قد انحرف عن الطريق الحق يوحي اولاً بأن ذكر ابراهيم (ص) وملته الحنيفية كان مما يتردد في أوساط العرب الحجازيين وبنوع خاص المستنيرين منهم قبل البعثة ، ويؤيد روايات السيرة التي أشرنا اليها عن الأفراد الذين كانوا يبحثون عن ملة ابراهيم (ص) وحاروا في امرها بعد ان نبذوا دين الآباء؛ويستأنس به ثانياً على ما كان في أذهان العرب الحجازيين او المستنيرين منهم من صورة مشرقة عن ملة ابراهيم (ص) واعتبارهم إياها الملة النقية التي لم تشبهـا ماشاب اليهودية والنصرانية من شوائب وانحرافات وخلاف ونزاع .

— ٨ —

ولقد كان هذا المعنى موضوع حجاج وجـدال بين النبي (ص) وبين اليهود والنصارى[1] حيث احتوى القرآن ردوداً عليهم مسفهة مخطئة ، ومقررة تناقضهم وانحرافهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنيّ إن الله اصطفى لـكم الدين فلا تموتن إلاوانتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلـهك وإلـه آبائك ابراهيم واسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولـكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفـاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له

---

(١) جمعنا اليهود والنصارى لأن الآيات تذكرهما معاً مع ان سياقها يدل على ان الحجاج والجدل كان بين النبي (ص) واليهود فقط مما يسوغ القول ان ذكر النصارى جاء على سبيل الاستطراد والتعميم وانهم لم يكونوا طرفاً في المناظرة والجدل وإن كان من المحتمل أن يكون ما قالوه أو ما هو منطبق على واقع حالهم .

مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ... البقرة ١٣٠-١٤٠

٢ — «ياأهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. هاأنتم هؤلاء حاججتم في مالكم به علم فلم تحاجون في ماليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ... آل عمران ٦٥-٦٨

وليس من المستبعد ان يكون مثل هذا الحجاج والجدل قد دار بين اليهود وبين مستنيري العرب الذين كانوا على ملة ابراهيم او كانوا ينشدونها ممن ذكرتهم الروايات ومن لم تذكرهم قبل البعثة ايضاً ؛ حيث كان اليهود يزهون ويفخرون على العرب ، ويدعون انهم أولى بابراهيم (ص) وانهم على ملته ، وحيث كان يرى اولئك المستنيرون في اليهود والنصاري شقاقاً وخلافاً وانحرافاً لا يأخذون بأقوالهم ولا يتابعونهم في عقائدهم ، ويظلون ينشدون ملة ابراهيم (ص) في غير الديانتين اليهودية والنصرانية ؛ بل نحن نرجح ذلك لأن اليهود كانوا من مراجع العرب الدينية كما اشرنا الى ذلك غير مرة ؛ ولا بد من ان يكون اولئك المستنيرون الذين استسخفوا ما كان عليه قومهم قد اتصلوا ببعض علماء اليهود وأحبارهم للاستطلاع والاقتباس وتبين حقيقة ملة ابراهيم (ص) وناقشوهم في دعوى أنهم عليها وأوردوا عليهم ماهم فيه من انحراف وضلال ؛ ومن المحتمل ان لايكون هذا الاتصال والنقاش والحجاج قد اقتصر على اليهود ؛ وان يكون قد شمل النصارى وقد كان بينهم من هو مظنة علم وتعليم بحيث نسب الكفار للنبي (ص) التعلم منهم والاستعانة بهم على ماتدل على آيتا النحل والفرقان (١٠٣ و ٤) مما أشرنا اليه في مناسبة سابقة . ولقد قلنا

سابقاً انه كان من عرب الحجاز من اعتنق اليهودية والنصرانية فمن المحتمل جداً ان يكون ذلك نتيجة من نتائج الاتصال والنقاش والحجاج ، بل وفيه دليل على وقوع هذا الاتصال والنقاش والحجاج في صدد ملة ابراهيم (ص) ونشدانها بعد الأنفة من العقائد والتقاليد التي كان عليها الآباء .

ونود ان ننبه الى آية آل عمران (٦٨) لنقول ان هذه الآية قد أشارت الى ثلاث طبقات وهم « الذين اتبعوا ابراهيم » و « هـذا النبي » و « الذين آمنوا » ؛ ونرجح ان المقصود بالذين اتبعوه هم اولئك الذين نبذوا تقاليد الجاهلية وعقائدها ووحدوا الله على ملة ابراهيم (ص) الحنيفية قبل البعثة ، وأن الاشارة اليهم قبل ذكر النبي (ص) هي للترتيب الزمني ، أو على الأقل انهم من المقصودين بالتعبير ؛ بل نكاد نرى هذا يقيناً من مضمون الآية ؛ وليس من حكمة لقصد النبي (ص) و للذين آمنوا به في تعبير « الذين اتبعوه » لأنهم خصوا بالذكر في الآية .

— ٩ —

ولعل مما يستأنس به على ما كان من حفاوة العرب بملة ابراهيم (ص) وتداولهم اخبار الصلة بينها وبين تقاليدهم ، مما حدا بأولئك المستنيرين الى الاهتمام للبحث عن ملة ابراهيم والتمرد على فهمها على الوجه الذي عليه قومهم شركاً ووثنية وسخفاً، وان يتبينوها توحيداً حنيفاً لاشرك فيه تكرر حكاية القرآن لمواقف ابراهيم (ص) مع ابيه وقومه وحجاجه لهم ، ودعائه بتجنيبه وبنيه الأصنام ، وحملته على الأوثان وتنديده بها ، واعلانه اسلامه وجهه الله — وكل هذا مما له صلة تذكير ووعظ بالعرب وحالتهم الدينية ؛ حيث وردت في سور عديدة منها مانقلناه في مناسبة سابقة وهي آيات سورة ابراهيم (٣٥ — ٤١) وفي مايلي بعضها ، [١] .

١ — وإذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين .

---

(١) اكتفينا بما اوردنا ، ونحيل القارىء الى آيات سور مريم ٤١ — ٤٨ والشعراء ٦٩ — ٨٩ والعنكبوت ١٦ — ٢٧ والصافات ٧٣ — ٩٩ والزخرف ٢٦ — ٢٨ والممتحنة ٤ — ٦ والتوبة ١١٤ ايضاً .

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ماتشركون به الأن يشاء ربي شيئاًوسع ربي كل شيء علماأفلا تتذكرون .وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجاتمن نشاء إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاًهدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء(١) فقد وكلنا بهاقوماً ليسوا بهابكافرين . اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لاأسألكم عليه أجراً إن هو الا ذكرى للعالمين ... ٧٤-٩٠ الانعام

٢ـ ولقدآتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين . قل لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قل بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم.

(١) هؤلاء هنا أشارة الى العرب الذين كفروا بالرسالة المحمدية .

قال بل فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون .قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين ، ونجيناه ولوطاً الى الارض التي باركنا فيها للعالمين ... الانبياء ٥١-٧١

فهذه المواقف التي ذكرتها المجموعات القرآنية التي نقلنا بعضها وأشرنا الى بعضها ليس مما ورد في التوراة في سياق حياة ابراهيم (ص) كما ان جلهـا وارد في سور مكية ، وفي سياق يتضمن التنديد بالعرب على شركهم وعدم ارعوائهم ، وما ورد منها في السور المدنية ورد كذلك في صدد التنديد بالعرب ومعطوف على ماجاء في السور المكية وليس في صدد التنديد باليهود ؛ لان ماورد في هذا الصدد غير هذه المجموعات، وجميعه مدني وقد نقلناه في مناسبات سابقة ؛ والتنديد مع التمثيل بمواقف سابقة إنما يكون مستحكماً اذا كانت هذه المواقف مما يعرفه السامعون ؛ ولهذا فنحن نعتقد ان العرب السامعين المقصودين بالتنديد والتذكير كانوا يتناقلون اخبار ابراهيم (ص) ومواقفه سواء ماورد منها في التوراة ومالم يرد جيلاً بعد جيل مع تناقلهم صلتهم بالابوة ، وصلة تقاليدهم الدينية به كذلك ، مما تلهم الآيات الكثيرة صحة استنتاجه بسبب اسلوبها المأنوس والخفي اذا ماأنعم النظر فيها .

ومع أن من المحتمل أن يكون أصل هذه الفكرة قد تسرب اليهم من اليهود الموحدين المنتسبين بالأبوة إلى ابراهيم (ص) لا سيما والتوراة هي اول وأقدم من ذكر ابراهيم (ص) فأنهم رأوا في اليهود والنصارى انحرافاً عنها كما رأوه في بني قومهم ؛ وهكذا كان العرب الحجازيون عامة على فكرة ضالة من تقاليد ابراهيم وملته ، ثم تميزت منهم طبقة رجعت أو حاولت أن ترجع الى ملة ابراهيم الحنيفية الصحيحة الخالصة من الشوائب التي ليست هي اليهودية ولا النصرانية ، وانما هي الاسلام لله وعبادته وحده حنفاء غير مشركين به ، فكانت هذه هي الصائبون او الحنفاء .

- ١٠ -

ونميل الى الترجيح بان هؤلاء الصائبين او الحنفاء او المتعبدين على ملة إبراهيم (ص) لم يكونوا عدداً قليلاً ؛ فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدهم القرآن فئة خاصة ، وأشار اليهم بهذه الحفاوة ، وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع أهل الاديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل ؛ ووصول اسماء نحو عشرة أشخاص الينا في كتب كتبت بعد قرن ونصف او قرنين او اكثر عن روايات ظلت تتناقلها الافواه وتحفظها الصدور طيلة هذه المدة دليل على هذه الكثرة التي نرجحها . هذا اولا ، وثانياً ان ظهور هؤلاء في غير مكان واحد وربما في غير وقت واحد يحمل معنى ظهور فكرة جديدة أخذت تقوى في ادمغة المستنيرين من العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ، وهي فكرة الاتجاه إلى ما هو أقرب إلى الحق والسداد في أمر العقيدة والتقاليد الدينية ؛ وبكلمة أخرى إن هذا يمكن أن يعد خطوة أخرى عظيمة القيمة من خطوات التطور الدينى والفكري التي ادّت اليها الحركة العقلية والدينية التي ظهرت قبل البعثة النبوية ثم نمت وقويت قبيلها.

- ١١ -

وهكذا تكون الحركة الدينية قد تدرجت عند العرب وفي بيئة النبي (ص) من وثنية مادية وطبيعة وقوى طبيعية ، الى وثنية غير مادية روحية وخفية ، إلى فكرة الله والاعتراف به الهاً اعظم خالق الاكوان ومدبرها مع أشراك إلهة اخرى معه ماديين وغير ماديين ، إلى انقلاب هؤلاء الشركاء إلى شفعاء لدى الله ووسطاء ، واعتبار الاوثان المادية رموزاً ، ثم إلى الاتجاه إلى الله وحده في شيء من الحيرة وارتقاب نذير او نبي ينقذ من هذه الحيرة ، ويهدى الى الطريق القويم ، ويكون به العرب أهدى من الامم الأخرى التي كانت في خلاف ونزاع ، وشقاق وجدال ، قد أنقسموا فيما بينهم ، واخذوا يسفهون بعضهم بعضاً ويقاتلون بعضهم بعضاً . حتى اذا جاء الوقت المناسب في علم الله اختصّ الله سبحانه برسالته من بين تلك الطبقة التي اتجهت الى الله وحده وارادت الرجوع إلى ملة ابراهيم (ص) الحنيفية النقية ، واستسخفت ما كان عليه قومها من ضلال محمداً بن عبد الله العربي الحجازى المكي

القرشي عليه الصلاة والسلام ، فقام بالدعوة إلى دين قويم بين الحدود ، واضح الاعلام سواء من حيث العقيدة الأصلية وهي التوحيد والايمان بالله العظيم المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن كل الشوائب رب العالمين، دون اختصاص كما زعم اليهود ودون تأويل كما زعم النصارى ، او من حيث الواجبات التعبدية والايمانية، أو من حيث الاسس الاجتماعية والاخلاقية التي من شأنها ان تسمو بالانسان والانسانية إلى الكمال القائم على الحق والعدل والبر والاحسان والكرامة والعزة مؤتمراً بقول الله.

«فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ... الروم ٣٠

معلناً بلسان القرآن أن الله قد هداه إلى ملة ابراهيم الحقيقية :

« قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... الأنعام ١٦١

موجهاً الخطاب إلى المسلمين العرب بلسان القرآن :

«ياأيها الذين آمنو اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ... الحج ٧٧-٧٨

-١٢-

وايس ثمن مانع من أن تكون هذه المظاهر قد اجتمعت في عهد واحد حيث كان التفاوت قائماً لاشك فيه في العقول والذكاء والمعارف والتجارب والأفق والنشاط والاتصال ؛ فكما انه يوجد في كل بيئة العاقل والاحمق والذكي والغبي ، والعالم والجاهل والنشيط والبليد ؛ والجوال والمنعزل ، والعميق والساذج والطيب والخبيث ، وكل يسبح في الفلك الذي تهيئه له وسائله ومدى عقله ونشاطه وقابليته في أمور الدين والدنيا ؛ فكذلك من الطبيعي أن يكون قد وجد في عصر النبي (ص) وبيئته الوثني الغبي الذي لا يصل إدراكه إلى أبعد من عبادة الحجر والشجر ، والوثني الذكي الذي يرتفع من السفليات إلى العلويات فيعبد قوى الطبيعة ؛ ثم يعبد

الملائكة والجان ، والمشرك الغبي الذي يتخذ لكل مطلب من مطالبه صنماً باور ، والمشرك الذكي الذي يدرك عظمة الكون ويتوصل إلى وجوب وجود خالق له ، ويتخذ إلى جانب الاعتراف به شركاء يحسبهم ، ويتجه اليهم مشاهدة ، والمشرك الاذكي الذي يرتفع عن الشرك الاعلى إلى الشرك التوسلي فيجعل الشركاء شفعاء ، ويعبدهم ليقربوه الى الله زلفى ؛ والعاقل المكابر الذي يدور مع مصلحته الدنيوية ، ويسير وراء أنانيته وكبريائه وتقاليده ، والعاقل المخلص الذي يرى كل ذلك سخفاً فينفض يده من الشركاء والشفعاء ، ويتغلب على الانانية والكبرياء وعصبية التقاليد ، ويتجه إلى الله وحده يعبده على غير حدود معينة لانه ليس لديه من يهديه إلى هذه الحدود ، وليس له أن يخترع لنفسه من نفسه مثل هذا الحدود ؛ لا سيما وقد كان في تلك البيئة والعصر البدوي الموغل في البادية الذي يعيش في عزلة شديدة ، والبدوي المستأنس المتصل قليلا او كثيراً بالمدن ، والحضري الذي يعيش في شيء من العزلة والحضري الذي كانت عزلته أخف وأقل ؛ ثم وقد كان فيها الذي قرأ وكتب واطلع على ما وصلت اليه يداه من كتب ، واحتك بمن كان اشد اتصالاً منه بالاديان والكتب السماوية ، والرحالة الذي جاب الآفاق ورأى العالم واحتك بمن كان اكثر منه تقدماً في الحضارة المادية والعقلية ، وتيسرت له فرص الاقتباس والتقاليد ، ثم هضم ما اقتبسه وقلده وتبناه وميز بين غثه وسمينه . وخبيثه وطيبه ، وفاسده وصحيحه .

وإذا كان من شيء نزيده على هذا الاطار التي احتوى هذه الصور العديدة التي نرجو أن تكون عبرت تعبيراً صادقاً أو مقارباً لما كانت عليه الحالة في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة فهو أنه كان مع ذلك هناك فكرتان في أفق هذه الصور تربطانها ببعضها بعض الربط ، وتجعلان فيها شيئاً من وحدة الاتجاه ، وهما فكرة « الله » وفكرة الحج والاشهر الحرام وتقاليدهما اللتان كان ينتظم فيها اكثر العرب حضراً وبدواً كما بيناه سابقاً ، واللتان كانتا مظهرين بارزين لتطور عربي خطير في الحياة الدينية والاجتماعية .

الفصل السابع

في اليهودية والنصرانية ومدى انتشارهما
وأثرها في عصر النبي (ص) وبيئته

متناول الفصل ـ مدى انتشار اليهودية في عرب الحجاز ـ اليهودية في اليمن اثر اليهود واليهودية في العرب ـ حجاج اليهود في ابراهيم (ص) وملته والكعبة والقبلة ومداه ـ حجاجهم في المحرمات الطعامية ومداه ـ مدى ما جاء في القرآن في صدد القضاء والشريعة اليهوديه ـ عقيدة بنوة العزير ـ عقيدة اليهود في مريم والمسيح ـ صفات النبي (ص) عند اليهود ـ مخالفات اليهود للشريعة وتقصيرعلمائهم واحبارهم ـ اقتباسات ومعارف العرب من اليهود ـ انتشار النصرانية في عرب الحجاز ـ في عرب الشام والعراق واليمن ـ اثر النصرانية في الحجاز ـ عقيدة الوهية المسيح وامه ـ عقيدة التثليث ـ معجزة ولادة عيسى ـ حكمة حكاية معجزة ولادة يحيى ـ عقيدة الصلب ـ تعدد فرق النصارى وتطابق بعض الفرق مع التقريرات القرآنية ـ استغلال الرهبان لطوائفهم ـ عدم رعاية الرهبنة ـ بحث في تعبير الروح القدس ـ اقتباسات العرب ومعارفهم من النصارى ـ مفهوم التوراة والانجيل قبل البعثة ـ ترجمة اسفار التوراة والانجيل للعربية .

— ١ —

في الفصل الثالث من الباب الاول بحثنا عن اليهود والنصارى الذين كانوا في الحجاز ، واستعرضنا كثيراً من الآيات الواردة في صددهم . ودرسنا ما كان لهم من مركز وما كانت عليه اخلاقهم ، وما كان لهم من تأثير في أهل بيئة النبي (ص) وعصره . وكذلك أشرنا في فصول أخرى الى ما كان من تأثيرهم في معارف العرب وافكارهم الدينية وغير الدينية ، وما يمكن ان يكون قد تسرب الى العرب منهم من عادات وتقاليد ومقتبسات وافكار دينية وغير دينية ايضاً .

ونريد في هذا الفصل ان نكمل اقتباس الصورة القرآنية عن اليهودية والنصرانية، ونشير الى مدى انتشارها في عصر النبي (ص) وبيئته اولا ،والى ما كان يدور من حجاج ونقاش حول الأفكار والعقائد اليهودية والنصرانية ، وما يمكن ان يعرف من ذلك من مدى ما كان لها من اثر في اذهان العرب وافكارهم ومعارفهم ثانياً ، ونستعرض الآيات التي لم نستعرضها والتي تساعد على اكمال الاقتباس وندرس دلالاتها ثالثاً .

– ٢ –

ولقد قررنا في الباب الاول ان وجود اليهود بكثرة في الحجاز وبتعبير ادق في يثرب ومنطقتها يرجع الى مدة غير قصيرة قبل البعثة استدلالا مما كان لهم من تمكن اجتماعي واقتصادي وزراعي وقرى وحصون وقوة،ومن اندماج وثيق بالحياة العربية نوهت به الآيات القرآنية تنويها غير يسير ، كما قررنا ان خطاب القرآن عنهم ببني اسرائيل يدل على انهم كانوا جوالي اجنبية نازحة .

ونقول الآن انه ليس في القرآن شيء صريح عن وجود عرب يهود ، أو بكلمة أخرى عن انتشار اليهودية بين عرب الحجاز . وكل ما هناك آية تذكر ان من اليهود اميين :

«ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم ألا يظنون البقرة ٧٨

وقد كان تعبير الأميين يطلق على غير الاسرائيليين الذين يعدون أنفسهم شعب الله المختار كما كان يطلق على العرب تبعاً لذلك كما تلهم الآيات التالية :

١ — ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ... آل عمران ٧٥

٢ — هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ... الجمعة ٢

فهل يمكن ان يقال إن الأميين في آية البقرة قد عنى بها فريق متهود من العرب ، او عنى بها الفريق الجاهل من يهود بني اسرائيل حيث تحتمل الكلمة هذا المعنى ؟ ان سياق الآية اكثر الهاماً لهذا المعنى من ذاك كما يلمس منه لا سيما

والسياق في صدد اليهود الاسرائيليين ، ومع هذا ليس بعيداً جـــداًان يكون قد عنى به فريق متهود من العرب الذين لم يكونوا يعرفون لغة الكتب الدينية العبرانية ، او لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة ، او الذين يغلب عليهم الجهل .

واذا تجاوزنا نطاق القرآن فان هناك روايات تذكر ان بعض عرب الحجاز وخاصة في يثرب قد تهودوا ، وان صلات النسب قد توطدت بين الاسرائيليين والعرب فكان من العرب من له خؤولة فيهم ؛ ومعلوم ان النبي (ص) قد تزوج يهودية من خيبر ؛ وان القرآن قد احل للمسلمين التزوج بالكتابيات اطلاقاً ؛ وقد يكون هذا عودة الى ما كان او امضاء لما كان ؛ كما ان من المحتمل أن تكون صلات النسب قد قامت بين اناس جمعت بينهم وحدة الدين اليهودي .

وعلى كل حال فمن السائغ أن يقال ان اليهودية قد انتشرت بعض الشيء في عرب الحجاز ؛ غير ان من الراجح جداً ان يكون هذا افرادياً وضيق النطاق ، ونكاد على مثل اليقين استلهاماً من خطاب الآيات القرآنية بأنه لم يكن في الحجاز قبائل عربية متهودة ، ونرى فيما ذكره بعض المؤلفين القديمين والحديثين بسبيل تقرير ذلك تجوزاً ومجازفة لا تستند الى راهن صحيح ؛ فالقرآن خاطب اليهود المعاصرين في الآيات المدنية ببني اسرائيل وربط بين اخلاقهم واطوارهم وبين اخلاق واطوار بني اسرائيل القدماء من لدن موسى (ص) وما بعد ؛ والذين نكل بهم النبي (ص) واجلاهم كانوا من الجوالي الاسرائيلية حسب ما تلهم نصوص القرآن ، وكانوا يعيشون في قرى ومحلات خاصة بهم؛ ولم نذكر اية رواية مهما كانت حسب اطلاعنا انه كان يهود متكتلون غير يهود بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع في يثرب ويهود خيبر ووادي القرى والقرى القليلة الصغيره الاخرى على طريق الشام، والاحتكاك قد كان بين النبي (ص) وبين الاولين وهم الذين كان يوجه اليهم التنديد والخطاب القرآني ببني اسرائيل ، وكانت صلات الدم والعادات واللغة والعصبية وثيقة بينهم وبين الآخرين .

هذا في الحجاز ، ولقد ذكر المفسرون ورواة السيرة في صدد تفسير آيات سورة البروج :

«قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذهم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ... ٤-٨ ان احباراً من اليهود ذهبوا من يثرب الى اليمن ، وتمكنوا من تهويد ملكها ذي نواس ، وحمله أهله مملكته على اعتناق اليهودية ، وانه كان في المملكة نصارى وقفوا موقفاً عنيداً من هذه الحركة فأغرى اليهود بهم الملك ، فخد أخدوداً طويلا او قد فيه النار وأمر باحراق كل نصراني لا يعتنق اليهودية ، وأن غزوة الاحباش لليمن واستيلائهم عليها انما كان باعثها المباشر اضطهاد نصارى اليمن .

فاذا صح هذا ـ لان الرواية في مداها تحتمل الكلام في مضامينها كما ان تفسير الآيات بها تحتمل الكلام ايضا (١) ـ فيكون اليهود قد نجحوا في نشر دينهم بمقياس واسع في اليمن،مع القيد ثانية انه ليس في القرآن ما يدل على هذا صراحة اوضمناً. وننبه على ان كتب السيرة ،التاريخ القديمة لم تذكر انه أجلي يهود عن اليمن في زمن عمر بن الخطاب (رض) حينما أجلى النصارى عنها تنفيذاً لوصية النبي (ص) بأن لايبقى في جزيرة العرب دينان ؛ (٢) بل ان ابا عبيدة (رض) روى ان آخر كلام قاله رسول الله (ص) (٣)هو وصيته أن أخرجو اليهود من الحجاز واخرجوا نصارى نجران اليمن من جزيرة العرب .

وهذا يدل على انه لم يكن في اليمن في اواخر عهد النبي (ص) يهود وانما كان منهم بقية في الحجاز .

والظاهر ان الاحباش بعد ان غزوا اليمن وانتصروا عليها وحكموها مدة غير قصيرة وكانوا نصارى ، وكان العداء مستحكما بين اليهودية والنصرانية ،قد شردوا

---

(١) اقرأ تفسيرنا للآيات في التفسير القويم

(٢) الخازن . ح ٢ ص ٢١٢ و كتاب الأموال (ص) ٩٨

(٣) كتاب الأموال ص ٩٩

اليهود عن اليمن ـ اذا كانت رواية وجود يهود او اعتناق العرب اليهودية صحيحة، او حملوهم على الارتداد عن اليهودية بالترغيب والترهيب ، وانه لم تعد لليهود قائمة فيها ،او على الاقل لم يبق لهم كيان محسوس فيها كالذي يمكن فرض وجوده قبل غزوتهم ، ثم ما لبثت هذه البقية غير المحسوسة أن انغمرت هي الأخرى في الاسلام وانقضى امرها .

ونحن نعرف انه يوجد اليوم في اليمن طائفة من اليهود ، وانهم يزعمون انهم احفاد اليهود من قبل البعثة . ولكن الذي نرجحه بل نعتقده ان الزعم غير صحيح وانما هو من الجهل والتبجح ، وانهم طرأوا على اليمن كما طرأوا على غيرها من بلاد الشرق من الاندلس بعد انهيار الدولة العربية فيها .

واذا كان الامر كذلك بالنسبة لليهودية في اليمن فمن باب اولى ان يكون كذلك في انحاء الجزيرة العربية الاخرى،او بالاحرى ان لا يكون جوال يهودية وان لا يكون يهودية عربية فيها .

— ٤ —

وعدم انتشار الديانة اليهودية في بيئة النبي (ص) قبل البعثة بنطاق واسع لا يعني أن العرب كانوا في عزلة عن تأثيرها ، فنحن نعتقد انهم تأثروا بها الى حد كبير، سواء في تطور الفكرة الدينية وخاصة في فكرة « الله » ،وسواء في تقاليد انتساب العرب بالابوة الى اسماعيل وابراهيم(ص) وماتبعها من تقاليد متنوعة اخرى،وسواء في ما كان عندهم من معارف ومعلومات وأفكار لها صبغة دينية مثل انباء الانبياء والرسل (ص) وقصصهم مع اممهم ، واخبار الملائكة وصلتهم بالله وقصة آدم وابليس ومثل الوقوف على ما كان لهم من آراء ومذاهب ، وما كان عندهم من كتب ومناصب دينية ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وما كان في كتبهم من صفات وتقاليدهم من بشارات ببعثة نبي من العرب ،وسواء في الطقوس والعادات المتنوعة[1]

(١) في تفسير الخازن . ج ١ ص ١٠٣ رواية عن ابن عباس ان اهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ويرون لهم فضلا عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعالهم .

كالختان والتطهر من الجنابة واعتزال النساء في المحيض وفكرة اجتماعات يوم العروبة ـ وهو يوم الجمعة ـ وغير ذلك مما اشرنا الى بعضه في الفصول السابقة في مناسبات متعددة ؛ هذا بالاضافة الى ما كان لهم من المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي وما كان لهم بسبب ذلك من أثر في حياة العرب مما اشرنا اليه في ما سبق ايضاً .

- ٥ -

وفي القرآن آيات متصلة باليهود جاءت في صدد ما كان يقع بين النبي (ص) وبينهم من حجاج وجدل ، ويمكن ان تلهم اموراً عديدة عما كان عليه الامر قبل البعثة .

منها ما جاء في صدد الحجاج في ابراهيم (ص) وملته ، ودعوى اليهود بأولويتهم به وبكون ملتهم هي ملته ، وكذلك ما جاء في صدد الكعبة وقدمها ونفضلها وصلاقة ابراهيم واسماعيل بها تنديداً بمواقف دسهم وانكارهم ؛ وهي ايات البقرة ١٢٥ ـ ١٤٠ التي نقلنا بعضها اي الآيات ١٣٠ ـ ١٤٠ في الفصل السابق وبعضها اي الآيات ١٢٠ ـ ١٣١ في فصل الحج ، وآيات آل عمران ٦٥ ـ ٦٨ التي نقلناها كذلك في الفصل السابق ؛ ومنها آيات آل عمران ٩٦ ـ ٩٧ وآيات سورة الحج ٢٦ ـ ٢٧ التي نقلناها في فصل الحج وآية سورة الحج التي نقلناها في الفصل السابق .

فهذه الآيات تقرر وتذكر :

١ ـ صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالكعبة وبنائها وبالبلد الحرام ودعوتهما لله بان يجعله آمنا ميسر الرزق .

٢ ـ أولية الكعبة كبيت الله وفرض حجه من استطاع اليه سبيلاً من الناس وصلة ابراهيم (ص) بأولية الحج ومناسكه .

٣ ـ صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالعرب وابوتهما لهم ، ودعوتهما الله بان يجعل ذريتهما ـ والقرينة في آيات البقرة ١٢٨ ـ ١٢٩ تصرف المعنى الى العرب ـ مسلمين وان يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

٤ ـ وصية ابراهيم ويعقوب (ص) لبنيهم باقامة الدين لله وحده والاسلام له ،

وان هذا هو ما كان عليه ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وموسى وعيسى النبيون الآخرون (ص).

٥ — بطلان دعوى اليهود بأن ابراهيم (ص) كان على ملتهم ، وتقرير انه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وانما كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وان أولى الناس به ليسوا من ينتسبون اليه بالبنوة اطلاقاً وانما الذين اتبعوه ، وان عهد الله لابراهيم (ص) لا يناله الظالمون المنحرفون من ذريته وبالتالي ان بنوة اليهود لابراهيم (ص) لا تبرر لهم دعوى الاولوية به لانهم انحرفوا عن ملته .

ومن سياق آيات البقرة وآل عمران يستدل على ان هذه التقريرات فيها انما كانت بسبيل الرد على دعاوي اليهود وحجاجهم وجدلهم ومكابرتهم .

والذي نرجحه أن دعاوي اليهود هذه كانت تصدر منهم قبل البعثة ايضاً على سبيل الزهو والافتخـار على العرب من جهة وتوطيداً لمركزهم الممتاز بينهم من جهة ثانية ، وانهم حينما رأوا النبي (ص) قد أخذ يشتد امره بعد الهجرة شعروا بالخطر يحدق بهذا المركز فعمدوا إلى الحجاج واللجاج والنقـاش ، ونقض دعواهم التي كانوا يستفتحون بها على العرب مما نددت بهم آيات البقرة ٨٧—٨٩ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وممـا يؤيد ما ذكرناه من صدور هذه الدعاوى منهم قبل البعثة ؛ فكانت هذه الردود والتقريرات القرآنية حاسمة في وضع الأمر في نصابه وسد الباب أمامهم . وفي هذا كله دور تمت إلى اليهود واليهودية بسبب كما هو ظاهر .

كذلك نرجح أنه كان يقع بين العرب واليهود نقاش حول ابوة ابراهيم (ص) للعرب واليهود ، وحول صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالكعبة والحج وتقاليده ، وأن اليهود كانوا يزهون على العرب بأن الانبياء جميعهم إنما كانوا من نسل ابيهم اسحاق (ص) ، وانهم استمروا بعد الهجرة في زهوهم وجدلهم هذا فكانت هذه التقريرات القرآنية ايضاً في تثبيت ابوة ابراهيم واسماعيـــل (ص) للعرب ، وفي تثبيت صلتهما بالكعبة وبنائها وقدمها وفضلها ، وفي تثبيت صلة ابراهيم (ص) بالحج ومناسكه مما كان يقول به العرب ، ويتناقلونه جيلا بعد جيل ، ثم في تثبيت دعوة ابراهيم واسماعيل (ص)

بان يبعث الله من العرب نبياً يعلمهم الكتاب والحكمة،واستجابة الله لدعوتها وارساله محمداً (ص) . ولقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

«هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ... ٢—٥

وفيها تثبيت باسلوب آخر لبعثة الرسول الامي العربي ،وتقرير بعدم الحرج على الله في إيتائه فضله لمن يشاء ، وتنديد باليهود لأنهم يتجاهلون ما في التوراة من بشارات ومباديء . مما يدل على ان اليهود استمروا في دعواهم بأن النبوات محصورة فيهم ، وانكروا نبوة النبي الامي العربي (ص) مع ما في هذا من مكابرة ونقض لما كانوا يقولون ويستفتحون به على العرب وتجاهل لما عرفوه . وكل هذا متصل بما نحن بسبيل تقريره كما هو ظاهر .

ونحب ان نلفت النظر الى أن آيات آل عمران ٩٦—٩٧ لنقول اننا نرجح استلهاما من سياقها ومضمونها انها نزلت في صدد حجاج اليهود حول القبلة ، واتجاه النبي (ص) الى الكعبة بعد اتجاهه إلى المسجد الاقصى .فلقد أهم تبديل القبلة اليهود كثيراً ، ورأوا فيه خطراً آخر على مركزهم ، وتقويضاً لزهوهم ودعاويهم ، فجادلوا به وشككوا ودسوا وساوموا كما جاء أشارات الى ذلك في سلسلة من الآيات في سورة البقرة ، واخذوا يفاضلون بين الكعبة والمسجد الاقصى فنزلت آيات آل عمران هذه لتقرر افضلية الكعبة واوليتها واولويتها .

اما السلسلة المذكورة فهذا ماله صلة بحجاج اليهود منها :

«سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صرط مستقيم . وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله

وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم . قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. البقرة ١٤٢–١٤٧

ولقد سُبقت هذه السلسلة بالآيات ١٢٥ – ١٤٠ التي نعتقد انها متصلة بها ، وانها نزلت كمقدمة تثبيتية لفضل الكعبة وصلتها بابراهيم واسماعيل (ص) .

وإذا كانت هذه الآيات جميعها تشير إلى ما كان من اليهود من موقف الدس والاعتراض والتشكيك في صدد تحويل القبلة فاننا نرجح ان يكون قد وقع بينهم وبين العرب قبل البعثة جدل وحجاج ومفاضلة بين الكعبة والمسجد الاقصى ، لان العرب كانوا يعتبرون الكعبة بيت الله العتيق ، وكانت مكانتها عندهم عظيمة ؛ ومن تمام زهو اليهود أن يفخروا بان مسجدهم في بيت المقدس أفضل من كعبة العرب .

ومما هو جدير بلفت النظر في صدد البحث الذي نحن فيه فقرتان في سلسلة الآيات ١٤٢ –١٤٧ وهما :

١ — وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ...

٢ — والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

فهاتان الفقرتان تلهمان بقوة أن اليهود لم يكونوا في غفلة عن شأن الكعبة وفضلها ، وانهم كانوا يعرفون ويعترفون بذلك فاستحقوا التنديد القرآني الشديد حينما ناقضوا انفسهم ، وانكروا ما عرفوا في ظرف تبديل سمت القبلة . والراجح ان هذه المعرفة والاعتراف قد كان منهم قبل الهجرة بل وقبل البعثة ، لان هذا التبديل قد وقع في اوائل الهجرة ، وان العرب المسلمين والمحتكين باليهود منهم قد عرفوا هذا وسمعوه منهم . وواضح ان هذا ينطوي على ما كان لليهودية من اثر في

تقاليد العرب الدينية او تدعيمها وتثبيتهم فيها . وليس من تناقض بين اعترافهم بشأن الكعبة وفضلها مع تفضيلهم المسجد الاقصى على سبيل الزهو كما هو واضح .

— ٦ —

ومنها ما جاء في صدد ما وقع بين النبي (ص) وبين اليهود من جدل في المحرمات الطعامية، فقد ورد في سورة آل عمران الآيات التالية :

«كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل إلا حرم ما اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاولئك هم الظالمون ... آل عمران ٩٣ — ٩٤

والذي يستلهم من هـذه الآيات ان اليهود كانوا يدعون ان ما حرم عليهم قد حرم من قبله على اسرائيل — وهذا الاسم كان يطلق على يعقوب (ص) — وان هذا التحريم يرجع الى ملة ابراهيم (ص) ، وانه وقع بين النبي (ص) وبينهم مناظرة في هذه الامر فنزلت الآيات لبيان الحقيقة، وقد تحدتهم بالاتيان بالتوراة وتلاوتها في مجلس المناظرة إذا كانوا صادقين في دعواهم ؛ مما يدل على انهم كانوا في موقفهم مكابرين ومغالطين .

ولقد احتوت سورتا الانعام والنحل المكيتان آيات في صدد المحرمات الطعامية، وجاءت آيات الانعام عقب سلسلة التنديد بمشركي العرب ونقاشهم بسبب تحريمهم وتحليلهم الكيفي ، وجاءت آيات النحل في سياق أمر المسلمين بعدم التحريم والتحليل الكيفي واتباع ما حرم الله والاكل مما رزقهم حلالاً طيباً كما ترى :

١ — قل لا اجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة اودماً مسفوحاً او لحم خنزير فانه رجس او فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون [1] ... الانعام ١٤٥ — ١٤٦

---

(١) السلسلة التي تقدمت هذه الآيات هي الآيات ١٣٥ — ١٤٤ وقد نقلناها في الباب الاول .

٢ — فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون. انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم . ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب اليم . وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ... النحل ١١٤–١٤٨

ومعلوم ان التوراة قد حرمت اكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وذوات الاظفار وغير ذلك ، فلما نددت آيات الانعام ١٣٥ — ١٤٤ بمشركي العرب على تحريمهم وتحليلهم الكيفيين وصبغها بصبغة دينية احتجوا على ما تلهمه آيات الانعام بما كان عند اليهود من تحليل وتحريم فردت عليهم الآيات ١٤٥–١٤٦ ان المحرم العام هو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وان ما حرم على اليهود دون ذلك انما حرم عقاباً على بغيهم وليس لكونه رجساً او فسقاً . ويظهر أن هذا الموضوع ثار ثانية بين المسلمين في العهد المكي نتيجة لاعتراض المشتركين أو بسائق ما كان مستقراً في العرب من تقاليد قديمة فاقتضت الحكمة نزول آيات النحل تؤكد أنه ليس من محرم الا المحرمات الاربعة التي هي رجس وفسق، وان ما عداها مما حرم على اليهود إنما كان بسبب ظلمهم وليس هو من هذا الباب . وواضح من هذا ان العرب قبل البعثة كانوا على علم بالمحرمات اليهودية ، ويبدو انهم برروا بذلك لا نفسهم ما كانوا يحرمون ويحللون ؛ وفي ذلك من اثر اليهود واليهودية في تقاليد العرب الدينية ما هو ظاهر .

— ٧ —

ومنها ماجاء في صدد القضاء والشرائع اليهودية كما ترى في الآيات التالية :

« يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم

لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون ...
المائدة ٤١—٤٥

وفحوى الآيات يدل على ان اليهود كانوا أهملوا بعض أحكام شريعتهم، وارسلوا بعضهم الى النبي (ص) ليتحاكموا عنده في قضية من القضايا آملين ان يحكم بما يوافق هواهم . لذلك حملت عليهم الآيات مستغربة كيف يحكمونه ولا يحكمون التوراة التي عندهم والتي أنزلها الله فيها نور وهدى وكان يحكم بهـا النبيون ؛ ثم ذكرت أحكام التوراة في الدماء والجروح وانها هي التي يجب ان يقضى فيهم وفاقاً لها .

وقـد روى ابن هشام والمفسرون (١) ان الآيات نزلت في صدد قضية زان وزانية يهوديين وأن النبي (ص) أراد ان يحكم فيها بالرجم طبقاً لحكم التوراة فانكر اليهود ذلك فأمرهم باحضار التوراة واستعان بحبر يهودي أسلم على اثبات صحة الحكم، وورود أحكام القصاص فقط في سياق الآيات لايساعد على التسليم بهـذه الرواية كسبب للنزول . وعلى كل حال فان الآيات تلهم أن اليهود كانوا مرجعاً من مراجع العرب قبل الاسلام في قضاياهم ومشاكلهم ، وانه كان لهم تأثير فيهم سلباً وايجابـاً بسبب ما كان عندهم من علم وشرائع سماوية وعلماء واحبار . وهذا متصل بالبحث الذي نحن فيه . كذلك فان فيها (١) إلهاماً بأن الأحبار والربانيين هم الذين كانوا يتولون القضاء في اليهود على اعتبار أنهم حفظة الشريعة التوراتية ، وعلى كون

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٥٧—١٥٨ وجل المفسرين في تفسير الآيات السابقة.

أساس القضاء هو هذه الشريعة (٢) صورة من الصور اليهودية في صدد الشريعة، وما كان من اهمال بعض أحكامها والتحايل عليها من قبل علماء اليهود واحبارهم في عصر النبي (ص) وبيئته .

وهـذه الصورة الأخيرة واضحـة عنهم في آيات اخرى حيث يشمل مداهـا لنصوص التوراة عامة ،وحيث تلهم أن هذا كان امرهم قبل البعثة ايضاً :

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون ... البقرة ٧٩

٢ — وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ... آل عمران ٧٨

٣— واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس مايشترون . لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بمـا يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم ... ١٨٧—١٨٨ آل عمران

والآيات تعلل هذا منهم بالرغبة في المنافع الدنيوية والزهو والفخر على غيرهم ، وبالتالي بقصد استغلالهم الدين .

—٨—

ومنها ماجاء في صدد عقيدة اليهود ببنوة العزير لله كما ترى في هـذه الآية :

«وقالت اليهود عزير ابن الله ... التوبة ٣٠

والآية تدل على ان هذه العقيدة كانت مما يقول بهـا اليهود أو بعض فرقهم في عصر النبي (ص) وبيئته .

ومنها ماجاء في صدد قذفهم السيدة مريم ودعواهم قتل المسيح (ص) كما ترى في هذه الآيات :

« فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يومنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم

بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه ... النساء ١٥٥–١٥٨

والآيات تدل على ان اليهود في عصر النبي (ص) وبيئتـه كانوا يجهرون بقذف السيدة مريم بالبهتان ، ويتبجحون بقتلهم المسيح (ص) ؛ وهذا متصل بعقائدهم التي سبقت البعثة كما هو واضح .

– ٩ –

ومنها ماجاء في صدد صفات النبي (ص) في التوراة والانجيل كما ترى في الآية المكية التالية .

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ... الاعراف ١٥٧

ولقد جاء في آيات عديدة اشارة الى ان من اليهود من آمن بالله والنبي (ص) والقرآن كما ترى في مايلي :

١ – وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ... آل عمران ١٩٩

٢ – لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك ... النساء ١٦٢

٣ – اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ... الشعراء ١٩٧

٤ – قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم بـه وشهد شاهـد من بني اسرائيل على مثله ... الاحقاف ١٠

وآية الاعراف كانت تتلى على مسمع اليهود والنصارى كسائر آيات القرآن طبعاً . فيصح أن يقال بجزم ان في التوراة التي كانت في ايدي اليهود في عصر النبي (ص) وبيئته صفات لنبي يبعث لأصلاح مايكونون عليه من انحراف ، وتخفيف ماعليهم من تكاليف منطبقة على النبي (ص) صـراحة أو تلميحاً ، وان الذين آمنوا بالنبي

(ص) قد رأوا في الرسالة المحمدية صدقاً وتصديقاً للكتب السابقة وأهدافاً إصلاحية سامية وأنهم عرفوا أن صفاته منطبقة على ما في اسفارهم من صفات النبي المبشر به ايضاً .

اما عدم إيمان الذين كفروا منهم فقد كان كما تدل عليه نصوص القرآن الكثيرة التي نقلناها في هذا الفصل وغيره وخاصة في الفصل الثالث من الباب الأول لأسباب كثيرة اخرى مثل الحسد والحقد والاستكبار والاستمساك بالمركز المهدد والمصالح الخاصة ، والجبلة المتمكنة والأنانية العنصرية الخ الخ مما المعنا اليه في المناسبات السابقة .

ولعل فقرة « فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به » التي وردت في آية البقرة ٨٩ التي نقلناها في الفصل المذكور وفي مناسبات اخرى دليل حاسم على ان اليهود كانوا يترقبون بعثه نبي عربي ويذكرون صفاته التي يجدونها مكتوبة عندهم ويستفتحون على العرب بأنه سيكون من حزبهم ...

— ١٠ —

ومنها ما جاء في صدد مخالفاتهم للشريعة التوراتية وتقصير احبارهم وعلمائهم في واجباتهم الدينية وسوء استعمالهم واستغلالهم لمناصبهم وخلافاتهم :

فاولاً انهم قد حرم عليهم الربا فاكلوه كما جاء في الآية التالية :

« واخذهم الربا وقد نهوا عنه ... النساء ١٦١

وثانياً — انهم قد حرم عليهم قتال بعضهم فخالفوا ذلك كما جاء في الآية التالية :

« واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض... البقرة ٨٥

وثالثاً ان علماؤهم كانوا ينسبون الى الله ما ليست نسبته صادقة بقصد التدليس والاستغلال كما جاء في الآيات التالية :

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ... البقرة ٧٩

٢ — وإن منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ... آل عمران ٧٨

ورابعاً انهم كانوا يكتمون الحق الذي يعرفونه لنفس القصد ايضاً كما ترى في الآيات التالية :

١ — الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ... البقرة ١٤٦

٢ — واذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ... آل عمران ١٨٧

وخامساً ان احبارهم وربانييهم كانوا يرون ارتكاس ابناء طائفتهم في الآثام فيتغاضون عن وعظهم ونهيهم كما ترى في الآيات التالية :

« وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان واكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا (١) ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون . المائدة ٦٢—٦٣

وسادساً ان كثيراً من احبارهم كانوا يستغلون طاعة عامتهم لهم طاعة عمياء فيجنون من وراء ذلك الاموال الطائلة .حتى انهم استغلوا نفوذهم في صد الناس عن الدعوة النبوية كما ترى في الآيات التالية :

١ — اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله .. التوبة ٣١

٢ — يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ... التوبة ٣٤

وسابعاً انه كان بينهم اختلافات في فهم نصوص التوراة جعلتهم فرقاً واحزابا وكان للهوى اثر في هذه الظاهرة كما ترى في الآيات التالية :

---

(١) لولا : هنا وفي كثير من الآيات بمعنى هلا

١ — وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم
آل عمران ١٩

٢ — إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون.
النمل ٧٦

٣ — ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ... فصلت ٤٥

٤ — وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم افي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ... الشورى ١٤ — ١٥

٥ — ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعدماجاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ...
الجاثية ١٦ — ١٧

والآيات التي اوردناها آنفاً وان كانت قد نزلت بعد البعثة وفي صدد وظروف الدعوة فانها كما تلهم روحها ومضامينها تصور في الحقيقة ما كان عليه اليهود من أمر قبل البعثة ، وان مابدا منهم في صدد وظروف الدعوة مما كان سبباً لنزول الآيات انما كان استمراراً لما سبق .

— ١١ —

هذا ؛ وبالاضافة الى ماتقدم نقول : انه لاشك في ان العرب كانوا قد عرفوا عن طريق اليهود كثيراً من القصص التوراتية واخبار انبياء أسفار التوراة وأممهم ومعجزاتهم ، وان هذا كان ذا أثر كبير في زيادة معارفهم وثقافتهم الفكرية والدينية والدنيوية بصورة عامة . فكثير من القصص التوراتية قد أشير اليها في القرآن مكرراً في معرض التنديد بالعرب وتذكيرهم ومخاطبتهم وهذا يلهم ما قلناه لأن الحجة تستحكم في من يعرف هذه القصص ويعترف بها ؛ هذا عدا ان اسلوبها

يلهم انها تتلى على اناس غير غافلين عنها ؛ ولقد كان من اثر ذلك ان كانت هذه المعارف وسيلة من وسائل جدلهم وحجاجهم مع النبي (ص) وطلبهم منه الاتيان بالمعجزات كما أتى الرسل السابقون كما حكته آية القصص :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ماأوتي موسى ... ٤٨

وآية الانبياء : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ... ٥

كما كانت باعثة لتمنيهم بعثة نذير فيهم ليكونوا اهدى من الامم التي سبقتهم مما حكته آية فاطر (٤٣) ، وكل هذا لا يتأتى الا عن معرفة باخبار الاولين واحوال الحاضرين بطبيعة الحال .

كذلك فان القرآن قد استشهد اكثر من مرة في معرض الحجاج مع العرب ودعوتهم والتنديد بهم بأهل الذكر والكتاب الذين يدخل اليهود فيهم وبالكتب السماوية وبصحف موسى وبالاسرائيليين وعلمائهم نصاً مما نقلنا كثيراً من آياته في الفصل الثالث من الباب الاول وفي هذا الفصل مثل آيات الانعام ١١٤ ويونس ٩٤ والنحل ٤٣ والشعراء ١٩٧ والعنكبوت ٤٧ وسبأ ٦ والاحقاف ١٠ والقصص ٥٢ — ٥٥ والرعد ٣٦ ومثل الآيات التالية :

١ — وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى . طاها ١٣٣

٢ — أم لم ينبأ بما في صحف موسى . وابراهيم الذي وفى ... النجم ٣٦ — ٣٧

٣ — إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف ابراهيم وموسى ... الاعلى ١٨ — ١٩

والحجة في كل هذا لا تستحكم إلا اذا كان العرب والنابهون ممن يسمعون القرآن ملمين بما عند اليهود من كتب واخبار ومعارف ، وواثقين فيهم ومتأثرين بهم قليلا او كثيرا كما هو المتبادر .

— ١٢ —

أما النصرانية فقد وصلنا في الاستلالال في الفصل الثالث من الباب الاول

الى القول بوجود جالية اعجمية نصرانية في مكة ، وباحتمال وجود جالية اعجمية نصرانية في يثرب ايضاً وبترجيح وجود عرب متنصرين مستقرين في بيئة النبي (ص) وعصره ايضاً .

ونقول هنا ان الذي نرجحه أن مدى انتشار النصرانية في عرب الحجاز كان ضيقاً وانه لم يكن ليتجاوز الحوادث الفردية ؛ وذلك استلهاماً من عدم وجود صدى قوى لاحتكاك النبي (ص) بالنصارى في القرآن الكريم ، لا في الآيات المكية ولا في الآيات المدنية كما هو الامر بالنسبة إلى اليهود في يثرب ؛ فلو كان للنصرانية بوجه عام وللنصرانية العربية بوجه خاص كيان قوى ونطاق واسع في بيئة النبي (ص) لكان القرآن قد ردد صدى ذلك ، ولكانت حدثت حوادث كثيرة متنوعة تتناقلها الروايات ويصل الينا منها ما يمكن ان يدل عليها .

-١٣-

اما في غير الحجاز فانه وان لم يكن في القرآن شيء صريح ايضاً عن مدى انتشارها بين العرب فان فيه اشارات عديدة تكاد تجمع الروايات على انها في صدد اجتماعات وقعت بين النبي (ص) ووفود نصرانية عربية يمانية وشامية ؛ وفي هذه الاشارات مايلهم صحة ذلك؛ لأن منها ما حكي من تأثير السامعين بالقرآن إلى حد فيضان عيونهم بالدموع مما يحمل على القول أنهم كانوا يفهمون العبارة القرآنية فهماً وافياً، وهذا لايحتمل إلا من العرب على ما هو المتبادر . وطبيعي ان وفادة وفود للاتصال والاستطلاع والمناظرة لابد من ان يكون وراءها كتل اضطربت فيها الافكار والاخبار . وفيه كذلك أمر بقتال الذين لايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من أهل الكتاب اعقبه بعد آيات استطرادية قليلة استنفار لغزوة بعيدة الشقة أجمعت الروايات على انها غزوة تبوك ، وانها كانت ضد القبائل العربية التي يدين كثير منها بالنصرانية في مشارف الشام والتي كانت تعتدي على القوافل والسابلة آناً بعد آن. فهذه الاشارات القرآنية المفسرة بالروايات غير المتناقضة مع مضامينها تسوغ القول بان النصرانية كانت منتشرة بنطاق واسع بين عرب مشارف الشام ، وانها كانت

منتشرة في كتلة غير ضئيلة من عرب اليمن ايضاً (١) . والروايات المعتبرة المتصلة بالمشاهدات التي هي درجة اليقين تؤيد ذلك من جهة وتؤيد انتشارها كذلك في مدن وقرى وبوادي الشام والعراق وبين النهرين من جهة اخرى . اما الاشارات القرآنية التي نوهنا بها فهي :

آيات الاسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٥ والاعراف ١٥٧ ومريم ١٦-٣٧ والتوبة ٣٥ والنساء ١٧١-١٧٢ والمائدة ٧٢-٧٩ و ٨٢ - ٨٤ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وفي سلسلة طويلة من سورة آل عمران التي اجمع الرواة على انها في صدد المناظرة التي وقعت بين وفد نجران ، وفي آيات من سورة التوبة . واليك سلسلة آل عمران :

«إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني اعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار . وإذا قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على

---

(١) ذكر القاسم بن سلام في سلام الاموال ان نصارى نجران اليمن هم عرب من بني الحرث بن كعب . وذكر ابن هشام أنه كان من رؤساء وفد نجران ابو حارثة بن علقمه احد بني بكر وائل وكان اسقفهم وحبرهم وامامهم ، وكانوا ستين شخصاً ومن اسمائهم التي اوردها والمتبادر انهم من البارزين أوس والحرث وزيد وقيس ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله وعبد المسيح ج٢ ص١٦٥-١٧٦ وهي اسماء عربية خالصة .

نساء العالمين . يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرئ الاكمه والابرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم بما كنتم فيه تختلفون . فاما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلاتكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق ومامن إله الاالله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين . قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . ٣٥ — ٦٤

واليك آيات سورة التوبة .

١ ــ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزيـة عن يد وهم صاغرون ... ٢٩

٢ ــ ياأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ... ٣٤

٣ ــ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ... ٣٨

٤ ــ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً(١) لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ... ٤١-٤٢

٥ ــ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة (٢) من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤف رحيم ... ١١٧

ــ ١٤ ــ

واذا كان مدى انتشار النصرانية في بيئة النبي (ص) الخاصة ضيقاً فان هذا لايعني ان تأثيرها كان ضعيفاً فيها . فنحن نعتقد أن النصرانية كانت كاليهودية مصدراً من مصادر المعارف والأفكار الدينية التي كانت عند عرب الحجاز والتي استدللنا عليها من آيات عديدة اوردناها في الفصول السابقة لاسيما فكرة الله وفكرة اتخاذ الله بنين وبنات والملائكة واعتبار كونهم بنات الله ، ولعل فكرة الشفاعة والشفعاء واتخاذ

(١) فيها أشارة الى أن الاستنفار لغزوة بعيدة شاقة وهي غزوة تبوك بأجماع المفسرين والتي كانت أشد واعظم الغزوات النبوية جهداً وعدد محاربين ومدة غياب.

(٢) سمي جيش تبوك بجيش العسرة اقتباساً من هذا التعبير القرآني لشدة الظرف .

الملائكة شفعاء هي في أصلها مما اقتبسه العرب من النصرانية وشفاعة قديسيها .

وفي آيات سورة الزخرف ٥٧—٦٥ التي أوردناها في فصل الملائكة وشرحنا جدل العرب الطريف عن اتخاذهم الملائكة آلهة واعتبار أنفسهم في هذا اهدى سبيلا من النصارى باتخاذهم عيسى (ص) آلهـاً ، وفي آيات الأنعام (١٥ - ١٥٧) التي نقلناها في فصل إعتراف العرب بالله وفي آية فاطر (٤٢) التي حكت نذر العرب باتباع النذير الذي يجيئهم وقولهم إنهم سيكونون به اهدى من احدى الأمم ، وفي الآيات العديدة المكية التي تذكر ما كان من خلاف ونزاع وانقسام بين الأحزاب والفرق النصرانية مما اوردناه في هذا الفصل والفصول السابقة دلائل على ما كان عند عرب الحجاز وعرب مكة خاصة من المام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وأشكالات ولادة المسيح (ص) ونبوته وصلبه ، وما كان فيها من مذاهب وآراء . وطبيعي أن يكون لهذا كله رد فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم . هذا بالاضافة الى ماذكرناه قبل قليل في بحث اليهود في صدد استشهاد اهل الكتاب وما أوردناه من آيات في ذلك ، حيث يشمل هذا النصارى والنصرانية كما يشمل اليهود واليهودية ، وحيث يدل على ما كان من ثقة العرب السامعين بالنصارى ومعارفهم كما هو الأمر بالنسبة لليهود مما يستتبع التأثر بهم بطبيعة الحال .

وإذا أريد أن يقال انه لم يكن في بيئة النبي (ص) الخاصة من النصارى ما يمكن أن يكون لهم تأثير بالغ في العرب كالذي يمكن ان يكون لليهود بسبب كثرتهم فينبغي ان لا ننسى أنه كان في مكة من النصارى الذين هم مظنة علم وتعليم على ما اشرنا اليه في مناسبات سابقة ما يكفي لتأثر نابهيها الذين قادوا حركة المعارضة للنبي (ص) والذين حكي القرآن على الاغلب مواقفهم واقوالهم ، والذين كانوا على الارجح مصدر الافكار وبثها في الطبقات الاخرى من العرب ، وأن مشركي مكة ذهبوا فيما ذهبوا اليه إلى أن النبي (ص) نفسه قد تعلم وتأثر بهم على ما حكته عنهم آيتا النحل والفرقان (١٠٣ و ٤) ؛ وأن لا ننسى كذلك تلك الالوف المؤلفة من متنصرة العرب الذين كان الحجازيون خاصة يغدون ويروحون اليهم في اسفارهم ورحلاتهم ، ويخالطونهم مخالطة الشقيق ، ويتفاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك ، وان لا ننسى ايضاً ان

كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج واسواقه ، ومنهم من كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة ؛ وان الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء واجداد جماً وثيقاً تتصل اواصره وتستمر مظاهره ، وانه كان كثير من العرب غير النصارى وخاصة الحجازيين يصهرون الى العرب النصارى وبالعكس فتزداد هذه الاواصر والمظاهر قوة ولحمة ، وان كل هذا من شأنه ان يهيء لعرب الحجاز الفرص الكثيرة الوافية للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر .

— ١٤ —

هذا ؛ وفي القرآن آيات كثيرة حول النصارى والعقائد النصرانية يمكن ان يستدل بها على أمور عديدة مما كان عليه النصارى من عقائد وعادات وافكار في عصر النبي (ص) وبيئته وفي غير بيئته ممن كان يتصل بهم أهل بيئته ويحتمل ان يكونوا قد عرفوه عنهم .

فاولاً ان النصارى او بعض فرقهم كانوا يؤلهون مريم كما يستلهم من الآيات التالية .

١ — ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ... المائدة ٧٥

٢ — وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أءنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ... المائده ١١٦

وثانياً ان النصارى كانوا يقولون إن المسيح هو الله وإن لآلهة ثلاثة وإن الله ثالث ثلاثة كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة إنتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ...
النساء ١٧١

٢ — لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ... المائدة ١٧

٣ — لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ...
المائدة ٧٣

وثالثاً أن اهم ما كانوا يستندون إليه في تقرير الوهية عيسى (ص) او صفته اللاهوتية هو معجزة ولادته بدون أب . وهذا مستلهم من اهتمام القرآن أو بالاحرى حصر اهتمامه لتفنيد استنتاج تلك النتيجة من هذه المعجزة ، وتجلى هذا في الاسهاب الوارد حول هذا الامر في سورة مريم المكية وسورة آل عمران المدنية في صدد مناظرتهم ووضع الامر في نصابه . وقد أوردنا في الفصل الثالث من الباب الاول آيات سورة مريم .

ورابعاً إن معجزة ولادة يحيى (ص) بعد شيخوخة ابيه (ص) وعقم امه كان مما يعترف به النصارى حيث جاء ذكرها في القرآن مكررة وبمثابة حجة وتدعيم لامكان معجزة ولادة المسيح (ص) دون ان يترتب على ذلك صفة الوهية له كما هو شأن يحيى (ص) . وهذا يستلهم من سلسلة آل عمران التي جاءت فيها قصه ولادة يحيى بمثابة مقدمة وتمهيد لقصة ولادة عيسى (ص) ، وجاءت كذلك في سورة مريم كما ترى في ما يلي .

« كهيعص (١) ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك رب شقيا . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً . قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً . فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً . يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً

(١) تقرأ هكذا : كاف ها يا عين صاد اي بأسماء الاحرف .

سويا . قالت إني اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكيا ... سورة مريم ١ – ١٩

ومما يجدر التنبيه عليه ان في كلتا السلسلتين ذكر عيسى (ص) فقط في اواخر الآيات كتعقيب على الكلام وكنتيجة له ؛ كما جاء في الآيات ٩ – ٦١ من سلسله آل عمران وكما جاء في اخر سلسلة سورة مريم :

«ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى امراً فأنما يقول له كن فيكون ... ٣٤ – ٣٥

وقد استحكمت الحجة القرآنية حيث اوردت قصة ولادة يحيى التي يعترف النصارى بمعجزتها مقدمة لقصة ولادة عيسى (ص) .

وخامساً ان أمر صلب عيسى (ص) كان من الامور المختلف عليها في الاوساط المسيحية كما تلهم الآية التالية :

«وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما له به من علم الا اتباع الظن ... النساء ١٥٧

وسادساً ان النصارى كانوا فرقاً وأحزاباً من حيث العقائد والمذاهب والدينية ومن حيث امر المسيح (ص) نفسه ايضاً . وهذا مستلهم أولا من آية النساء ١٥٧ التي نقلناها قبل قليل ومن آيات البقرة ٢٥٣ وآيات الزخرف ٦٣ – ٦٥ وآية مريم ٣٧ التي نقلناها في فصول سابقة وثانياً من روح آية فاطر ٤٢ التي تحكى نذر العرب بأن يكونوا أهدى من النصارى واليهود اذا جاءهم نذير؛ حيث يدل هذا على ان العرب كانوا يرون الانحراف والمغالطة والاختلاف فتثور دهشتهم ويقولون ما يقولون .

– ١٥ –

وسابعاً انه كان في عصر النبي (ص) فرق نصرانية متطابقة في العقائد مع التقريرات القرآنية ؛ وهذا مستلهم من ايات المائدة ٨٢ – ٨٤ التي نقلناها في مناسبة سابقة حيث تذكر صراحة ان دموع النصارى وفيهم القسيسون والرهبان فاضت مما

سمعوه من القرآن ورأو فيه الحق الذي عرفوه واعلنوا ايمانهم به[1]. وفي السور المكية آيات اخرى رجحنا في الفصل الثالث من الباب الاول انها تعني النصارى وفيها قرائن ودلائل على ما نقول ؛ وهي آيات الرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧ – ١٠٩ والقصص ٥٢ – ٥٣ التي نقلناها في ذلك الفصل .

ومعلوم ان من جملة التقريرات القرآنية كون المسيح عبد الله ورسوله ، وكون ولادته معجزة مماثلة لمعجزة ولادة يحيى وآدم (ص) وكونه انما دعا الى الله وحده . وهذا التصديق الذي تحكيه الايات عن النصارى يتضمن هذه التقريرات بطبيعة الحال . وننبه على ان التقريرات المكية مما نزل مبكراً كما يستلهم من ترتيب نزول السور والاسلوب . ولعل في آية الاسراء الاخيرة التي جاءت عقب الآيتين الانفتي الذكر وهي :

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ... ١١١

قرينة على مانقول حيث تدع حكاية قول النصارى بحمد الله الذي لم يتخذ ولداً ولم تشب وحدته شائبة؛ حتى لكأن هذا الحمد يطوي معنى حمد الله الذي جعل فريقاً من النصارى يصدق قول القرآن في هذا ويقوم شاهد عليه منهم .

ومما يلوح لنا من أسلوب الآيات القرآنية من جهة ومن الروايات التي ذكرت أن الدعوة الاسلامية قد لاقت عند افراد الجالية الكتابية النصرانية قبولاً حسناً كما لاقت مثل ذلك فى الاوساط النصرانية الاخرى وخاصة في الحبشة من جهة اخرى أن هذه الفرق لم تكن قليلة العدد أو شاذة ، وانها كانت تشغل حيزاً غير يسير . ولعل هذا مما يفسر لنا إقبال النصارى في بلاد الشام ومصر على الاسلام في الادوار الاسلامية الاولى .

---

(١) ذكر ابن هشام ج٢ص١٦٧ أن أبا الحارث بن علقمة كان اسقف نجران وجاء على رأس وفدها قد شرفه قومه وملوك النصارى ومولوه وإن ابن أخاً له كان معه دعا على النبي(ص) فقال له أخوه لاتقل إنه والله النبي الذي كنا ننتظر فقال له أخوه ومايمنعك منه قال ماصنعه بنا قومنا شرفونا وموّلونا واكرمونا فلو فعلت نزعوا منا كل ماترى...

ومما يتصل بهذا المعنى بشارة عيسى (ص) بالنبي التي احتوتها آية الصف(٦)التي نقلناها في مناسبة سابقة ، وما ذكرته آية الاعراف (١٥٧) التي نقلناها قبل والتي تنوه بالذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل . ونكرر ماقلناه سابقاً من أن الآيتين كانتا تتليان على مسمع النصارى واليهود وانه لما لايتحمل شكاً أنهما كانتا تقرران امراً مطابقاً لما كان عندالنصارى أو لما كان يعتقده بعض فرقهم وما كانت تحتويه بعض أناجيلهم من صفات صريحة أو ضمنية ، وإن هذا مما كان سبب ذلك القبول والارتياح .

-١٦-

وثامناً ان كثيراً من رهبان النصارى كانوا يستغلون طوائفهم ويجنون من وراء ذلك الاموال الطائلة وكانوا يصدونهم عن سبيل الله استبقاء لنفوذهم ومصالحهم كما تلهم آية التوبة (٣٤) التي نقلناها في بحث اليهود قبل قليل .

وتاسعاً إنه كان من النصارى الذين ينذرون الرهبانية من لايرعاها حق رعايتها كما تلهم الآية التالية :

«ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ... الحديد ٢٧

وعاشراً لقد ورد تعبير روح القدس الذي يسمي به النصارى أحد الاقانيم الثلاثة (الاب والابن وروح القدس) عدة مرات في القرآن حيث جاء في صدد تأييد الله به عيسى (ص) كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ... البقرة ٨٧و٢٥٣

٢ ــ إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ... المائدة ١١٠

وجاء في صدد تنزيل القرآن على النبي (ص) كما ترى في الآية التالية :

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين النحل ١٠٢

والسؤال الذي يرد هو ما إذا كان هذا التعبير عربياً اصلياً او ترجمةً لما كان

يقابله عند النصارى الأعاجم؛ وما اذا كانت دلالته قبل البعثة على الاقنوم النصراني فحسب او كان يدل على معنى آخر .

فأولاً إن كلمة « قُدُس » قد جاء لها اشتقاقات في القرآن مثل « الوادالمقدس » طاها ١٢ » و « الأرض المقدسة ... المائدة ٢٢ » و « نقدس لك ... البقرة ٣٠ » و « القدّوس ... الجمعة ١ » وان هذا يسوغ القول أنها جذر عربي ، وإن كان من يقول انها دخيلة من لغة سامية اخرى ؛ وحتى على فرض أن هذا الجذر في لغة سامية أخرى فلا يقتضي هذا ان يكون دخيلاً على اللغة العربية التي تشترك مع اللغات السامية الأخرى في اكثر الجذور . ومهما يكن من أمر فان هذا الجذر من جهة وتعبير « الروح القدس » من جهة اخرى يجب ان يعتبرا عربيين وانهما كانا مستعملين في المعاني التي وردا فيها في القرآن قبل نزوله ، لان القرآن إنما نزل باللسان العربي المبين .

وثانياً لما كان معنى التعبير من المعاني الاساسية في العقيدة النصرانية كما أنه لم يكن للعرب عهد بوحي رباني يمكن أن يطلق عليه هذا التعبير فالذي نرجحه أنه ترجمة لمقابله في اللغات والكتب غير العربية التي كان يتكلم بها ويقرأها النصارى غير العرب .

وثالثاً اننا نرجح أن النصارى العرب هم الذين ترجموا معنى التعبير إلى اللغة العربية واطلقوه على الاقنوم النصراني حسب عقيدتهم . ومع ترجيحنا هذا فاننا لا نستبعد إن لم نقل نرجح أن الفرق النصرانية التي كانت تتطابق عقائدها في المسيح (ص) مع التقريرات القرآنية على ما ذكرناه قبل قليل كانت تستعمله في الاشارة الى ملك الله ووحيه . وهذا المعنى هو الذي اريد له في القرآن سواء كان في صدد تأييد عيسى (ص) او في صدد تنزيل القرآن كما تلهمه روح النصوص القرآنية وكما ذهب اليه جمهور المفسرين .

وهذا الجمهور يذهب كذلك الى ان تعبير « روح القدس » يعني جبريل ملك الله بالذات ، وليس ملكاما . وفي سورة الشعراء آيتان هذا نصهما :

« نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين ... ١٩٣ — ١٩٤

وفي سورة البقرة آية هذا نصها :

«قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه. ٩٧

وهكذا يربط هذا التشارك بين جبريل وتعبير روح القدس كما هو واضح .

وملك الله جبريل ذكر في بعض أسفار العهدين القديم والجديد كواسطة لتبليغ انبياء الله وتنفيذ اوامر الله . وآية البقرة (٩٧) قد جاءت في سياق التنديد باليهود وتلهم انهم قد جهروا بعدائهم لجبريل مما يدل على ان اسمه مما كان متداولاً بين اليهود ايضاً بصفته ملك الله . ولا ندرى هل الفرق النصرانية التي تطابقت عقائدها مع تقريرات القرآن والتي رجحنا انها كانت تطلق تعبير روح القدس على ملك الله كانت تعني به جبريل بالذات ام لا ، وان كنا نرجح ذلك .

-١٨-

وختاماً لبحث النصارى واضافة الى ما قلناه في مطلع البحث وفي اثناء هذه الفقر نقول انه ليس من شك في ان العرب قد عرفوا من طريق النصارى كما عرفوا من طريق اليهود كثيراً من قصص التوراة والانجيل ومعجزات المسيح (ص) وسيرة النصرانية والحواريين الاولى ، وان هذا كان ذا اثر في معارفهم وثقافتهم الدينية والفكرية ؛ وان القصص النصرانية الخالصة في القرآن مثل قصة المائدة (الآيات ١١٢—١١٥) وقصة أصحاب الكهف في سورة الكهف (الآيات ٩-٢٦) وقصة أصحاب القرية في سورة ياسين (الآيات ١٣-٢٧) وقصة الحواريين في آيات آل عمران التي نقلناها قبل وفي سورة الصف (الآية ١٤) التي يتضمن اسلوبها زجراً او حثاً او تذكيراً او تمثيلاً كانت مما الم به العرب قبل البعثة من طريقهم ؛ وان المامهم واقتباسهم كانا وسيلتين الى ما كان يبدو منهم من جدل مع النبي (ص) حول عيسى (ص) واختلافات النصارى خاصة وحول دعوته وشخصيته بوجه عام.

-١٩-

واخيراً نريد ان نبحث في مدى ما كان للتوراة والانجيل قبل البعثة من المفهوم، وفيما اذا كان من الممكن أن نجد لذلك ملهمات من القرآن .

فبالنسبة للتوراة نقول :

اولاً ان هذا اللفظ ليس له جذر عربي ، وانه تسمية عبرانية الاصل لاسفار موسى (ص) الخمسة وما تزال تطلق عليها . وكل ما في الأمر ان اللفظ القرآني معرب ، وقد عرب على وزن فعلاة ،والمتبادر ان التعريب سابق للقرآن ،وان اللفظ القرآني جاء كما كان مستعملا قبل نزوله في اللسان العربي .

وثانياً ان كلمة « التوراة » وردت في القرآن ثماني عشرة مرة؛ واحدة منها في آية وسورة مكية وباقيها في آيات وسور مدنية ؛ ومنها ما فيه دلالة صريحة على ان القصد من التوراة هو كتاب الشريعة اليهودية المنزلة من الله مثل ما جاء في آيات سورة المائدة ٤٣-٤٤ وسورة آل عمران ٩٣ التي نقلناها في مناسبة سابقة من هذا الفصل . ومنها ما جاء مطلقاً ، كما ان منها ما جاء في صدد حجاج اليهود في ابراهيم (ص) والتطابق بينها وبين ما نزل وجاء من كتب الله وانبيائه، مما لا يبعد ان يكون قد عنى الاسفار الخمسة التي يسميها اليهود فقط بالتوراة ، ومن الآيات التي وردت الكلمة فيها مطلقة آيات الاعراف ١٥٧ والصف ٦ وآل عمران ٦٥ التي نقلناها في مناسبة سابقة ، ومنها الآيات التالية :

«نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ... آل عمران ٣

ونفيد ان التوراة لم تأت مقرونة بموسى (ص) في القرآن ؛ وان ما جاء مقروناً به هو الفاظ « الكتاب » و « الألواح » كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ... البقره ٨٧

٢ — ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ... هود ١٧

٣ — وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ... الأعراف ١٤٥

ومع ان آية الألواح تلهم انها قد تعني الأسفار الخمسة التي احتوت تفصيلاً لكل شيء وموعظة من كل شيء وتشريعاً وأحكاماً فالمعروف في تاريخ اليهود انها غير الاسفار الخمسة . اما لفظ الكتاب في آيتي البقرة وهود وغيرهما مما لم ننقله فالمرجح ان لم نقل المحقق انه عنى التوراة او الأسفار الخمسة .

ومهما يكن من امر فأن آيات آل عمران ٩٣ والمائدة ٤٣-٤٤ وآيات فى المائدة سنوردها بعد قليل وهي الآيات ٦٥-٦٨ تلهم بصراحة ان القرآن قد عنى بالتوراة ما كان متداولاً بين ايدي اليهود مما كان يطلق عليه هذا الاسم في العهد النبوي وقبله بالتبعية وبقطع النظر عن تاريخه .

وثالثاً إذا استثنينا الزبور الذي ذكر القرآن ان الله آتاه داود (ص) في آيتين احداهما مكية وثانيهما مدنية والنص فيها واحد وهو : « وآتينا داود زبوراً ... النساء ١٦٣ والاسراء ٥٥ » والذي هو على الارجح سفر المزامير احد اسفار العهد القديم فانه ليس في القرآن اشارة ما الى الاسفار العديدة الاخرى التي يضمها هذا العهد اليوم .

على ان ذكر زبور داود(ص) في القرآن يمكن ان يلهم أن اسفار العهد القديم كانت او كان بعضها متداولاً بين ايدي اليهود في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ كما ان ورود بعض القصص القرآنية المشابهة لبعض قصص غير الاسفار الخمسة من الاسفار الاخرى مثل قصة ايوب ويونس ، وورود اشارات الى ما طرأ على بني اسرائيل من بعد موسى من نكبات وتطورات وانحرافات وما كان من حروب طالوت وجالوت على سبيل التذكير والتنديد او الموعظة يمكن ان يلهم ذلك ايضاً ، وان كنا نرجح ان تسمية التوراة لم تكن تطلق إلا على الاسفار الخمسة كما هي الحال الآن عند اليهود او بعضهم على الاقل كالسامرة في نابلس، وان الاسفار الاخرى لم تكن مجموعة معها في مجموعة واحدة .

وطبيعي انه لا يمكن الجزم بما اذا كانت هذه الاسفار التوراتية وغير التوراتية المتداولة اليوم هي التي كانت متداولة اذ ذاك عدداً وخصوصاً حرفية .

وبالنسبة للانجيل نقول:

اولاً ان هذا اللفظ ليس اشتقاقاً عربياً أيضاً ، وانه معرب ، وقد صيغ على على وزن أفعيل وان التعريب والاستعمال سابقان لنزول القرآن .

ثانياً ان الانجيل قد ذكر في القرآن اثنى عشر مرة ؛ وقد جاء مقروناً بعيسى (ص) وفي الآيات صراحة بأن الله آتاه له وعلمه اياه ، وهذا مذكور في احدى

آيات سلسلة آل عمران الطويلة التي نقلناها وهي الآية ٤٨ وفي غيرها ونورد احداها في ما يلي :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ... المائدة ٤٦

وقد ورد ذكره أيضاً في معرض التنويه والحجاج في مثل آيات آل عمران ٣ والاعراف ١٥٦ التي نقلناها وغيرها . هذا بالاضافة الى انه ورد فى القرآن كلمة الكتاب مقرونة بعيسى (ص) وذلك في احدى آيات سورة مريم :

«قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ... ٣٠

على ان في بعض الآت ما يلهم بقوة ان الكلمة تعني الانجيل الذي كان بين يدي النصارى في عصر النبي (ص) وبيئته كما ترى في ما يلي :

١ — وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون ... المائدة ٤٧

٢ — ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم . ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ...

المائدة ٦٥ — ٦٦

٣ — قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم ... المائدة ٦٨

وثالثاً انمن المعلوم ان الانجيل المتداول بين أيدي النصارى اليوم ليس واحداً وإنما هو اربعة بل يقال انها اكثر من ذلك ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ان أسلوبها صريح على انها كتبت بعد عيسى(ص) بمدة ما لتحتوي قصة حياته ورسالته وتعاليمه ومعجزاته ، والسؤال الذي يردهو ماذا كانت الاناجيل متعددة في عصر النبي (ص) وبيئته ، وماذا كانت هي نفس الاناجيل المتداولة اليوم نصاً وأسلوباً؟

إن الاجابة على هذا السؤال بالايجاب متعذرة في نطاق القرآن ؛ فانه يقرر من جهة للانجيل صفة التنزيل والتعليم الرباني به لعيسى (ص) مباشرة ويلهم كونه

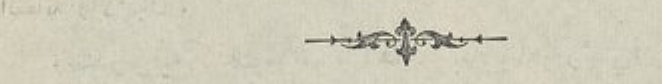
كتاباً أنزل عليه كالتوراة ، ومن جهة ثانية يلهم انه الكتاب الذي كان متداولا بهذا الاسم بين أيدي النصارى وحسب ؛ وكل ما في الامر انه يلوح للمرء من عدم جمع اللفظ انه لم يكن متعدداً ؛ كما يستلهم من حكاية اقوال النصارى وفيهم القسيسون والرهبان عن القرآن انه الحق من ربهم ، وانهم كانوا من قبله مسلمين ان في نصوص ما كان متداولا بين ايديهم تطابقاً مع التقريرات القرآنية وبشارات عيسى (ص) بالنبي الأمي محمد عليه السلام . على انه لما كان القرآن قرر في صدد ولادة عيسى (ص) تقريرات فيها شيء من المماثلة لما هو وارد في بعض الأناجيل المتداولة فمن الممكن ان يقال ان بعض هذه الأناجيل كان هو المتداول بين ايدي النصارى في ذلك العهد .

- ٢٠ -

هذا ؛ وهناك نقطة اخرى متصلة بهذا البحث وباليهودية والنصرانية العربية ثم بالثقافة العربية بوجه عام . وهي ما اذا كان مايسمى التوراة والانجيل في عصر النبي (ص) وبيئته منقولا الى العربيه ام لا .

ان القرآن يحكي مواقف حجاج ومناظرة دينية بين النبي (ص) من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى ، ويحكي تأثر بعضهم بالقرآن وتصديقهم له وايمانهم به مما نقلنا آياته في مناسبات سابقة . ولقد استلهمنا من ذلك ان من بين الذين اتصلوا بالنبي (ص) عرباً كما أن غير العرب كانوا يفهمون العربية . والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بان آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى ، ومنهم البدو ، ومنهم الحضر ، وانهم كان لهم دول وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق ، ولهم اساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم واديارهم الكثيرة ؛ واستتباعاً لهذا فان من السائغ ان يقال انه لا بد من أن يكون بعض اسفار العهد القديم والعهد الجديد ان لم يكن جميعها قد ترجمت الى العربية قبل الاسلام ، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والفتوح ؛ نقول هذا لأننا لم نطلع على قول ما في صدد وجود ترجمة عربية لهذه الاسفار تمت الى ما قبل البعثة ، وكل ما عرفناه خبر ترجمة عربية لبعضها

منسوبة الى القرون الاسلامية المتوسطة ، ولعل ما في القرآن من اسماء وكلمات معربة كثيرة ومن تعابير مترجمة متصلة بمحتويات هذه الاسفار مثل التوراة والانجيل وروح القدس وجبريل وميكال والزبور ونوح وابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب وادريس ويوسف وموسى وهارون وقارون وفرعون وداود وسليمان وطالوت وجالوت وعزير ومسيح وعيسى وزكريا والياس واليسع وذي الكفل ويونس وايوب وحواريين وسيناء وسينين ويهود ونصارى وتابوت الخ مما أصح ان تكون قرائن على ذلك ؛ ونرى ان هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات الوف العرب النصارى وآلاف الرهبان والقسيسين العرب ومئات الكنائس والاديار العربية ؛ وقد شملنا بالقول اسفار العهد القديم لأن النصرانية تعتبرها جزءاً متمماً للشريعة ، وهذا ما نص عليه القران بذكره كون عيسى (ص) مصدقاً لما بين يديه من التوراة في اكثر من آية من آياته ، وقد جاء هذا في سياق الآيات التي نقلناها بنوع خاص في سلسلة آل عمران . واذا صح مانقوله فتكون هذه الترجمة مصدراً رئيسياً مدوناً من مصادر ثقافة العرب ومعارفهم النصرانية واليهودية خاصة قبل البعثة كما هو المتبادر .



الفصل الثامن

في الطقوس والعادات والافكار الدينية المتنوعة

متناول الفصل — عبادة الشمس والقمر والكواكب — مغزى تسمية « عبد شمس » مدى الآيات عن عبادة سبأ للشمس — روايات عن عبادة بعض الكواكب — المجوسية أو عبادة النار في الحجاز — في غير الحجاز — الصلاة قبل البعثة — حالات القيام والركوع والسجود — الصيام — الاعتكاف — مزية رمضان قبل البعثة — اجتماعات يوم الجمعة — تقريب الاولاد للآلهة — تقريب القرابين — ذكر غير الله على الذبائح — عادات متنوعة في تحليل وتحريم الانعام — الاستقسام بالازلام — الطيرة والتطير — التعاويذ والرقى — الاحلام وتعبيرها — النفس ومفهومها — الروح ومفهومها .

— ١ —

نريد أن نبحث في هذا الفصل فيما يمكن الاستدلال عليه من القرآن من طقوس وعادات وتقاليد وأفكار وأوهام عليها صبغة دينية مما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة ، ولم يرد ذكرها في الفصول السابقة تكملة للصورة القرآنية في العقائد والاديان .

وسندرس فيه كذلك موضوعاً لم ندرسه بعد بينما هو رئيسي في العقائد والاديان ؛ وهو موضوع عبادة الكواكب والنار عند العرب . وقد أدخلناه في هذا الفصل لان الكلام فيه لا يتحمل فصلاً خاصاً من جهة ، ولان هذه العبادة ان صحت لا تجاوز ان تكون طقساً من الطقوس من جهة اخرى .

— ٢ —

لقد ورد في القرآن بعض آيات نهى فيها عن السجود للشمس والقمر وهي هذه :

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسئمون . . . فصلت ٣٧-٣٨

وفي إحدى آيات سورة الحج ذكر المجوس في عداد أصحاب الأديان وهي هذه:

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد . . . الحج ١٧

فهذه الآيات تحمل على التساءل عما اذا كان العرب أو فريق منهم عبد فيما عبد القوى والمظاهر السماوية والطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والنار وخاصة في بيئة النبي (ص) وعصره .

ومما يلفت النظر أن آيات فصلت لم ترد في معرض قصص الأمم الاخرى ، وإنما وردت في معرض الدعوة إلى الاسلام والتنويه بعظمة الله ، والخطاب فيها للقريب ، وهي مكية وقد وجهت الى أهل بيئة النبي (ص) الخاصة الذين كانوا أول من يسمعون القرآن ويخاطبون به .

كذلك مما يلفت النظر ان قريشاً كانت تسمى « عبد شمس » وهذا الاسم كما هو المتواتر الى حد اليقين هو اسم احد اجداد بني امية ؛ وليس هذا الشخص هو الوحيد بهذا الاسم ، ففي كتب التراجم [1] وغيرها أشخاص آخرون تسموا به ايضاً . فمن أين اتت هذه التسمية التي لا يعقل ان تكون عبثاً .

إننا لا نستطيع الاجابة إجابة شافية سلبية او ايجابية ، لا سيما ولم نطلع على أية رواية تفيد انه كان للشمس والقمر عبادة ما في بيئة النبي (ص) . ولكننا نقول إن ورود آية في القرآن تنهى عن السجود لهما يوجه الخطاب فيها الى مخاطب قريب بصيغة الأمر ، وأهل بيئة النبي (ص) اول المخاطبين بها ، وشيوع تسمية « عبد شمس » في هذه البيئة لا يمكن ان يكون عبثاً . ولذلك فنحن نميل الى القول انه كان للشمس والقمر في نفوس أهل هذه البيئة شيء من التعظيم والرهبة ، ومن المحتمل انهم كانوا يؤدون لهما طقساً من الطقوس التعبدية .

---

(١) اقرأ أسد الغابة ج ع ص ٩٧ و ١١١ مثلاً

وإذا ما تجاوزنا هذه البيئة في هذا الموضوع فهناك نصوص وروايات تسوغ القول باسلوب اقوي واوضح بالنسبة للقديم والحديث قبل البعثة.

اما القديم ففي القرآن آية عن سبأ في عهد ملكتها بلقيس [1] جاء فيها:

«وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم ...

النمل ٢٤

فالآية تقرر عبادة حقيقية للشمس في بلاد سبأ في الزمن القديم. ولانشك في أن أهل بيئة النبي (ص) وعصره كانوا يتناقلون ذلك فيما يتناقلونه من أخبار أهل الجزيرة وغيرهم.

واما الحديث فان ابن صاعد ذكر في طبقاته [2] أن كنانة كانت تعبد القمر وتيماً تعبد الدبران وكلباً تعبد الشعرى. وفي القرآن آية ذكر فيها هذا النجم الآخير وهي هذه:

« وأنه هو رب الشعرى » ... ٤٩

ومن غير المستبعد ان يكون اختصاص هذا النجم هنا واختصاص الشمس والقمر في آية فصلت متصلين بقصد التنديد بعبادة كائنات هي من خلق الله كما احتوته الآيات. ولقد تواترت أخبار عبدة الكواكب في العراق الذين لا يزال بقاياهم إلى الآن يسمون بالصبه، وإن كنا نشك في كونهم عرباً. ومهما يكن من أمر فالذي نرجحه أن يكون السجود المذكور في الآية والعبادة المروية من قبيل طقوس تعبدية إشراكية وحسب.

-٣-

واما المجوسية التي هي عبادة النار حسب العرف العام والمتواتر فأنه لا يمكن أن يقال فيها شيء في نطاق القرآن غير أنها كانت من الاديان المعروفة في عصر النبي (ص) وبيئته؛ لأنه لم يرد في القرآن عنها صراحة او ضمناً غير آية الحج التي نقلناها آنفاً. ولما كان من المعروف انها كانت الدين العام في بلاد الفرس في ذلك العصر

---

(٢) القرآن لم يذكر أسم بلقيس بصراحة. والأسم من المتناقلات العربية

(٣) ص ٤٣

وان هذه البلاد كانت من جملة البلاد التي كان يتردد عليها العرب وتجارهم من انحاء الجزيرة والحجاز ، وان حكام بلاد اليمن في عصر النبي (ص) كانوا فرساً فمن الطبيعي ان تكون هذه الديانة معروفة في عصر النبي (ص) وبيئته . والمجوسية ليس لها جذر عربي ، وهذا ما يجعلنا نرجح انها معربة للدلالة على هذه الديانة .

وسكوت القرآن عن ذكر هذه الديانة عدا ذكرها بين الأديان المعروفة في آية واحدة يسوغ القول بأنها لم يكن لها وجود في بيئة النبي (ص) الخاصة . ولا نذكر اننا قرأنا شيئاً ما ينقض هذا القول . فاذا كان في الحجاز افراد من الفرس مستوطنون أتوا من اليمن او من أطراف العراق وحافظوا على ديانتهم القومية هذه فيكون هذا نادراً وغير ملموس .

وسكوت القرآن هذا يجعل الكلام عن مدى انتشار هذه الديانة في غير بيئة النبي (ص) الخاصة من البيئات العربية في نطاقه متعذراً بطبيعة الحال . غير اننا إذا تجاوزنا هذا النطاق فان من الممكن ان يقال إن المعقول والمحتمل ان يكون الفرس الذين غزوا بلاد اليمن وحكموها في العصر السابق لعصر النبي (ص) وهو حادث بلغ حد اليقين في صحته قد اقاموا عبادتهم القومية فيها وأن يكونوا قد حاولوا حمل الناس عليها ، وأن يكون بعض العرب تابعهم فيها واقتبسها منهم [١] ؛ كذلك فان من المعقول والمحتمل ان يكون بعض العرب المستوطنين العراق وسواحل خليج البصره قد اقتبسوا ايضاً عبادة النار من الفرس الذين كانوا أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الربوع . ولقد جاء في بعض الكتب الموثوقة [٢] ما يفيد أن قبائل عربية في هجر والبحرين وعمان كانت تدين بالمجوسية ، وأن قواد الفتح قبلوا منها الجزية وابقوها على دينها ؛ بل ونذكر ان هذا مما كان مثله في حياة النبي (ص) .

ولقد ذكر ابن هشام [٣] رواية في سياق انتشار اليهودية في اليمن على يد

---

(١) ذكر ابن صاعد في طبقات الامم ان بعض القبائل الحميرية في اليمن كانت تعبد النار .

(٢) كتاب الأموال ص ٢٠و٣٢ . اقرأ ايضاً كتاب الخراج لأبي يوسف .

(٣) ج ١ ص ٢٥

بعض اخبارها جاء فيها انه كان في اليمن كهف يخرج منه حيناً بعد آخر لهيب ازرق مرعب له زفير قوي ، وكان الناس يذهبون للاحتكام عند هذا الكهف ، فليس من المستبعد إذا صحت الرواية ان يكون بعض اهل اليمن قد اتخذوا هذه الظاهرة الطبيعية التي ظنوها خارقة وخافوها او اعتبروها رمزاً للآلهة وعبدوها .

— ٥ —

والآن نأتي إلى ذكر ما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة من طقوس تعبدية وتقاليد وعادات ذات صبغة دينية .

فاولاً الصلاة :

لقد اشير في اكثر فصول هذا الباب إلى عبادة المشركين لشركائهم وقيامهم نحوهم بواجبات تعبدية ، فمن الطبيعي ان يرد سؤال عن الكيفية التي كان العرب يؤدون بها هذه العبادة .

إن اهم مظاهر العبادة عند اصحاب الاديان هي « الصلاة » ؛ وقد ذكرت في القرآن كثيراً . ذكرت في صدد ما يجب على المسلمين من واجبات تعبدية نحو الله كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . البقرة ٢٣٨

٢ — فأذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فأذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ... النساء ١٠٣

٣ — هدى وبشرى للمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ... النمل ٣

وذكرت في صدد الاشارة الى تعبد الانبياء وأهل الكتاب كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ... البقرة ٤٢—٤٣

---

(٢) هذه الآيات في سياق الخطاب اليهود .

٢ ــ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى (١) . . .
آل عمران ٣٩

٣ ــ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء . . . ابراهيم ٤٠

وذكرت في صدد التنديد بالمشركين الكفار العرب الذين لايصلون لله كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ ــ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . . . المدثر ٤٣ــ٤٤

٢ ــ فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . . . القيامة ٣١ــ٣٢

إلى جانب ذلك ذكرت في صدد الأشارة إلى صلاة المشركين عند الكعبة كما ترى في الآية التالية :

«وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.
الأنفال ٣٥

وقد قال المفسرون عن المكاء أنه التصفير وعن التصدية انها التصفيق .

ومهما يكن من أمر فالآيات بصورة عامة وآية الأنفال بصورة خاصة تفيدنا :

١) ان كلمة الصلاة كانت تستعمل قبل البعثة للتعبير عن طقس تعبدي اوديني، وليس كما يقرره بعضهم انها كانت تعني الدعاء فقط ثم خصصت في الأسلام على الاشكال المعروفة التي يؤدى بهـا المسلمون عبادتهم اليومية ؛ وكثرة ورود كلمة « الصلاة » في القرآن للتعبير عن اسلوب القيام بالواجبات التعبدية وخاصة بالنسبة لما قبل البعثة أي في الآيات التي وردت في صدد عبادة الأنبيـاء وأهل الكتاب وفي صدد المشركين دليل حاسم على ذلك الاستعمال ؛ولا ننفي بهذا أن تكون الكلمة تعني في أصلها البعيد أو تعني فيما تعنيه الدعاء والرحمة والبركة لا سيما وقد جاءت في القرآن بهذه المعاني كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ ــ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . . . البقرة ١٥٧

٢ ــ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عنـد الله وصلوات الرسول . . . التوبه ٩٩

---

(١) المقصود هو زكريا (ص) .

٣ ــ إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ... الأحزاب ٥٦

٢) إن العرب كانوا يقوموا ببعض العبادات لآلهتهم او عند الكعبة على طقوس وأشكال معينة وكانت عبادتهم هذه تسمى « صلاة » .

ولقد ذكرت آية الأنفال ٢٥ أن صلاتهم عند البيت لم تكن الا مكاء وتصدية، فيصح أن يقرر أن هذا المكاء والتصدية هما حركات وأصوات صلاتهم الطقسية ، مع التنبيه على اننا لا نستطيع ان نقرر بجزم شيئاً عن مداهما بالرغم عن مما قاله المفسرون انهما نعنيان التصفير والتصفيق .

ــ ٦ ــ

هذا من حيث الهيئة العامة او المظهر للعبادة . أما من حيث الشكل والحركات التعبدية فمعلوم ان هناك حركات وحالات غالبة للصلاة وهي « القيام » و « والركوع » و « السجود » . ولقد وردت الكلمتان الأخيرتان ومشتقاتها في آيات كثيرة في صدد الصلاة والتعبد لله كما ترى في الأمثلة التالية :

١ ــ وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ... البقرة ١٢٥

٢ ــ يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ... آل عمران ٤٣

٣ ــ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ... الاسراء ١٠٧

٤ ــ يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ... الحج ٧٧

٥ ــ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ...فصلت ٣٧

٦ ــ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ... المرسلات ٤٨

ولقد ذكرت حالة القيام في آيات عديدة ايضاً وإن كانت اقل من آيات السجود والركوع كما ترى في الأمثلة التالية :

١ ــ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا

أسلحتهم فأذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ... النساء ١٠٢

٢ — وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ... الحج ٢٦

وننبه على أن ماقلناه من قله آيات حالة القيام إنما هو بصدد مايعنيه القيام من الحالة التي هي ركن من أركان الصلاة ؛ وإلا فأن الامر بأقامة الصلاة قد لازم اكثر الاوامر بالصلاة ؛ غير ان هذا الاطلاق يعني المبادرة الى الصلاة والدخول فيها أكثر ممايعني تلك الحالة الخاصة .

ومما يجدر بالتنبيه ان الآيات التي ذكر فيها القيام والركوع والسجود ليست جميعها في صدد الامر بأقامة أركان الصلاة المسلمين وان منها ماله صلة بقبل البعثة، سواء في صدد امر الله لابراهيم (ص) بتهيئة البيت للقائمين وللركع السجود او في صدد الكلام عن اليهود أو المشركين . ولقد ذكرت الحالات الثلاث في آية الحج مجتمعة ، حيث يستلهم منها ان القيام والركوع والسجود حالات تعبدية في الكعبة أو في فنائها أو بالاحرى من طقوس وتقاليد التعبد عندها كالطواف الذي ذكر في نفس الآية أيضاً ؛ ويضاف الى هذا ان الكلمات الثلاث لابد من أن تكون مفهومة المدى عند السامعين قبل نزول القرآن الذي نزل بلسان القوم .

ولهذا كله فان من السائغ القول بشيء من الجزم ان الحالات الثلاث كمظهر من مظاهر التعبد وحالات الصلاة ليست مما هو غريب عن العرب قبل البعثة ، بل وانها مما كانوا يقومون بها عند الكعبة . وقد أشرنا في مناسبة سابقة الى رواية ذكرت ان زيد ابن عمرو بن نفيل الذي كان من الموحدين المتعبدين على ملة ابراهيم كان يسجد أمام الكعبة . وينبه بصورة خاصة على أن بعض السور والآيات التي ذكرت فيها حالات السجود والركوع مما نزل مبكراً في مكة ، ولهذا معناه في تقوية الاستدلال كما لايخفى .

هذا ؛ وليس في القرآن مايساعد على قول شيء في صدد قيام العرب قبل الاسلام بأستعداد تطهري مابين يدي تعبداتهم كالوضوء وإزالة الجنابة كما أننا لم نطلع على روايات تساعد على قول شيء فيه، ولهذا لم نر محلاً لأفراد بحث خاص بذلك .

ثانياً الصيام :

مما قيل في صدد معنى الكلمة أنه الامساك وانها صارت اصطلاحاً يطلق على الصيام التعبدي في التشريع الاسلامي . غير أن نص فرضه في القرآن يدل على انه كان مفهوماً على هذا الوجه قبل نزول القرآن ، وان أهل الكتاب كانوا يمارسون نوعاً من الصيام كعبادة دينية كما ترى في الآية التالية :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ... البقرة ١٨٣

ولا نستبعد ان يكون العرب صاروا يطلقون الكلمة على تلك العبادة بتأثير معرفتهم ممارسة اهل الكتاب لها .

والسؤال الذي يورد هو ماإذا كانوا مارسوا نوعاً من الصيام كعبادة دينية قبل البعثة؟ ونقول إن الاجابة على هذا السؤال نفياً أو اثباتاً في نطاق القرآن متعذرة ، لأنه ليس فيه مايساعد على ذلك كما هو الشأن في الصلاة وحالاتها ؛ فاذا ماتجاوزنا هذا النطاق فاننا نقول ان هناك بعض روايات ذكرت ممارستهم له ؛ حيث روى الخازن حديثاً عن عائشة (رضي) مفاده أن قريشاً كانت تصوم في الجاهلية يوم عاشوراء اي اليوم العاشر من المحرم ، وأنه كان يوم تجديد ستر الكعبة ، وأن النبي (ص) كان يصومه كذلك قبل بعثته .

وليس في الرواية مايمكن الاستناد اليه في معرفة مدى هذا الصوم العربي قبل البعثة . غير أن المفسرين ذكروا في صدد تفسير الآية التالية من آيات الصوم :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ... البقرة ١٨٧

إن هذه الآية نزلت بعد نزول آيات الصوم الأولى بعدة ما وان المسلمين كانوا يتمتعون بحالة الافطار في الليل الى ان يصلوا صلاة العشاء ويناموا ، وحينئذ

يصبحون في حالة الصوم ولو لم يكن قد أسفر الفجر ، وان بعضهم قد خالف ذلك فأتى زوجته ولما أخبر النبي (ص) استنكر ذلك منه ولكن ثم لم تلبث أن نزلت الآية بالتخفيف.
فمضمون الآية من جهة وهذه الرواية المتسقة معها من جهة اخرى يلهمان ان النبي (ص) حدد حالة الصوم والافطار باجتهاده ثم نزلت الآية بتحديد آخر هو الذي صار شرعاً. ومن المعروف أن اليهود حينما يصومون يصومون اربعاً وعشرين ساعة إلا قليلاً؛ ومن المحتمل أن يكون النبي (ص) والورعون من العرب حينما كانوا يصومون قبل البعثة كانوا يصومون في نطاق هذا الحد ، وأن هذا الحد مع بعض التعديل بقي حينما فرض صوم رمضان في الاسلام الى أن عدلته الآية وجعلته من الفجر الى الغروب .

— ٨ —

ثالثاً الاعتكاف :

وهذا البحث يتناول أمرين: الاعتكاف عند الكعبة مطلقاً ، والاعتكاف في شهر رمضان. ففي صدد الاول ذكر « العاكفون » في آية البقرة (١٢٥) التي نقلناها قبل قليل مع الفائمين والركع السجود . وإذا كان من الممكن ان يقال إن العكوف هو الاستقرار والاقامة مطلقاً ايضاً لا سيما وهذا المعنى هو المقصود في احدى آيات سورة الحج :

«الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ... ٢٥

فان ذكره في آية البقرة جاء مع تعبيرات تعبدية وطقسية أي الطائفين والركع السجود مما يمكن ان يساعد على ترجيح كونه فيها تعبيراً تعبدياً طقسياً ايضاً — وهو ما تلهمه روح الآية — وأن يلهم ان الاعتكاف التعبدي كان يعد من طقوس زيارة الكعبة أو من مظاهر وحالات احترامها والتعبد عندها .

ولقد روى البخاري حديثاً مفاده ان عمر بن الخطاب (رض) اخبر النبي (ص) انه نذر في الجاهلية ان يعتكف يوماً في الكعبة ، وأن النبي (ص) حثه على الوفاء بنذره . وهذا الخبر يستأنس به على صواب استلهامنا من الآية اولاً ، وعلى ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة كانوا يمارسون هذا النوع من العبادة أو الرياضة الروحية ثانياً.

أما الثاني فأنه ذكر في القرآن في سياق تشريع الصوم الاسلامي كما ترى في هذه البقرة :

« ولا تباشر وهن وانتم عاكفون في المساجد ... البقرة ١٨٧

وقد أثر بالتواتر عن العهد النبوي ان النبي (ص) وبعض اصحابه كانوا يعتكفون اياماً من رمضان في المسجد فلا يخرجون منه فيها إلا للضرورة ؛ ثم صار هذا الاعتكاف في رمضان سنة يقوم بها الورعون .

وقد ذكرنا هذا مع انه لا علاقة له بما قبل البعثة لنصله بالرواية(١) المتواترة التي بلغت حد اليقين بأن النبي (ص) كان قبيل بعثته يعتكف في غار حراء في شهر رمضان، وان اول وحي رباني بالقرآن قد نزل عليه في اثناء هذا الاعتكاف . والقرآن يؤيد اولية نزول القرآن على النبي (ص) في رمضان في هذه الآية (٢) : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ... ١٨٥، ولنصله كذلك برواية (٣) اخرى ذكرت ان الورعين من قريش كانوا يعتكفون في بعض إيام هذا الشهر؛ فهذا وذاك يمكن ان يسوغا القول ان الاعتكاف في رمضان كعبادة دينية او رياضية روحية مما كان ممارساً في بيئة النبي (ص) قبل البعثة .

وهذا القول يستتبع القول بأنه كان لشهر رمضان مزية دينية ما قبل البعثة ضاعت علينا معرفة كنهها ومداها ؛ فلم يكن النبي (ص) ليختاره لاعتكافاته ورياضته الروحية قبل بعثته ، ولم يكن الورعون من قريش ليختاروه كذلك للاعتكاف التعبدي او الرياضة الروحية لو لم تكن له هذه المزية التي أيدت باختصاص رمضان باعظم حادث اسلامي وهو نزول الوحي على النبي (ص) فيه بالقرآن لأول مرة واعلانه بنبوته ، ثم بالصيام والذكر والاعتكاف في المساجد فيه .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٢٤—٢٢٥ وابن سعد ج ١ ص ١٧٧—١٧٨

(٢) الطبري ج ٢ص ٤٨ وابن هشام ج ١ ص ٢٢٤—٢٢٥

(٣) ان بعضهم ابعد في قوله ان الله إنما انزل القرآن في شهر رمضان من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وان الآية قد عنت ذلك ؛ والجمهور على ماذكرناه كما ان هذا هو المتسق مع ملهمات القرآن والمنطق الحق .

رابعاً اجتماعات يوم الجمعة :

ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به صراحة على ان هذه الاجتماعات كانت موجودة قبل البعثة . غير ان في اسم اليوم ، والاسلوب الذي جاءت به الآيات الحاثة على الاهتمام لصلاة الجمعة ، وبعض روايات في صدد هذه الصلاة قبل نزول الآيات وفي صدد اجتماعات الجمعة قبل البعثة ما يسوغ ادخال الموضوع في عداد المواضيع التي نحن بسبيل سردها .

فمما لا محل للشك فيه ان اسم اليوم سابق للبعثة النبوية ، وفي التسمية مفهوم لاينكر بأن هذا يوم اجتماع او تجمع او جمع ، وبأنه حينما سمي اليوم به قد توخي الدلالة به على حالة تجمعية ما . وقد ايدت الروايات (١) ذلك حيث ذكرت ان يوم الجمعة كان يسمى يوم « العروبة (٢) وان كعباً بن لؤى قدسن اجتماعات عامة تقوم في هذا اليوم وبدل اسمه باسم الجمعة ؛ كما ذكرت ان أهل يثرب رأوا ان يتخذوا لهم يوماً يجتمعون فيه كما لليهود يوم السبت والنصارى يوم الاحد فاختاروا يوم الجمعة؛ ويتبادر لنا ان تسمية اليوم وما توخي فيها أعم من نطاق يثرب ؛ كما لا نرى تداخلا في الروايتين ولا بعداً عن المعقول ؛ فقد تكون اجتماعات يوم الجمعة قد أهملت او قلت العناية بها فرأى اليثربيون احياءها أسوة باليهود والنصارى .

واسلوب آيات الجمعة يلهم بقوة بل ويجزم ان صلاة الجمعة كانت تقام قبل نزولها كما ترى فيها :

«ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون. فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا كثيراً لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا إليها

---

(١) اقرأ تفسير الخازن والبيضاوي لسورة الجمعة مثلاً .

(٢) كانت إيام الاسبوع تسمى هكذا : السبت شيار والاحد اول والاثنين اهون والثلاثاء جبار والاربعاء دبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة : المزهر ج ١ ص ١٠٨

وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين . . .
الجمعة ٩—١١

فالايات ليست في صدد تشريع بدئي وإنما هي في صدد الحث على ترك البيع والمبادره إلى الاجابة لنداء صلاة الجمعة ، ثم في صدد التنديد بالذين يتركون النبي قائماً في المسجد لها اذا ما رأوا لهواً او تجارة . وعدم ذكر وقت الصلاة مع ان اوقات الصلاة اليوميـة خمسة دليـل آخر حيث يدل على ان الـكلام مصروف الى الصلاة المشهورة المعروفة من ذلك اليوم . وقد روى المفسرون ان اكثر المجتمعين لصلاة الجمعة في يوم ما انفضوا أو خرجوا من المسجد حينما سمعوا خبر ورود قافلة تجارية او سمعوا طبل صاحبها ؛ وان النبي (ص) غضب من ذلك قال « والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بـكم الوادي ناراً » . وقد روت روايات السيرة ان النبي (ص) اقام صلاة الجمعـة في حي بني عوف حينما قدم مهاجراً من مكة وادركته الصلاة قبل دخوله قلب المدينة ؛ كما روى ان أسعد بن زراره احد زعماء يثرب المسلمين كان يصلي صلاة الجمعة بمن أسلم في يثرب قبل الهجرة. والتعبير هو « كان يجمع » . وترتيب نزول سورة الجمعة متـأخر جداً ؛ وفي هذا قرينة مؤيدة اخرى لاقامة النبي (ص) والمسلمين صلاة الجمعة قبل نزول الآيات بمدة طويلة ، فليس من التجوز بناء على ذلك ان يقـال إن عناية النبي (ص) بصلاة يوم الجمعة وجمع المسلمين لها ، وما كان من إقامة مسلمي يثرب لها قبـل الهجرة النبوية انما كان استمراراً او احياء لعادة قديمة وحكيمة . وليس مثـــل هذا نادراً في التشريعات القرآنية والسنن النبوية كما لا يخفى .

وليس لدينا ما نستطيع ان نعرف به ما هية تلك الاجتماعات التي كانت تقوم في ايام الجمع قبل البعثة والتي ابدعت ابداعاً وبدل اسم اليوم من اجلها اهتماماً وحفاوة ؛ غير اننا نميل الى القول بانها كانت ذات صبغة دينية او تعبدية على نحو ما . فان شهود هذه الاجتماعات العامة ما كان ليفرض ويستجاب الا بصبغها بصبغة دينية قياساً على ما كان عند العرب من تقاليد متنوعة . ولا نشك في انه كان لهذه البدعة اثر في تقوية حركة النهضة القومية والفكرية في تيسير اجتماع النـاس ببعضهم مرة في

الاسبوع اجتماعاً حفياً ، بل لعل هذه الغاية كانت من الغايات التي توخيت في سنها وابداعها . وإذا كان من المحتمل ان تكون الفكرة مقتبسة في اصلها من أهل الكتاب فالاستقلال العربي بارز فيها كما هو واضح .

— ١٠ —

خامساً تقريب الاولاد للآلهة:

كان من عادات العرب في عصر النبي (ص) وبيئته المصبوغة بالصبغة الدينية انه اذا حزب احدهم امر خطير او استعصى عليه مطلب جليل او تمنى حصوله ان ينذر ذبح ولده قربانا للآلهة إذا ما فرجت كربه او حققت مطلبه .

ويستلهم وجود هذه العادة من آية في سورة الأنعام هي :

«وكذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ... الأنعام ١٣٧

وقد اشير اليها في آية اخرى من السورة نفسها في سياق تسفيه بعض التقاليد الجاهلية في التحريم والتحليل مما يصبغونه بصبغة دينية وهي :

«قدخسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم وحرموامارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ... الأنعام ١٤٠

وهذه العادة هي غير عادة قتل الاولاد ووأد البنات خشية الفقر والعار التي ذكرتها آيات أخرى وذكرت هذا السبب بصراحة، والتى نقلناها في الفصل الاول من البـاب الثاني حينما ذكرنا هذه العادة في عداد العادات العائلية المتنوعة . وفي آية الانعام(١٣٧) دلالة قوية على العادة التي نحن في صدد تقريرها وصبغتها الدينية، وهذه الآية تلهم في ما تلهمه ان هذه العادة من العادات الكثيرة الشيوع .

ولقد ذكرت كتب السيرة [١] قصة نذر عبد المطلب جد النبي (ص) ذبح أحد اولاده قربانا لله إذا رزق عشرة اولاد ، وما كان من محـاولته الوفاء بنذره وذبح ابنـه عبد الله والد النبي (ص) الذي اصابته القرعة بتفصيل طويل ومشهور ؛ ممـا يمكن ان يستأنس به على صحة الاستلهام بوجود العادة .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٤١ وما بعدها .

ولقد ورد في القرآن قصة رؤيا ابراهيم (ص) بذبح ابنه ومحاولته تنفيذ ما اعتبره الهاماً ربانياً وفداء الذبيح ؛ وذلك في آيات الصافات ١٠١ — ١٠٧ التي نقلناها في فصل الحج . وهذه القصة مما ورد في التوراة ايضاً ؛ ونرجح ان تكون مما عرفه العرب وتناقلوه من القصص حول ابراهيم (ص) وغيره من الانبياء ؛ وليس من المستبعد والحالة هذه ان تكون عادة تقريب الأبناء مستلهمة من هذه القصة . على ان هذه العادة غير نادرة عند الأمم الاخرى ، ولعل الأصل فيها نذر اعز شيء على نفس المرء لله في سبيل تحقيق مطلب من مطالبه العظيمة او شكراً على نعمة عظيمة .

— ١١ —

سادساً تقريب القرابين للآلهة :

وكان من عاداتهم المصبوغة بالصبغة الدينية ايضاً تقريب القرابين من الأنعام للآلهة.

ولقد ذكرنا في فصل الحج عادة تقريب القرابين واهداء الهدى في موسم الحج واقرار الاسلام لأصل الفكرة بعد جعلها لله عز وجل واعتبارها من الوسائل التي يقيم الناس بها أودهم .

غير ان الذي نريد ان نقوله هنا هو ان هذه العادة لم تكن قاصرة على الحج باعتبارها من اركانه فحسب ، بل كانت عادة عامة جارية في كل وقت ومكان ، تقرباً وزلفى ، وتحصيلاً لأمنية او شكراً على نعمة او وفاء بنذر . ولقد جاء في احدى الآيات اشارة إلى ما يذبح على النصب من الحيوانات وتحريم لأكلها وهي هذه :

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ... المائدة ٣

فالاشارة الى ما يذبح على النصب — الأوثان — مع احتواء الآية اشارة الى ما يهل لغير الله به — أي يذكر إسم غير الله عند ذبحه — يمكن أن تكون قرينة على أن المقصود منها ما كان يذبح قرباناً للآلهة كما أشرنا . وإطلاق التعبير يمكن أن يكون قرينة على عموم العادة وعموم أوقاتها . وهذا مما أيدته الروايات الكثيرة .

سابعاً : ذكر غير الله عند ذبح الذبائح .

وقد كان من عاداتهم اذا أرادوا ان يذبحوا للطعام ان يذكروا غير الله أو آلهتهم الاخرى مع الله عند ذبحها . والغالب انهم كانوا يقصدون التبرك . ولهذا عددنا هذه العادة في عداد العبادات المصبوغة بصبغة دينية .

وقد أشير الى هذه العادة في آيات متعددة في سياق تحريم أكل الذبائح التي يذكر غير الله عليها . وقد نقلنا احداها آنفاً (المائدة ٣) ونورد منها مايلي :

١ ـ انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . البقرة ١٧٣

٢ ـ قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به . . . الانعام ١٤٥

٣ ـ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ... النحل ١١٥

على ان العرب كانوا الى هذا يأكلون مايموت حتف أنفه أو نتيجة لنطح أو وقذ أو سقوط أو خنق أو نهش سبع كما كانوا يذبحون ذبائحهم احياناً دون أن يذكروا شيئاً . وهذا مستلهم من آيات في سورة الانعام تنهى عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه اطلاقاً وهي هذه :

١ ـ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . . . الانعام ١٢١

٢ ـ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلا ما اضطررتم اليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين . . . الانعام ١١٨-١١٩

وقد احتوت كما هو واضح أمراً في الأكل مما ذكر اسم الله عليه واستنكاراً للامتناع أو التردد في ذلك . ويلهم هذا ان المسلمين في بدء الأمر ـ وسورة الانعام مما نزل مبكراً بعض الشيء ـ تحرجوا من أكل مايذكر اسم الله عليه واعتبروا أن الذبحة تصبح بذلك لله وأن أكلها يغدو حراماً عليهم على ما كانت عليه عاداتهم من عدم اكل القرابين التي تذبح لله أو الآلهة مما ذكرناه في فصل الحج ، فاقتضت

الحكمة هذا الاسلوب ثم اتبعت الآيتان بالآية ١٢١ التي جاءت حاسمة تحتوي تشريع عدم اكل أي ذبيحة لايذكر عليها اسم الله . ومع هذا فيبدو أن أثر العاده الجاهلية ظل قائماً بعض الشيء بالنسبة لأكل مايموت نطحاً أو وقذاً أو سقوطاً أو خنقاً أو نهشاً أو بصيد الجوارح فاقتضت الحكمة نزول آية المائدة (٣) التي شرطت لأكل الحيوانات في الحالات الخمس الاولى ان تذبح ويذكر اسم الله عليها إذا كان فيها رمق بعد حلول ماحل فيها من سبب الموت ، ونزول آية بعدها تشترط لأكل الصيد الذي تصطاده الجوارح المعلمة أن يذكر اسم الله عند اطلاقها وهي هذه :

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ... المائدة ٤

— ١٣ —

ثامناً عادات متنوعة في التحليل والتحريم في الأنعام .

وفي القرآن آيات عديدة يستدل منها على أنه كان للعرب قبل البعثة في بيئة النبي (ص) عادات متنوعة في تحليل الأنعام وتحريمها عليها صبغة دينية .

فأولاً اشير في آية في سورة المائدة إلى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وهي:

« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لايعقلون ... المائدة ١٠٣

وأشير في آية فى سورة الأنعام الى تحريم أكل بعض الأنعام واستعمال ظهورها ولهذا صلة بما جاء في آية المائدة وهذه هي :

« وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرّمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ... الأنعام ١٣٨

وقد ذكر المفسرون وكتب السيرة روايات عديدة في صدد تفسير هذه التحريمات واخبارها ونرسم في مايلي صورة لاتخرج في جوهرها عما جاء في تلك الروايات على اختلافها :

١ — إنهم كانوا يشقون أذن الناقة التي تنتج خمسة بطون ويخلون سبيلها كأنما

هم يعتقونها شكراً للآلهة ، فلا يركبونها ولا يحملونها ولا يجزّون وبرها ولا يمنعونها من كلأ وماء ولا يذبحونها ويخصصون ألبانها للضيوف ويسمونها «البحيرة» اشتقاقاً من بَحَرَ بمعنى شق الأذن .

٢ — إنهم كانوا اذا مرض لهم مريض او عنت لهم أمنية او طال عليهم غائب نذروا ان يعتقوا ناقة من نياقهم يعينونها ، فاذا شفي المريض او تحققت الأمنيه او عاد الغائب « سابوا » الناقة المنذورة ، وأعفوها من الركوب والحمل والذبح وجز الوبر ولم يمنعوها من كلأ ولا ماء وسموها « السائبة » .

٣ — إنهم كانوا اذا ولدت الشاة انثى كانت لهم فلا يصح عليها ذبح ولاقربان ، واذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم وهو الذي يذبح ويقرب الآلهة ؛ فاذا ولدت ذكراً وأنثى في بطن واحد كانت حالة الذكر كحالة الأنثى لايصح عليه ذبح ولا قربان وقالوا إن الأخت وصلت أخاها أي صانت دمه وسموها « الوصيلة » .

٤ — إنهم كانوا اذا أنتج الفحل عشرة بطون أعتقوه الآلهة وحرموا ظهره ولحمه وتركوه يرعى ويرد الماء كما يشاء ولا يمنعه من ذلك مانع وسموه « حامياً » أي انه حمى نفسه .

وآية المائدة صريحة بأنهم كانوا يفعلون ذلك كتقليد ديني تحقيقاً لرغبة الآلهة وأوامرها المتوارثة فسفهت عملهم ، وقررت إنما يفترون في ذلك على الله .

ثانياً في آية في سورة الأنعام أشير الى ما كانوا يخصصونه من الأنصبة لله ولشركائهم في زروعهم وأنعامهم وهي :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . . .

الأنعام ١٣٦

وظاهر من الآية انهم كانوا يحابون بين الله وشركائهم وبكلمة ثانية كانوا يرون شركاءهم أشد قرباً اليهم واختصاصاً بهم . وقد جاء في بعض كتب التفسير(١) في صدد تفسير الآية انهم كانوا يصرفون ما يجعلونه لله على الضيوف ، والفقراء وينفقون

(١) الخازن والنسفي والبيضاوي في تفسير الآية :

مايجعلونه للشركاء على الاوثان وخدمتها ، فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الاوثان تركوه وقالوا إن الله غني عنه ، وإن سقط شيء من نصيب الاوثان في ما جعلوه لله ردوه اليه وقالوا إنها في حاجة اليه ، وكان اذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به ، واذا كان الهالك او الناقص من نصيب شركائهم عوضوه مما جعلوه لله ؛ وكانوا كذلك اذا رأوا ماجعلوه لله زاكياً نامياً رجعوا فجعلوه لشركائهم وبادلوا بينه وبين ما كان للشركاء وقالوا إن الله غني عنه .

ثالثاً وفي سورة الانعام آية أشير فيها الى ما كان من اختصاصهم الذكور دون النساء بما في بطون الانعام وهي هذه :

وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ... الانعام ١٣٩

وقد ذكر المفسرون أن هذا التحريم في صدد الاكل . والذي يتبادر لنا انهم كانوا ينذرون تخصيص ما في بطون الانعام للذكور قبل ولادتها فاذا ولدت حياً اعتبروا ان تحقيق النذر قد وقع كاعلان لرضاء الله عنه فحرموا اكل المولود على الاناث ، واذا ولدت ميتاً اعتبروا أن الله لم يرض عن نذرهم فأكلوا الميتة هم والنساء معاً . وكذلك يخيل لنا أن هذا كان وسيلة من وسائل حرمان المرأة من حقوقها المادية في ما بلد حياً بطريق النذر والتحريم المصبوغة بالصبغة الدينية .

رابعاً وفي سورة الانعام ايضاً آيات أشير فيها إلى تحريم ما في بطون الانعام قبل الولادة تحكماً وهي :

ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آالذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه ارحام الانثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آالذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... ١٤٣—١٤٤

وظاهر من هذه الآيات[1] أنهم كانوا ينذرون تحريم اكل ما في بطون الانعام

---

(١) اقرأ تفسيرها في تفسيرنا « التفسير القويم »

من ذكور او أناث قبل الولادة تحكما ، ويصبغون نذرهم هذا بصبغة دينية . ويخيل لنا أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى ذكور نذروا جعل ما يولد ذكراً لله فلا يذبحونه إلا له ويحرمون على أنفسهم اكله ، وإذا احتاجوا الى اناث فعلوا مثل ذلك تقرباًلله حتى يجعل الحمل كما يريدون ؛ فاذا جاء الحمل كما نذروا اعتبروا ذلك اعلانا من الله عن رضائه عن نذرهم .

خامساً وفي آية الأنعام ١٣٨التي نقلناها قبل اشارة إلى نوع آخر من النذور العربية قبل الاسلام حيث كانوا يخصون انعاماً او زروعاً بعينها لاناس باعيانهم ويعلنون انها نذرمحجورعليهم لا يحل لغيرهم اكلها .

ونضيف إلى ما شرحناه من هذه الآيات ان في الآيات التي جاءت بعد الآيتين ١٤٣—١٤٤من سورة الانعام وكذلك في بعض آيات النحل تكملة لهذه السور ؛ وإليك اولاً الآيات :

١ — قل لا أجد في ما أوحيَ الى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فأنه رجس أوفسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم ، وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما او الحوايا أو مااختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون . فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولايرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن انتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلاتشهدمعهم ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ... الأنعام ١٤٥—١٥٠

٢ — ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم . وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون ... النحل ١١٦—١١٨

فهذه الآيات يمكن ان تلهم اولا ان العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون أنهم في ما يحلونه ويحرمونه إنما هم منفذون لمشيئة الله واوامره ، وقد جادلوا النبي (ص) في ذلك قائلين ان الله لو لم يكن آمراً بما يفعلون او راضياً عنه لكان صرفهم وصرف آباءهم عنه . وثانياً انهم كانوا يبررون عملهم بما عند اليهود من تحليل وتحريم في بعض انواع الطعام واللحوم والشحوم . فرد عليهم القرآن بان الله لم يحرم الاما كان نجساً كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير او فسقاً وشركاً وهو المذبوح لغير الله او المذكور عليه غير الله ؛ وان ما حرم على اليهود إنما حرم عقوبة وانتقاماً من الله على بغيهم وليس لأنه نجس او فسق في اصله . ومكية الآيات تقوى الاستلهام بان هذا الحجاج والاحتجاج باليهود كان بين العرب والنبي (ص) .

— ١٤ —

تاسعاً العادات والهواجس النفسانية .

وفي القرآن آيات فيها إشارات إلى عادات او هواجس نفسانية مصبوغة بصبغة دينية ما كانت عند العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة .

منها الاستقسام بالأزلام . فقد أشير إلى ذلك في آيتين هما :

١ — وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ... المائدة ٣

٢ — يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ... المائدة ٩٠

وموضوع البحث هنا هو ما احتوته الآية الثانية ، لأننا رجحنا في مناسبة سابقة ان العبارة فى الآية الاولى في صدد تحريم ما يذبح على سبيل الميسر وشرحنا هذه العادة في الباب الاول .

والاستقسام هو طلب معرفة المقسوم للمرء والاستخارة في أمر من الأمور . والأزلام هي السهام التي كانت تستعمل في الاستخارة .

وقد جاء في تفسير الخازن في سياق تفسير آية المائدة الاولى انه كان لهم سبع قداح مكتوب على احدها « امرني ربي » وعلى ثانيها « نهاني ربي » وعلى ثالثها

« منكم » وعلى رابعها « ملصق » وعلى خامسها « من غيركم » وعلى سادسها « العقل » وسابعها غفل لا كتابة عليه . فكانوا إذا ارادوا سفراً او تجارة ، أو اختلفوا في نسب او قتيل او حمل دية او غير ذلك من الامور المماثلة جاؤوا إلى هبل وكان اعظم اصنام قريش واعطوا مأة درهم الى صاحب القداح فاجالها اي خلطها ثم استخرج واحداً منها فان خرج « امرني ربي » فعلوا الأمر الذي استخاروا فيه وان خرج « نهاني ربي » لم يفعلوه . وان كانت الاستخارة في نسب وخرج « منكم » الحقوه بهم وإن خرج « من غيركم » اخرجوه منهم ، وان خرج « ملصق » كان النسب المدعي به افتراء ، وان كانت الاستخارة في العقل وخرج « العقل » تحملوه . وهذا الذي ذكره الخازن مؤيد بروايات قديمة على اختلاف في التفصيل لا يخرج في جوهره عما لخصناه . وواضح من هذا ان هذه العادة ذات صبغة دينية ؛ إذ كانوا يجيلون الأزلام عند أصنامهم كأنهم يستشيرونها ويستخيرونها ، ويطلبون منها بيان ما هو مقسوم لهم وفيه الخير والبركة ، وحينما تظهر النتيجة يعتبرونها حكم الآلهة او رأيهم وقسمهم ، وهذا سبب التشديد في حظر هذه العادة وسلكها في سلك الشرك كما هو المتبادر .

- ١٥ -

ومنها الطيرة او التطير . ولقد ذكر التطير في بضع آيات في سياق قصص الأنبياء كما نرى في ما يلي :

١ - فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ... الأعراف ١٣١

٢ - قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون . النمل ٤٧

٣ - قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم . ياسين ١٨

والآيات وان لم تكن في صدد وجود هذه الهاجسة عند العرب فان ورود الكلمة الدالة عليها من جهة وروحها من جهة اخرى يدلان على ان مفهومها كان معروفاً عندهم . ومع ذلك فقد ورد في القرآن آيه تحكي اقوال بعض المنافقين للنبي (ص) وتحتوى هذا المعنى وهي :

«وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئـة يقولوا هذه من عندك ...» النساء ٧٨

وقد قال المفسرون (١) في تفسير آيتي الاعراف والنمل أن الطيرة او التطير مشتق من « الطائر » وانها تعني في الآيتين التشاؤم ، وان من عادة العرب أن يتفاءلوا ويتشاءموا من مرور الطائر ازاءهم ، فاذا خرجوا لسفر او عزموا على أمر ومر طائر عن يمينهم تفاءلوا وأتموا سفرهم او عزمهم ويسمونه « سانحاً » ؛ وإذا مر عن شمالهم تشاءموا وعدلوا عن سفرهم او عزمهم ويسمونه « بارحاً » . ولعلهم كانوا يعتبرون مرور الطائر اعلاناً من الآلهة لرضائهم او عدمه عما اعتزموا .

وفي العقد الفريد (٢) حديث مروى عن النبي (ص) جاء فيه من رأى من الطير شيئاً يكرهه فقال اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك لم يضره» وفي تفسير الخازن (٣) حديث نبوي آخر جاء فيه « العيافة والطيرة والطرق (٤) من الجبت » والجبت هو الشرك . فهذان الحديثان يؤيدان ما قلناه من وجود هذه العادة عند العرب قبل البعثة ؛ فضلا عن ما ورد في الكتب العربية من روايات واخبار عنها .

- ١٦ -

ومنها التعاويذ والرقى ، والطب الروحاني . فقد ورد في القرآن بضع آيات أمرت بالاستعاذة من شر الشيطان وهمزاته والحساد وظلمات الليل والنفاثات في العقد كما ترى فيما يلي :

١ — وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون. المؤمنون ٩٧—٩٨

٢ — قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب .

---

(١) الطبرسي والزمخشري .

(٢) ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) في سياق تفسير آيتي النساء ٦٠ و٧٦ .

(٤) العيافة = نوع من كشف الغيب . الطرق = مثله .

ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد ... سورة الفلق

٣ — قل اعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس ... سورة الناس

وهذه الآيات وإن لم تكن هي الاخرى في صدد تقرير ماجعلناه عنواناً للفقرة قبل البعثة فانها تلهم ان مراميها بعث الطمأنينة في النفس بعد استعاذة المستعيذ بالله من الشرور الخفية ؛ وهذا يمت الى ذلك العنوان كما هو واضح ، ويسوغ القول بان أهل بيئة النبي (ص) الذين كانوا أول من سمع الآيات ليسوا بعيدين عن مفهومها ودلالتها .

وفي سورة التوبة آية تشير الى ماتحدثه صلوات النبي (ص) أي دعواته من سكينة نفسية وهي :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم ... التوبة ١٠٣

وهذا يمت الى العنوان بشيء من السبب كما هو المتبادر .

على أنه يوجد في كتب التفسير وغيرها مايمكن الاستئناس به في تقوية القرائن القرآنية . ففي الطبرسي في تفسير سورة الفلق إنه أريد بالاستعاذة من شر الحاسد شر نفسه وشر عينه فأنه ربما أصاب بها فعاب وضر ، وانه قد جاء في حديث نبوي «أن العين حق» وان النبي (ص) كثيراً ما كان يعوذ الحسن والحسين (رض) بالموذتين ، وفيه كذلك صيغة رقية منسوبة الى جبريل ومروية عن عائشة وابن عباس (رضي) هذا نصها :

« باسم الله أرقيك . من كل شر يؤذيك . من حاسد وعين الله تعالى يشفيك »

وفي العقد الفريد (١) حديث نبوي مروي عن أنس بن مالك (رضي) جاء فيه أنه« من قال إذا أمسى واصبح اعوذ بكلمات الله التامات المباركات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر من شر ماينزل من السماء ومن شر مايعرج فيها ومن شر ماذرأ في الأرض

---

(١) ج ٢ ص ١٥٥ و ج ٤ ص ٢٩٤—٢٩٥ والحديث المروي في الجزء الثاني مروي في الجزء الرابع في قصة عن خالد بن الوليد (رضي) .

ومن شر مايخرج منها لم يضره شيء من الشياطين والهوام» .

وفي أسد الغابة [١] في ترجمة عمرو بن حبه الصحابي (رضي) انه كان يرقى من الحية وانه جاء الى النبي (ص) وسأله عن ذلك فقال له وما تقول ، فلما سمع منه قال لابأس بهذه هذه مواثيق ؛ وانه جاءه رجل آخر من الأنصار فقال يارسول الله إني أرقى من العقرب فقال النبي (ص) من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل .

وفي مسند ابن أبي شيبة على ماجاء في العقد الفريد [٢] حديث نبوي جاء فيه «لارقية الا من عين او حمة والحمة السم» وكذلك في العقد [٣] خبر مفاده ان ابا بكر (رضي) دخل على عائشة (ص) وهي مريضة وعندها يهودية ترقيها فقال لها ارقيها بكتاب الله .

كذلك فان الأحاديث والأخبار الواردة في نفع الآيات والسور القرآنية في شفاء الأمراض وازالة قلق النفس واضطرابها وسكونها بسبب مايكون طرأ عليها من خوف وهياج في حالة حملها وتلاوتها والرقية بها كثيرة استفاضت في كتب التفسير والحديث ؛ فكل هذا يحتمل ان لم نقل يرجح ان يكون استمراراً لعادات كانت قبل البعثة . والمعقول أن الرقى والتعاويذ اذ ذاك كانت تمت بسبب الى الوثنية والارواح الخفية والجان حيث كان يعتقد بمسهم وبنفع الاستعاذة بهم ، فقلبها الاسلام الى الاستشفاء بالقرآن والاستعاذة بالله تعالى .

-١٧-

ومنها الأحلام وتعبيرها : فقد ورد في القرآن آيات عديدة حول ذلك . منها ماورد في صدد قصة ابراهيم (ص) وولده الذبيح كما ترى :

« فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين.

---

(١) ج ٤ ص ١٠١ وفي أسد الغابة كذلك ج ٤ ص ١٧٣ في ترجمة فاتك بن عمرو انه كان يرقي من العين وانه عرض رقيته على النبي (ص) فأذن له ودعا له بالبركة.

(٢) ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٣) ج ٤ ص ٢٩٥ .

ونادیناه أن یا ابراهیم قد صدّقت الرؤیا انا کذلك نجزي المحسنین. الصافات ۱۰۲-۱۰۵

ومنها ماورد في قصة یوسف کما ترى :

١ – إذ قال یوسف لابیه یا أبت إني رأیت احد عشر کوکباً والشمس والقمر رأیتهم لي ساجدین ...

یوسف ٤

٢ – وکذلك یجتبیك ربك ویعلمك من تأویل الاحادیث ویتم نعمته علیك وعلى آل یعقوب

یوسف ٦

٣ – ودخل معه السجن فتیان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأکل الطیر منه نبئنا بتأویله إنا نراك من المحسنین ...

یوسف ٣٦

٤ – یاصاحبي السجن أما أحدکما فیسقي ربه خمراً وأما الآخر فیصلب فتأکل الطیر من رأسه قضي الامر الذي فیه تستفتیان ...

یوسف ٤١

٥ – وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان یأکلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر یابسات یاأیها الملأ افتوني في رؤیاي إن کنتم للرأى تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأویل الاحلام بعالمین ...

یوسف ٤٣–٤٤

٦ – یوسف أیها الصدیق أفتنا في سبع بقرات سمان یأکلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر یابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم یعلمون . قال تزرعون سبع سنین دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قلیلاً مما تأکلون . ثم یأتي من بعد ذلك سبع شداد یأکلن ماقدمتم لهن إلا قلیلاً مما تحصنون . ثم یأتي من بعد ذلك عام فیه یغاث الناس وفیه یعصرون ...

یوسف ٤٦–٤٩

٧ – ورفع أبویه على العرش وخروا له سجداً وقال یاأبت هذا تأویل رؤیاي من قبل قد جعلها ربي حقاً ...

یوسف ١٠٠

ومنها ماورد عن رؤیا النبي (ص) دخوله المسجد الحرام قبل الفتح کما ترى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤیا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنین محلقین رؤوسکم ومقصرین لاتخافون ...

الفتح ٢٧

ومنها ماورد عن رؤیا النبي (ص) العدو في وقعة بدر کما ترى :

« إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ... » الانفال ٤٣

فهذه الآيات تقرر حقيقة عامة ومعروفة في كل وقت ومكان ، وهي رؤية الناس الأحلام في منامهم وما يمكن أن تحدثه في النفوس احيـاناً كثيرة من هواجس تجعلهم يفكرون في تأويلها ، والرجوع الى من عندهم مواهب خاصة في تعبير الرؤيا . ينشدون عندهم طمأنينة النفس وراحة البال .

وطبيعي أن لا يكون العرب قبل البعثة بدعاً في هذا. واسلوب الآيات التقريري يمكن ان يعد من ناحية نطاق الكتاب قرائن قرآنية على ما كان عند العرب قبل البعثة من مفهوم للأحلام واثرها في النفوس وتأويلها وصلة ذلك بالهواجس النفسانية؛ تمشياً مع الحقيقة ان ماورد في القرآن من عبارات ومصطلحات ومفهومات قد كان مما يدخل في نطاق مفهومات العرب قبل نزوله .

اما كتب الأخبار والسيرة ففيها الكثير عن الأحلام وما كانت تحدثه من قلق واضطراب في العرب قبل البعثة ولاسيما في نفوس العظماء ، وكيف كانوا يفزعون الى الكهان والعرّافين يقصون عليهم رؤاهم ، ويسألونهم تأويلها ، نشداناً للطمأنينة ودفعاً للهواجس والبلابل التي تتسلط عليهم منها. ومهما كان من أمر هذه الروايات بالذات فأنه لا يمكن المماراة في الصورة العامة التي تصورها وهي فزع العرب من الأحلام وقلقهم ورجوعهم الى الكهـان والعرافين لتعبيرها طلباً للهدو والطمأنينة النفسية . ولقد وردت بعض الروايات التي تقص أن بعض الناس قبل البعثة كانوا يرون الرؤيا احياناً الهاماً إلهياً واجب التنفيذ كقصة عبد المطلب بحفر زمزم اولاً وبوفاء نذره بذبح ابنه ثانياً ؛ وهذه القصة تشبه اعتبار ابراهيم (ص) رؤياه الهاماً او أمراً ربانياً .

ويحسن التنبيه على نقطة مهمة في هذا الباب ، وهي مايلحظ من فرق بين لفظي «الرؤيا» و« الأحلام » حيث يمكن أن يلمس منه ان العرب كانوا يطلقون « الرؤيا » على ما يثير هواجس النفس وما يرونه في حاجة الى تعبير دون « الحلم » الذي يطلقونه على الرؤيا العادية المشوشة التي يرونها أضغاثاً ويسمونها بأضغاث الأحلام

كما جاء في آية سورة يوسف (٤٤) . ولعلهم كانوا يطلقون « الرؤيا » على ما يبقى واضح الاثر والمعالم في الذهن والنفس ، فيرون أنه لابد من أنه يمثل حقيقة من الحقائق المغيبة مما لا يكون عادة في جميع الرؤيا والأحلام .

وقد كان مناوئوا النبي (ص) ينعتون ما كان يخبر به من رؤية ملك الله واتصاله به والقاء القرآن علية بأضغاث الاحلام كما جاء في آية سورة الانبياء : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ... «٥» إيغالاً في التكذيب ووصف كون ما يراه هو من نوع الأحلام المشوشة المخلّطة .

— ١٨ —

ونريد أن نختم ابحاث هذا الباب بدرس ما كان في ذهن العرب قبل البعثة عن « النفس » و « الروح » ؛ فان هذين الموضوعين يتصلان بالعقائد اكثر منها بالعلوم والمعارف ؛ وخاصة في عهد ما قبل البعثة .

وسيكون عمادنا في هذا الدرس استعمال الكلمتين في القرآن وما يمكن ان تدلا عليه من دلالات ومدى ؛ تمشياً مع ماقررناه من ان مافي القرآن من دلالات الكلام والالفاظ ومصطلحاتها قد كان مفهوماً على الوجه الذي جاء به في القرآن قبل نزوله .

— ١٩ —

فأولاً النفس

ان في القرآن آيات كثيرة جداً ذكرت فيها كلمة النفس في مواضع ومناسبات ودلالات متنوعة . فمنها ما جاء مرادفاً لكلمة شخص او فرد كما ترى في ما يلي :

١ — واتّقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً .. البقرة ٤٨

٢ — واذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ... البقرة ٧٢

ومنها ماجاء مرادفاً لمعنى ذات الأنسان وعينه وشخصه كما ترى في مايلي :

١ — قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ... الأعراف ١٨٨

٢ — قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فانما يضل عليها ... يونس ١٠٨

ومنها ماجاء بمعنى القوة الكامنة في الانسان التي تأمره بالعمل وخاصة بعمل السوء كي ترى في ما يلي :

١ — فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين .. المائدة ٣٠

٢ — قال بل سولت لكم أنفسكم امراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ... يوسف ١٨

٣ — وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي... يوسف ٥٣

ومنها ماجاء بمعنى شخصية الانسان الباطنة كي ترى فيما يلي :

«تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك إنك أنت علام الغيوب ... المائدة ١١٦

ومنها ما جاء بمعنى حياة الانسان كما ترى فيما يلي :

«إنما يريد الله أن يعذبهم في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ... التوبة ٨٥

ومنها ما جاء بمعنى القوة التي تكسب الخير والشر كما ترى فيما يلي :

١ — لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت... البقرة ٢٨٦

٢ — ولو ان لكل نفس ظلمت مافي الارض لافتدت به ... يونس ٥٤

ومنها ما جاء بمعنى القوة المعدة لتلقى الالهام كما ترى فيما يلي :

١ — ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... السجدة ١٣

٢ — ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ... الشمس ٧ — ٨

ومنها مايلهم انـه بمعنى الضمير الذي يلوم صاحبـه على الاعمال السيئة كما ترى فيما يلي :

« لاأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ... القيامة ١-٢

ومنها مايلهم انه يحمل دلالة التفريق بين النفس وصاحبها كأنهما شيئان متلازمان ولكن لكل منها وجود خاص ، وكل منها مستقل في ماهيته واثره عن الآخر كما ترى في مايلي :

١ — علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ... البقرة ١٨٧

٢ — والذين إذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم .... آل عمران ١٣٥

٣ — انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون. الانعام ٣٤

٤ — اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ... الاسراء ١٤

وفي احدى الآيات ذكرت الكلمة بمعنى الروح التي بها قوام الحياة والتي تنفصل عن الجسم فيكون الموت أو النوم (١) كما ترى فيها :

« الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. الزمر ٤٢

ونريد أن نقيد ان في بعض المعاني التي أشرنا اليها مصنفة بعض التدخل والتوسع، غير أننا لم نر مندوحة عن هذا التصنيف لاننا رأينا في دلالات الآيات مايساعد عليه.

واذا كانت الآيات بجملتها وبعموم المعاني التي تدل عليها الكلمة لاتساعد على تصوير مافي ذهن العرب عن ماهية النفس تصويراً واضحاً وحاسماً وخاصة وقد جاءت بمعان كثيرة، فان الانسان الذي يتمعن في مدى الآيات روحاً ومضموناً على اختلاف ما احتوته من معان ودلالات يلمس بوجه عام وحدة في الدلالة على أن النفس قوة متصلة بالجسم ولكنها شيء آخر عنه ؛ وما جاء في معاني « القوة الملهمة والقوة الملهَمة والقوة الداخلية والقوة الكامنة والقوة اللوامة والقوة الأمارة والقوة الكاسبة وما جاء يحمل الدلالة على التفريق بين الناس وصاحبها ، ومـا جاء في معنى الروح وانفصالها عن الجسم وحصول الموت والنوم بهذا الانفصال يقوي ذلك الملموس ، ويسوغ القول بأن ذهنية العرب قبل البعثة عن « النفس » ودلالتها ذهنية الذي يفرق بين النفس وصاحبها ، والذي يعتبر ان النفس قوة خاصة في الانسان ومستقلة عن جسمه المادي؛ تلهمه وتزين له عمله ، وانها قد تكون دافعة الى الخير كما تكون دافعة الى الشر ، وانها هي التي تتقبل الالهام ، وتسير صاحبها حسب استعداده ، ثم إنها هي التي يكون بها قوام الحياة الانسانية وقوام الكيان والادراك الانساني .

وننبه على ان هذا الشرح انما هو في الحقيقة مايتبادر انه مافي ذهن العرب عن وجود النفس وأثرها ، وليس هو بسبيل وصف ماهيتها ؛ فانه ليس في القرآن مايساعد على معرفة مدى ماهيتها في ذهنهم .

---

(١) اقرأ تفسير الآية في الطبرسي مثلاً .

وثانياً الروح :

كذلك في القرآن آيات عديدة ذكرت فيها كلمة « الروح » باساليب ومواضيع متنوعة .

منها ماجاء في تسمية او وصف جبريل عظيم الملائكة على ماذهب اليه جمهور المفسرين كما ترى في ما يلي :

١ ــ « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا . النحل ١٠٢

٢ ــ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً ... مريم ١٧ - ١٩

٣ ــ نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين ...
الشعراء ١٩٢ - ١٩٣

٤ ــ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ... النبأ ٣٨

ومنها ما جاء بمعنى أمر الله ووحيه كما ترى في ما يلي :

١ ــ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ... النحل ٢

٢ ــ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ... غافر ١٥

٣ ــ وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ... الشورى ٥٢

ومنها ما جاء بمعنى نصر الله وتأييده كما ترى فيما يلي :

اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ... المجادلة ٢٢

ومنها ما جاء بمعنى نسمة الحياة التي يبثها الله في الاحياء وبثها الله في آدم ومريم كي ترى في ما يلي :

١ – فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا لهساجدين ... الحجر ٢٩

٢ – والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ... الأنبياء ٩١

ومنها ما جاء اجابة على سؤال اورد على النبي (ص) عن ماهية الروح كما ترى في ما يلي :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ... الاسراء ٨٥

والآيات الواردة في الفقرتين الاولين ليست كما هو واضح في صدد الروح التي جرى العرف على انها هي التي تحقق بها حياة الانسان او الاحياء ، وانما هي في صدد الدلالة على ملك الله ووحيه ؛ وكلاهما من باب واحد ؛ وبناء على ما قررناه في مناسبة سابقة في صدد تعبير « روح القدس » يصح ان نقول هنا مع كون هذا التعبير مترجماً عن النصرانية فان العرب في بيئة النبي (ص) قبل البعثة كانوا على الارجح يفهمون الدلالات التي جاءت في الآيات .

كذلك آية المجادلة الواردة في الفقرة الثالثة فانها ليست في صدد روح الحياة ؛ ونرجح ان العرب كانوا كذلك يفهمون الدلالة التي جاءت فيها .

اما الآيات الواردة في الفقرتين الرابعة والخامسة فهي التي في صدر روح الحياة التي هي جوهر البحث هنا . ومن الحق ان نقول انه ليس فيها ما يساعد على فهم ما في ذهن العرب عن هذه الروح ؛ غير أن آية الاسراء بنوع خاص تصور حيرتهم التي شاركهم فيها غيرهم دائماً في هذه «الروح» اولاً ،وتساعد على القول إنها كانت من الأمور التي يسلمون بوجودها على حيرة من أمرها وصفتها وماهيتها ثانياً . ولعل آيتي الحجر والانبياء قد تلهمان ان العرب كانوا يفهمون دلالة «غير المادية» في الكلمة، وانها تطرأ على الجسم المادي الذي لاحياة فيه فتدب فيه الحياة ؛ وفي آية الزمر (٤٣) التي نقلناها في بحث النفس والتي جاءت فيها كلمة النفس مقابل معنى الروح التي بها قوام الحياة واليقظة قرينة مؤيدة بشكل ما ؛ حيث تضمنت معنى انفصال الروح

عن الجسد وعودتها اليه فيكون من الانفصال الموت والنوم ومن الاتصال الحياة واليقظة . وليس في هذا على كل حال صلة بالماهية التي حار بها العرب وصورسؤالهم عنها حيرتهم .

هذا من جهة دلالة الكلمة ومافي ذهن العرب عنها. غير ان هناك نقطة جديرة بالبحث وهي ما اذا كان العرب تصوروا للروح خلوداً بعد تسليمهم بوجودها واثرها وصلتها بالحياة والموت واليقظة والنوم ، واستقلالها عن الجسم وعدم ماديتها .

ومن الحق ان نقول انه ليس في القرآن ما يساعد على الأجابة ايجاباً على هذا السؤال ، ونذكر هنا بما اوردناه في الفصل الخامس من هذا الباب من نصوص كثيرة ونبهنا على ما في القرآن من نصوص كثيرة اخرى تحكي عنهم او بالأحرى عن اكثريتهم العظمى استنكار عقيدة البعث بعد الموت ، وعدم اساغتهم ذلك في حال . وقد تحفظنا فقلنا اكثريتهم العظمى لأننا نرجح ان فريقاً منهم وخاصة فئة الموحدين واتباع ملة ابراهيم ، والمستنيرين الذين احتكوا بالكتابيين كانوا يعتقدون بخلود الروح على النحو الذي كان عند الكتابيين ، وان اندماج الفريق المستنير المناوىء للنبي (ص) في الاستنكار وعدم الاساغة انما كان لأن العقيدة عند الكتابيين لم تكن واضحة ، وما جاء من اوصاف الحياه الاخروية المفصلة في القرآن قد جاء جديداً عليهم انفسهم .

على ان من الحق كذلك ان نقول انه من غير المعقول ان يكون العرب ونعني اكثريتهم العظمى تلك قد سلموا واقروا بعدم مادية الروح ، وبأثرها السلبي والايجابي في الحياه،وبأنفصالها واتصالها المتكررين بالجسد ولايكونون قدتصوروا خلودها بشكل ما . واذا كان ليس في القرآن ما يمكن ان يساعد على هذا بصراحة فأن في الاخبار والروايات الكثيرة المتنوعة ما يمكن الاستئناس به على ذلك . فلقد كانوا يشيعون موتاهم الى المقابر ويزورون قبورهم ويرشون ترابها بالماء ويجلسون عندها ، ويناجون موتاهم ، ويرونهم في المنام فتحدث رؤياهم في نفوسهم الاضطراب والحيرة ، ويعقرون النياق عند قبورهم يوم إعدادها لركوبهم حينما تعود اليهم

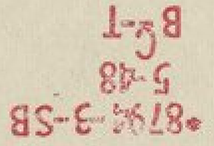
ارواحهم ، ويهتمون أعظم اهتمام لأخذ ثار قتلاهم واسكات هاماتهم التي تظل تصرخ طالبة السقيا مادام دم أصحابها مطلولاً الى غير ذلك من الصور والاخبار المنثورة في الكتب العربية على اختلافها ، ولا تجوز اذاقلنا ـ مهما كانت المآخذ على الروايات صحيحة من حيث تدوينها وظروفها ووقائعها ـ إنها ترديد لما كانت عليه الحال ، وبصحة كونها قرائن على وجود عقيدة خلود الروح بشكل من الاشكال وعدم فنائها وانحلالها أسوة بالجسد في اذهان العرب بوجه عام قبل البعثة .

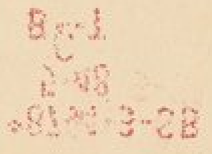


فهرست الكتاب

الصحيفة







مؤلفات المؤلف المطبوعة

— دروس في التربية النظرية تعريب عن الأفرنسية
— مختصر تاريخ العرب والاسلام جزآن
— دروس التاريخ العربي
— دروس التاريخ المتوسط والحديث
— دروس التاريخ القديم
— موجز لتاريخ حلول اوروبا في الشرق الأدنى وبواعث الحرب العالمية الأولى تعريب
— تركية الحديثة